



المغرب العربي الكبير في العصر الحديث

(ليبيا - تونس - الجزائر - المغرب)

دكتور شوقي عطا الله الجمل

الطبعة الأولى

١٩٧٧

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

محتويات الكتاب

الصفحة

الموضوع

١

مقدمة :

تمهيد : لمحة عن المغرب العربي قبل العصر الحديث (٥ - ٣٦)

١ - امتداد النفوذ الإسلامي إلى المغرب العربي ٧

٢ - الدول الإسلامية المستقلة بشمال أفريقيا: ١٢

(دولة الأغالبة - دولة الأدارسة - الدولة العبيدية -

الدولة الزييرية الصنهاجية - دولة المرابطين - الدولة

الموحدية)

٣ - تفتت وحدة المغرب العربي وقيام دول منفصلة

٣٦

في أقطاره .

الدولة الحفصية (في تونس)

الدولة المرينية (في المغرب الأقصى)

الدولة الزيانية (في المغرب الأوسط)

الباب الأول

الموضوع

اتجاه الأطماع الأجنبية إلى المغرب العربي

في بداية العصور الحديثة . . . (٣٧)

الفصل الأول : الأطماع البرتغالية ٣٩

الفصل الثاني : الأطماع الأسبانية ١٧

الفصل الثالث : الجزائر ولاية عثمانية ١٥

الفصل الرابع : تونس ولاية عثمانية ٠٧

الفصل الخامس : ليبيا ولاية عثمانية ٢٧

الباب الثاني

المغرب الأقصى منذ بداية القرن السادس عشر (٦٥)

الفصل السادس : الدولة السعدية ٦٧

الفصل السابع : الدولة العلوية ٠٩

الباب الثالث

فرنسا في المغرب العربي . . . (٢٥١)

الموضوع	الصفحة
الفصل الثامن : الإحتلال الفرنسى للجزائر . . .	٢٥٣
الفصل التاسع : فرض الحماية الفرنسية على تونس . . .	٢٨٧
الفصل العاشر : الحماية الفرنسية على المغرب الأقصى . . .	٣١٣

الباب الرابع

ليبيا والأطماع الاستعمارية (٣٦٣-٣٩٣)	
الفصل الحادى عشر : الإحتلال الإيطالى لليبيا	٣٦٥
خاتمة :	٣٩٥
ملاحق الكتاب	(٤٠١-٥٣٢)
(أ) نصوص الإتفاقات والمعاهدات الهامة	٤٠٣
(ب) جداول تاريخية للأسر الحاكمة	٤٥١
(ج) خرائط للمراحل التاريخية التى مرت بها المنطقة	٤٦٩
(د) المراجع مرتبة حسب أبواب الكتاب	٤٨٥
(هـ) فهرس أبجدية للأعلام الواردة فى الكتاب (كشاف)	٥١٩

مقدمة

يمثل المغرب الجناح الغربى للوطن العربى ، وكان لانضمام هذه البلاد إلى حظيرة الأمة العربية ولانتشار الدين الإسلامى والثقافة والدماء العربية بها فى وقت مبكر فصبغت هذه البلاد بالصبغة العربية .

إذ أن فتح مصر وانضمامها لصفوف الأمة العربية كان بشيراً بانطلاق العرب غرباً يحملون الدين الجديد والحضارة العربية بمختلف مميزاتهما إلى بلاد الشمال الأفريقى .

وهكذا أضيفت دماء جديدة وقوة جديدة جددت شباب هذه البلاد وغيرت من تاريخها وحددت مسارها على مر العصور .

وأدت بلاد المغرب العربى للإسلام خدمات جليلة ، فقد حمل سكان هذه البلاد شعلة الدين الجديد والحضارة العربية إلى قلب أفريقيا بل وإلى أوروبا . وظل المغرب العربى الظهير الذى يساند المد العربى الذى يصل إلى الأندلس ووقف عند حدود جبال البرانس — لكنه استطاع أن يستقر فى الأندلس لعدة قرون إلى أن كانت تصفية الوجود العربى بهذه البلاد فى نهاية القرن الخامس عشر (سقوط غرناطة ١٤٩٢) فأصبحت الأندلس بحق فردوس العرب المفقود ، ولا شك فى أن خروج العرب من هذا الفردوس يرتبط بالأوضاع التى آلت إليها المغرب العربى الذى كان يساند هذا الوجود إبقدر ارتباطه بأوضاع العرب فى شبه جزيرة ايبيريا نفسها وانقسامهم إلى طوائف متناحرة .

هذا على أن تاريخ المغرب منذ أن بسط العرب وجودهم فى هذه البلاد وأصبحت جزءاً من الأمة العربية — ارتبط بالتاريخ العربى كله وأثر فيه وتأثر به .

وكان لموقع المغرب العربى أثره على تاريخه أيضاً فقد أتاح موقعه البعيد عن مركز الخلافة العربية فى بغداد أو غيرها — مجالاً للعناصر المنشقة عن الخلافة

وإذا كان البرتغال والأسبان قد أفتنحوا هذه الصفحة الإستعمارية في القرن الخامس عشر بهجماتهم المتتالية على الثغور المغربية المطلة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي — فقد شهد القرن التاسع عشر موجة أخرى من هذه الموجات متمثلة في نشاط القوى البحرية والدول العظمى الأخرى التي بدأت تدخل هي الأخرى ميدان الإستعمار ، فقد تنافس الفرنسيون والإنجليز والإيطاليون والألمان على الخصوص في بسط نفوذهم على بلاد المغرب العربي .

وتاريخ المغرب العربي في هذه الفترة — فترة الصراع الإستعماري طوال خمسة قرون تقريباً (من القرن الخامس عشر حتى أوائل العشرين) هو موضوع هذا الكتاب .

وقد بدأنا بتمهيد سريع ذكرنا فيه بالأحداث السابقة المتصلة بتاريخ هذه المنطقة ، ثم انتقلنا لتتبع تاريخها وما تعرضت له من تيارات داخلية وخارجية منذ بداية القرن الخامس عشر حتى أوائل القرن العشرين .

وإعتمدنا في هذه الدراسة — قبل كل شيء — على الوثائق الأصلية من معاهدات واتفاقات ومصادر أصلية أخرى بالإضافة إلى ما كتبه الذين تناولوا تاريخ المغرب سواء أ كانوا من أبناء المغرب ذاته وهم قلة أم من الأجانب وعدد كبير منهم شاركوا في الأحداث التي تناولوها سواء كسياسيين أو سفراء لبلادهم أو كقادة عسكريين اشتركوا في معارك المغرب أو في رسم الخطط المتصلة بها . وحاولنا — قدر جهدنا — أن نستخلص الحقيقة من مناقشة مختلف هذه الآراء .

وإذا كنا قد أبرزنا حركات الكفاح الوطني البطولي التي تصدت لقوات الإستعمار حينما اتجهت لهذه البلاد — فإننا آثرنا ألا نتعرض هنا للمراحل النهائية المعاصرة لهذا الكفاح والتي أتت أكلها باستقلال هذه البلاد وتخليصها من برائن الإستعمار — إذ أن هذه الصفحات من الكفاح من الأفضل أن نخصص لها دراسة خاصة تعتبر الدراسة الحالية الأساس لها .

وقد ذيلنا هذه الدراسة يثبت بالمراجع التي رجعنا إليها مرتبة حسب أبواب وفصول الكتاب ، وبمخرائط توضيحية تمثل المراحل التاريخية المختلفة التي مرت بها المنطقة، وكذلك جداول للأمر الحاكمة، وفهارس أبجدية بالإضافة لتصوص الاتفاقات والمعاهدات الهامة الخاصة بالاحداث التي تعرضنا لها في هذه الدراسة ونرجو أن تقدم هذه الدراسة صورة واضحة لتاريخ المغرب العربي في العصر الحديث بما فيه من دروس وعبر .

واقه ولي التوفيق

سوقى المجل

الرباط في : فبراير ١٩٧٦ .

تمهيد

لمحة عن المغرب العربي قبل العصر الحديث

مباحث التمهد

أولاً : امتداد النفوذ الإسلامي إلى المغرب العربي

ثانياً : الدول الإسلامية المستقلة بالشمال الأفريقي

ثالثاً : تفتت وحدة الشمال الأفريقي وقيام دول منفصلة في أقطاره .

أولا : امتداد النفوذ الاسلامى إلى المغرب العربى

كان استيلاء المسلمين على مصر (٦٤١ م) إيذانا بامتداد سلطانهم غربا صوب الشمال الأفريقى فتوالت حملاتهم على هذه البلاد حتى دخل الشمال الأفريقى كله فى كنف الدولة العربية العظيمة .

وسنمر سريعا بالأحداث التى انتهت بهذا العمل الذى قربت عليه أن صبح الشمال الأفريقى كله بالصبغة العربية وأصبح يمثل الجناح الغربى فى جسم العالم العربى المتكامل — للتذكير بهذه الأحداث الهامة السابقة لموضوع دراستنا .

ففى عهد الخليفة (عثمان بن عفان) أرسلت حملة بقيادة (عبد الله بن سعد بن أبى السرح) عامل مصر فى ذلك الوقت فاستطاعت أن توقع الهزيمة بجيوش (قرطاج) وتم الصلح بين الطرفين بعد أن غنم المسلمون غنائم كثيرة .

وفى خلافة (معاوية بن أبى سفيان) جهز جيشا ضخما من عشرة آلاف مقاتل التقى بالبربر والبيزنطيين وتوغل الجيش الإسلامى فى تونس .

وفى عام (٦٦٦ م) أعطيت قيادة الجيش العربى فى الشمال الأفريقى (لعقبة بن نافع الفهري)^(١) كان ذلك فى سنة (٥٠ هـ) فبنى مدينة القيروان فى قلب البلاد التونسية وذلك لطبع الفتح العربى بطابع الاستقرار ، فكانت هذه هى الخطوة الأولى نحو ظهور ولاية اسلامية بهذه البلاد^(٢) .

وقد أحاط عقبة مدينته هذه بسور بسيط وجعل فى وسطها الجامع الذى نسب إليه وابتقى بها دار الإمارة ، ولكن الخليفة استدعاه إلى المشرق .

(١) ولد عقبة فى أوائل الهجرة النبوية فهدى بذاك صعاين المولد وقد تولى إمارة جيش افريقية مرتين كما سنذكر .

(٢) القيروان : لفظ فارسى ، دخل فى العربية ومعناه عط الجيش ومناخ القافلة ووضع اجتماع الناس فى الحرب .

وفي خلافة (يزيد بن معاوية) أعيد (عقبة بن نافع) مرة أخرى سنة (٦٨١) لامارة أفريقية ، فتدارك أمر القيروان بعد أن كان قد أصابها الإهمال ثم استخلف عليها (زهير بن قيس اليلوي) وخرج عقبة بجندة يقصد الاستيلاء على الشمال الأفريقي كله وضمه لحوزة العرب ، فسار إلى (الزاب) وخرج على (تلسان) واتجه صوب المغرب الأقصى فاستولى على (طنجة) واستسلم له أميرها (يوليان) الروماني^(١) . وتقدم عقبة في بلاد المغرب فوصل إلى (السوس الأدنى) و (السوس الأقصى) وانتهى إلى مدينة (اسفي) ووصل إلى المحيط الأطلسي وأدخل معه فرسه حتى بلغ الماء لب الفرس وشهر سيفه ، ورفع بصره إلى السماء وهو يقول : اللهم لولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل الكفر حتى لا يعبد أحد سواك . . وهكذا خضع الشمال الأفريقي كله للدولة الأموية وانتشر الإسلام في ربوعه^(٢) لكن في أثناء عودة عقبة — وكانت جيوشه قد سبقته فام يبق معه من رجاله سوى الثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين — ثار عليهم البيزنطيون والبربر وعلى رأسهم زعيمهم (كسيله) وقاتل عقبة ورجاله قتال الأبطال ، ولكن تكاثر عليهم أعداؤهم وقتلوه عند مدينة (تهودة) بالقرب من مدينة بسكرة وكان ذلك في عام (٦٨٢ م) ودفن عقبة هناك ولا يزال قبره قائما إلى الجنوب الشرقي من مدينة بسكرة في المكان المعروف بأسم (سيدي عقبة) وهو واحة صغيرة جنوب قسنطينة ويؤوره الناس تبركا — وسار كسيله بعد هذه الموقعة إلى القيروان فاستولى عليها ، وقامت دولة بربرية جديدة في هذه البلاد استمرت حوالي ست سنوات — بينما انسحب الجيش العربي إلى (طرابلس)^(٣) .

وفي عهد الخليفة الأموي (عبد الملك بن مروان) سار زهير بن قيس البلوي

(١) ابن عبد الحكم : فتوح البلدان ص (١٩٨) .

والنويري : نهاية الإرب ص (٧٠) وما بعدها . — والزاب يطلق على القسم الجنوبي من قسنطينة وقاعدته مدينة (بسكرة) .

(٢) المذبحي الكمي : تحقيق وتقديم لقطعه من كتاب :

الربيع القيرواني : تاريخ أفريقية والمغرب (تونس ١٩٦٨) ص ٤٥ .

(٣) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٤٦ .

ملاحظة : انظر خريطة فتح العرب للمغرب الأقصى (خريطة رقم ١) يملحق الكتاب

عامل أفريقيه إلى القيروان في عام (٦٩ هـ) فهزم « كسيلة » ورجاله واسترجع المسلمون عاصمتهم واعدوا تعميرها ، ولكن الامر كان يحتاج لجهود أضخم ليسرجع المسلمون مكاتهم في هذه البلاد ، فذهب الخليفة « عبد الملك » - قائداً من أشهر قواده هو « حسان بن النعمان الغساني » لمتابعة الفتح فصار على رأس ٤٠٠٠ جندي فدخل « القيروان » في عام (٧٧ هـ) ثم هاجم « قرطاج » برا وبحرا وكانت لاتزال قاعدة للروم فحاصرها وقطع الماء عنها وأنتهى الامر بفتحها عنوة .

ولكن اصطدمت قوات حسان بقوات البربر الذين اجتمعوا ناحية « جبال أوراس » تحت لواء امرأة بربرية اسمها « دهبيا بنت ثابت » وقد اشتهرت عند العرب بأسم « الكاهنة » فانهمز حسان واضطر للتقهقر إلى « طرابلس » وكتب للخليفة عبد الملك بن مروان يخبره بما لقي المسلمون على يد الكاهنة ، فكتب له الخليفة يأمره بالمقام حيث هو إلى أن يرسل له المدد المناسب فأقام خمسة أعوام ملكت الكاهنة خلالها تونس (١) .

وقد ظنت الكاهنة أن العرب طلاب مال وثراء فأمرت اتباعها بتخريب المدن والقرى وإحراق الأشجار ويقال إنها قالت لهم « إن العرب لا يطلبون من أفريقية إلا المدن والذهب والفضة ونحن إنما نريد المزارع والمراعى فالرأى عندى تخريب المدن والحصون وقطع الأشجار حتى يئأس العرب منها ويقل طمعهم فيها — فعاث أبايعهم في البلاد فساداً (٢) » .

وقد غاب عن الكاهنة أن المسلمين إنما كانوا يرمون إلى غاية أرقى مما توهمته هي ، وكانت نتيجة هذا العمل الجنوني عكس ما توقعت ، فقد نفرت قلوب الأهالي من هذه المرأة الخربة للمدن وكتب أهل شمال أفريقيا إلى حسان يستغيثون به

(١) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب و أخبار الأندلس والمغرب ج ١ ص ٢١ .
(نشر دوزي) .

— والمنجى السكسي : مرجع سابق (ص ٥٦ ، ٥٧) .

(٢) المنجى السكسي : المرجع السابق ص ٦١ .

ويدعونه للقدوم إليهم بجيوشه، فعاد حسان بجيشه والتقى بجيش الكاهنة وهزمها وقتلت في عام ٨٤ هـ ، وبعد ذلك دخل البربر في الإسلام وكان منهم لثني هشر ألف مجاهد مع جيوش المسلمين ، كون « حسان » منهم لوائين وضع على رأس كل لواء منهما أحد ولدى الكاهنة وقد اشترك هذا الجيش في فتوح المغرب والاندلس^(١).

وانصرف حسان بعد ذلك إلى تعمير البلاد ، فجدد جامع القيروان ، وأسس داراً لصناعة السفن لحراسة السواحل الإسلامية ، وعمل على تنظيم الدواوين، كما وزع الأراضي الزراعية على البربر وغيرهم من القبائل التي انضوت تحت لوائه لتستقر وتنتج .

ولما تولى موسى بن نصير، الأمر في أفريقية سنة (٨٥ هـ) عهد إلى لشير الأمن في ربوع البلاد ، ثم أجاز مولاه « طارق بن زياد » إلى بلاد الاندلس في جيش عظيم من البربر والعرب فاجتاز البحر ونزل بالمسكان الذي عرف بأسمه « جبل طارق » ، وفتح الاندلس ، وقدم موسى بن نصير إلى الاندلس ليشارك في هذا العمل العظيم ثم عاد إلى « القيروان » فالمشرق .

ومن أشهر الولاة الذين تولوا الأمر في أفريقية « عبد الله بن الحبحاب » قدم إليها في عام (١١٦ هـ) ، ويذكر له فتوحه في بلاد « السوس » ، والصحراء الكبرى وأرض السودان وأنشأه جامع الزيتونة بتونس ، وتجديده لدار الصناعة التي كانت تمتد الأسطول الإسلامي محاجته من السفن الحربية .

وفي عام ١٢٠ هـ نشبت ثورة كبيرة من البربر واضطرا الخليفة « هشام بن عبد الملك » ، لأن يرسل قواته لإعادة النظام والأمن لهذه البلاد .

هذا ونشير إلى أن الشمال الأفريقي كان شديد التأثر بالأحداث المختلفة التي تعرض لها العالم الإسلامي ، فقد حدث أن الخوارج الذين فروا بعد

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٩ .

مقتل الخليفتين عثمان وعلي - وجدوا مجالا لنشاطهم في الشمال الأفريقي فأخذوا
يبنون أفكارهم بين البربر وكانت أكثر مذاهب الخوارج انتشاراً في هذه
البلاد مذهب « الصفريّة » و « الإباحية » وقد زكت هذه المذاهب روح الثورة
بين البربر وأدت لإضطراب الأمور بالشمال الأفريقي (١) .

(٢) الصفريّة : أتباع زياد بن الأصغر ، والبعض يرجع التسمية إلى صناعة الصفر
أي النحاس .
أما الإباحية : فهم أتباع عبدة بن أبيات التبر ، والبعض يرجع لسبهم إلى (أباض)
وهي قرية بأرض اليمامة .

ثانيا : الدول الاسلامية المستقلة بالشمال الافريقى

أدى الإنقلاب الذى ترتب عليه زوال دولة بنى أمية وظهور العباسيين إلى خروج الشمال الافريقى كله من نفوذ الخلافة العباسية .

يستثنى من ذلك « تونس » التى قامت بها دولة الأغالبة (١٨٤ - ٢٩٦ هـ ٨٠٠ - ٩٠٩ م) - التى ظلت على ولائها للعباسيين .

ويرجع تأسيس دولة الأغالبة إلى « ابراهيم بن الأغلب » الذى ولاءه هارون الرشيد فى أواسط جمادى الثانية سنة ١٨٤ هـ ولاية أفريقية ، وجعلها وراثية فى عقبه ومنحه شبه استقلال داخلى مع التبعية الاسمية للخلافة العباسية^(١) .

واتخذ ابراهيم بن الأغلب مدينة « القيروان » عاصمة لولايته لكنه أسس سنة (١٨٥ هـ) جنوب القيروان مدينة سماها « العباسية » تعبيرا عن ولائه للعباسيين وانتقل إليها بأهله وعبيده وقد طمرت معالمها اليوم لكن انقاضها تسمى « بقصور الأغالبة » ، وهى جنوب القيروان بأربعة كيلو مترات .

وقد حكمت دولة الأغالبة مائة واثنى عشر سنة ، وأهتمت بتحسين أحوال البلاد فأستتب الأمن ، وارتقت الصناعة والتجارة ، وازدهرت العلوم والفنون ، هذا بالإضافة إلى فتحهم العظيمة بالبحر المتوسط فقد مدوا نفوذ العباسيين والإسلام إلى صقلية ٢٦١ هـ ، و « مالطة » ، بل عبروا « مضيق مسينه » إلى جنوب إيطاليا .

(١) الدراسة التفصيلية عن ألعابلية فى تونس انظر :

— حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى (١/٦٥) ج ٣ ص ١٥٧ - ١٥٩ .

وكذلك الرقيق القيروانى : مرجع سابق ص ٢١٢ - ٢٢٧ .

ملاحظه انظر خريطه العالم الاسلامى فى القرن التاسع الميلادى (الثالث المجرى)

(خريطه رقم ٢) فى ملحق الكتاب .

ومن أهم آثارهم التي خلفوها في الشمال الأفريقي ما أضافوه إلى « جامع القهوان » و « جامع الزيتونة » الذي أصبح منارة علمية لعبت في شمال أفريقيا دور « جامع القرويين » بالمغرب الأقصى والجامع الأزهر بمصر .

كذلك بنى إبراهيم بن أحمد « إبراهيم الثاني — الأصغر » مدينة « رقادة » وأجرى إليها المياه وبنى فيها القصور وانتقل إليها من مدينة العباسية .

وحين ولي الأمر « زيادة الله الثالث » بنى بها قصرا صرف عليه مبالغ طائلة ولم تزل « رقادة » دار ملك الأغالة حتى دخلها « عبید الله المهدي الشيعي » وسكنها إلى أن بنى المهدي فانتقل إليها^(١) .

وقد طبع الأغالة المغرب العربي بطابع خاص باحتضانهم المذهب المالكي وظلوا يمارسون نشاطهم في هذه البلاد حتى قضى عليهم الفاطميون سنة ٥٢٩٦ كما سنوضح بعد^(٢) .

وقد وجدت الدعوة الشيعية في الشمال الأفريقي بيئة صالحة للظهور فقامت دولة الإدارة الشيعية الزيدية بالمغرب الأقصى وبايعت قبائل « زناته » مؤسسها « إدريس الأول بن عبد الله » بالإمامة في رمضان سنة ١٧٢ هـ « فبراير ٧٨٩ م » في بلدة « وليل » من أعمال طنجة ، وبعد أن استقر الأمر للإدارة بالمغرب الأقصى زحفوا على المغرب الأوسط « الجزائر » فدانت لهم^(٣) .

وأسس الإدارة مدينة « فاس » وأخذوها عاصمة لهم ، وأسسوا في عام ٢٤٥ هـ — ٨٥٩ جامع القرويين الذي أصبح جامعة شهيرة تعددت فيها

(١) ابن الخطيب: أعمال أبو علام - القسم الثالث تحقيق العبادي ، إبراهيم الثاني ص ٢٧ ، ٤٥

(٢) حسن محمود : العالم الإسلامي ص ٤١٩ -

(٣) ابن عذاري الركني ج ١ ص ١٥٨ .

والاستقصاء : ج ١ ص ١٥٢ .

مجالس العلم وتنوعت أساليبه وأصبح مركزاً هاماً للدراسة في العالم الإسلامي^(١).

وحكم بعد إدريس الثاني ثمانية آخرون من الإدارسه كان أعظمهم قوة هو يحيى الرابع بن إدريس عمر ٢٩٢ - ٣١٠ هـ وقد بسط نفوذه على جميع بلاد المغرب الأقصى .

وتميزت دولة الإدارة بدورها في نشر الإسلام في شمال أفريقيا وغربها ، فقد كانت « فاس » وما زالت إلى اليوم تقوم بدور حضارى إسلامى في شمال أفريقيا وغربها وسيظل التاريخ يحفظ للإدارة هذا الفضل في خدمة الإسلام والعلم^(٢) .

وقولى الامر في البدايه حكام أكفاء ، لكن الامر كان في النهاية عكس ذلك فقد تولى حكام لم تكن لهم من الكفاءة وحسن السلوك ما يساعدهم على القيام بأعباء الملك فنشرت عليهم الامة ولم يبق للدولة في نظر رعاياها ما كان لها من احترام هذا في وقت كان « المبيدون » يضيقون عليها الخناق من الشرق والامويون في الاندلس من الغرب ، فأضطرت الاسرة الإدريسية للاعتصام بجبال الريف حيث تكونت إمارة إدريسية صغيرة انتهى أمرها في عام ٣٧٥ هـ وبذا انتهت الدولة الإدريسية .

(١) اختلفت الآراء حول تأسيس مدينة (فاس) وتاريخ هذا العمل ؛ وقد حمم بلانшет (Blanchete) كل بيانات الجغرافيين عن فاس في مقال بعنوان فاس عند الجمرانيين العرب وذلك في مجلة (Hespéris) الجزء الثامن عشر سنة ١٩٣٤ م ٤ - ٤١ وقد أضاف أيضاً في الحديث عن فاس : على بن 'لى زرع الفاسى في الأندلس المطوب بروس القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (طبعة لرباط ١٩٧٣) . ويبدو من هذه الإبحاث كلها ، أن فاس مدينتان أحدهما - بناها إدريس الأول سنة ١٧٢ هـ - والآخرى بناها إدريس الثاني في عام ١٩٢ بالقرب من الأولى وأصبح اسم (فاس) يطلق على المدينتين معاً ، وقد اندمجتا بعد ذلك كما يحدث للمدن عند اندماجها وإمتدادها ، وكانت — بها عدوتان — عدوة الاندلس حيث نزل عرب الاندلس ، وعدوة القرويين حيث نزل أهل القيروان .

(٢) ارنولد : الدعوة إلى الاسلام (مترجم) ص ٢٦٧ - ٢٦٩ .

على أنه ظهرت على مسرح الأحداث بالشمال الافريقي دولة شيعية أخرى هي « الدولة العبيدية الفاطمية » التي تنسب إلى عبيد الله المهدي الشيعي مؤسس هذه الدولة في المغرب .

وكان لبداية ظهور هذه الدولة بالجزائر حوالي سنة ٢٧٩ هـ — ٨٩٢ م ، بواسطة الدعاة الذين كان ظهورهم لأول مرة بناحية قسنطينة « فجج الاخيار » حيث استطاع أبو عبد الله المحتسب الصفاني الشيعي الداعية الأكبر لهذه الدعوة الشيعية أن يوقع الأغلبية (١) .

وأستولى « أبو عبد الله للصعاني ، علي سطيف ، وقسنطينة وسائر بلاد الجزائر الشرقية ثم احتل « القيروان » سنة ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م ، وتقدم إلى « رقادة » عاصمة الأغلبة فاستولى عليها وقضى على دولة الأغلبة ووضع يده على دواوين الدولة الأغلبية وذخائرها ، وتقدم إلى « سجلماسة » لإنقاذ سيده « عبيد الله المهدي » الذي كان معتقلا هناك وسلم له مقاليد الملك ، وبايع أهل القيروان « عبيد الله المهدي » وأستلم زمام الدولة وتلقب بأمير المؤمنين — واستطاع العبيديون بعد ذلك فتح الجزائر الغربية ، كما استطاعوا إخضاع الثورة التي أشعلتها قبيلة « زناتة » ، والتي ساء ما أعتمده « أبو عبد الله الصفاني » على قبيلتي « كتامة » و « صنهاجة » وتحيدهما .

وهكذا استطاع العبيديون تأسيس دولة شيعية انتسبت إلى فاطمة الزهراء زوجة علي بن أبي طالب وابنة الرسول «ص» (٢) .

(١) أبو عبد الله المحتسب الصفاني : سمي بالمحتسب لانه كان ولي الحسبة والصفاني ، لانه جاء من اليمن و (فجج الاخيار) الذي اختاره قرب قسنطينة لجمع الاتباع خاصة من قبيلة (كتامة) التي عرفت بكثرة عددها وصلابة عودها لعله مكان حصين في الجبال المحيطة بقسنطينة ، وقد اطلقوا عليه أسم (دار الهجرة) .

— انظر البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (مارس ١٩١١) ص

٦٤ — ٦٦ .

— وكذلك حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٩ .

(٢) يفرق بعض المؤرخين بين (العبيدين) وهم أمراء الأسرة المتولين في افريقية و والماطيين وهم الذين تولوا الخلافة بمصر .

ولما دانت هذه البلاد بشمال أفريقيا للمهدى بأمر الأمور بنفسه بل لأنه
أوجس خيفة من «أبي عبد الله الصفاني» الداعي فمجل بقتله آخر سنة ٢٩٧
ويذكرنا هذا بما وقع «لأبي مسلم الخراساني» مع المنصور العباسي .

ووقع اختيار المهدي على مكان حصين على الشاطئ الشرقي لتونس على
شبه جزيرة «جمة» بين سوسة وصفاقس فأمر ببناء مدينة في ذلك الموضع
سمّاها «المهدية» وانتقل إليها واتخذها مركزاً لحكمه في عام ٣٠٨ هـ وحصنها
وبنى بها الجامع و «دار الصناعة» ، ولما ضاقت بسكانها بنى للناس من أتباعه
مدينة أخرى قريبة منها أطلق عليها اسم «زويلة» والبعض يطلق عليها اسم
«إحدى المدينتين» .

وفي عهد «المعز لدين الله» أرسل قائده «جوهر الكاتب» الذي اشتهر
باسم «جوهر الصقلي» إلى المغرب الأقصى فاستولى في عام ٣٤٢ هـ على
فاس عاصمة الإمارة الإدريسية وبذا امتد سلطانه من المحيط إلى إبرة .

إلا أن العبيدين اتجهوا بأنظارهم نحو الشرق خاصة أن الأحوال في مصر
كانت مضطربة بعد وفاة «كافور الأخشيدي» فسير المعز قائده «جوهر»
في جيش كثيف إلى مصر ، فاستولى عليها وخطب فيها لسيده المعز وبني مدينة
«القاهرة» . وفي ٥ رمضان ٣٦٢ هـ - ٩ يولية ٩٧٣ م ، دخل الخليفة الفاطمي
المعز لدين الله القاهرة التي أنشأها له قائدة جوهر فكانت مقر ملكه وملك
الخلفاء الفاطميين بعده الذين امتد نفوذهم إلى الشام والحجاز إلى آخر
دولتهم^(١) .

وهكذا أصبحت الدولة الإسلامية منقسمة فهناك :

١ - الخلافة العباسية بالشرق وقاعدتها «بغداد» ،

٢ - الخلافة الأموية المجددة بالاندلس وقاعدتها «قرطبة» .

(١) تولى بعد المعز عشرة خلفاء فاطميين بمصر (من سنة ٣٦٥ إلى ٥٠٦٧)

ملاحظة : انظر خريطة رقم ٤ ملحق الكتاب .

٣ — والخلافة العبيدية الفاطمية بأفريقية ثم بمصر والشام والحجاز واليمن وأصبحت قاعدتها القاهرة .

وفيما يتعلق بالمغرب بعد انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر — فقد ترك الخليفة المعز لدين الله الأمر بهذه الجهات للصنهاجيين الموالين له إذ على اكتافهم قامت الدعوة الفاطمية بالمغرب الاوسط (الجزائر) وأيدوا سلطانه بهذه الجهات ، فعهد إلى (بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي) بالإمارة على المغرب ، باستثناء طرابلس ومضارب قبيلة (كتامة) التي كانت هي الأخرى موالية للفاطميين وكانت مدينة (سطيف) من أكبر مراكز هذه القبيلة — وكان ذلك يوم ٢٢ ذى الحجة ٣٦١ — ٤ أكتوبر ٩٧٢ ولقبه الخليفة المعز الفاطمي بلقب (سيف الدولة) وسماه بيوسف فكافته هذه هي بداية الدولة الزيرية الصنهاجية بهذه الجهات .

واختط بلكين بن زيري مدينة (الجزائر) ومدينة (مليانة) . وحين ثارت قبيلة (كتامة) التي كانت ترى أنها أولى من (صنهاجة) في أخذ الإمارة لما قدمته للدولة الفاطمية من خدمات لم يتأخر (المنصور بن بلكين) الذي أخذ الإمارة بعد وفاة والده في عام ٣٧٣ هـ — ٩٨٤ م عن مهاجمتها فحاصر أتباعها في مدينة (ميلة) القريبة من قسنطينة كما دخل (سطيف) أكبر مراكز كتامة وعين بكل من المدينتين خليفة عنه .

على أن الدولة الزيرية الصنهاجية لم تلبث أن انقسمت إلى إمارتين :

(١) إحداهما شرقية قاعدتها القيروان (قصور سردانية — قرب القيروان)^(١) .

(ب) وأخرى غربية لبني (حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي) وقاعدتها (قلعة بني حماد) التي أنشأها حماد في عام (٣٩٨ هـ — ١٠٠٧ م) ، وقد شملت

(١) سردانية : أصلها حدائق عظيمة أنشأها الأمراء العبيديون بجهوار القيروان ، وكانت بها قصور ويساتين ، ومكانها مشهور بهذا الاسم إلى الآن .
(م ٢ — المغرب)

هذه الدولة الغربية تقريباً حدود عمالتي الجزائر وقسنطينة المعروفة اليوم . وكان باديس بن المنصور قد سيرعنه (حماد) على رأس جيش كبير لإخضاع قبيلة (زناته) وجعل له حكم جميع ما يفتحه بعد أن انتصر (حماد) على الثاثرين عاد إلى جهة قسنطينة حيث ابتنى (قلعة) حصينة نسبت إليه واتخذها مقراً لحكم المناطق التي استقل بها .

وحين أراد (باديس) رفع يد عمه عما خضع له من المناطق الشاسعة إمتنع حماد وفامت بين الطرفين حروب طاحنة استمرت حتى وفاة باديس وتوطد حكم بني حماد بالمغرب الأوسط .

على أنه لما نبذ حكم الدولة الصنهاجية دعوة الفاطميين وخلعوا طاعتهم ونادوا بأن يخطب على المنابر للخلافة العباسية — دبر الخليفة الفاطمي المستنصر بإشارة من وزيره (اليازورى) مكيدة للانتقام من الأمراء الصنهاجيين — ففتح الباب للأعراب من بني هلال ، وبني سليم . ورياح وزغبة ، للهجرة للمغرب وعقد لرؤسائهم على أمصار البلاد ورغبتهم في الزحف ، وكانوا يعيشون فساداً في البلاد المصرية .

وانتهى هذا الزحف الهلالي بانتصارهم على قوات (المعز الصنهاجي) ودخولهم القيروان وغيرها من المدن واستقروا فيها ، وتفرعت عنهم فروع كثيرة وبطون عديدة انتشرت بالشمال الأفريقي وامتزجت بأهله (١) .

* * *

وظهرت بالمغرب الأقصى دولة المرابطين أو (الماشمين) التي أسسها يوسف بن تاشفين معتمداً على قبائل لمعونة الصنهاجية .

أطاعه عليهم اسم (المرابطين) لأنه تلمذوا على (عبد الله بن ياسين) في الصحراء .

(١) الحبلالي ، عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام (١٩٠٤) ص ٢٩٨ .

المغرب (في جزيرة بالسنكال) أما لفظ المثلثين فقد أطلق عليهم لأنهم كانوا يضعون على وجوههم لثاماً يقيهم حر الصحراء ويردها ورمالها^(١).

وقد زحف المرابطون على المغرب في عام ٤٤٧ هـ تحت قيادة (عبد الله بن ياسين) فوصلوا إلى تافيلالت ، وفي عام ٤٤٨ هـ غزوا (السوس) وفي ٤٤٩ هـ فتحوها (تاداة) ، وبذا دان لهم جنوب المغرب وواصلوا مسيرتهم بقيادة (يوسف بن تاشفين) الذي أظهر براعة عسكرية وقدرة على التنظيم العسكري ، وفي عام (٤٦٢ هـ - ١٠٦٩ م) أسس (يوسف بن تاشفين) مدينة مراکش لتكون مركز الدولة ، فأخذت تزدهر وأما رجال العلم والأدب والفن ، من كل صوب ، ومن أهم آثار المرابطين بها جامع ابن يوسف ويعتبر المعهد الثاني في المغرب ، بعد جامعة القرويين^(٢).

وبعد أن أتم الأمير (يوسف بن تاشفين) تنظيم جيشه توجه إلى مدينة فاس فاستولى عليها . ثم استولى جيشه على طنجة سنة ٤٧٠ هـ ، واتجه بعد ذلك نحو المغرب الأوسط فلم تصل سنة (٤٧٥ هـ) ، حتى كانت (تلمسان) عاصمة المغرب الأوسط قد سقطت في يده . وكذا مدن (تينس) و (وهران) و (جبال) و (تشريش) وجميع أعمال (شلف) .

ولما بلغ (يوسف بن تاشفين) هذه الدرجة وذاع صيته في العالم الإسلامي

(١) حسن إبراهيم حسن : الإسلام السياسي ج ٤ ص ١١٥
ملاحظة : الرباط في اللغة مصدر رابط يربط بمعنى أقام ولازم المكان — وبطلان في اصطلاح الفقهاء على شيئين : أولهما البقعة التي يجتمع فيها المجاهدون لحراسة البلاد ورد هجوم العدو وعنهما : الثاني : المكان الذي يلتقى فيه صالحو المؤمنين لعبادة الله وذكره والعهدة في أمور الدين .

أنظر : محمد بن علي الدكالي : كتاب في الرباطات ص ٢ وما بعدها .
(٢) هـ.ك خلاف حول تاريخ تأسيس مدينة (سراكش) وقد أُنش (عبدالقنات) هذا الأمر وهو يرجح أنها لم تن إلا عام (٤٦٢ هـ - ١٠٦٩ م) .
انظر : عبد الله عان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (١٩٦٤) ص ٣٨ ، ٣٩ .

استنجد به ملوك الطوائف بالاندلس الذين كانت قد آلت إليهم الامور بعد
لإنحلال دولة بنى أمية في الاندلس لكنهم شغلوا بالمنازعات فيما بينهم فأتاح
ذلك الفرصة للأسبان للإيقاع بهم والإستيلاء على بلادهم الواحد تلو الآخر .

فسار الأمير يوسف إلى الاندلس في عام (٤٧٩ هـ) ونزل بالجزيرة الخضراء
بجيوشه العظيمة واستقبله أمراء الاندلس المسلمون استقبال المنقذ ، وتقابل مع
جيوش (الفونس السادس) ملك قشتالة ، وكان انتصار جيش المرابطين حاسماً
في (واقعة الزلاقة) في يوم الجمعة ١٥ رجب ٤٧٩ هـ ، ولأدت فلول جيش
الملك الأسباني بالفرار ، وقد ذاع صيت (يوسف بن تاشفين) في أنحاء العالم
الإسلامي بعد هذه الموقعة (١)

وعاود الفونس السادس تهديده للممالك الإسلامية في الاندلس ، كما أن ملوك
الطوائف المسلمين عادوا لما كانوا عليه من حياة الترف والإشتغال عن عدوهم
الحقيقي بحلافاتهم فاضطر (يوسف بن تاشفين) للعودة إلى بلاد الاندلس مرة
أخرى لتخليص المسلمين من خطر الإنقسام الداخلي وخطر العدو الأجنبي ،
وبعد أن أبعد خطر العدو المهاجم ضرب على أيدي ملوك الطوائف وعزلهم
وساهم إلى مراکش ، وأسند إلى قائده (سيرين أبي بكر اللثوني) ولاية
الاندلس وبذلك ضمت بلاد الاندلس إلى الإمبراطورية المغربية المرابطية
التي صارت تجمع ما بين المغربين الأقصى والأوسط شرقاً ، وبلاد الاندلس .
وتتد إلى بلاد السودان و (السنسكال) جنوباً .

(١) عبد الله عنان : عصر المرابطين ص ٤٠ .

ملاحظة : لم يشتهر شأن (يوسف بن تاشفين) كفائد حربي بحسب ، بل إن شهرته
العلمية فاقت ذلك ، فقد كان عباً للعلم وأهله ، مفقداً عليهم الإنعام ، لا يقطع أمراً دونهم ،
حتى أنه انقطع إليه — كما يقول الشيخ محيي الدين في المعجب — من الجزيرة من أهل كل علم
فحوله حتى شابهت حضرته حضرة بنى العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولولده من
أعيان الكتاب ، وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار — يكفي أن
نذكر منهم القاضي عياضاً .

وقد خلف لنا المرابطون في هذه البلاد التي إنضوت تحت لوأهم آثاراً مادية تدل على ما وصلوا إليه من حضارة ، ولعل من أهم هذه المنشآت الحضارية مساجدهم في تلمسان والجزائر ووقبة البروديين في مراكش وما أضافوه للجامع القرويين بفاس^(١)

وقد انتهى أمر دولة المرابطين في المغرب بسقوط عاصمتهم (مراكش) في يد الموحدين في عام (٥٤١ هـ - ١١٤٧ م) .

* * *

ويرجع تأسيس الدولة الموحدية إلى (محمد بن تومرت) الذي أدعى أنه (المهدي) المنتظر ودعا إلى تخليص الدين من الشوائب .

وقامت الدعوة في البداية في (السوس) تلك البلاد التي تتميز بقسوتها وندرة مزارعها ، ثم أخذت تنتشر في مختلف أنحاء المغرب ، وكان من أوائل الدين بإيعونه تلميذه (عبد المؤمن بن علي) ، وأخذت قوة (ابن تومرت) تزداد ، ولما استفحل أمره إنتقل لخل (تينملل) حيث تحصن هناك وشرع يشن الغارات على المرابطين فكانت بينه وبينهم حرب سجال وصل الموحدون في بعضها إلى مراكش ، وقد توفي المهدي سنة ٥٢٤ هـ قبل أن تسقط مراكش في أيدي الموحدين .

وخلف (عبد المؤمن بن علي) أستاذه ابن تومرت في رمضان ٥٢٤ هـ - ١١٣٠ م^(٢) وبعد أن ثبتت أقدام عبد المؤمن بمبايعة الموحدين له - شرع في

(١) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج ٢ ص (٧٥٨) .

(٢) للدراسة التفصيلية للصراع بين المرابطين والموحدين انظر : عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (القسم الأول) (١٩٦٤) الفصلين الثالث والرابع .

ملاحظة : انظر خريطة رقم ٥ بملحق الكتاب .

بسط نفوذه على أنحاء المغرب فاستولى على (قلمسان) بعد أن هزم جيش المرابطين بها . بعد ذلك قصد أمير المؤمنين (عبد المؤمن بن علي) مدينة (فاس) سنة ٥٤١ هـ ومن هناك وجه حملة لحصار (مكناس) ثم خرج قاصداً (مراکش) فافتتح طريقه (سلا) ، وفي مراکش كانت المعركة الأخيرة بين الموحدين والمرابطين حيث دارت الدائرة على المرابطين وتم فتح مراکش سنة ٥٤١ هـ واتجه الموحدون للاندلس ففتحوها ما بين ٥٤١ ، ٥٥٦ هـ .

واتجهوا لفتح المغربيين الأدنى والوسط ، فاستولوا على (بجاية) ثم اتجهوا إلى (قسنطينة) فحاصرها فاستسلم (يحيى بن العزيز) آخر ملوك بني حماد في عام ٥٤٨ هـ ١١٥٣ م ، وفي عام ١١٥٦ سقط ميناء (عابو) وبذلك بسط الموحدون نفوذهم على الجزائر كلها ثم مدوا نفوذهم إلى تونس .

وقد قام أحد الموالين المرابطين ويدعى (بان غانية) بحركة مقاومة للموحدين في الجزائر الشرقية وتونس ، وحاصر هذا الثائر (قسنطينة) ولكنه لم يقو على فتحها وتمكن (يعقوب المنصور الموحدي) أن يهزمه .

ولما بلغ (يعقوب المنصور) أخبار غارات البرتغال من غرب الاندلس ، وتقدم جيوش المسيحيين نحو (قرطبة) - أعد العدة لحربهم ودرء الخطر عن المسلمين . والقى الجيشان في معركة فاصلة في موضع يقال له (الارك) شمال قرطبة - وانتهى الأمر بأن دارت الدائرة على (الفونس الثالث) ، ومن معه وفر من الميدان تاركاً وراءه آلاف القتلى والأسرى ، وقد أعادت هذه المعركة التي وقعت في ٩ شعبان ٥٩١ هـ - يوليو ١١٩٥ م ذكرى موقعة الولاقة المرابطية^(١) .

وقد كانت لأمير المؤمنين (يعقوب المنصور) مواقع أخرى مع ملوك الأسبان وكانت له غارات موفقة على (طليطلة) و (أشبيلية) التي دخلها في

(١) اقرطاس ص ٢٢٨ .

في عام (٥٩٣ هـ) حتى أرغم الفونس على طلب الصلح ، وبعد أن نظم بلاد
الاندلس عاد إلى عاصمة ملكه مراکش^(١).

هكذا كان قيام دولة الموحدين في الشمال الافريقي وامتداد نفوذها على
بلاد الاندلس رمز القوة والمنعة للمغرب الإسلامي .

وقد ذاع صيت الموحدين حتى أن (صلاح الدين الايوبي) طلب في عام
٥٨٥ هـ من (يعقوب المنصور) مساعدته بالأسطول المغربي ضد الصليبيين الذين
كانوا محاصرين للمسلمين في عكا .

ويقال إن الملك المغربي (يعقوب المنصور) لم يستجب لرغبة صلاح الدين
ولم يبعث إليه أسطولا ولم يحرّك من أجله ومن أجل المسلمين جميعاً في الشرق
ساكنا ، وذلك لسبب واحد اتفق عليه جميع المؤرخين الذين أوردوا قصة
هذا الاستجداد ، ذلك السبب هو أن صلاح الدين لم يخاطب يعقوب المنصور
بلقب (أمير المؤمنين) ^(٢).

ويقال أن (يعقوب المنصور) فكر في الإستيلاء على مصر لتتم له وحدة
أفريقية الشالية من شرقها إلى غربها لولا أن المنية عاجلته سنة ٥٩٥ هـ فحالت
بينه وبين تحقيق مطامحه البعيدة المدى^(٣).

(١) الرا كشي ، عبد الواحد : المعجب في تاجيس أخبار المغرب (القاهرة ١٩٤٩)

ص ٢٨٢ .

ملاحظة: أهمية المعجب ترجع إلى أن عبد الواحد الرا كشي كان معاصراً لدولة الموحدين .
(٢) ذكر هذه القصة : أبو شامة شهاب الدين القدسي : الروشتين في أخبار الدولتين
ج ٢ (يذكر تعاصيل المرسلات برسالة ، ونصها وهي من وضع القاضي الفاضل في مصر بامر
صلاح الدين الذي كان بالشام ، وارسل للقاضي الفاضل بهذا الشأن) وإن كان القدسي :
صبح الأعشى ج ٦ - يورد رسالة صلاح الدين مبتدئة بلقب (أمير المؤمنين) لكن القلة شدي
متأخر في الزمن عن المقدسي هـ فـ كلام المقدسي مرجع .

(٣) الرا كشي عبد الواحد : المرجع السابق ص ٢٨٤ .

وبعد ذلك اتجه (يعقوب المنصور) للتعمير ومن مؤسساته الهامة إتمام بناء مدينة (الرباط) (٥٥٩٣ هـ) وجامعها العظيم المعروف اليوم (بصومعة حسان)^(١) .

وقد اهتم الموحدون ببناء المساجد والمدارس وتشييع العمران سواء في أفريقية أو المغرب أو الأندلس . وكذلك بناء (المارستانات) للمرضى وأجروا المرتبات على العلماء والطلبة فبلغت الحركة العلمية وحركة التأليف في عصرهم درجة رفيعة ، وبنوا الصوامع والقناطر (المجمعات) للماء وأقاموا المغارات وبنوا القصور مما يدل على ما كانت عليه دولتهم من الرخاء^(٢) ،

ففى مرا كشي بنى (يعقوب المنصور) قصبتها وشيد الجامع الأعظم المنسوب إليه بمقصورته الفخمة ، ومنار (السكتية) ، المارستان الذى خصص له مبلعا يوميا لمتطلباته وأقام فيه الصيدلة كما يقول المراكشي لعمل الاشربة والادهان والاكحال ، وأعد فية للمرضى ثيابا ، فإذا نقه مريض وكان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعين .

وكان فى كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخل المارستان ليعود المرضى^(٣) . ومن آثاره أيضا المسجد الأعظم والمدرسة (بسلا) ضاحية الرباط ، أما فى أسبانيا فجامع أشبيلية وصومعة (جيرا الدا) الشاهقة تدل على عظمة الفن المعماري فى عهد الموحدين^(٤) .

(١) القوطاس ص ٢٢٩ .

ملاحظة : شاهد المؤلف (صومعة حسان) هذه ومى رغم ما أصابها نتيجة الحريق والزلازل الذى أثر فى المنطقة كلها لازالت أعمدها الرخام وبقايا المنارة (تشبه منار السكتية بمراكش) تنطق بمبلغ ما كانت عليه من عظمة وضخامة .

(٢) القوطاس ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٣) المراكشي ، عبد الواحد : مرجع سابق ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٤) زار المؤلف أشبيلية فى مارس ١٩٧٤ — حيث مسجد أشبيلية العظيم الذى تحول اليوم إلى كنيسة ضخمة ، كما تحولت المنارة الشاهقة إلى برج لنافوس ، (برج الجيرا الدا) لكنها كليا تنطق بلاشك بمظمة الفن العربى وتبقى عن كل دليل آخر عن فنى وثروة الدولة الموحدية فى أيام الامير (يعقوب المنصور) .

لكن كانت وفاة يعقوب المنصور سنة ١١٩٨ م ثم هزيمة ابنه [محمد الناصر] في [موقعة العقاب] في الأندلس في [٦٠٩ هـ - ١٢١٢ م] إيداناً باسهار الدولة الموحدية التي ظلت تمثل وحدة الشمال الأفريقي طوال قرن ونصف قرن تقريباً .

ويقول المراكشي عن هذه الموقعة : لم يجر على مسلمي الأندلس في تاريخهم الطويل مثل ما جرى عليهم في هذه الموقعة المشهورة التي كانت تذكيراً بذهاب ملكهم وانقراض عقبتهم في تلك البلاد بعد بضعة قرون من ذلك التاريخ^(١) .

فبعد معركة العقاب رجع الناصر من الأندلس فأخذ البيعة لولده [يوسف المنتصر] وهو في السادس عشر من عمره ودخل قصره فأحتجب عن الناس وانخمس في لذاته إلى أن توفي سنة ٦١٠ هـ .

أما المنتصر فقد أطلق هو الآخر العنان لميوله الفتية ، وترك أمر الدولة للوزراء ومشايخ الموحدين وسادتهم فاستبد كل منهم بعماله ، من أعمال الدولة واصبح الأمر الناهي فيها ، فعجل هذا بانقسام عرى الدولة الموحدية^(٢) .

(١) المراكشي ، عبد الواحد : مرجع سابق ص ٣٢١ .

(٢) قبل أن تنهى الحديث عن هذه الدولة نشير إلى أنها كانت دولة حضارة وتمدين تقدمت في عصرها العلوم والمعارف ، وقطعت شوطاً بعيداً وعم الترقى جميع مناحي الحياة فأقاموا المشاريع الحيوية وأغدقوا على العلماء الأرزاق وأسبغوا عليهم الأنعام ، وكانت عالسهم منتهبات علمية وأدبية يتجاذبون فيها العلم ويطارحون العلماء بأنفسهم .

ثالثاً: تفتت وحدة الشمال الأفريقي وقيام دول منفصلة في أقطاره

أدى ضعف دولة الموحدين إلى تمزق الإمبراطورية الشاسعة الأطراف التي كانوا يسيطرون سلطانهم عليها ، فسقطت بلاد الأندلس في يد الأسبان ، والبقية الضئيلة الباقية التي لم تقع في أيديهم استقلت تحت إمرة (بنى الأحمر) أصحاب غرناطة .

أما الشمال الأفريقي فقد ظهرت فيه ثلاث دول إسلامية ظلت تتنازع السلطان وتحاول كل منها أن توسع رقعتها على حساب جارتها — وهذه الدول الثلاث هي :

الدولة الحفصية : في تونس .

الدولة المرينية : في المغرب الأقصى .

الدولة الزيانية : في المغرب الأوسط .

الدولة الحفصية

(٦٢٧^(١) — ٩٤٣ هـ / ١٢٢٩ — ١٥٣٦ م)

ينتسب الحفصيون إلى (أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاني) وهو من خاصة (ابن تومرت) وأحد مريديه ، ويرجع نسبه إلى قبيلة (هنتانة) وهي قبيلة بربرية عظيمة تلتحق بالمصامدة التي هي من أكبر قبائل المغرب الأقصى .

وكانت (لأبي حفص) مكانة كبيرة لدى (محمد بن تومرت) زعيم الموحدين ، وقد تولى عدة إدارات في عهده ، وظل مرموقاً حتى وفاته في سنة

(١) سنة تولى أبي زكريا يحيى الحفصى الامر .

ملاحظة : انظر خريطة رقم ٦ — ملحق الكتاب .

(٥٧١ هـ — ١١٧٥ م) وظل أبنائه من بعده يتداولون إمارة الأندلس والمغرب وأفريقية .

وفي أيام خليفة الموحدين (محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف) عقد على ولاية تونس (لأبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص) في عام (٦٠٣ هـ — ١٢٠٧ م) وفي ولايته هذه استطاع أن يقضى على كثير من عوامل الإضطراب في أفريقية فمزم (ابن غانية) بنواحي طرابلس ، وخلفه في الولاية ابنه (عبد الرحمن) في عام (٦١٨ هـ — ١٢٢١ م) .

وحين تولى (أبو زكريا يحيى الحفصي ٦٢٧ هـ — ١٢٢٩ م) كانت دولة الموحدين قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف ، وكان (بنو مرين) ينازعونهم السيادة في المغرب الأقصى ، فانتقم أبو زكريا المرصنة وأعلن استقلاله بأعمال تونس والفيروان عن دولة الموحدين .

ولما عاد (ابن غانية) لإثارة الاضطرابات طارده بجيشه وطفر به وقتله وقمع الثورة التي أشعلتها قبيلة (هواره) ضده ، وبذلك أستتب له الأمر في (تونس) فأخذ يوسع نفوذه فأستولى على (الجزائر) وبايعته (تلمسان) و (سجلماسة) ، بل بايعته بعض بلاد المغرب . وقد خطب (بنو مرين) الذين استولوا على (مراكش) بعد بنى عبد المؤمن — وده أول أمرهم وصار يتطلع لإخضاع المغرب الأقصى كله لنفوذه ، كما استعجبت به دول الأندلس الإسلامية .

ويعتبر بذلك (أبو زكريا يحيى) مؤسس أركان الدولة الحفصية بتونس ، وله بها عدة أعمال عمرانية فهو الذي بنى (جامع القصبه) وصومعته الجميلة ونقش اسمه عليها ، وغير ذلك من المساجد ، واهتم بالتعليم ففتح عدة مدارس وأنشأ في قصره بالقصبه (داراً للكتب) جمع فيها ستة وثلاثين ألف مجلد من أنفس المؤلفات .

وخلفه ابنه (أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا) واتخذ لقب المستنصر بالله (٦٥٤ هـ — ١٢٥٦ م) وتلقب بلقب خليفة ، وأرسل له أمير مسكة والحجاز

البيعة بالخلافة فاحتفل بها إحتفالا مشهوداً وتلقب من ذلك التاريخ بلقب (أمير المؤمنين) .

وحين تحولت الحملة الصليبية الثانية في (١٢٧٠ م) حملة لويس التاسع ملك فرنسا إلى غزو تونس ، بدلا من أن تتوجه إلى الفسطنطينية واجه (أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا) هذه المحنة ودارت رحى الحرب بين الجنود التونسيين الذين نزلوا بأطلال (قرطاج) ، واستمرت هذه الحرب نحو ستة أشهر ، لكن تفشى الوباء بين الجنود الفرنسيين وفي عدد كبير منهم من بينهم الملك لويس نفسه وخلفه أخوه (شارل دانجو) الذي اضطر لعقد صلح مع المسلمين على أن يدفع لهم غرامة كبيرة وبذلك أتمت الحرب وأقلع الجنود الفرنسيون لبلادهم .

وانتابت البلاد بعد موت الخليفة المستنصر الفوضى لكثرة الخلافات على العرش ، وتعرض البلاد لهجوم المسيحيين من جهة وغارات القبائل العربية من جهة أخرى هذا بالإضافة إلى تعرض البلاد لغزوات (بني مرين) .

وإن كان الحفصيون قد عادت إليهم وحدتهم واستعادوا قوتهم في أوائل القرن الخامس عشر على أيدي (أبي العباس) و (أبي فارس) اللذين أعاداً للدولة بناءها ونشاطها ووحدها فاستطاعت أن تستعيد سلطانها على الجزائر وقسم من المغرب الأقصى — لكن عاد الضعف إليها حتى أن نفوذ الحفصيين لم يكن يتعد مدينة (تونس) نفسها .

وظل الأمر كذلك حتى استطاع أسطول (خير الدين بربروسا) بعد أن أعلن ولاءه للسلطان العثماني (سليمان القانوني) أن يدخلها ويضمها للخلافة العثمانية .

الدولة المرينية

(٥١٢ هـ - ١١٩٦ م)^(١)

المرينيون فخذ من قبيلة « زناتة » وهم من ولد (مرين بن ورتاجي بن

(١) سنة تولي الأمير عبد الحق بن محيو - الأمر .

ماحزح) فهم عرب صريجون^(١) ، وكانت مواطنهم الأصلية في المناطق الصحراوية وراء (تلمسان)^(٢) .

وقد انتهز المرينيون فرصة الضعف والانحلال الذي أصاب دولة الموحدين فنازعوهم الامر في المغرب .

وقامت معارك بين الأمير « عبد الحق بن يحيو » المريني وبين الموحدين قرب (وادسيو) . وقتل الأمير (عبد الحق) ، لكن بعد أن أوقع بالموحدين عدة هزائم .

واستمر الصراع بين بني مرين والموحدين حتى بايع شيوخ بني مرين الأمير (يعقوب بن عبد الحق) فجمع شمل المرينين وتابع الكفاح ضد الموحدين ، وانتهى الامر بفتح مدينة مراکش (٦٦٨ هـ - ١٢٦٩ م) ففضى بذلك على عرش الموحدين^(٣) .

ويعتبر (يعقوب بن عبد الحق) أو أمير المؤمنين يعقوب المنصور كما كان يلقب — المؤسس لدولة بني مرين .

زحف على (تلمسان) وحاصرها ودخلتها خنوده في عام (٦٧٠ هـ — ١٢٧٢ م) ، وأجبر ملوكها بني زيان على عقد الصلح معه ، واستنجد (محمد بن الأحمر) في الاندلس بالسلطان المريني فأنجده وكانت له عدة وقائع مع الاسبان وأجبرهم على عقد الصلح معه ، وغزا (سجلماسة) ، و (تافيلالست) .

وخلفه ابنه (يوسف بن يعقوب) وتلقب بالناصر لدين الله وحذا حذو أبيه ففجع في القضاء على الثورات التي أوقد نارها منافسوه على العرش وأمير تلمسان (يغمر اسن بن زيان) .

(١) القوطاس : ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٢) يذكر القوطاس أنهم جاءوا للمغرب في عام عشرة وستائة .

انظر القوطاس ص ٢٨٣ .

(٣) القوطاس ص ٣٠٧ .

وأنشأ على بعد أربع كيلو مترات غربى تلمسان مدينة (المنصورة) ، كما قام بعدة مشاريع عمرانية منها بناء المسجد الجامع بفاس ، والمسجد الجامع بمدينة (تازا) — لكن انتهت حياته بقتله وخلعه حفيده (أبو ثابت عامر بن عبد الله ابن يوسف) .

ومن ملوك بني مرين البارزين (أبو الحسن على بن عثمان المنصور بالله) الذى قولى عام (٧٣١ هـ) ، واستمر حكمه ما يبلغ عشرين عاماً استطاع خلالها أن يخضع تلمسان نهائياً إذ كانت لا زالت مأوى المناوئين وملجأ المثيرين للإضطراب لآلى دولة (بنى مرين) فقط بل وفى دولة (بنى حفص) أيضاً وانتهى الأمر بانصار (أبى الحسن) على (ابن تاشفين الربانى) وفتح تلمسان وانتهاء دولة بنى زيان .

كما نجح (أبو الحسن) فى دخول (تونس) سنة ٧٤٨ هـ التى كانت تشكو من الاضطراب والفوضى .

وبهذا صارت دولة أبى الحسن تشمل أقاليم المغرب الثلاثة وأصبح بذلك ملك المغرب على الحقيقة والإطلاق — على حد قول ابن خلدون . ولكن اضطر أبى الحسن للجلاء عن (أفريقية) بسبب ثورة قامت فيها ، وقد واجهت الأسطول المغربى أثناء عملية الجلاء هذه نكبة ، فقد عصف به الرياح وغرق الكثير من سفنه ، وكان من بين الفرقى ما ينيف على أربعائة من أعلام المغرب الممتازين الذين كان يصحبهم السلطان معه فى حله وترحاله وإن شاءت الأقدار أن ينجو السلطان أبو الحسن نفسه .

وقد تميز عصر هذا السلطان (أبو الحسن) بصلاته مع معاصريه من ملوك الإسلام فكانت له سفارات مع حكام فارس ، ومع السلطان (الناصر محمد ابن قلاوون) — سلطان مصر والشام والحجاز الذى أرسل له سنة (٧٣٨ هـ — ١٣٣٧ م) يخبره باستلانه على تلمسان

وسفارة السلطان (أبو الحسن المربنى) هذه ورسالته ورد السلطان المملوكى

عليها كانت موضع أخذ ورد من كثيرين من المؤرخين ، فقد لاحظ البعض أن (ديوان الإنشاء) في مصر خلع على السلطان المريني لقب (أمير المؤمنين) دون أن يخلعه هو على نفسه ، إذ كما يقول — القلقشندي أن رسالة السلطان المريني جاء فيها : [بن عبد الله أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين مالك العدوتين — ملك البرين أبي الحسن ..] (١) .

على كل ليس هنا مجال مناقشة هذه القضية . كما كانت له سفارات مع ملك مالى (منسا بن موسى) ، وغيره من ملوك السودان في عصره .

وقد اشتهر عهد أبي الحسن المريني بأعماله العمرانية — فقد شيد عدداً كبيراً من المدارس وعمرها وأسبغ على العلماء النعم فتضجعت العلوم وأبنت ثمارها . من ذلك مدارس فارس ، وتازا ، ومكناس ، وسلا ، وطنجة ، وسبته ، والدار البيضاء وآزمور ، وأسفي ، ومراكش ، وأغمت ، والقصر الكبير ، ونلمسان ، والجزائر وغيرها .

وقد رتب لهذه المدارس الكتب وأجرى المرتبات على الطلبة والأساتذة والخدام ، وأوصد لها الأوقاف التي تحفظ أودها وغير ذلك — كما يذكر — ابن مرزوق (٢) .

وحين نازعه ابنه (أبو عنان) السلطان — تنازل له عنه ، وعمل أبو عنان على استرجاع نفوذ الدولة المرينية على المغربين الأوسط والأدنى .

وقد كان الخلاف على العرش بين أفراد البيت المريني مما أدى لكثرة الفتن والقتال فضعفت الدولة واستبد الحجاب والوزراء (بنى وطاس) بالامر .

وكان عبد الحق (توفى سنة ٨٦٩ هـ) آخر ملوك بني مرين من فرع (بني عبد الحق) ، وقد ترتب على هذه الفوضى التي انتابت الدولة أن استقلت

(١) القلقشندي : معجم ، ج ٨ ص ٦٢٧ .

(٢) ابن مرزوق ، عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب ت ٧٨٢ هـ ١٣٨٠ م : المسند الصحيح الحسن في أخبار السلطان الحسن . (الأصل بمخزاة الاسكوريال — وهناك صورة " امة العامة بإرطاط — وقد نشر طرف منه بمجلة معهد الدراسات العليا المغربية مجلد ١٠ - ص ١٩٩) .

جهات برمتها عن سلطتها ، فاستولى [أبو عبد الله محمد الشيخ] سنة ٨٧٦ هـ [على فاس] وظل أميراً عليها حتى عام ٩١٠ هـ .

وخلفه ابنه [أبو عبد الله محمد] الذى عرف بالبرتغالى لأنه قضى أسيراً عند البرتغال سبع سنوات تقريباً أتقن فيها اللغة البرتغالية ، وقد احتدمت الحرب بينه وبين البرتغال الذين طمعوا فى السواحل الغربية .

ولما مات [أبو عبد الله] سنة ٩٣١ هـ خلفه أخوه [أبو حسونه] بينما كان الأمر فى [مراکش] فى يد السعديين ، وأدى هذا إلى انقسام البلاد واحتدام القتال بين أهلها .

وفى عام ٩٥٦ هـ نجح السعديون فى دخول [فاس] ، وقبضوا على بقايا الوطاسيين باستثناء [أبى حسونه] الذى فر إلى الجزائر ليستنجد بالأتراك العثمانيين فاحدوه بجيش توجه صوب (فاس) — لكن لم تلبث أن دارت الدائرة على (أبى حسونه) ودخل (محمد الشيخ السعدى) فاس وألقى القبض على أبى حسونه وقتله وبذا انقضى عهد حكم الوطاسيين .

وقد أدت الإضطرابات والنزاعات بين المتنازعين على العرش بالإضافة إلى الكفاح ضد الاطماع الأجنبية — إلى عدم التفرد للمشاريع العمرانية ، فلم تنق هذه الحقبة ، آثار عمرانية تذكر بل بالعكس أصاب بلاد الشمال الأفريقى الكثير من التخريب .

ويعتقد بعض المؤرخين أن قيام الدولة السعدية — التى أسسها فى المغرب (أبو عبد الله القائم بأمر الله) سنة ٩١٦ هـ — خلص المغرب من كثير من الاخطار التى كان يواجهها بسبب الاطماع الاستعمارية الأوروبية من ناحية ، وأطباع الأتراك العثمانيين الذين كانوا قد بسطوا سلطانهم على الجزائر وتونس من ناحية أخرى . وأصبحت أنظارهم مركزة على المغرب الأقصى على أن تاريخ المغرب حفل فى ذلك الوقت بأخبار هذا الكفاح ضد هذه الاطماع التى زادت من خطرها هذه الموضى التى ضربت أطناها منذ فقد الشمال الأفريقى وحدته وأصبح يفتقر لقوة حقيقية يرهبا أعداء العرب والعالمون فى بلادهم .

الدولة الزيانية

(بنو عبد الواد) في المغرب الأوسط

عاصر الزيانيون — المرينيين، فقد قامت دولتهم في تلمسان سنة (١٢٣٥م)، وتعرضت هذه الدولة بحكم وضعها لهجات الحفصيين والمرينيين ولذوات القبائل من الجنوب . وأول حكام هذه الدولة (يغمر إسن بن زيان بن ثابت) ، وقد أخلص أول الأمر لطاعة الموحدين ، لكن حين وصلت الدولة الموحدية إلى درجة كبيرة من الضعف تطلع (بنو عبد الواد) إلى التملك على المغرب الأوسط والانفراد بالسلطة فيه ، فحملوا الدولة الموحدية على التنازل لهم عن إمارة (تلمسان) .

واستقل (يغمر إسن) بتلمسان ، حتى لم يبق للموحدين بها سوى الخطبة فاستاء لذلك خليفة الموحدين (أبو الحسن السعيد — الملقب بالمعتصم) وخرج لقتال هذا الخارج على سلطانه ، وأتتهى الأمر بقتل خليفة الموحدين أبي الحسن وأدى ذلك لتشيت أركان (دولة بني عبد الواد) التي عرفت بعد ذلك في عهد السلطان (أبي هو الثاني) باسم الدولة الزيانية نسبة إلى والد يغمر إسن بن زيان ، .

واستطاعت هذه الدولة بأن تباشر سلطتها من (تلمسان) التي أصبحت قاعدة المغرب الأوسط^(١) ، وتلقب سلاطينها بلقب (أمير المسلمين) ، ولم يثبت عنهم دعوى الخلافة .

ولكن موقف هذه الدولة كان من المبدأ محفوفاً بالمخاطر فقد كانت تتعرض لأطباع كل من (الحفصيين) الذين كانوا يطعمون في أن يرموا ملك الموحدين ، كما كانت معرضة أيضاً للإصطدام بالمرينيين .

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٦١ .

واضطر (يغمر لسن) مؤسس هذه الدولة إلى أن يتفاهم مع الحفصيين في الوقت الذي ظهر أنهم من القوة بحيث بسطوا نفوذهم على المغرب الأوسط كله .

كما اضطر للتهادن مع المرينيين الذين زحفوا حتى أبواب تلمسان وكادوا يقضون على دولة بني عبد الواد الزيانية حتى أنه أوصى ابنه ووريثه (عثمان) قبل وفاته بأن يتجنب المجابهة مع المرينيين .

وحاول أبو سعيد عثمان (١٢٨٣ هـ - ١٣٠٤ م) العمل بوصية أبيه لكن المرينيين لم يكادوا يتخلصون من مشاكلهم مع قشتالة وبني الأحمر بالأندلس حتى اتجهوا لحصار تلمسان ، واستمر الحصار عدة سنوات حتى اضطر المرينيون عقب اغتيال السلطان المريني (يوسف بن يعقوب) إلى رفع الحصار .

ورغم أن سلاطين الدولة الزيانية استطاعوا بعد ذلك توطيد مركزهم الداخلي ، بل والتوسع على حساب الحفصيين — لكن استطاع المرينيون في [٧٢٧ هـ - ١٣٣٧ م] القضاء على الدولة الزيانية في دورها الأول باحتلالهم تلمسان وإخضاعها لسلطانهم .

ولكن انبعثت الدولة الزيانية من جديد بعد ذلك على يد أبو حمو موسى الثاني [٧٦٠ هـ - ١٣٥٩ م] وظل أمر هذه الدولة قائماً حتى ركن ملوكها للتواكل وكثر النزاع على الرئاسة بينهم فانتشرت الفوضى بين الناس واستبدت الولاة ورؤساء القبائل والشيوخ بما اتصل بأيديهم من أسباب الولاية والحكم واضطربت الأحوال .

وأتاح هذه الفرصة للأجانب الذين كانوا يتطلعون لمد نفوذهم للشمال الأفريقي ، وانتهى الأمر بأن استولى عليها الأتراك في عام ١٥٥٤ م^(١) .

(١) عقد في عام (١٤٩٤) مؤتمر (طورزلاس) بعد الأحداث التي مرت بها الأندلس وفي هذا المؤتمر الذي يعد حلقة في الحروب الصليبية تقرر مد النشاط الصليبي إلى الشمال لأفريقي ، وسيتركز على ذلك أن يتجه نشاط الاسبان بالاختصاص إلى بلاد الجزائر ، بينما اتجه البرتغال إلى المغرب الأقصى .

هذه صورة سريعة للمغرب العربي في مستهل العصور الحديثة .
على أن هذا التفتت والإنقسام في المغرب العربي شجع الدول
الطامعة في هذه البلاد لأن تعمل على بسط نفوذها عليها وهو ما سنعالجه
في الباب التالي .

* * *

أولا - الأطماع البرتغالية والاسبانية في المغرب الأقصى

الباب الأول

إتجاه الاطماع الأجنبية

إلى المغرب العربي
(في بداية العصور الحديثة)

مباحث هذا الباب :

أولاً — الاطماع البرتغالية والاسبانية في المغرب العربي :—

الفصل الأول : الاطماع البرتغالية .

الفصل الثاني : الاطماع الاسبانية .

ثانياً — الأتراك العثمانيون في المغرب العربي :—

الفصل الثالث : الجواتر ولاية عثمانية .

الفصل الرابع : تونس ولاية عثمانية .

الفصل الخامس : ليبيا ولاية عثمانية .

الفصل الأول

الاطماع البرتغالية

ارتبط تاريخ شمال أفريقيا ، والمغرب العربي بالذات وتأثر بالاضعاع في العالم الإسلامي عامة ، كما ارتبط إلى حد كبير بالتاريخ الأوربي خاصة تاريخ البلاد المطلة على هذه الشقة المائية التي تفصل — أو بالأصح تصل خاصة في مناطق الاختناق أو التلاقى عند جبل طارق — بين دول جنوب أوروبا ودول شمال أفريقيا — بحيث يصعب فهم تاريخ شمال أفريقيا خاصة في الفترة التي ندرسها منذ القرن الخامس عشر حتى وقتنا هذا دون الإلمام بالاحداث التي كانت تتفاعل في هذه الاقاليم الأوروبية وتلك التي كانت تسيّر أمور العالم العربي عامة .

وفيما يتعلق بالدول الأوروبية لعل أحداث شبه جزيرة أيبيريا كانت أقوى أثراً من غيرها على مجريات الأمور في المغرب العربي .

فقد كانت شبه جزيرة أيبيريا — كما نعلم — محتلة من العرب ، ولما بدأت شعوب شبه الجزيرة تنشط في مقاومة العرب ، بعد الظروف التي أحاطت بالدولة الأموية في الأندلس ، استطاعت البرتغال أن تحقق حريتها في القرن الثالث عشر قبل أسبانيا ، بينما ظلت أسبانيا حتى القرن الخامس عشر تطارد العرب فلم تسقط غرناطة إلا في سنة (١٤٩٢ م) وأضحت الأندلس كما أطلق عليها الكتاب العرب (فردوس العرب المفقود) .

على أن هذا الصراع بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس لم تقتصر آثاره على شبه جزيرة أيبيريا فقط بل امتدت آثاره إلى شمال أفريقيا ، فقد حمل مسيحيو الأندلس شمال أفريقية تبعه الغزو الإسلامي لبلادهم وتدعيم هذا الغزو ، كما صبوا نار غضبهم على المسلمين في أسبانيا ، ففر منهم من استطاع الفرار بدينه

وبقى من عجز عن الفرار وتعقب المسيحيون المسلمين الفارين إلى الشمال
الأفريقي وقامت حروب طاحنة أطلقوا عليها اسم حروب الاسترداد .
Recon Quista (١) .

ولم تكن هذه الحروب أقل ضراوة مما دار من حروب في الشرق بين
المسلمين وبين الذين جاءوا متخفين وراء صليب المسيح من الأوربيين ، وهكذا
يمكن أن نقول إن موجة الحروب الصليبية التي هدأت وطأتها في الشرق بدأت
تظهر آثارها بالمغرب وبعنف وإصرار لا يقلان عما كانت عليه في أوجه قوتها
في الشرق ، ولعل المشاهد يدهش لانتقال سيرة هذه الحروب من الشام إلى
مصر ثم إلى تونس ثم الجزائر والمغرب الأقصى .

وقد أتاحت الفرصة للبرتغال للاتجاه بحرياً وخارجياً في وقت مبكر عن
الاسبان — كما ذكرنا — لعدم وجود عدو داخلي يشغلها كما هو الحال بالنسبة
لاسبانيا في ذلك الوقت .

وقد أعطت الحروب ضد العرب والمسلمين التي أشرنا إليها . البرتغال دفعة
دينية قوية بدليل أن الملك يوحنا — والد الأمير هنري الذي عرف في السكتب باسم
هنري الملاح (Henry The Navigator) — صرح بأن الميدان الحقيقي
الذي يكسب فيه أفراد البيت المالكة الفخار هو ميدان الجهاد ضد المسلمين في
المغرب ، وإنه سيمنح أكبر وسام في بلاده وهو (وسام السيد الأعظم) لمن
يجاهد في هذا الميدان ، وكان هذا الشرف من نصيب (هنري) الابن الثالث للملك
الذي تصدى لهذه المهمة ، وكان إغداق الملك عليه بالرتب ومن دوافع استحقاقه
بالمخاطر في سبيل تحقيق الهدف الذي أعلن عنه الملك .

يضاف إلى هذا أن هنري نفسه ، كان على رأس الجماعة التي عرفت باسم

(٢) حنين مؤنس : الفرق الإسلامية في العصر الحديث من ٢٨٩ .
ملاحظة : استمن بالخریطتين رقم ٧ ، رقم ٨ بملاحق السكتاب .

(جماعة المسيح) ونواة هذه الجماعة بعض الفرسان الصليبيين الذين هربوا من جزر البحر المتوسط بعد تعقب المسلمين لهم فلجأوا إلى البرتغال وكانوا بالطبع يتوقون للإنتقام من المسلمين ، كما كانت من أمنيات الأمير هنرى — كما صرح هو — أن يعمل عملاً يتقرب به إلى الله عن طريق التبشير بالمسيحية الكاثوليكية في سواحل أفريقيا الشمالية وبين الوثنيين الأفريقيين ،

هذا وقد راودت (الأمير هنرى الملاح) الذى حكم البرتغال فيما بعد (١٣٩٤ — ١٤٦٠م) — فكرة رسم خطة كاملة لحملات بحرية تستولى على سواحل أفريقيا الشمالية ، بل وتتابع أيضاً عليها تصل إلى مصادر الثروة التى كانت تعتبر الأساس الذى يستند عليه المسلمون لتدعيم جيوشهم — وكانت هذه الخطة تتجه أولاً للوصول إلى (غانة) التى ذاعت شهرتها لثروتها وتجارتها مع المسلمين ، وكانت تغزر المغرب تعتبر المنافذ الرئيسية لهذه التجارة — فرأى أن يقطع عن المسلمين هذه التجارة وبذا يستنزف مصادر قوة البلاد الإسلامية فى شمال أفريقيا ، بل وصرح أن أهدافه أن ينشر المسيحية بين سكان المناطق الأوربية الواقعة خاف هذه السواحل ويستخدمهم بعد ذلك لتحقيق مشروعاته.

وتطورت هذه الخطط فيما بعد إلى مدى أوسع فكان التفكير فى الوصول إلى بلاد إثيوبيا المسيحية وهى مملكة كانت شهرتها قد ملأت الاسماع فى أوروبا وإن كان مكانها ظل لفترة غير محدد بالضبط وبذا يمكن عقد حلف مع هذه المملكة المسيحية ليتعاونوا فى تطويق بلاد المسلمين .

ويمكن بذلك أيضاً الوصول إلى بلاد الشرق التى تدر على المسلمين فى الشرق (الماليك فى مصر والشام والحجاز) أرباحاً طائلة من جراء احتكار السفن العربية نقل هذه البضائع حتى موانئ البحر المتوسط بالإضافة إلى (المكوس) التى تهب عليها (١) .

Panikhar, Sardaa: The Afro-Asian State and Their (١) .
Proplems, p. 20.

ولتحقيق هذا الهدف اهتم هنرى الملاح بتقوية أسطول البرتغال وجلب الفلكيين ورأسمى الخرائط والبحارة من إيطاليا وصقلية - وألشأ مدرسة بحرية واهتم بتعليم البرتغاليين فن الملاحة على الطرق الحديثه وعلى الاسس العلمية الصحيحة .

وقد أشار الضابط والسكراتب البرتغالى (فاسكودى كرافاللو) - الذى أرخ للاستعمار البرتغالى فى هذه الفترة - إلى الروح التى كانت تسود الشباب البرتغالى عامة يومئذ فقال :

« إن الشباب البرتغالى كان يعتقد أن المسلمين إذا كانوا قد التجأوا من شبه جزيرة الأندلس إلى الشمال الأفريقى - فإن الواجب يحتم على المسيحيين ألا يتركهم ينعمون بالمقام هناك بل أن يتعقبوهم حيث وصلوا (١) .

وفى ٢٥ يوليو عام ١٤١٥ - غادرت ميناء لشبونة قوة برتغالية ضخمة على ظهر أسطول من ٢٤٠ سفينة وحرصت البرتغال على إخفاء وجهة هذه الحملة حتى وصلت سفنها إلى ميناء سبتة المغربى الذى فوجئ به هذا الغزو، ودخل الغزاة المدينة ، ومن هذا التاريخ إلى اليوم لم تعد سبتة إلى حظيرة الوطن الأم ، ولذا يقول الضابط البرتغالى (فاسكودى كرافاللو) : -

« إن هذا الحدث الخطير والعظيم أجدر بأن يعتبر بداية للعصور الحديثة ، من أن يتخذ سقوط القسطنطينة فى يد المسلمين فى ١٤٥٣ - بداية لها (٢) .

ولم نستطع الدولة المرينية بالمغرب أن تواجه هذا الخطر الداهم فقد كانت فى دور إحتضارها ، وكان أبو سعيد عثمان (٨٠٠ - ٨٢٣ / ١٣٩٧ - ١٤٢٠ م) يعانى من المشاكل الداخلية ومنها أن نفوذ حجاب الدولة ووزرائها وتدخلهم فى الحكم ، كان قد زاد بشكل ملحوظ .

De Carvalho, Vasco: La Domination Portugaise Au (١)

Maroc, 1415-1789 (Lisbonne, 1936) p. 15

Ibid. p. 17.

(٢)

وقد حاول هذا الحاكم المغربي في عام ١٤١٩ م أن يتخذ خطوة — بالإشتراك مع القوى الإسلامية في غرناطة — لتوجيه حملة بحرية وأخرى برية ضد البرتغاليين في سبته لكن اضطرت القوات الإسلامية المهاجمة للعودة ، ولم يجدد المغاربة محاولاتهم لإستردادها إلا بعد ذلك بفترة طويلة .

على أن البرتغاليين لم يكتفوا بالإستيلاء على سبته ، فبعد أن ثبتوا أقدامهم فيها وحصنوها إتجهت أنظارهم إلى طنجة ، وأعدت حملة من ٨٠٠٠ جندي لتحقيق هذا الهدف ، ووصلت هذه الحملة إلى سبته في ٢٧ أغسطس ١٤٣٧ م وأنقسمت إلى قسمين قسم على رأسه الأمير (D. Henrique) أتخذ الطريق البري صوب طنجة ، والآخر على رأسه الأمير (D. Fernando) أقلع عن طريق البحر وذلك بهدف الإطباق على المدينة من البر والبحر .

اجتاح هذا الخطر الجديد المغرب في فترة حرجة من فترات تاريخية فقد كان السلطان المريني (أبو سعيد عثمان) قد قتل في عام (٨٢٣ هـ ١٤٢٠) وخلفه ابنه عبد الحق وكان طفلاً صغير السن ، فألت أمور الدولة إلى الحجاب والوزراء وكثر النزاع بينهم . لكن نجح الوزير (أبو زكريا يحيى الوطاسي) في أن يقبض على ناصيه الأمور ونصب نفسه وصياً على الملك الطفل وأرسل للأقاليم المغربية يحضها على الإسراع في تقديم المعونة للمدينة المجاهدة وكان هو على رأس الجيوش المدافعة عنها ، وانتهت المعركة بهزيمة البرتغاليين وعجزهم عن اقتحام المدينة والإستيلاء عليها ، واضطروا بعد أن أنزلت بهم القوات المغربية المستعينة في الدفاع عن بلادها خسائر فادحة أن يدخلوا في مفاوضات للصلح ليستطيعوا الجلاء بقواتهم الباقية ، وكان بما أثاره الجانب المغربي كشرط أساسى للصلح أن يجلو البرتغال أيضاً عن ميناء (سبته) . لكنهم اعتبروا هذه لطة تودى بسمة الملكية البرتغالية الناشئة ، وفضوا أن يبقى شقيق ملك البرتغال الصغير (Fernando) رهينة لدى السلطات الغربية لضمان عدم معاودة البرتغال الهجوم على طنجة أو غيرها من الموانئ المغربية ، وقد ظل هذا الطفل سجيناً في فاس ،

حتى مات في ٥ يونيو ١٤٤٣ م ، وقد اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية فيما بعد ضمن الشهداء^(١).

على أن هزيمة البرتغال وعجزهم في هذه المرة عن إقتحام طنجة ، وشروط الصلح التي اضطروا لتوقيعها مع السلطات المغربية لم تنههم عن الإعداد لمتابعة عمليات الغزو للنور الغربية .

وأشير إلى ظاهرة مهمة أضفت على هذا الصدام بين هذه القوى الأوربية وبين المسلمين بالمغرب العربي — صفة الحرب الدينية — وهي ظاهرة إنتشار الطرق الصوفية في المغرب بالذات ، منذ أيام المرابطين والموحدين ، وكان سادة مراكز في ذلك الوقت قد منعوا أتباع هذه الطوائف من مواولة نشاطهم خارج زواياهم — لكن الأحداث التي ارتبطت بمحاولات الغزو البرتغالي للنور المغربية — جعلت أتباع هذه الطرق الصوفية ينشطون من جديد ويظهرون على مسرح الأحداث في مواجهة هجمات البرتغاليين وغيرهم من القوى المسيحية خاصة بعد أن أظهرت السلطات في (فاس) عجزها عن مقاومة هذه الهجمات البرتغالية ودفعها .

وكانت أكثر طوائف الصوفيين حماساً في ميدان الجهاد ضد هذه القوى الإستعمارية طائفتان :

١ — أتباع الطريقة القادرية — التي تنسب لعبد القادر الجيلاني الذي أنشأ هذه الطريقة في فاس منذ القرن الحادي عشر الميلادي (مات في بغداد سنة ١٠٦٦ .

٢ — وأتباع الطريقة الجوزولية — التي تنسب إلى محمد بن سليمان الجزولي الذي أنشأ هذه الطريقة في القرن الخامس عشر . ووجد الوطاسيون أن الحكمة

(١) من أفضل المراجع عن أحداث هذه الحقبة :

Ruy De Pina : Chronica Do Sero ut Supra, T. I. (1790)
pp. 16-42.

تفرض بتوجيه نشاط هذه الطوائف الصوفية إلى مجابهة العدو الخارجى . ولعل هذا يقصر لنا السبب فى اتجاه (أبو زكريا الوطاسى) وأتباعه إلى تشجيع اتباع هذه الطوائف ، والسماح لهم بإحياء ذكرى قادتهم بعد أن كانوا قد أجبروا على التوقيع داخل رواياهم^(١) .

على أن استيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ كان له من الناحية الأخرى تأثير ضخم على مجريات الأحداث فيما يتعلق بأوروبا وموقفها من العالم الإسلامى ، فقد كان لسقوط عاصمة الامبراطورية البيزنطية فى يد هذه الدولة الإسلامية الفتية دوى هائل فى أوروبا حتى أن الكنائس دقت أجراسها الدقات الجنائزية حداداً على هذا الحدث الجلل ، ودعا البابا إلى حرب صليبية جديدة ضد القوى الإسلامية التى تهدد العالم المسيحى ، وكان من الذين استجابوا لهذا النداء الفونس الخامس (Alphonse V) ملك البرتغال .

وكان هذا الملك البرتغالى قد أخذ منذ وصل إلى عرش البرتغال فى عام ١٤٣٨ - بعد العدة لمتابعة عمليات الغزو لثغور المغرب ، وكان مما استقر عليه رأى هذا الملك ومستشاريه أن توجه الجهود أولاً - للاستيلاء على ميناء (القصر الصغير) الواقع بين سبتة ، وطنجة توطئة للاستيلاء على طنجة ، وقاد الملك الفونس - فى ٢١ أكتوبر ١٤٥٨ حملة ضخمة لمهاجمة ميناء القصر الصغير ، ونجحت الحملة فى تحقيق أهدافها فافتحمت القوات البرتغالية الميناء المغربى وبني البرتغال به حصناً لحمايتهم^(٢) .

وفى وسط الجو الدينى المشبع بالإثارة الذى سيطر على العالمين الإسلامى والمسيحى ، وفى وسط الأحداث التاريخية المتتالية المتمثلة فى الزحف العثمانى

(١) توجد صورة دقية الحصن البرتغالى فى القصر الصغير بمخطوطات تطوان .

من الشرق على أوروبا ، وانحصر سلطان المسلمين عن الاندلس لم يكن غريباً أن تشهد بلاد المغرب فصلاً أو أكثر من فصول هذا الصراع الذى اتسم بالسمة الدينية . فقد أعدت الحملة الصليبية التى دعا اليها البابا لاثر سقوط القسطنطينية فى يد العثمانيين ، على أن الملك البرتغالى (الفونس الخامس) نجح فى أن يوجه هذه الحملة الصليبية إلى المغرب بدلاً من أن تكون صوب القسطنطينية ، وذلك بحجة إرساء قاعدة بحرية فى الشمال الأفريقى تكون فى خدمة الأساطيل والجيش الأوربية فى المستقبل ، وقصدت الحملة (طنجة) بإعتبارها أنسب مكان لذلك لسكرتها فشلت فى الإستيلاء عليها ^(١) .

على أن الاستيلاء على (طنجة) ظل منذ ذلك الوقت الحلم الذى يتطلع التاج البرتغالى لتحقيقه ، وقد بذلت البرتغالى لذلك ثلاث محاولات للاستيلاء على هذا الميناء المغربى آخرها فى يناير ١٤٦٤ خسر فيها البرتغاليون ما يقرب من مائتى قتيل ، وأكثر من ألف أسير .

وقد حاول أتباع (الجزولى) من الصوفية الذين بلغ عددهم فى ذلك الوقت ما يقرب من ثلاثة عشر ألف ، وملأوا البلاد بالزوايا والمجاهدين ، أن يمسكوا بدقة الأمور فى تلك الساعات الحاسمة ، لكن البلاد كانت فى حالة من الفوضى والاضطراب أدت إلى كثير من الفتن وحوادث القتل والاغتيال ، خاصة بعد مقتل (عبد الحق أبى سعيد المرينى) فى عام (٨٦٩ هـ - ١٤٦٤) ، فقد كان هذا السلطان يهودياً استبد بالناس ، فضج أهل فاس بالذات وفتكوا بالسلطان والوزير معاً وانتخبوا للإمارة أحد الشرفاء من أحفاد الإدارة هو (أبو عبد الله الحفيد) ، لكن لم تستقر له الأمور فقد نافسه فى الإمارة

(١) ملاحظة :

اصدر الباباوات فى هذه الفتر من الصراع عدة مراسيم دعوا فيها للجهاد ضد المسلمين ، نذكر منها على سبيل المثال الرسوم الذى أصدره البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٥) وللرسوم الذى أصدره البابا كالست الثالث (Galliste III) الذى تولى كرسي البابوية (١٤٥٨ - ١٤٥٥) ، والمراسيم التى أصدرها البابا اسكندر السادس بعد ذلك — وقد وصل الأمر ببعض هؤلاء البابوات إلى أنهم وصفوا الاسلام بأنه الطاعون الذى يجب القضاء عليه نهائياً .

(محمد الشيخ بن أبي زكريا الوطاسي) عامل أصيلا الذي سـمـار إلى فاس وحاصرها ، وأستمر الصراع بين الإثنين من عام ١٤٦٥ إلى عام ١٤٧٢ .

ولم يتأخر البرتغاليون في الإستفادة من هذه الفوضى — فأرسلوا في عام ١٤٦٩ — قوة هاجمت انما (Anta) واستولت عليها . كما أرسلوا في ١٤٧١ قوة استولت على أصيلا (Arzila) وأسرت الحامية البرتغالية عدداً كبيراً من المدافعين عن المدينة ، وفي قصة المدينة قبضوا على كثير من النساء والأطفال منهم أولاد وزوجات (محمد الشيخ بن أبي زكريا) . وكان في هذا الوقت مشغولاً بمحاصر فاس فأسرع بجيشه لنجدة المدينة المنكوبة لكنها كانت قد سقطت في أيدي البرتغال — فدخل معهم في مفاوضات انتهت بعقد صلح أتفق فيه على ألا يحاول المغاربة الهجوم على القوات البرتغالية في المناطق التي احتلوها ، وأطلق البرتغال صراح زوجات محمد الشيخ وأولاده ماعداً أحد أبنائه الذي بقي كرهينة عندهم لضمان تنفيذ شروط المعاهدة (١) .

ولم يلبث البرتغال أن استولوا على العرائش . ثم استولوا على (طنجة) في أغسطس ١٤٧١ ، وقد سقط هذا الميناء الذي استعصى من قبل عليهم — في أيديهم دون مقاومة تذكر فقد كانت الخلاقات الداخلية تفتت الجهود وتصرفها عن التفرغ للعدو الخارجي ومن ذلك التاريخ أصبح ملك البرتغال يلقب بلقب ملك البرتغال والأقاليم البرتغالية فيما وراء البحار .

وقد هاجم السلطان (محمد الشيخ) مدينته سبتة في عام ١٤٧٦ ، في محاولة لتوجيه ضربة للبرتغال بها ، وكان مدفوعاً في ذلك بإيعاز من ملك أسبانيا فرديناند الكاثوليكي (Ferdinand le Catholique) الذي كان في حرب ضد الفونس الخامس (Alphonse v) والذي وعد بمهاجمة المدينة بجرأ في الوقت الذي تهاجمها فيه القوات المغربية من البر

(١) هو (أبو عبد الله محمد) وقد قضى عند البرتغال سبع سنوات تقريباً . . كما أشرنا سابقاً — ونحن نرجح أن يتقن اللغة البرتغالية — فلقب بالبرتغال وقد حكم (٩١٠ — ٩٣١ هـ - ١٥٠٤ — ١٥٢٤ م)

(٢) بقيت طنجة — في يد البرتغال ما ينيف على قرنين من الزمان حتى تنازلوا عنها للألمانيز عام ١٦٦١ ، كهر قدمته (كاترين دوبرا كانس) شقيقة ملك البرتغال لزوجها شاول الثاني ملك إنجلترا — وقد استردها المولى اسماعيل (١٠٩٥ هـ — ١٦٨٤ م) . . (م — المغرب)

لك استطاعت القوات البرتغالية في سبته أن تصمد لهذا الهجوم ، كما نجح البرتغال في عقد صلح مع قشتالة في ٤ سبتمبر (١٤٧٩) ، وأعقب ذلك معاهدة صلح في ٦ مارس (١٤٨٠) وضمت نهاية للحرب بين الدولتين وأطلقت فيها أسبانيا يد البرتغال في الموانئ المغربية .

ونتيجة البرتغال إلى الطريقة التي سادت بعد ذلك في القارة الأفريقية والتي اتبعتها الدول الإستعمارية المختلفة وهي الإنصال بالسلطات غير الشرعية أو بالخارجة عن سلطة الحكومة المركزية ومحاولة الاتفاق معها لتحقيق أطماعها الإستعمارية .

وكانت قبائل (للصامدة) بالذات التي — كما يقول البكري — قد تأيدت في الجبال واشتهرت بالمنعة والبأس وحظيت بما لم يحظ به غيرها من الثراء والإستقرار^(١) — لا تعترف بالسلطة المطلقة لحكام فاس .

وكانت مواطن هذه القبائل — وهي أماكن لها أهميتها باعتبارها الظهير للموانئ المغربية الهامة على المحيط الاطلسي — مركز ثورة وإضطراب ، واشتهرت من قبائل المصامدة (هتاته) وموطنهم — الجبل المتاخم لمراكش ، و (دكالة) وموطنهم الساحل المواجه لجبال الاطلس من جانب الحوف فيما يلي مراكش إلى البحر ، (حاحة) وموطنهم السوس الأقصى . فأتصل البرتغال ببعض شيوخهم المناوئين لسلطة الحكومة المركزية فكانوا يهدونهم بحاجة جيوشهم من المؤن والخيول وغير ذلك^(٢) .

(١) البكري : الممالك والسيالك ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٢) المصامدة نسبة إلى مصمود بن يونس ، وهم من أكثر قبائل اليربر عدداً ، وكان لهم التقدم والدولة قبل الإسلام وبعده — ولم تزل مواطنهم بمنحوب المغرب الأقصى منذ الأجيال المتطاولة كما يقول المراكشي في المعجب .

وانظر : ابن خلدون ج ٦ ص ٤٦١ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ .
ويتر ابن خلدون . من أعظم المؤرخين الذين كتبوا عن العرب

وأقام البرتغال في جزيرة نهريه في اللوكس حصناً أطلقوا عليه اسم حصن جراسيوزا Gra ciosa ليشرقوا منه على مراكوزم في المواقع الأصلية في (سبته) ، و (القصور الصغير) و (طنجه) و (أصيلا) .

ومهد جيان الثاني Jean II الذي حكم البرتغال (١٤٨١ — ١٤٩١) لبسط النفوذ البرتغالي على ميناء (أسفى) و (أزمور) فعقد مع شيوخ القبائل في المناطق المحيطة بالميناءين مهادات واتفاقات كفلت للبرتغال بعض الامتيازات فيها^(١) .

وتركزت أنظار الملك عمانوئيل الأول Emanuel I الذي توصل لعرش البرتغال سنة ١٤٩١ أولا على (أسفى) الثغر المغربي الواقع على شاطئ البحر المحيط بأقصى الغرب — كما يقول ياقوت في معجم البلدان^(٢) .

وكانت أسفى في ذلك الوقت تتازعها عدة سلطات هي :

(أ) سلطة الوطاسيين الضعيفة .

(١) نصوص هذه الإلفاقات موجودة بالأرشيف البرتغالي :

Archives Nationales de La torre do Tombo Gaveta 11 Maco 1,
No. 7.

(٢) يقول ياقوت في معجم البلدان :

اسنى بفتحين ، وكسر الفاء ، بلدة على شاطئ البحر المحيط بأقصى المغرب ، وتارة يحكون مبهوزة ، وتارة ممدودة — وكلاهما قيل به .

أما عن سبب تسميتها هذه ، فهناك أقوال متعددة في هذا الشأن — فابوعبد الله محمد ابن محمد الشريف الادريس (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٤) في نزهة المشتاق يورد قصة طويلة يرجع لها هذا التسمية .

لكن آسنى في لغة الشلوخ معناها (الممدبة) أو محطة الحجاج ، فلعل هذا هو السبب المقبول للتسمية .

(ب) سلطة رؤساء القبائل في المنطقة التي اقتطعوها من حكومة الوطاسيين ولم يقدرُوا على إدارة أمورها .

(ج) سلطة البرتغاليين المتسربة بواسطة الدسائس والإتفاقات مع مشايخ القبائل .

ويحدثنا الحسن بن الوزان (ليو الأفرى) عن أسفى بأنها كانت مدينة تجارية هامة وأنها حتى ختام القرن الخامس عشر كانت تلعب دوراً هاماً في تجارة غرب أفريقيا وشمالها الغربي ، كما يشير إلى كثرة النزاع بين قبائلها وأن الدول الاستعمارية استفادت من هذه الخلافات والاطماع القبلية لتدعيم نفوذها في هذا الثغر الهام ، فيذكر أن شخصاً يدعى (عبد الرحمن) استطاع الوصول للسلطة في أسفى ، مساعدة البرتغال ، لكن قتله يحيى بن تعفت Yahia Ben Tafafit وأصبح هو أيضاً صاحب النفوذ في أسفى بتقربه للبرتغال ، وقد لعب هذا الأخير دوراً حاسماً لتدعيم نفوذ البرتغال في هذه الجهات (١) .

وكانت لأسفى بالذات أهمية خاصة باعتبارها مرسى مراكش ونافذتها ، وفي عام (١٥٠٨) أرسل الملك عمانوئيل الأول قوة برتغالية حملتها أربع سفن حربية لتدعيم نفوذ البرتغال في أسفى وتأييد السلطات الموالية لهم بها ولإسكات أصوات المعارضين للنفوذ الأجنبي في الميناء ، واستطاع قائد القوة البرتغالية (G. Mendes) أن يحصل من سلطات الميناء على حق بناء دار تحفظ للبرتغال بضائعهم ويأوى إليها التجار من رعاياهم حين يحضرون بسفنهم للتجارة مع هذا المنفذ البحري ، وبو البرتغال لهذا الهدف قسبة مربعة الشكل جعلوا على كل ربيع منها برجاً ،

(١) Teo Africanus : The History and Description of Africa (Published by Hakluyt) . (London , 1896) pp. 284-193, 367.

وجعلوا في وسطها عدة دور وخزائن سمح لهم حاكم أسفى بإقامتها باعتبارها دوراً للتجارة ، لكنها في الواقع كانت قلعة حربية ، فلما اكتمل كل شيء فتحوا لها باباً على البحر وقيل إنه من هذا الباب كانوا ينزلون عساكرهم ، كما كانت أسلحتهم تأتي في صناديق تحمل للداخل حيث تفرغ باعتبار أنها بضائع ، ولم يفتن لذلك المستولون عن الميناء إلا بعد أن نجحت للبرتغال القوة فانقضوا على السكان بأسلحتهم حتى اضطروهم للجوء إلى المساجد وأسلم لهم الميناء (١) .

وقد عامل البرتغال أهل أسفى بعد تسليمهم للسلطات البرتغالية أسوأ معاملة وأذاقوهم العذاب ألواناً ، وأهانوا المعاهد الدينية ، فنقضوا بعضها حجراً على حجر ، بينما جعلوا المسجد الكبير محلاً للقاذورات وعذبوا بالمحارم واستباحوا التجارة في الأحرام فباعوا أهلها جهاراً ، وسفكوا الدماء ونهبوا المال وهدموا الدور (٢) .

ولعل خطاب سكان أسفى للملك عمانوئيل الأول المؤرخ ٢ يولييه ١٥٠٩ - يعطى فكرة عن الأوضاع في المدينة وما عاناه المواطنون من جنود الإستعمار ،

(١) رار المؤلف بقايا الحصن البرتغالي لاسي المعروف اليوم بقصر البحر Chateau de Mor وهو مقام على ربوة تطل على البحر ويهبط على البحر ، ومن أعلى هذا الرج يظهر مكان السارى البرتغالي ، وحوايط الحصن من الحجارة السمكية ، والنوافذ عالية وبشكل يهيئ لمن في الداخل الحماية والقواعد تحفظ عليها المدافع البرتغالية الموجهة للبحر أو المدينة . وبداخل الحصن في الدور السفلى مساكن الجنود وساحة لتدريبهم وخزان للمياه - وفنحات النوافذ بشكل الصليب - وملحق بالحصن مكان موحش هو سجن المعتقلين - والحصن يؤدي سرداباً طويلاً إلى الكنيسة البرتغالية - وهناك بقايا السور الذي أحاط به البرتغال المدينة ، ويبدو بشكل يمكنهم من التحكم في المدينة كلها بعد أن هدموا السور القديم وأقاموا المدافع في أماكن متفرقة من هذا السور .

وهذا الحصن يعطى صورة للحصون البرتغالية الأخرى التي أنشئت بنفس النظام في الموانئ المغربية التي وقعت في أيديهم

(٢) الكائنون ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الكائنون العيسى : أسفى وما إليه قديماً

وحدثنا (١٣٥٣ هـ) ٨٢٢ .

وكذلك الأسلوب الذى اتبعه البرتغال لتثبيت أقدامهم وفرض سلطانهم على القبائل هناك^(١).

فقد وجدت السلطات البرتغالية فى تنازع شيوخ القبائل فيما بينهم فرصة لتحقيق أهدافها وبرز هذا الخلاف على الخصوص بين (يحيى بن تعففت) و(على ابن عثمان)، وكان كل منهما يتقرب للمستعمر ليحصل على تأييده فيعهد إليه مشيخة البلد على أن يقوم بإخضاع الأهالى للسلطان البرتغالى ونقض الولاء للسلطات المغربية. وسكان أسفى يشكون فى خطابهم ما أصاب الجوامع من سرقة الحصر، وتدنيسها، والاستيلاء على الأوقاف (الاحباس)، كذلك وصل الأمر إلى أن الجنود البرتغال كانوا يقبضون على أولاد المسلمين ويبيعونهم كالرقيق، فأضطرب الكثيرون للهجرة وترك البلد. على أن (يحيى بن تعففت) الذى عين من قبل البرتغال لمشيخة أسفى، وسلم زمام الأمور المتعلقة بالمسلمين بها يعتبر من الشخصيات التى إستند عليها الحكم البرتغالى هنا، فقد أدى خدمات ضخمة للمستعمر، وظل يعمل لحسابه حتى قتل فى عام (١٥١٨) وأعتبر البرتغال فقده خسارة لا تعوض، حتى أن الوثائق البرتغالية التى ترجع لهذه الفترة تذكر قتله وقتل (ملك بن داود) سنة ١٥٢١ — الذى لعب نفس الدور كما سفسهر فى أكادير (ساتا كروز) — على أنه ضربة أصابت عمودين من أهم الأعمدة التى يقوم عليها النفوذ البرتغالى فى الثغور المغربية، وقد أطلق البرتغال يدى يحيى ابن تعففت فيما يتعلق بشؤون المسلمين حتى إنه وضع التنظيمات وسن القوانين التى تنظم علاقات السكان بعضهم ببعض الآخر، وكان ينبى عنه من يقوم بالفصل فى الخصومات بين الأهالى إلى غير ذلك من الشؤون الداخلية^(٢). على إنه يبدو

(١) نس الخطاب موحودى .

Archives Nationales de la Torre do Tombo Casa dos Tratados
Documents Arabes.

— وقد نشر المؤلف بعض هذه الوثائق كملحق لبحث له نشر فى مجلة معهد الدراسات والبحوث الأفريقية فى جامعة القاهرة — العدد السنوى (١٩٧٥) .

(٢) نس التنظيمات التى أصدرها يحيى بن تعففت موجوده فى :

Archives Nationales de la Torre do Tombo Casa dos Tratados
Documents Arabes.

أن ثقة البرتغاليين به جعلته يشتط في معاملته للوطنيين حتى اضطر بعض كبار شيوخ القبائل لتقديم الشكاوى ضده للحاكم البرتغالي (١) .

وبسط البرتغال نفوذهم أيضاً على ميناء (الصويرة) الواقعة على بعد ٣٨ كيلو متراً جنوبى أسفى على مصب نهر تانسيفت (Tensift) .

كما كانت أنظار البرتغال متجهة إلى ميناء (أكادير) ، فقد كانت لهذا الميناء أهمية خاصة باعتباره المنفذ لحاصلات منطقة (سوس) ومنتجاتها الوفيرة بالإضافة إلى أنه مرفأ صالح لرسو السفن ، وقد أدرك البرتغال هذه الأهمية منذ السنوات الأولى للكشوف الجغرافية الحديثه فعمدوا منذ عام ١٤٤٧ لربط شيوخ القبائل في المناطق المجاورة (في ماسة بالذات) — باتفاقات .

ومنذ أوائل القرن السادس عشر كان مغامر يدعى Joao Lopes De Sequeira يسعى لعقد إتفاقات تخول له وضع يديه على منطقة أو أكثر من الساحل المغربى على المحيط الأطلسى تتيح له فرصة القيام بنشاط تجارى وخلافه في هذه المناطق ، ولقت نظره بالذات المناطق المحيطة بـ (أكادير) شمالاً وجنوباً . ولقى هذا الشاب البرتغالى تأييداً من الملك عمانوئيل الأول لكن بصفة غير رسمية — فقد كان هذا الملك يتحاشى الدخول في نزاع سافر مع الأسبان الذين كانت أنظارهم مسلطة على (جزر كناريا) المواجهة للساحل المغربى في هذه الجهات وقد وقعت هذه الجزر في أيديهم منذ عام ١٤٧٦ م (٢) .

وقد اضطر المغامر البرتغالى (Lopes) إلى الإعتماد على ثروة زوجته للصرف على أوجه نشاطه في هذه المناطق الساحلية بالمغرب ، وفق في عام

(١) هناك خطابان للشكوى من تصرفات يحيى بن تغمفت مقدمان للقائد البرتغالى أحدهما بتاريخ ١٢ أكتوبر ١٥١٢ ، والآخر في ديسمبر من نفس العام .
(٢) فيما يتعلق بنشاط الأسبان في جزر كنارى — أنظر .

Johnston, H. : A History of the Colonisation of Africa by Alien Races (Cambridge, 1913), p. 116.

١٥٠٨ في بناء حصن (فوتي) في المنطقة الواقعة شمال أكادير أطلق عليه اسم Senta Cruz de Narba ، كما استطاع اتخاذ نقطة إرتكاز أخرى على ساحل (ماسه) ، لكنه كان بحاجة لقوة عسكرية للاحتفاظ بهذه المناطق والحماية فشاطه وليمكنه مواجهة المنافسة والمعارضة القوية من السفن الأسبانية — ولذا عرض (Lopes) على الملك عمانوئيل أن يتنازل للحكومة البرتغالية عن كافة حقوقه .

وفي عام ١٥١٣ حلت الحكومة البرتغالية محله وعينت هذه الحكومة (D Francisoc de Castro) للنهوض بأعباء المنطقة تحت إشرافها .

ونشاط المغامر الأسباني (lopes) له أمثلة مشابهة عديدة في تاريخ أفريقيا وعلاقتها بأوروبا^(١) .

وقد استطاع (D. Francisco) في مدة حكمه التي استمرت تسع سنوات (١٥١٣ — ١٥٢١) أن يثبت أقدام البرتغال في (سانتا كروز) ، فأكمل بناء القلعة البرتغالية بها ، وجعل لها أبراجاً أحاطها بسور لحمايتها وجعل لها بابين أحدهما على البحر والآخر للبر وأعد الميناء لاستقبال السفن ، وقدر عدد رجال الحامية البرتغالية بالحصن في عام ١٥١٤ بـ ٧٠٠ جندي نظامي تساندتهم قوة أخرى من الجنود غير النظاميين ، وعدد من أفراد القبائل الموالية للبرتغال — ومن الشخصيات التي لعبت لحساب البرتغال هنا دوراً هاماً (ملك ابن داود) أحد رؤساء القبائل التي دانت بالولاء للبرتغال ، وكثر ترديد اسمه في الوثائق البرتغالية بالذات . والكتاب البرتغال يشبهون دوره في (سانتا كروز) كما أسلفنا بدور (يحيى بن تعففت) في أسفى — وحين ترك (D. Fransciaco) المنطقة نهائياً في عام ١٥٢١ كانت أقدام البرتغال قد رسخت في المنطقة ، وتعتبر فترة حكمه أزهى فترة بالنسبة للاستثمار البرتغالي للمنطقة وليس أدل على ذلك إنه منذ رحيله حتى سقوط (سانتا كروز) في مارس

(١) من أبرز الأمثلة لهذا — نقاط المغامرين الألمان في غرب أفريقيا وشرقها من أمثال بيتز (Karl Peters) وغيره قبل دخول بسمارك وحكومته في هذا الميدان ، وكذلك جهود سبيل رودس (Cecil John Rhodes) التي ترتب عليها بسط النفوذ البريطاني على مناطق شاسعة في جنوب القارة الأفريقية

١٥٤١ أى فى أقل من عشرين سنة تعاقب على هذه المنطقة أحد عشر حاكماً فلم تتمتع فترة حكم أى منهم بالإستقرار حتى أن وضع الحماية البرتغالية نفسها أصبح حرجاً ، فقد أصبحت تفتقر إلى السلاح والرجال ولم تستطع البرتغال أن توجه العناية الضرورية لحمايتها هنا ، حتى إنه يظهر إنها فى خضم مشاكلها نسيت — كما يقول فريجينيه — أن لها حامية ومصالح فى هذه المنطقة (١) .

أما عن (ماسة) التى أشرنا لأهميتها من قبل ، فالوثائق البرتغالية تمدنا بمعلومات هامة عن الظروف والوسائل التى ثبتت البرتغال عن طريقها أقدامهم فى هذه الجهات ، وفى وثيقة مؤرخة يناير ١٤٩٧ م محفوظة بالارشيف البرتغالى نجد ثلاثة من شيوخ القبائل فى ماسة يعلنون ولاء قبائلهم للسلطان البرتغالى ، ويتعهدون بتيسير بناء قلعة برتغالية فى المكان الذى تراه البرتغال مناسباً ، ويبدون إستعدادهم لتقديم إثنى عشر من أبناء أشرفهم كرهائن بالبرتغال حتى يتم إقامة القلعة ولضمان استتباب الأمن فى إقليمهم .

وفى خطاب آخر بتاريخ ٦ يوليه ١٥١٠ م يعبر الموالون للبرتغال من أهل ماسة للملك عمانوئيل الأول عن ترحيبهم لقراره بإرسال قوة من خمسين فارساً لحماية القلعة البرتغالية التى بنيت بهذا المكان ، ويطلبون من الملك أن يظهر سطوته ويحمى الحصن الذى أرفعوا أعلامه عليه ، ويحميهم هم ، ويذكرون إنهم أصبحوا موضع استهزاء القبائل الأخرى لإفضوائهم تحت لوائه دون أن يجدوا منه الحماية المنتظرة (٢) .

(١) Friganier, M. : Historia de Santa Cruz, p. 119.

(٢) الأصل العربى للخطابين غير موجود — لكن الأصل البرتغالى مع ترجمة فرنسية موجود فى :

Archives Nationales de la Torre do Tombo Livrodos Fol. 50,
Copie XVI Siecle.

ومن هذه الوثيقة يتضح لنا أنه حتى ذلك الوقت (١٥١٠ م) لم تكن سلطة البرتغال الرسمية قد بسطت على هذه المنطقة لكن كانت البرتغال تعتمد على إرتباطاتها ببعض شيوخ القبائل ، وكان (Lopes) يعمل لحساب البرتغال هنا ، لكن منذ (١٥١٣) — كما أوضحنا — حلت الحكومة البرتغالية في إدارة هذه المنطقة كلها على هذا المغامر .

ومن المناطق الهامة التي بسطت البرتغال نفوذها عليها أيضاً في الساحل المغربى منطقة (أزموور)^(١) وكانت لها أهمية باعتبارها الميناء الذى يصدر حاصلات قنائل (ذكالة) ومنتجاتها المتنوعة ، كما أنها مفتاح الطريق إلى مراكش ، وكان البرتغال قد نجحوا منذ عام ١٤٨٦م في عقد معاهدة مع شيوخ أزموور تيسح لهم الحق في بناء حصن برتغالى في الميناء - لكن حين حاول البرتغال بعد ذلك تنفيذ هذا الشرط تعرض لهم الأهالى ، كما تعرضت بعض السفن البرتغالية الراسية في ميناء أزموور في عام ١٥٠٤ للهجوم - وقد قدم سكان أزموور اعتذاراً للملك البرتغالى (عمانوئيل الأول) عن هذا الحادث ، ورد الملك على الاعتذار بأنه صفع عنهم لتوسط زوجته ، لكنه اشترط تقديم كمية كبيرة من القمح رمزاً للصداقة ولثلبثوا كذب الشائعات التي يروجها أعداؤهم^(٢) .

وانتهز الملك عمانوئيل الأول فرصة الخلاف بين الوطاسيين - لتحقيق احلامه في الإستيلاء على أزموور ، فقد لجأ (مولاي زيان) إلى أزموور حيث كان له بها انصار ، وذلك للخلاف بينه وبين محمد بن محمد الشيخ البرتغالى ، واعقب ذلك سفر (مولاي زيان) بنفسه إلى البرتغال ليدرس مع الملك مشروع الحملة على أزموور ، ولاندرى هل الملك عمانوئيل هو الذى استدعاه أم انه سافر من نفسه ، فلم نعثر في الوثائق البرتغالية ما يوضح ذلك وإن كانت الوثائق تشير إلى ان البرتغال كانوا يمهدون للإستيلاء على أزموور فقد بنوا حصن

(١) كلمة أزموور — في لغة البربر تعنى (الزيتون)

(٢) أصول هذه الخطابات للتبادل بين الطرفين موجودة في :

البريجة (موكان) ^(١) وكان العمال والبنّاؤون يعملون به ليل نهار لإنجازه في أقصر وقت ، كما جددوا الحصن البرتغالي في (سائتا كروز) ، لكن يبدو أن (مولاي زيان) حين عاد لأزمور استطاع أن يمسك بدفة الأمور بها دون الإستعانة بالبرتغال فحين وصلت الحملة البرتغالية بعد ذلك عام (١٥٠٧ م) لم تجد التيسيرات التي كانت تنتظرها وأضطرت الانسحاب — لكن حين شعر (مولاي زيان) أن البرتغال يعدون العدة لحملة جديدة خشي العاقبة فعرض التفاوض مع البرتغال وانتهى الأمر في (١٥١٠) بعقد معاهدة جديدة مع ملك البرتغال .

وكان الملك عمانوئيل مصمماً على إعداد العدة لبلط النفوذ كاملاً على (أزمور) وتحقيق أحلامه في للوحف على مراكش ذاتها — وفي ٢٠ أغسطس ١٥٨٣ كانت الحملة على أهبة الاستعداد لتحقيق أهدافها — وكان على رأسها دوق براجانس (Duc De Braganca) الذي لقب بلقب أمير البلاد فيما وراء البحار .

والوثائق البرتغالية تمدنا بمعلومات وافية عن هذه الحملة فهناك خطابات عدة متبادلة بين الملك عمانوئيل ، والبابا ليو العاشر ^(٢) بشأنها وهذا يدل على الأهمية التي كانت تتسم بها هذه الحملة وأنها ارتبطت بالروح الصليبية .

(١) البريجه تقع شمال (أسفى) ، وقد تهدمت أثناء حصار السلطان محمد بن عبد الله المولى لها فسميت المهذومة ، لكنها جددت فسميت الجديدة .

أنظر : الكانوني — مرجع سابق ص ٤٣ .

(٢) جلس هذا البابا (ليو العاشر) على كرسي البابوية (١٥١٣ — ١٥٢١) وهو من أسرة ميديشي Medici وهو الذي عاش في كنفه في روما الرحالة الغربي الحسن بن محمد الوزان (ليو الأفريقي) .

— أنظر الطبعة الانجليزية لكتابه عن (تاريخ ووصف أفريقيا) التي أشرنا إليها سابقاً .

وكذلك البحث الذي نشره مؤلف هذا الكتاب عن هذا الرحالة في (مجلة للناهل المغربية العدد الثاني — ١٩٧٥)

وفي أول سبتمبر ١٥١٣ كانت السفن البرتغالية قد وصلت إلى مواقعها وبدأت تصوب نيران مدافعها على المدافعين واضطرت المدينة لفتح أبوابها للمهاجمين .
ويذكر ليو الأفريقي أن الأهالي اضطروا لإخلاء المدينة والجللاء عنها تحت ضغط نيران القوات المهاجمة فحين دخلها البرتغال كانت تقريباً خالية من سكانها .

وفي ١٩ سبتمبر أذاع الملك البرتغالي في لشبونه خطاباً ، زف فيه إلى الشعب الأنباء عن فتح (أزموور) ، وفي روما استقبل البابا ليو العاشر خبر الإستيلاء على أزموور على أنه نصر للمسيحية ، وعلق على خطاب الملك بهذا الشأن بقوله : « لأنه يقدم له الشكر على هذا العمل الذي يسهم في تحقيق رسالة المسيح » (١) .
وبعد أن استتب الأمر للبرتغال في (أزموور) تقدم مستشارو الدوق بالنصيحة له بانتهاز الفرصة للسير إلى (مراكش) لفتحها ، لكنه تردد وأخيراً رفض الفكرة لأن الملك أعطى الأوامر كما ذكر باحتلال أزموور وليس مراكش ، على أن لإحتلال مراكش ظل هدفاً من أهداف البرتغال ستحاول تحقيقه ، كما ستحاول توطيد نفوذها في حوض نهر سبو (Sebou) بهدف فتح فاس .

وفي الشهور الأولى من عام ١٥١٤ كانت البرتغال تعد قواتها لفتح مراكش لكن انتشار الطاعون بين الجنود البرتغال والقبائل المتحالفة معهم ، و وفاة حاكم أزموور البرتغالي (De Joa de Mensers) أخر تنفيذ عملية الزحف على مراكش . وفي صيف (١٥١٥) كان الموقف من وجهة نظر البرتغال مناسباً لتحقيق حلهم في غزو مراكش ، فقد استطاعوا بعد انتصارهم في أزموور أن يغزوا بعض القبائل في المناطق المجاورة بالدخول في طاعتهم ، وكان دخول مراكش - من وجهة نظرهم - لا يعدو أن يكون نزهة ستنتهي بهالة من المجد على رأس من يسبق إليها ، لذلك كان هناك تنافس بين القواد البرتغال في أزموور

(١) خطاب الملك عما نوثيل الذي أبلغ البابا فيه بفتح أزموور مؤرخ ٣٠ سبتمبر ١٥١٣ م — وتوجد صورته ٤٠٠ بالارشيف البرتغالي .

وأسفى ليسبق كل غريمه فى دخول مراکش .

على أن ملك فاس الذى أزعجته أخبار جيوش البرتغال واستعداداتهم لغزو مراکش — أرسل يعرض عليهم المفاوضة للصالح . فقد كان ازدياد نفوذ السعديين والتفاف الناس حولهم يفاق باله ويشغله (١) ، لكن شروط ملك البرتغال لم تكن مقبولة ، فلم يكن فى الإمكان قبولها . فقد طلب أن يسمح له ببناء قلعة برتغالية فى مراکش ، وأن يدفع لهحكام فاس سنوياً مبالغاً من المال رموزاً للخضوع ، وهكذا كان على كل من الطرفين — السلطات المغربية والبرتغالية — الاستعداد للمعركة الحاسمة . وفى إبريل سنة ١٥١٥ بدأت القوات البرتغالية من أسفى وازمور والقبائل الموالية لها (٢) تتحرك صوب مراکش ، وقد بدا منذ البداية أن المعركة لم يكن مخططاً لها تخطيطاً كاملاً من جهة البرتغال لدرجة أن خريطة المدينة المهاجمة وطبيعة المنطقة لم تكن — كما ظهر عند بداية المعارك — مدروسة دراسة وافية ، ولم تكن هناك قيادة موحدة تخضع كل القوات لتعليماتها — فانهبت كل قوة من القوات المهاجمة تبغى اقتحام المدينة من الناحية التى تروق لها ، وتعثرت فرقة الفرسان التى كان يعتمد عليها الجيش المهاجم ، واضطرت لتغيير مواقعها أكثر من مرة بحثاً عن المكان الذى يلائم تحركاتها ونشاطها — وأدى التشتت لإضعاف قوة العدو المهاجم ومكن المدافعين عن حريتهم من الصمود ، وساهمت الطبيعة مساهمة ضخمة فى معاونة القوات المدافعة ، ولم يكن البرتغال قد رتبوا أمرهم على الحصار الطويل للمدينة فاضطروا فى ٢٢ إبريل للإسحاب بعد أن يسوا من قدرتهم على اقتحام المدينة .

(١) كانت مبايعة قبائل (درعة) و (السوس الأقصى) و (حاحة) لأبى عبد الله القائم بأمر الله (٩١٥ هـ — ١٥٠٩ م) بداية لتأسيس الدولة السعدية ، واستطاع السعديون فى عام ١٥٢٠ انتزاع مراکش من الوطاسيين ، لكن لم يستقر الأمر لهم نهائياً فى فاس إلا فى عام (٩٧٥ هـ — ١٥٥٠ م) بعد مقتل (أبى حسون) آخر أمراء الوطاسيين — كما سنوضح بالتفصيل بعد .

(٢) من القبائل التى كانت موالية لبرتغال والتى لمست دوراً هاماً فى هذه المعارك قوات الشراقة (قبائل الشرقية) وهناك خطابات عدة فى الأرشيف البرتغالى متبادله بينهم وبين الملك عما نوبل الأول .

وكانت لهذا الانتصار نتائج بالغة الأهمية نحمل بعضها فيما يلي :

١ — قوى هذا الانتصار نفوذ السعديين لدورهم البطولي في تأييد كفاح أهالي مراكش ضد القوات الغازية .

٢ — شجع المغاربة على معاودة الهجوم على القوات البرتغالية في الثغور المغربية الأخرى .

وإذا كان فشل البرتغال في تحقيق أحلامهم المتعلقة بالتوسع من نقط ارتكازهم في (أسفي) و (آزموور) إلى مراكش في الداخل قد أضعف مركزهم - فإن معركة المعمورة التي قصد بها توسيع نفوذهم في حوض نهر « سبو » بهدف فتح الطريق نحو فاس ، تمثل الحلقة الثانية في هذا الفصل الختامي من فصول نفوذهم الاستعماري في المغرب .

وكان البرتغاليون قد جمعوا في المعمورة « السماء اليوم المهدية » قوة كبيرة قدرت بـ ٨٠٠٠ مقاتل ، حيث أقاموا قلعة هناك لتكون مركزاً للهجوم على فاس ، لكن رغم ما كانت تعانيه الدولة الوطاسية من ضعف في أيامها الأخيرة هذه — فإنها استطاعت بمعاونة الآلاف من الشباب المغربي المتحمس للدفاع عن مركز من أهم مراكز حضارته — لا أن توقف الزحف البرتغالي على العاصمة المغربية فحسب — بل استطاع المغاربة أن يشنوا هجوماً مضاداً على القلعة البرتغالية في المعمورة وأسفر الهجوم عن قتل أكثر من أربعة الآلاف من البرتغاليين وإغراق ثمانى سفن بحرية برتغالية .

ويعتبر جبهة الكتاب البرتغاليين أن هذه الأحداث كانت نذيراً بانحسار موجة التوسع البرتغالي في المغرب ، وينظرون لعصر عمانوئيل الأول ، على أنه قمة ما وصل إليه النفوذ البرتغالي في المغرب بينما يعتبرون عصر جيسان الثالث

(Jean III ١٥٢١ - ١٥٥٧) عصر تصفية هذا النفوذ البرتغالي^(١).

على أن هذا القول لا يعطى صورة شاملة عن الواقع إذ أن عملية انحسار هذا المد الإستعماري البرتغالي ثم تصفية هذا الاستعمار ترجع في الحقيقة لعوامل معقدة ومتعددة بعضها يتصل بظروف البرتغال الداخلية والخارجية والبعض الآخر يرجع لظروف المغرب نفسه .

وفيما يتعلق بالمغرب فإن وثبة القوى الشعبية والحكام السعديين لوضع حد للأطماع البرتغالية في المغرب والروح التي أوجدتها الانتصار في صد البرتغال عن مراکش - في نفوس المغاربة جعلهم يواجهون الموقف بثقة وحزم ، بعكس ما كان عليه الحكام الوطاسيون الذين وصلوا لدرجة كبيرة من الضعف ، فأصبحت الكثير من القبائل لا تعترف بسلطانهم كما أنهم لم يجدوا بداً من مسألة العذر البرتغالي - والخطابات المتبادلة بين الحكام السعديين والبرتغال توحى بهذه الثقة في النفس - بعكس الوضع في نهاية حكم الوطاسيين حتى قبل أن تستقر الأمور نهائياً للسعديين في فاس التي لم يستقر لهم الأمر بها إلا في شوال ٩٦١ هـ - ١٥٥٣ (٢) .

أما فيما يتعلق بالبرتغال فقد كانت الدفعة الأولى التي قاموا بها في فجر حركة الكشف الجغرافية ، قد أوصلتهم إلى كشف طريق رأس الرجاء

(١) من أحسن ما كتب عن هذه الفترة :

Luiz de Sousa : Les Portugais et l'Afrique du Nord de 1521 à 1557 (Lisbonne, 1940).

فقد عايش المؤلف الأحداث التي تعرض لها وعلى الأهل عاصر أصداءها وقد كتب مقدمة الكتاب . Robert Ricard الأستاذ بجامعة الجزائر والتمخصص في تاريخ شمال أفريقيا . (٢) بالأرشيف البرتغالي عدد كبير عن هذه الخطابات - وهناك على سبيل المثال خطاب مؤرخ ٢٤ صفر ٩٣٢ هـ (١٠ ديسمبر ١٥٢٥) من الأمير السعدي (أبو العباس أحمد بن محمد القائم) إلى الملك جيان الثالث يمتنع على اعتداءات البرتغال وأبائهم على المسلمين . وتعرضهم لفواظهم التي تحمل الشتم وغيره من القذائف ، وطلب وضع حد لهذه الاعتداءات . وقد سلم رد البرتغال إلى أبي عبد الله محمد الشيخ (شقيق السلطان أبي العباس) وفيه يعد الملك البرتغالي بوصف حد لهذه المخالفات .

الصالح والوصول لشرق أفريقيا ثم الهند محققين حلمهم في الوصول إلى مراكز التجارة الشرقية ، رحلة فاسكو داجاما - ١٤٩٧ - ١٤٩٩ ، كما اكتشفوا في عهد عمانوئيل الأول البرازيل وغيرها من الأقاليم في العالم الجديد نتيجة رحلات أمويجوفيزبوتشي ، Amerigo Vespucci ، الذي أرسله الملك عمانوئيل لهذا الهدف ، والذي أطلق اسمه بعد ذلك على الأمريكتين .

لكن حين وصل جيان الثالث إلى الحكم في البرتغال في عام ١٥٢١ كانت الحروب قد استنزفت الكثير من موارد البرتغال البشرية المحدودة ، كما كانت الحالة الاقتصادية سيئة في الوقت الذي بدأت البرتغال تواجه فيه مقاومة حقيقية من المغاربة ضد الوجود البرتغالي في ثغورهم ، بالإضافة إلى مواجهة قوة العثمانيين الذين كان نفوذهم قد امتد إلى الجزائر وتلمسان بعد أن رأى خير الدين باربروس أن يعلن سنة ١٥١٨ ولاءه للسلطان العثماني ، هذا بالإضافة إلى منافسة بالاسبان وتحفزه لتوجيه ضربة قوية للبرتغال .

في وسط هذه الظروف جاءت فكرة إخلاء كل أو بعض الثغور التي تحتلها البرتغال في المغرب .

تصفية الوجود البرتغالي في المغرب :

منذ أن ترك الحاكم البرتغالي فرنسيسكو دي كاسترو Francisco de Castro إدارة المستعمرات البرتغالية في منطقة أكادير وما حولها في عام ١٥٢١^(١) - بدأت الأمور فيها تضطرب ، فقد أخذت القبائل المغربية تمتنع عن تقديم القمح والأخشاب وغيرها مما كانت تقدمه للحاميات البرتغالية . وتدل الوثائق البرتغالية

(١) ذكرنا أنه ورد على سائنا كروور في الفترة من ١٥٢١ حتى سقوطها في ١٥٤١ إحدى عشر حاكما برتغاليا .

وقد وصح (Luiz De Sousa) الحالة السيئة التي كانت عليها شمال أفريقيا عامة والمستعمرات البرتغالية خاصة في عام ١٥٢٢ بسبب انتشار المجاعات والأمراض .

Luiz de Sousa : op. cit., p. 25.

كذلك أنظر :

Robert Richard : Médecine et Médecins à Arzila (Hesperis, 1933), pp. 177—178.

على أن عدد الحامية البرتغالية في سانتا كروز كان يتراوح عام ١٥٢١ بين ٧٠٠ ، ١٠٠٠ فانخفض في عام ١٥٣٠ إلى ٢٠٠ رجل ، وكانت هزائم البرتغال في المعمورة في ١٥١٥ ، واغتيال حليفهم يحيى بن تعففت في ١٥١٨ ، ملك بن داود في ١٥٢١^(١) ، قد هزت كيانهم وشجعت السعديين على مهاجمتهم لإستخلاص الثغور المغربية من أيديهم .

وقد تعرضت أصيلا خلال عام ١٥٢٤ لهجمات متتالية من الشريف أبو العباس الأعرج ، كما تعرضت أسفى في عام ١٥٣٤ لهجوم بمائل^(٢) وإن كانت القوة المهاجمة اضطرت لرفع الحصار الذي فرضته على المدينة وأرسل الأمير إلى يمثل البرتغال في أسفى (Jacob Rosales) في ٢٣ سبتمبر ١٥٢٤ يقترح عليه أن يرسل أحد الذين يثق بهم ممن يعرفون العربية للتفاوض في وضع هذه الأقاليم التي تحت حكم البرتغال^(٣) . ولكن يظهر من هذا أن وضع البرتغال أصبح غير مستقر ، كما أثبتت هذه الهجمات المغربية أن الحاميات البرتغالية بوضعها الذي أصبحت فيه غير كافية في عددها وسلاحها ، ولذا تسجل الوثائق البرتغالية العديد من الخطابات يستعمل فيها الحكم البرتغال لإرسال التعزيزات لهم دون جدوى .

وأدى هذا لظهور فكرة الجلاء عن كل أو بعض الثغور المغربية وتركيز الجهد في المناطق الأخرى في الشرق وفي العالم الجديد التي كانت البرتغال قد وضعت أيديها عليها . ولعله من الطريف أن نستعرض بعض آراء الذين حرص الملك جيان الثالث أن يأخذ رأيهم في الجلاء عن الثغور المغربية من عدمه لمعرفة نوعية هؤلاء الأشخاص وآراءهم ومبرراتها .

(١) حل على في مشيخة البلد أى إدارة شؤون المسلمين تحت نفوذ البرتغال شخص يدعى (أحمد ناصر) لكنه لم يكن موضع ثقة البرتغال كسله .

(٢) Luiz de Sousa : op. cit. p. 42.

(٣) خطاب الأمير السعدي موجود في :

Archives Nationales de la Torre de Tombo Corpo Chronologico, parte 1, Maco 53, No. 110.

(م . ٥ - المغرب)

أولاً — أيد فكرة الإخلاء عدد قليل منهم :

(أ) بعض الاساقفة ورجال الدين مثل (L'evêque de Lamego) الذي وجد في إخلاء أسفى وأزمور ، وسنتا كروز تخفيفاً من العبء على الدولة ، وأن ذلك لا يمثل أى خطر على مصالح البرتغال لكنه نصح بالاحتفاظ بسبته^(١).

(ب) أيد (D^r Francisco Lobo) — الذى أصبح فيما بعد مدير البرتغال في روما — سياسة الإخلاء وذكر أن الأموال التى تصرف على هذه الأماكن يحذر صرفها على تعمير وتشيد الكنائس^(٢).

(ج) كذلك أيد حاكم سنتياجو البرتغالى فكرة الإخلاء وذكر إنه استرشد برأى كبار القادة في سنتياجو ، فانفقت آراؤهم على ضرورة إخلاء أسفى ، وأزمور لأن الدفاع عنها يتطلب تكاليف باهظة وقوات كبيرة لكن يجب تدعيم قوة البرتغال في سبته^(٣).

ثانياً — كانت إجابات البعض أن المعلومات التى لديهم عن الأوضاع في الثغور المغربية غير كافية فلا يستطيعون إصدار حكم سليم . من هؤلاء مثلاً أسقف (Coimbra) الذى أضاف إنه غير خبير في شؤون الحرب فيتعذر عليه إصدار حكم يطمئن إليه^(٤).

ثالثاً — طالبت الغالبية الاحتفاظ بهذه المواقع وتحصينها واقتراح البعض وسائل لتدبير ما يحتاجه ذلك من أموال من هؤلاء مثلاً :

(١) الخطاب ٧ أ كوبر ١٥٢٤ وموجود في :

Archives Nationales de la Torre do Tombo Reforma das gavetas, gaveta 2, Maco 7, No. 4.

Archives Nationales de la Torre do Tombo Corpo Chronologico, parte 2, Maco 195, No. 134. (٢)

Archives Nationales de la Torre do Tombo Reforma das gavetas, gaveta 2, Maco 7, No. 6 (٣)

Archives Nationales de la Torre do Tombo Reforma das gavetas, gaveta 2, Maco 9, No. 50. (٤)

(١) شقيق الملك جيان الثالث المدعو (فرناندر) ، فقد ذكر إن الحصون البرتغالية في هذه الثغور لها أهميتها ، ويمكن اتخاذها في المستقبل كقاعدة لعمليات عسكرية أخرى ، ويذكر أنه إذا لم يؤخذ برأيه في الاحتفاظ بالثغور الثلاثة (أزمو ، آسفى ، ساتا كروز) فلا أقل من الاحتفاظ بأسفى وساتا كروز^(١) .

(ب) عارض كبير مستشارى الملك المدعو (Joao de Meilo Barreto) فكرة الإخلاء نهائيا ، وذكر أن كل من هذه الموانئ يجب تزويده بقوة جديدة من ٥٠٠ جندي للدفاع عنه ، كما يجب تقوية وسائل الدفاع إعن (سبته) وباقى مراكز البرتغال في الثغور المغربية^(٢) .

(ج) أجاب (Nuno Rodrigues Barreto) الذى شغل في بعض الأوقات منصب وزير المالية بأن فكرة إخلاء هذه الموانئ التي بذل الكثير في سبيل تثبيت أقدام البرتغال فيها لا يمكن تصورها ، وأن أسفى بها قصبه عظيمة بينما أزمو بها تحصينات طبيعية وأنه إذا أحسن تدبير أمور هذه الجهات يمكن الدفاع عنها بيسر ضد هجمات الحكام المغاربة^(٣) .

(د) وأجاب (D.Rodrigo de Lima) بأن الأجدد بناء حصون وقلاع جديدة لا التخلي عن الحصون القديمة — أما الإحتجاج بالحاجة إلى المال لتدعيم حاميات هذه الجهات فيجب اللجوء لكافة المسيحيين ليس البرتغال فقط ولكن في كل أوربا ، هذا بالإضافة إلى البابوية للدعوة للتبرع لتدعيم حميات هذه الجهات^(٤) .

(١) الخطاب مؤرخ ١٦ أكتوبر ١٥٣٤ وموجود في :

Archives Nationales de la Torre do Tombo Reforma das gavetas, gaveta 2, Maco 7, No. 3.

(٢) الخطاب مؤرخ ١٨ أكتوبر ١٥٣٤ وموجود في :

Archives Nationales de la Torre do Tombo Reforma das gavetas, gaveta 2, Maco 7.

(٣) الخطاب مؤرخ أول نوفمبر ١٥٣٤ وموجود في :

Archives Nationales de la Torre do Tombo Reforma das gavetas, gaveta 2, Maco 7, No. 11.

(٤) الخطاب مؤرخ ٦ نوفمبر ١٥٣٤ — وينسم بالروح الصليبية العظيمة وموجود في :

Archives Nationales de la Torre do Tombo Reforma das gavetas, gaveta 2, Maco 7, No. 8.

هذه بعض الآراء التي أثيرت حول موضوع إخلاء الثغور المغربية . وقد استقر رأى الملك جيان الثالث على إخلاء سانتا كروز ، وأصدر أمره في ١٥٣٤ للحاكم البرتغالي للميناء بذلك لكن أعترض الحاكم عن تنفيذ هذا الأمر فقد اعتبر فكرة الإخلاء فكرة خطيرة جداً وغير وطنية ولكن أقترف هذا الحاكم خطأ كبيراً فقد استغنى عن فرقة (الخيالة) وأعتبرها عديمة الجدوى في عملية الدفاع عن الميناء .

وإذا كان الإخلاء الإختياري ممكناً في عام ١٥٣٤ فقد أصبح بعد ذلك متعذراً ، فقد يجمع أبو عبد الله محمد الشيخ أخو أبو العباس الأعرج السعدى وحاكم إقليم (سوس) في إقامة قاعدة عسكرية على بعد إثني عشر كيلو متراً من الحصن البرتغالي في سانتا كروز ، ومنذ ذلك الوقت بدأت تظهر وتشتد أثار الحصار الذي فرضه المغاربة الذين أخذوا يضيقون الخناق على الحامية البرتغالية في الميناء .

وكان حاكم الميناء البرتغالي (D. Gutare de Monroy) قد طلب نجدة ليواجه الحصار الذي فرضه الأمير محمد الشيخ السعدى الذى أعد العدة لتصفية الوجود الاستعماري الأوربي في بلاده ، ووصلت نجدة من جزر ماديره ومن أسفى لمساندة الجنود البرتغال المحاصرين في (سانتا كروز) . لكن هذا المدد وصل بعد أن كان كل شيء قد انتهى ، فقد سقط الميناء في ١٢ مارس ١٥٤١ وكان معظم سكان المدينة قد هجروها ، أما الباقون فقد وقع معظمهم أسرى في أيدي المغاربة الذين نقلوهم إلى تارودانت .

وكان الحاكم البرتغالي (D. Gutare de Monroy) وأبنته ضمن الأمرى ، ولم يطلق سراحه إلا في صيف عام ١٥٤٤ بعد وفاة أبنته .

على أن سقوط سانتا كروز كان ضربة قوية لسكل الوجود البرتغالي في السواحل المغربية ، ويمثل أول شرخ في هيكل البناء الاستعماري الذي بدأ

بإستيلاء البرتغال على سبته في عام ١٤١٥^(١).

أما (أزمور) و (أسفى) فقد أصبح موقفهما في غاية الحرج منذ سقوط سائقا كروز ، وأصبح إمدادهما بما تحتاجانه من تعزيزات صعباً — وكان لابد من أخلاتهما قبل أن يصبح ذلك مستحيلاً — فأرسلت السفن التي حملت النساء والأطفال أولاً ثم الرجال إلى الجديدة (مواكان) حيث حملتهم السفن للبرتغال.

وقد تم إخلاء أزمور ، وأسفى في الفترة ما بين ٢٠ ، ٣١ أكتوبر ١٥٤١ وأعقب ذلك إخلاء (القصر الصغير) و (أصيلا)^(٢)، ويقول M. Friganier : إن سقوط سائقا كروز يمثل الفصل الأول في رواية استمرت ما يقرب من ١٢٥ عاماً، بينما يمثل سقوط (أصيلا) و (القصر الصغير) للفصل الأخير في هذه الرواية . وقد تم إخلاء (القصر الصغير) و (أصيلا) في عام ١٥٤٩ — ١٥٥٠ — ويذكر لنا (Francisco de Andrad) الذي كان معاصراً لهذه الأحداث تفاصيل كاملة عن الظروف التي أنهت بإخلاء هذين البغرين^(٣).

ويذكر لنا هذا الكاتب في تفصيل وإسهاب كيف أهمل البرتغال تجديد تحصينات هذه الواجبة الهامة في هذه الجهات المقابلة لجبل طارق والتي أطلق عليها لفظ (Le Seinal)^(٤).

ومنذ عام ١٥٣٢ كان الملك جيان الثالث قد منح حاكم (القصر الصغير) حرية اتخاذ الإجراءات لإخلاء الميناء إن وجد ذلك ضرورياً ، لكن الحاكم المذكور وجد أن هذا الميناء صغير لدرجة أنه يمكنه بعدد قليل من الرجال أن يحتفظ بسلطة البرتغال فيه بفضل في ذلك الوقت عدم إخلاء الميناء .

لكن ازدياد قوة الشرفاء السعديين العسكرية جعل وضع الحاميات

(١) Luiz de Sousa : op. cit., pp. 143—156.

(٢) Ibid, pp. 157—158.

(٣) Robert Ricard : op. cit. p. 159.

(٤) لم نجد لهذا اللفظ مدلولاً معيناً ، ولعل هناك خطأ كتابي فيه .

البرتغالية في القصر الصغير ، وأصيلا بزداد سوء فأصدر الملك جيان الثالث أوامر حاسمه بإخلاء المينائين . كما أمر القائد (Luis de Lourivo) بتنفيذ ذلك ، وترك هذا القائد لشبونة في نهاية يونيو ١٥٤٩ على رأس المراكب والأدوات اللازمة للإخلاء كما عملت ترتيبات لإستقبال التازحين في ميناء (قادس) لكن وردت أخبار بعد ذلك أن (أبا حسون الوطاسي) (١) قد كتب للحاكم البرتغالي في القصر الصغير يطلب منه أن يحتفظ البرتغال بمراكمهم في القصر الصغير ، وأصيلا ولذا أرسل القائد البرتغالي يطلب من حكومته تعليمات جديدة في ضوء الوضع الجديد .

وجرت محادثات بين البرتغال والاسبان أشتبك فيها الثائر المغربي (أبو حسون) للوصول إلى إتفاق تتنازل ، ووجه البرتغال عن (القصر الصغير) و (أصيلا) بتحصيناتهما للأسبان ، ووضعت الخطوط العريضة لهذا الإتفاق لكن وجد (جيان الثالث) أستحالة تنفيذ رغبة الاسبان هذه فأصدر أوامره باتمام عمليات إجلاء النساء والأطفال ثم الرجال ، وفي أبريل (١٥٥٠) تأكد أن عملية الإخلاء قد تمت نهائياً .

وهكذا طويت هذه الصفحة التي ترجع إلى أيام الفونس الخامس Alphonse V الذي أستولى عام ١٤٥٨ م على القصر الصغير ، وعلى أصيلا عام ١٤٧١ م وكان أستيلاؤه على المينائين تمهداً لبسط نفوذ البرتغال على (طنجة) التي كانت قد استعصت عليهم من قبل .

وقد كان لإخلاء هذه الموانئ الهامة أثر ضخم في العالم المسيحي عامة والبرتغال خاصة ، وقد وجه كثيرون من المعاصرين البرتغال نقداً مريراً للملك جيان الثالث لإقدامه على هذا العمل .

(١) لب أبو حسون الوطاسي دوراً هاماً في إثارة الفتن ضد السعديين ، وولى سبيل ذلك بلداً لاكثر من قوة من أعداء ملاده وانتهى الأمر بام عاونه الاتراك المشابيون على الاستيلاء على (فاس) ، لكن ظفر به أخيراً السلطان السعدي أنى عبد الله الشيخ وانتهى أمره بقتله عام ١٦١١ هـ - ١٥٥٣ م) واسترجع السعديون مدينة فاس ، بل خاض لهم المغرب كله .

فقد ناقش قضية الاخلاء هذه (Le Comte de Redondo) ^(٢) وأشار إلى عدة نقاط هامة منها :

(أ) أن تاريخ أصيلا في العترة التي كانت فيها تحت يد البرتغال مشرق فقد أدت للمسيحية عامة خدمات جليلة ، فالأسباب السياسية والمالية التي بررت بها عملية إخلائها لا يمكن قبولها .

(ب) يقول إنه يعرف هذه البلاد وبشيء قليل من الجهد كان يمكن إمتلاك مملكة فاس كلها بدلا من ترك ما بأيدينا (أيدي البرتغال) ليسقط في أيدي الأتراك أو الأسبان ، لكن كما يذكر إن جيان الثالث وحوله شرذمة من كبار السن أصبح غير قادر على إدارة شؤون الإمبراطورية البرتغالية .

(ج) يذكر أنه لو فرضنا أن الظروف — وليست الرغبة في الإخلاء — هي التي فرضت التفكير في ترك المواقع البرتغالية على الساحل المغربي فإن هذا لا ينطبق بحال ما على ميناء (أصيلا) بالذات لأسباب ذكرها منها :

— موقعها الممتاز على المحيط الأطلنطي .

— موقعها في الطريق المؤدى إلى القصر الكبير .

— سهولة إتصالها بالداخل .

— سهولة الدفاع عنها .

— تمتاز عن طنجة ، وسبته باعتبارها رأس حربة يمكن توجيه الهجوم منه على فاس .

(د) ويذكر أن ميناء الجديدة (مواكان) كان يمكن أن يعرض إلى حتما ، النتائج المترتبة على إخلاء أصيلا ، لكن المشكلة لم تكن أصيلا أو القصر الصغير بل المشكلة هي الامبراطورية كلها التي بدأت تنهار .

(١) هو الحاكم البرتغالي لأصيلا ، وقد نشرت خطاباته في لقبونه بين عامي

ومن الذين ناقشوا بالتفصيل أيضاً قضية إخلاء الثغور التي كانت بيد البرتغال — الفاتح البرتغالي (ديجودي جوتو Diogo De Gouto) . (١٥٤٢)
— (١٦١٦)^(١) .

وينساءل هذا القائد البرتغالي في البداية هل لم يكن جيان الثالث يكثرث بالرأى العام البرتغالي وهو يصدر أوامره بإخلاء هذه المناطق ؟

وأوضح أن الأمر يرجع إلى أن الرأى العام البرتغالي انقسم إلى :
(أ) معسكر يؤيد الاحتفاظ بالثغور المغربية بأية ثمن .

(ب) ومعسكر يجتذ تركيز الجهود على الهند .
ويذكر هذا الكاتب العسكري إن أفريقيا الشمالية كانت في ذلك الوقت لها شهرتها كقطر خرافي ، ويذكر أن شرطين يجب توافرها لتصبح لاية منطقة من الناحية المادية قيمتها وتستحق الاحتفاظ بها :
(١) توفر لإنتاج زراعى ، ورعوى بحيث توفر حاجة للموجودين بها ولا يكونون دائماً تحت رحمة الغير .

(ب) وجود ثروة معدنية ، يمكن أن توفر المصاريف اللازمة لإدابة الحرب التي لا بد منها للاحتفاظ بالمنطقة .

ويذكر أن المغرب يتوفر فيه الشرطان ، فالقمح متوفر بكميات كبيرة كذلك الخضروات والماشية، هذا. بالإضافة إلى كل ما يحتاجه الإنسان كالصوف ، والقطن، والسكر ، والجلود، والفاكهة ، وبالإضافة إلى ذلك المعادن بكميات كبيرة في جبال الأطلس وهذه المناجم لا تستغل الآن - كما يقول .

ويقول في لهجة حماسية : — إن الشمال الأفريقى هذا هو الذى كان مجال مجد سيبو الأفريقى (Scipion Africanus) وأن الأمر آل في هذه البلاد إلى أباطرة روما حماة الكنيسة الرومانية وبقي لهم النفوذ بها حتى كان غزو البربر ، والعرب لأفريقية ، ففي عصر القوة والمنعة ملوكنا أيها السادة غزوا

(١) أنظر : (Lisbonne 1936,) 111, Revis'ia da Faculda de Letras
pp. 54-55

بعض ما كان خاضعاً للإمبراطورية الرومانية، والآن تركنا هذه الأماكن للبربر،
وكم كان يكلف حمايتها . . لم تكن أصيلاً في خطر كبير حين فكرنا في إخراجها
كان يمكن تحصين قلعتها ، وكم كان يلزم لحماية مزاكن ، وأزمو
كل ما كنا محتاج إليه هو تدعيم مركونا في هذه الحصون بإمدادها ببضعة جنود
وبالعناد اللازم . لكننا فقدنا كل الحصون وكل النبل والشهامة التي كانت
ترمز له إمبراطوريتنا . .

ولو قدرنا كم أدت هذه المدن والموانئ للملاحنة في البحر المتوسط والمحيط
الاطلنطي . . لو نظرنا نظرة جادة كتلك التي كان ينظر بها الملك ألفونس
الخامس . . لو وجدنا قادة مثل :

(D. Joao de Mensas) ، (Nuno Fernandes de Atade)

لما كان قد حدث ما حدث . . لقد كان من الأفضل أن نستمر في توسيع
نفوذنا في أفريقيا بدلاً من تضييع الجهود في مشروع كهذا (الهند) غير مضمون
العاقبة . . ونحن نجد أننا بعد أن ضحينا بالمراكز في أفريقيا لتركز جهودنا على
الهند بدلاً من نجد منافسة خطيرة لنا في هذه الجهات أيضاً . . باللهي ١١ ، (١) .

بهذه الروح الإستعمارية عالج هذا الكاتب البرتغالي وكثيرون من أمثاله
قضية إخراجهم للأراضي المغربية المستعمرة . ومن الذين فحوا نفس المنحى القائد
الأسباني (Capitaine Jean de Loenza) الذي كان في خدمة البرتغال
فقد كتب للملك جيان الثالث عقب إخلاء أصيلاً مباشرة يعدد الأضرار التي
ستتجم من وجهة نظره عن هذا العمل فقال إن هذه الأماكن الهامة التي أخليت
سيشغلها البربر والقراصنة وستصبح طنجه وغيرها من الموانئ الهامة في خطر ،
كما أن شواطئ الجزائر ستصبح مركزاً للقراصنة وبالجملة ستصيب البرتغال
والأسبان أضرار جسيمة (٢) .

(١) المرجع السابق ونفس الصفحات .

(٢) Archives Nationales de la Torre do Tombo-Cartas missivas
sendate, Maco 1, No. 73.

العوامل الحقيقية التي أدت لتصفية الوجود البرتغالي بالمغرب :

لعل من الواجب أن نحاول أن نحلل العوامل الحقيقية التي أدت لتصفية الوجود البرتغالي في المغرب بشيء من الروية بعيداً عن (العصبية) التي عالج بها الكتاب البرتغاليون هذا الأمر .

لقد سبق البرتغال غيرهم من الدول الأوروبية في ميدان الإستعمار فوضعوا أيديهم على الثغور المغربية ومدوا نفوذهم على مساحة واسعة ، لكن بدأت امبراطوريتهم هذه تنهار فجأة فسقطت (أكادير) في ١٥٤١ ، ثم أخليت أسفى ، وآزمور في نفس العام وتبع ذلك إخلاء القصر الصغير ، وأصيلا في ١٥٥٠ . ومعظم الكتاب يرجعون هذا الحدث إلى سبين ظاهرين هما الضائقة المالية التي استفحل أمرها في عهد جان الثالث (Jean III) والحاجة لإدارة حازمة لكن هناك أسباب أعمق نذكر منها :

١ — انزعال الثغور التي احتلها البرتغال وصعوبة إتصالها مع العاصمة لشبونة ، ولم يكن الحكام في هذه المناطق المتناثرة متفاهمين دائماً ، وعلى صلة بعضهم ببعض الآخر ، ويتعاونون مع بعضهم عند الأزمات ، وكان الحل البسيط لهذا هو إيجاد ممثلي للملك ، أو حاكم عام يكون حلقة الإتصال بينها فلو وجد حاكم بهذا الشكل لاستطاع أن يعالج الكثير من المشاكل ، وكان يمكن أن يجتمع الحكام المتفرقون برئاسته لتقديم معونه عسكرية وغيرها لنقطة مهددة مثلاً ، هذا ولم يكن كل حاكم يعرف تماماً حدود المنطقة المسؤولة منه ومدى السلطة المتاحة له .

٢ — وفي لشبونة - لم تكن لهذه المستعمرات جهة واحدة مسؤولة عن هذه الثغور التي بيد البرتغال ، وأدى هذا إلى التعقيد والتعطيل فثلاً عندما حوصرت سنتا كروز في ١٥٤١م ، فإن القائد (Gutare de Monroy) بقى مدة طويلة متحيراً ينتظر المعونة ، ولما بدأت أسفى ولشبونة تفكر في نجاته كان الوقت قد فات ، ولو وجدت شخصية تقوم بعملية التنسيق بين طلبات جميع الأطراف وبين الاحتياجات الفعلية - كان يمكن تفادي التعطيل والتقصير ، وكان يمكن توثيق الصلات بين القادة المختلفين .

٣ — والسؤال الذى يتبادر للذهن هو لماذا لم تنفذ البرتغال فى المغرب النظام الذى نفذته فيما بعد فى الهند وفى البرازيل ؟

بالطبع ليس من المعقول أن الأمر يرجع إلى الخوف من تفكير حاكم ما إذا وضعت فى يده كل السلطات فى الإنفراد بالحكم . ففكرة الإنفراد أو الانفصال هذه لم تكن موجودة ، ولعله أقرب للصواب أن يقال إن البرتغال اعتبروا أن الشمال الأفريقى كان فى متناول أيديهم - لكن لو وجد حاكم عام لاصبح فى مقدوره أن يرى الأمور بوضوح ، وبالعكس فإن قرب وجود المستعمرات والاعتماد على هذا كان من أسباب التأخير والتعطيل .

٤ — نظام البرتغال فى الدفاع عن مستعمراتهم - كن أن يوجه اليه الكثير من النقد . حقيقة إنهم بنوا الحصون لكنهم لم يوجدوا أسطولا صغيراً يلبي طلبات واحتياجات الحامية فى كل ثغر فأصبح الحصن نفسه تحت رحمة القبائل المحيطة به .

ونقطة ضعف أخرى هى ، عدم استمرار النظام ، فلم يفكروا فى نظام واحد ، أو فى تخطيط سليم دقيق موحد .

ونظرة واحدة للخريطة تؤكد هذه الحقيقة - فالمسافة مثلاً بين أصيلا وأزمور كبيرة . ولم تكن هناك خطة للربط بين الحصون المختلفة المتناثرة - وكان يجب أن تكون هناك خطة واحدة للفتح والانساع والحكم ولا يتم الأمر بطريقة عشوائية .

٥ - لم تكن هناك خطة أيضاً مرسومة فى سياستهم تجاه المسلمين الذين كان من الطبيعى أن يحاولوا استرداد ثغورهم ، خاصة بعد أن تبدلت الحالة الداخلية بالمغرب ووجدت حكومة قوية تمسك بدفة الأمور .

٦ - أهمل البرتغال أماكن هامة كان يجب أن يفكروا فى بسط نفوذهم عليها ، حقيقة إنهم استطاعوا أن يقفوا نفوذهم فى منطقة سوس عن طريق سانتا كروز وآسفى ، وفى منطقة أم الربيع عن طريق الجديدة (مزا كان) وأزمور ، لكن مناطق كأبو الرقراق وسيو ، واللوكس لم يكن لهم فيها

أى نفوذ والحقيقة إنه لم يكن من السهل على البرتغال أن يتحكموا في قطر
كالمغرب له واجهة بحرية كبيرة بهذا الشكل .

وكانت آخر حملات البرتغال في المغرب هي التي قام بها الملك سيستيان .
Sebastian الذى خلف أباه في الحكم في ١١ يونيو ١٥٥٧ لكنه لم يحكم
فعلا إلا في ١٥٦٨ فقد كان تحت وصاية الملكة كاترين وعمه الكاردينال
هنرى (Henri) . وقد قتل هذا الملك البرتغالى فيما بعد في معركة وادى
المخازن في جمادى الثانية سنة ٩٨٦ هـ (٤ أغسطس ١٥٧٨ م) وكانت هزيمة
البرتغال الساحقة في هذه المعركة نذيرة بأفول نجمهم في المغرب - فآلت آخر
مواطن أقدامهم فيه (طنجه ، سبتة ، مراكش) للأسبان كما سنوضح بعد .

الفصل الثاني

الأطماع الأسبانية في المغرب

المغرب

في الوقت الذي بدأت فيه البرتغال لشاطها الإستعماري في أوائل القرن الخامس عشر ، كانت أسبانيا لاتزال مقسمة إلى مالك لم تتحد بعد ، لكن لم تلبث أن أصبحت أسبانيا دولة أوروبية عظمى قوية في البحر والبر بعد انضمام دولة أرجونة البحرية ، ودولة قشتالة في عام ١٤٦٩ يزواج فرديناند صاحب أرجونة (١٤٦٧ — ١٥١٦) من ايزابيلا صاحبة قشتالة (١٤٧٤ — ١٥٠٤) (١)

وقد حققت الملكية الأسبانية الفتية في عام ١٤٩٢ م نجاحاً منقطع النظير ، فشهد هذام العام سقوط غرناطة آخر معقل من معاقل المسلمين في الأندلس في يد الأسبان ، كما سجل هذا العام وصول كريستوف كولومبوس (Christophe Colombus) الذي كان يعمل لحساب فرديناند ، وايزابيلا إلى إحدى جزر البهاما وأطلق عليها اسم سان سلفادور (San Salvador) . وهكذا سارت أسبانيا في إثر البرتغال في عملية الكشوف الجغرافية وما تبعها من إستعمار . وكان مما تقرر في معاهدة توردسيلاس (Tordesillas) في ٧ يونيو ١٤٩٤ التي أبرمت على ضوء القرار الذي أصدره البابا اسكندر السادس لحل المشكلات التي كادت تؤدي إلى الاصطدام بين الدولتين في ميدان الكشوف الاستعمارية أن يتولى الأسبان مهمة حرب الإسترداد (وهو ما أطلق في ذلك الوقت على هذه الحرب الصليبية ضد المسلمين في شمال أفريقيا) في المناطق

(١) فيشر ، هيربرت : أسول التاريخ الأوروبي الحديث .

(ترجمة د . زينب راشد ، د . أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مراجعة د . أحمد عزت

عبد الكريم — القاهرة ١٩٧٠) ص ٧٤ .

الواقعة شرقي حجر (باديس) ، بينما يكون من نصيب البرتغال المناطق الواقعة غربي هذه المنطقة .

وكان الأسبان قد وضعوا أيديهم على جزر كناريا في وقت مبكر منذ عام ١٤٧٦ ، وقد كثر عدد المهاجرين الأسبان إلى هذه الجزر واختلطوا بالسكان الأصليين وتزاوجوا معهم ، وأدت هذه الجزر خدمة جليلة للأسبان فاستخدموها كمحطات بحرية لسفنهم وهي تعبر الأطلنطي خلال الخمسين سنة الأولى من إكتشاف واستعمار الأمريكتين ، بل إن كثيرين من سكان جزر كناريا اشتركوا في نشاط الأسبان الاستعماري في الأمريكتين . على أن ما بهما هنا فيما يتعلق بالمغرب العربي أن الأسبان أصبحوا من مواقعهم في هذه الجزر يمثلون خطراً على الساحل المغربي المقابل ، وأصبحوا يراقبون كل نشاط في الموانئ المغربية في (إفي) و (أكادير) وغيرهما ، بل لهم في وقت متأخر ادعوا أن لهم حقوقاً في بعض المناطق القريبة من (إفي) لأن حاكم هذه الجزر الأسباني كان قد أقام محطة على الساحل المغربي في مكان إشتهر من أحد الصيادين ، وقد رأينا أنه حين مد البرتغال نفوذهم لاسفي والصويرة وأكادير - كاد يحدث تصادم بينهم وبين الأسبان في هذه المناطق .

على أن الأسبان عملاً بوصية ملكتهم إيزابيل لابنتها (جوانا) وزوجها (فيليب)^(١) بأن يواصلوا الزحف حتى يدين لهم شمال أفريقيا كله وتنتشر المسيحية بين سكانه . تابعوا حملاتهم الإستعمارية على الشمال الأفريقي . ومن الذين تحمسوا لفكرة الغزو الصليبي في هذا الشمال الأفريقي السكادرينال (زيمبفيس) Ximiois ، وقد شارك مشاركة فعلية في إعداد الحملات الأسبانية على الشمال الأفريقي .

(١) مات الأمير فيليب (صاحب) الفلاندرز في رومان شبابه عام ١٥٠٦ . بعد زواجه من الأميرة الأسبانية بعشر سنوات تقريباً ، على أن أُنْتُهِمَا شارل الأول سار في عام (١٥١٦) وارثاً لعرش أسبانيا بعد وفاة أبيه فرديناند الخامس ، وانتخب في يونيو عام (١٥١٩) إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة بالإضافة إلى حكم أسبانيا والأراضي المنخفضة وتلقب بأقرب (شارل الخامس Charles Quint) .

وكان الأسبان قد استولوا على ميناء مايلا (Mehila) المغربى ومنه أخذوا يبعثون الجواسيس للكشف عن حالة المناطق المجاورة . ومن هذه البعثات الإستطلاعية البعثة التى كان على رأسها (لوريشودى باديا) إلى مملكة تليسان ، وكان المبعوثون يتشكرون فى زى التجار وبذا تمكنوا من الحصول على كافة المعلومات التى يحتاجها الغزو^(١) .

وكان الأسبانيون عقب استيلائهم على آخر معقل للإسلام (غرناطة) فى عام ١٤٩٢ م - قد تعهدوا بتأمين المسلمين فى أنفسهم وأموالهم واحترام دينهم وشعائرهم ، غير أن الأسبان نكثوا هذا العهد فاضطر عدد كبير من المسلمين للهجرة إلى البلاد العربيه الأفريقية فى شمال أفريقيا . . واستقر عدد كبير منهم فى تطوان وسلا والرباط . وأشهر هنا إلى ظاهرة هامة ازدهرت على الخصوص بعد هجرة المسلمين من الاندلس لشمال أفريقيا وهى (القرصنة)^(٢) .

وان كانت المراجع الاجنبية تطلق ، هذا اللفظ على جميع العمليات التى كانت تجرى فى ذلك الوقت فى البحر المتوسط وتعتبرها من أعمال النهب التى تقف فى نفس المستوى مع عمليات الاسترقاق للإنسانية - فإن الواقع يغير ذلك فقد اتسمت هذه العمليات فى كثير من الحالات بدافع الجهاد ضد سفن ورجال وإقتصاد الاعداء ، فقد كون المهاجرون الاندلسيون (بتطوان) و (سلا) و (الرباط) اسطولا حريياً قوياً أخذ يغير على مراكز البرتغاليين والاسبان فى البحر ، بل ويهاجم السواحل الاسبانية . وقد أثار هذا الاسطول الرعب فى نفوس البحارة المسيحيين . وكانت أطماع الدول الاستعمارية وبخاصة أسبانيا ، والبرتغال ، ثم الدول البحرية الأخرى فيما بعد فى بسط نفوذها على مدن وموانئ الشمال الافريقى - مما شجع على تركيز السلطة فى هذه المدن والموانئ فى أيدي القوات البحرية القادرة على مواجهة الخطر الاجنقى ، ويذكر دو كاسترى

(١) الجيلانى ، عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام - ٢ (١٩٥٥) ص ١٨٢ .

(٢) مشتقة من كلمة (course) - وهى لصوصيه البحر . .

(De Castus) إنه كانت هناك أربعة مراكز هامة للقراصنة في الجزء الغربي من البحر المتوسط هي طرابلس الغرب ، وتونس ، والجزائر ، وسلا^(١) .

وما كاد القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) يأذن بالحلول حتى كان الأسبان قد اتموا استعداداتهم لمهاجمة الجزائر . وأختار الملك فرديناند لقيادة الحملة الأسبانية التي أبحرت من (مالقة) في سبتمبر (١٥٠٥) متوجهة نحو الضفة الجنوبية من البحر المتوسط القائد دون دييجو (Don Diégo Devéra) وكان تحت إمرته ١٠.٠٠٠ مقاتل ، فأرست هذه القوة على بعد ثمانية كيلو مترات غربي وهران عند ميناء (المرسى الكبير) ، وبعد معركة مع القوات المدافعة عن الميناء احتله الجنود الأسبان في ١٥٠٩ وأخذوا يعملون لتثبيت أقدامهم فيه ولتخذوه نقطة إنطلاق لاحتلال المناطق الأخرى في الشمال الأفريقي التي كانت أنظارهم تتجه إليها^(٢) .

ولعل اختيار الأسبان لميناء (المرسى الكبير) لبداية عملياتهم الإستعمارية على الثغور المغربية في الشمال الأفريقي ، يرجع إلى موقعه الهام ، وصلاحيته الميناء لرسو السفن بالإضافة إلى أنه كان مأوى للتجار المسلمين الذين يغيرون على السفن والسواحل الأسبانية .

واتجهت أنظار الأسبان بعد أن استقروا في المرسى الكبير الى قرية (مسرغين) الواقعة على مسافة خمسة عشر كيلو متراً من وهران . ويبدو أن الأسبان لم يكونوا يتوقعون أن يجدوا هناك مقاومة قوية لهم ، ويرجع إهتمامهم بالاستيلاء على هذه القرية إلى حاجتهم للعواشي التي تسد حاجة جيشهم الجرار الذي أتوا به إلى المرسى الكبير ، لكنهم فوجئوا بأهالي القرية والمدافعين

(١) أنظر : عبد العزيز بن عبد الله : البحرية المغربية والقراصنة . عملة تطوان ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ المعدادان ٣ ، ٤ ص ٦٨ وكذلك :

Roger Coindreau : Les corsaires de Salé (Paris 1948)

(٢) الحيلاني - مرجع سابق - ص ٢ ، ١٨٢ ، ١٨٣ .

عنها يقفون في وجه الجيش المغير مدافعين بصلابة عن حقهم في بلادهم وعن ممتلكاتهم . وأتاح صمود سكان القرية الفرصة لوصول النجيدات التي تدفقت من القرى المجاورة ومن وهران ذاتها ، ودارت الدائرة على الجيش الأسباني فقتل منه ما ينيف على ٣٠٠٠ جندي ، وفر الباقون إلى المرسى الكبير للاعتصام بأسواره المنيعه . وفي عام ١٥٠٨ أرسل بيدرو نافرو Pedro de Nafaro على رأس حملة نجحت في الاستيلاء على حجر (باديس) بموقعها الممتاز على سواحل المغرب الأقصى الشمالية .

وتابع الأسبان نشاطهم الاستعماري في هذه الجهات بقاد الجنرال بيدرو نافرو حملة ضخمة في عام ١٥٠٩ لمهاجمة (وهران) ذاتها ووصلت الحملة إلى المرسى الكبير ، وأخذ المشاة يحفون صوب وهران حتى أحرقوا المدينة ، ولم يجد الجيش الغازي مقاومة تذكر بسبب خيانة القائدين القائمين على حراسة الثغر وبعض القبائل الأخرى مثل بني عامر وغيرهم ، فتدفق الجنود الأسبان على المدينة ، وفر من استطاع الفرار من أهلها وأعمل الجنود الأسبان القتل والذبح فيمن عجز عن الفرار من العجوة أو من أقعدهم المرض عن الفرار من المدبحة فقتل بحو ثمانية آلاف من الأبرياء وانتهكت حرمة المنازل والمساجد .

وقد كان لسقوط (وهران) في يد الأسبان دوى عنيف في العالم الإسلامي كله فأنبهرى العلماء والشعراء يستنبرون همم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها للوقوف في وجه الغزاة الطامعين في أراضيهم ، ومن ذلك قصيدة أحد علماء سجلماسة (الشيخ أحمد بن القاضى عبد الله بن أبى مجلى) جاء فيها (١) .

يا معاشر الإسلام في كل موطن

وفي كل ناد سالف ومعاصر

يا سادة العربان من آل هاشم

وغيرهم ، بالله ماصبر صابر

(١) القصيدة كلها موجودة في :

المصنف ، عبد القادر : بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الأسبان كبني عامر (الجزائر ١٩٢٤) .

يا معاشر الأتراك يا كل عالم
وكل ولي حافظ للأوامر
أناشدكم بالله ما عذر جمعكم
لدى الله في (وهران) أمر الخنازير

وقد أصبحت (وهران) مركز نشاط الأسبان في الشمال الأفريقي بينما كانت (مليلة) مركز ملاحظة ومراقبة فحسب لحركات الأسطول التركي بالإضافة إلى أحداث المغرب الأقصى ، كما أصبحت وهران ومليلة مأوى للجارجين على السلطات الحاكمة في المغرب أو المتناوئين لهذه السلطات ، فظالما تردد عليها بقايا لبيت الوطاسي من أمثال أبي حسون علي بن محمد الشيخ ، ومنذ أواسط القرن السادس عشر كان حاكم وهران الكونت دي الكوديت أي أمير قرطبة (lo Comte d'Alcaudete) بشخصيته القوية هو المحرك (الدينمو) والمنفذ للسياسة الأسبانية في الشمال الأفريقي كله والأرشييف الأسباني يحوى عدة مراسلات توضح السياسة التي اتبعها هذا الحاكم الأسباني في هذه الجهات فهو تارة يؤيد الوطاسيين الثائرين على حكم السعديين وأخرى يساند الثائرين من الزيانيين المطالبين بالسلطة في تلمسان .

ولما اختفى الوطاسيون وبنوزيان من المسرح السياسي ؛ اتجهت للسعديين في المغرب في محاولة للانفاق معهم ضد الأتراك العثمانيين في الجزائر وغيرها من ثغور الشمال الأفريقي ، وكان حول هذا الأمر الأسباني عدد من الجواسيس والوسطاء يعملون لتنفيذ سياسة هذه ، أشهر منهم شخص يهودى يدعى يعقوب كانسينو (Jacob Cansino) وتاجر جنوى كان مقيماً لفترة طويلة في فاس يدعى بولوجريللو (polo Grillo) بالإضافة إلى عدد من أبناء الأمر الأسبانية

التي عاصرت وتعاملت مع المسلمين في الاندلس (١).

ولم يكتف الأسيبان بالاستيلاء على وهران. ففي يناير ١٥١١ تحرك أسطول أسباني من ١٤ سفينة حربية عليها ١٠.٠٠٠ جندي صوب (بجاية) فهاجموا المدينة العظيمة ودخلوها عنوة ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا إلى قتل ما بها من تحف ونفائس إلى أسبانيا في مراكب غرق عدد كبير منها في الطريق ، وعمدوا إلى تحطيم ما تعذر نقله ، وهدموا (قصر اللؤلؤة) الذي يعتبر من أبداع نماذج الفن المعماري الجزائري ، كما حطموا (قصر الكوكب) ليبنوا مكانه حصناً آخر ، وهدموا المسجد الجامع ، واتخذ الأسيبان من بجاية مركزاً لقيادتهم ولمواصلة فتوحهم في الشمال الأفريقي .

وواصل الأسيبان فتوحهم في الجزائر فاستولوا على (شرشال) و (بوه — عنابه) وغيرها من المدن الساحلية دون أن يحرك سلاطين بني زيان ما كناً لوقف هذا الخطر الهادم مما يدل على مقدار ما وصلوا إليه من ضعف وإضطراب

(١) أنظر على سبيل المثال :

— خطاب أبي حسون لشارل الخامس المؤرخ ١٥ سبتمبر ١٥٥١ .

— وخطاب (مولاي الناصر بن مولاي عبده) أحد المطالبين بعرش تلمسان لشارل

الخامس (مؤرخ وهران ربيع الأول ١٩٦٢ هـ)

Archivo General de Simancas — Estado Legazo — 477.

ملاحظة : توجد بالأرشيف الأسباني عدة خطابات متبادلة بين الأسبان والمخارجن عن السلطات الشرعية منها مثلاً :

— خطاب من الطامع في عرش تلمسان لشارل الخامس مؤرخ . بوهرا في ٢١

مارس ١٥٥٠

— ومراسلات الكابتن كونزالو هرناندز (Conzalo Hernandez) بخصوص الماوضات

بين السعديين والأسيبان التي بدأت في عام ١٥٥٥ م للاتفاق على عمل موحد لمواجهة الخطر الشمالي ، وقد كان هذا الشخص ممثلاً للأسيبان في الماوضات ويؤرخ مذكراته عنها بتاريخ

١٣ أكتوبر سنة ١٥٥٦ .

وأضطر الجزائريون للخضوع مؤقتاً للقوة ، فكونوا منهم وفداً برئاسة الشيخ (سالم التومي الثعالبي) للتوجه إلى (بجاية) لعقد هدنة و صلح مع (بيدونافارو) المفاوض العسكري الأسباني بالجزائر ، كما سافر الوفد إلى أسبانيا حيث قابل الملك فرديناند الخامس (Ferdinand V) لتقديم فروض الولاء . وكان الوفد يحمل هدايا ثمينة للملك الأسباني .

وكان مما اتفق عليه :

١ — يفرج الجزائريون عن جميع الأسرى الأسبان .

٢ — تسلم للأسبان إحدى الجزر المرتفعة الواقعة تحاه مدينة الجزائر ويبقى الأسبان على هذه الجزيرة وفي مكان مرتفع منها حصن البنيون (Penion) ليكون مركزاً لقيادتهم البحرية ^(١) . وتم تشييد الحصن وأنزوا به نحو مائتي جندي وشحنوه بالسلاح وأصبحوا يهددون بمدافعهم من الحصن مدينة الجزائر نفسها . كما أصبحوا يراقبون حركة المسلمين في مختلف ثغور الجزائر .

٣ — التزموا بدفع مبلغ كبير من المال سنوياً .

وقد اضطرت عدة موانئ أخرى على سواحل المغرب الأوسط مثل (دلس) و (تنس) ، و (مستغانم) أن تعترف بسلطان الأسبان ، فأصبحوا بذلك يسيطرون نفوذهم على الموانئ الهامة في كل المغرب الأوسط . كما أنهم استولوا على طرابلس في عام ١٥١٥ ، واتخذوها قاعدة لعملياتهم الحربية في البحر .

(١) كانت نجا مدينة الجزائر أمام المرسى ، أربع جزر صغيرة منها الجزر برقا الصغيرة الكبرى التي بنى عليها الحصن الأسباني وقد هدم هذا الحصن على يد الأتراك (خير الدين) عام (١٥٣٠) وبعد تحطيم التكنة الأسبانية ردم ما بين هذه الجزر وانصلت الجزر بالمدينة برصيف طوله ٢٢٠ متراً وعرضه ٢٥ متراً ولعل هذا هو السبب في إطلاق اسم الجزائر عليها .

انظر :

محمد بن أبي شغب (ناشر) : الذخيرة السنية (الجزائر ١٩٢٠) .

المتوسط ، وظلوا يحكمونها قرابة عشرين عاماً ، ثم تنازلوا عنها في عام ١٥٣٥ لفرسان القديس يوحنا في مالطة فحكموها بدورهم حتى انتزعها منهم الاتراك العثمانيون في عام ١٥٥١ .

ولما وضع الاسبان أيديهم على طرابلس سيطروا على تجارة الميناء واحتكروها .

واتجه الجزائريون في وسط هذه المحنة إلى مقاومة المستعمرين عن طريق حرب القرصنة البحرية ، فأنتضم عدد كبير منهم لصف كبار رجال البحر المسلمين العاملين في هذا المجال كما اتجهت أنظارهم للدولة الإسلامية التي كانت قد أخذت في ذلك الوقت تظهر وتثبت أقدامها في المشرق الإسلامي وتطلع للمغرب الإسلامي أيضاً وهي الدولة التركية العثمانية

ومنذ ذلك الوقت أصبح المغرب العربي مسرحاً للتنافس بين القوى الإستعمارية الطامعة المتمثلة في الدول الأوروبية الاستعمارية (إسبانيا والبرتغال بالذات) ، والدولة العثمانية من ناحية أخرى .. هذا بالإضافة إلى أطماع الرؤساء المتنازعين على السلطان هم وأتباعهم .

وكانت (تلمسان) مسرحاً للتنافس بين هذه القوى المتصارعة ، فقد حدث في عام ١٥١٧ م تنافس على الحكم بين اثنين من الأسرة الزيانية هما (أبو حمو) و (أبو زيان أحمد) واستنجد الأول بالاسبان ، بينما استنجد الثاني (بعروج) الذي كان قد أعلن نفسه في عام ١٥٠٤ أميراً على الجزائر ، فأنتجه عروج بقواته إلى تلمسان فدخلها ، وجاءت القوات الاسبانية في مايو ١٥١٨ م لنجدة (حمو) فحاصرت تلمسان واضطر عروج لمغادرتها متجهاً إلى مدينة الجزائر ، لكنه وقع في أيدي الاسبان فقتلوه . وقد ظلت تلمسان في مهب التيارات المختلفة بسبب ضعف حكمها من الزيانيين مما اضطرهم للجوء إلى هذه أو تلك من القوات المتصارعة لمساندتهم حتى انتهى أمرها فيما بعد بإلحاقها بحكومة

الجزائر التركية في عام (١٥٥٤ م) لوضع حد لذلك. وبذلك انتهى حكم دولة بني زيان بها (١).

على أن خير الدين بعد أن خلف أخاه عروج في حكم الجزائر وأعلن في عام (١٥١٨) ولاءه للسلطان العثماني وتبعية بلاده للإمبراطورية العثمانية - تصدى للأسبان محاولا طردهم من الثغور التي كانوا يحتلون في الشمال الأفريقي ، ونجح فعلا في أن يطردهم من عدد من الثغور التي كانوا متمركزين فيها ، بل استطاع في عام ١٥٢٩ أن يطردهم من حصن البينون الذي كانوا يهددون منه الجزائر .

واتجهت أنظار خير الدين بعد ذلك إلى (تونس) فقد كانت الدولة الحفصية بها قد وصلت لدرجة كبيرة من الضعف وكانت أنظار الإمبراطور شارل الخامس (Charles Quint) قد أخذت تتجه إليها (٢) .

فخرج خير الدين من الجزائر في جيش من الأتراك وأستولى على (بنزرت) ودخل تونس في عام ٩٣٥ هـ ، ١٥٢٩ م وخطب بها للسلطان العثماني . لكن الحسن بن أبي عبد الله الحفصي توجه إلى أسبانيا مستجداً بملكها شارل الخامس فأعده هذا قوة ضخمة قادها بنفسه، ونزل في (حلق الوادي)، ومنها زحف صوب تونس فدخلها في سنة ٩٤٢ هـ (١٥٣٥ م)، وعاث الجنود الأسبان في المدينة سلباً وسلباً وقتلوا كآلافهم في الزيتونة ، وبددوا ما كانت به من نفائس ومحفوظات ، ونصب شارل الخامس - الحسن الحفصي على كرسي الحكم وأمضى الطرفان معاهدة في ٦ صفر ٩٤٢ هـ (٢٦ يولييه ١٥٣٥ م) وأهم ما جاء بها :

(١) Archive, General de Simancas - Estado legazo 79

ملاحظة : ستمعرض بالتفصيل في الفصل التالي للدور الذي لعبه عروج ، وخير الدين والعثمانيون في هذه الجهات .

(٢) حكم أسبانيا باسم شارل الأول ١٥١٦ وأنتخب إمبراطوراً للدولة الرومانية للقدماء ١٥١٩ م ، وأصبح يلقب بشارل الخامس ، وأصبحت تحت حكمه أسبانيا والأراضي المحيطة واتحاد ألمانيا الإمبراطورية .

١ — يسمح للأسبان بسكنى جميع أنحاء القطر ، وإقامة طقوسهم الدينية دون أن يتعرض أحد لهم .

٢ — تنازل لهم الأمير الحفصى عن مدن (عتابه) و (بمرت) وحلق الوادى ليقيموا بها حاميات لهم .

٣ — يدفع الأمير الحفصى سنوياً للأسبان إثني عشر ألف دوكة .

وقد كان قبول الأمير الحفصى لهذه الشروط المهينة سبباً فى ثورة الأماهى عليه فأمسكوا به وسلبوا عينيه ، وخلفه ابنه أبو العباس الثانى فى إدارة شئون البلاد .

وقد حاول هذا الحاكم الحفصى الجديد أن يوقف التيار الإستعمارى الأسبان دون جدوى ، فقد نجحوا فى عام ١٥٤٠ م فى الإستيلاء على موانئ (سفاقص) و (سوسة) ، و (مناستير) .

كما أن الصراع بين الأمير الحفصى « أبى العباس الثانى » ووزيره (أبى الطيب الخفجار) ، أدى لدخول الأسبان والعثمانيين فى الصراع ، وقد أقام الأسبان قلعة الباستيون العظيمة خارج أسوار تونس ، كما حصنوا (حلق الوادى) وغيرها من الموانئ ، بأسوار حجرية اقتطعتوها من الآثار الرومانية القديمة .

وظلت تونس منذ ذلك الوقت موضع صراع بين التونسيين والأسبان والعثمانيين حتى استولى عليها العثمانيون فى عام ١٥٦٩ م — كما سنوضح بالتفصيل فيما بعد — وكان لهذا النصر دوى فى أوروبا حتى أن البابا دعا إلى تأليف حلف مسيحي بعمل على الاحتفاظ لأوروبا بالمرأى الذى استولت عليها فى السواحل الأفريقية . وقد التفت أساطيل الحلف وعلى رأسها (دون جوان) أخو الملك فيليب ملك إسبانيا بالأسطول العثمانى فى معركة غرب سواحل مالطة هى معركة لبانتو (Lepanto) (١٥٧١ م) هزم فيها الأسطول التركى ، مما شجع

الاسبان على إعادة الحفصيين لحكم تونس عام ١٥٧٣ ، لكن استطاع القائد العثماني سنان باشا فى عام ١٥٧٤ أن يقضى على الحفصيين فى تونس نهائياً بعد أن حكموها مايقرب من ٣٥٠ عاما .

وقد أصاب تونس على يد الاسبان الكثير من صنوف الدمار ، فقد اندثرت كثير من المعالم الدينية بها ، ووصل الامر بهم إلى أن اتخذوا جامع الزيتونة لمسطبلا لحيولهم واطلقوا مابه من نفائس الكتب وحمل بعضها إلى روما حيث أهدوها للكنيسة الفاتيكان . هذا وكان شارل الخامس قد حاول فى عام (١٥٤٠) أن يوجه ضربة قاصمة للاتراك فى (الجزائر) ذاتها فاعد حملته وأسطولا على رأسه القائد البحرى الشهير (اندريه دوربا) (١) .

وقد اشترك الإمبراطور بنفسه فى هذه الحملة التى أعد لها ٢٤٠٠٠ مقاتل حماتهم ٤٥١ سفينة حربية . كما اشتركت فيها أيضاً ٦٥ بارجة ، ونزل جنود الحملة عند فاحية (حمين داي) يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٥٤١ وتحركت صوب المكان الذى عرف بقلعة الإمبراطور (Fort l'Empereur) فاحتلته ومنه انجبت لحصار العاصمة ، ولم يكن بها فى ذلك الوقت إلا ٨٠٠ جندى لكن الطبيعة اشتركت فى تحديد نتيجة المعركة ، فقد هطلت امطار غزيرة وثارَت الزوابع البحرية والجوية فأدت ثورة الطبيعة لتحطيم جزء كبير من أسطول العدو وغرق الكثيرون من جنوده ، واضطرت البقية للإلتجاء بالمرأى كالبقية المتبقية إلى بعض المراسى المجاورة ، ونجا الإمبراطور بنفسه وأتجه صوب (بجابه) ومنها قفل عائداً إلى أسبانيا ، وهوت هذه الهزيمة مركز الاسبان فى وهران وغيرها من مدن شمال أفريقيا .

وكان العثمانيون قد أخذوا يضيقون الخناق على وهران بما دعا حاكمها (الكونت الكوديت) لأن يستصرخ طالباً نجدة سريعة من أسبانيا ، لكن ظروف أسبانيا وحروبها فى القارة الأوروبية التى أدت إلى تنازل شارل الخامس عن عرشه فى عام ١٥٥٦ ، واعتسكافه فى دير فى إسبانيا ، لم تمكنها من نجدة قواتها مما مكن الاتراك من تشديد الحصار على وهران وغيرها من مراكز الاسبان .

(١) قائد بحرى جنوى مشهور كان فى خدمة أسبانيا .

وأستطاع الاتراك فى عام ١٩٦٥ / ١٥٥٨ م أن يوجهوا ضربة قاصمة للجيش الاسبانية قرب (مستغانم) فأسروا منهم ١٢ ألف نسمة وأحاطوا بالبقية الباقية منهم وأوقدوا النيران فى مخازن البارود التابعة لهم فأنفجرت، وكان من قتل فى هذه المهركة السكونت الكوديت حاكم وهران الذى كان على رأس القوات الاسبانية الزاحمة صوب مستغانم .

وحين ولى (درغرث رايس) قيادة الاسطول الجزائرى وكان من البحارة العثمانيين المهرة — استطاع فى عام ١٥٥١ أن ينتزع ميناء (طرابلس) من يد فرسان بيت المقدس ، كما أستولى على (القيروان) ، وقد حاول الاسبان استرجاع (طرابلس) لقطع الطريق على السفن العثمانية فى اتجاهها للبحر المتوسط الغربى فاعدوا حملة بحرية على رأسها دوق دى مدينا سدونيا Duc de Medina Sidonia) ولكن هزمه القائد (درغرث) عند جزيرة (جريه) .

وقد حاول العثمانيون فى عام ١٥٦٥ انتزاع جزيرة مالطة التى كانت بيد فرسان بيت المقدس (الاسبتارية) وذلك لاهمية موقعها البحرى فى هذا الصراع بينهم وبين الاسبان ، ولكنهم اضطروا لرفع الحصار لقوة المدافعين عنها فظلت فى أيدي فرسان بيت المقدس حتى استولى عليها الإنجليز عام ١٨٠٠ م .

وبانتهاء القرن السادس عشر أخذ نشاط الاسبان فى الشمال الأفريقى يضعف واهتمامهم بهذه الجهات يقل فأكتفوا بما استولوا عليه من ثغور ساحلية ولم يحاولوا التوغل للداخل — ويرجع ذلك للأسباب الآتية :

١ — حين بدأت اسبانيا نشاطها الاستعمارى شغلت عن أفريقيا بالجهات المستكشفة حديثا فى العالم الجديد ، خاصة بعد أن ظهر غى هذه الجهات فى المعادن .

٢ — يضاف إلى هذا أسباب تتصل بالسياسة الخارجية لاسبانيا وعلاقتها بالدول الأوروبية الأخرى ، فقد شغلت أسبانيا بالصراع المرير فى شبه الجزيرة الإيطالية خاصة بعد أن توج الملك (شارل الخامس) ملك أسبانيا امبراطوراً

للإمبراطورية الرومانية المقدسة . وقد استمرت هذه الحروب بين فرنسا وأسبانيا في فترات متقطعة امتدت طوال خمسة وستين عاما (١٤٩٤ — ١٥٥٩)، واستنزفت قوة أسبانيا وثروة مستعمراتها .

٣ — ظهور الدولة التركية العثمانية ، ومد نفوذها للشام (١٥١٦) ، ومصر (١٥١٧) ، والجزائر (١٥١٨) ، ثم تونس (١٥٧٤) . . هذا بالإضافة إلى توغل العثمانيين في قلب القارة الأوروبية وفتحهم جبهة بحرية في حوض البحر المتوسط باستيلائهم على العديد من جزرها التي اتخذوها مع أماكن استقرارهم في الشمال الأفريقي قواعد عسكرية لهم — وهكذا شغل الأسبان بعد تخلصهم من العرب في الأندلس بهذه الموجة الإسلامية الجديدة التي أصبحت تمثل في نظر الأوربيين خطراً داهماً على العالم المسيحي — خاصة بعد أن أُنقِذت قوات العثمانيين البرية والبحرية عام (١٥٢٩) صوب (فيينا) محاولة اقتحام هذه العاصمة الحصينة ، بل بعد أن تعرض الساحل الشرقي لشبه جزيرة أيبيريا ذاتها لضربات كثيرة من العثمانيين (١) .

فكانت كل هذه المشكلات كافية لاستنزاف جهود أسبانيا ، وصرف أنظارها عن القيام بمزيد من المغامرات في القارة الأفريقية ، فكانت تحركاتهم فيها محدودة .

ويلاحظ أن الأسبان لم يحاولوا — أو على الأصح — لم ينجحوا في الربط بين مراكز استعمارهم في الشمال الأفريقي ، فظلت مجرد ثغور أو حصون منفصلة متباعدة ، وظهرت خطورة هذا الوضع حين شغلت أسبانيا عن حامياتها في هذه الثغور فانقطعت صلتها بها .

(١) تعددت غارات العثمانيين وحملاتهم على ثغر بلنسية بالقوات ، ويقال إنه كان يتجمع في هذا الثغر المضطهدون من المسلمين المتبقين في أسبانيا . . وكان من أهداف الهجوم العثماني على الثغر هو تخليص من يمكن تخليصهم منهم من اضطهاد الأسبان . — انظر محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس (١٩٤٩) .

وقد تعرضت هذه الحاميات الاسبانية للجماعة وافترقت للويد من التعضيد في الوقت الذي تعرضت فيه لهجمات القوات الوطنية والإسلامية فضعف شأنها في الوقت الذي كانت فيه قوة العثمانيين في البحر المتوسط والبلاد المطله عليه تزداد. بالإضافة إلى ازدياد نفوذ الدول البحرية والأوربية التي أخذت اهتمامها بالبحر المتوسط يزداد أيضاً باعتباره شرياناً هاماً للواصلات البحرية العالمية . إذ أن اكتشاف البرتغال لطريق رأس الرجاء الصالح للشرق (رحلات فاسكودا جاما عام ١٤٩٧ وما بعده) — مع أنها هزت لفترة مكانة البحر المتوسط كطريق تجارى . إلا أنه لم تلبث أن رجعت له مكانته باعتباره أقصر طريق يؤدي للشرق (١) .

(١) من يريد التوسع في هذه النقطة انظر :

Hoskins, G.A. : British Routes to India (1928) .

ثانياً- الأتراك العثمانيون في المغرب العربي

الفصل الثالث : الجزائر ولاية عثمانية

الفصل الرابع : تونس ولاية عثمانية

الفصل الخامس : ليبيا ولاية عثمانية

الفصل الثالث

الجزائر ولاية عثمانية

كانت الدولة العثمانية — كما ذكرنا — قد غدت في أوائل القرن السادس عشر أعظم قوة في الشرق الأدنى وفي الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وكانت تمثل القوة الإسلامية الفتية — خاصة بعد أن نجحت في الإستيلاء على أملاك الدولة المملوكية في السام ومصر والجزاز واليمن . وإلى ذلك الوقت لم تلعب البحرية العثمانية دوراً بارزاً في حروبهم فقد كانت الجيوش البرية هي صاحبة الفضل في مجدهم الحربي .

وقد تعرضت البلاد العربية في شمال أفريقيا للخطر والاطماع الإستعمارية البرتغالية والاسبانية — كما رأينا — فاستولت البرتغال على شواطئ المغرب الأقصى بينما استولت أسبانيا على الشواطئ من الجزائر غرباً إلى (طرابلس) شرقاً — فكان الامر يستلزم دولة فتية تظاهرها قوة بحرية لمواجهة هذا الخطر المحدق ببلاد الإسلام في الشمال الافريقي .

ظهر في هذه الاثناء بحاران جزائريان هما الاخوان (عروج) و (خير الدين) لعبا دوراً هاماً في الوقوف في وجه الإستعمار والاطماع الإستعمارية في بلدان الشمال الافريقي كما أشرنا سابقاً . وهو ما سنوضحه بتفصيل في هذا الفصل .

وهناك خلاف كبير حول المراحل الأولى من حياة هذين الاخوين والظروف التي أدت بهما للعمل في (القرصنة) — على أن ما يهمنا هو الدور الذي لعباه في تاريخ الشمال الافريقي (١) .

(١) البعض يذهب إلى أنها مسلمان يرجعوا لأصل تركي ، والبعض يذهب إلى أنها عتقوا للإسلام مؤخراً .

— أنظر عبد القادر ، نور الدين : صفحات من تاريخ مدن الجزائر (قسنطينة ١٩٦٥) ص ٤٢ وما بعدها .

ملاحظة : انظر الخريطة رقم ٩ تلاحق الكتاب .

وقد اتخذ (عروج) من جزيرة (جربة) التوسبة قاعدة لنشاطه في البحر المتوسط بناء على اتفاق مع السلطان الحفصى محمد بن الحسن ، وأخذ صيته يذيع وتناقل الاسنة ألقصص عن جرأته في نقل أعداد كبيرة من مسلمى الاندلس وإنقاذهم من يد الاسبان . وأدى ذلك الى استنجاد المدن الساحلية في المغرب به لتخليصها من براش الاسبان ، وقد برزت ذراعه في أثناء محاولته في عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م لتخليص (بجاية) منهم .

وفي ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م احتل عروج (جيجل) واتخذها قاعدة لنشاطه بدلا من جربة ، ثم احتل (شرشال)^(١) .

واتجهت أنظار عروج الى (الجزائر) حيث كان وجود الاسبان في حصن البينون Penion الذى بناه الاسبان سنة ٩١٦ (١٥١٠ م) بعد احتلالهم لصخرة المرسى الكبير يمثل تهديدا خطيرا لها .

ورغم أن عروج لم ينجح في الإستيلاء على قلعة (البينون) فقد استطاع أن يثبت أقدامه في مدينة (الجزائر) رغم المؤامرة التي اشتركت فيها بعض القبائل برئاسة (سالم التومي) رئيس المدينة ، وبعد أن خضعت الجزائر له أخذ عروج يبسط نفوذه على المناطق المجاورة واستولى على [مليانة] و [المدية] و [نفس] . وفي عام ٩١٣ هـ / ١٥٩٧ م نجح في الإستيلاء على (تلمسان) وقضى على الاسرة الزيانية بها وتوغل عروج في أقاليم المغرب فاستولى على وجده (٢) .

لكن الاسبان أخذوا يشعرون بمدى الخطر المحدق بهم نتيجة هذه الانتصارات المتتالية من هذا المغامر فأرسلوا حملة مزوهران بقيادة (دون مارتين) استطاعت أن تقطع الطريق بين عروج وقواته في الجزائر ، كما نجح الاسبان في إقارة أهالي تلمسان ضده ، وحاصروا عروج في مدينة [مشورا]

(١) ابن أبي الضياف، أحمد: إتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الأماني (تونس — ١٩٦٣) — ٢٥ ص وما بعدها .

(٢) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث (١٩٦٩) ص ٢٦

قرب الوادى المالح (Rio Salado) وأسروه وقتلوه هو وعدد كبير من جنوده في عام ٩٢٤ هـ ١٥١٨ م ، وكان في ذلك الوقت في الرابع والأربعين من عمره — ولم ينهار البناء الذى وضع عروج أسسه فقد تسلم الأمر بعده أخوه (خير الدين) الذى عرف في التاريخ بلقب (بارباروس) أى ذى اللحية الشقراء ، وكان وقت قتل أخيه نائباً عنه في الجزائر . فكان عليه أن يواجه بالإضافة إلى قوات الأسبان — المؤامرات والثورات التى قامت في مدن الشمال الأفريقى التى أخضعها عروج ، فقد كانت هذه البلاد كلها تتمزقها الإضطرابات والإنقسامات ، ولم يكن الإدراك والوعى لما يتطلبه الموقف من تكتل وحزم للوقوف في وجه الاطماع الأسبانية — قد نضج بعد . واتخذ خير الدين خطوة حاسمة لمواجهة الموقف — فأعلن ولاءه للسلطان العثمانى وتبعية البلاد الخاضعة له للإمبراطورية العثمانية — وكانت في ذلك الوقت تمثل القوة الأساسية في العالم الإسلامى ، فأنعم عليه السلطان سليم الأول برتبة (بيكر بك) أو بيلر باى (١) وأرسل له جيشاً من ستة آلاف مقاتل لشد أزره وسمح له بسك النقود ، وأصبح خير الدين بذلك والياً من ولاية الأتراك ، وظلت الجزائر من ذلك الوقت ولايه عثمانية حتى سقطت في يد الفرنسيين عام ١٨٣٠ -

* * *

وتنقسم هذه الفترة من تاريخ الجزائر إلى ثلاثة أدوار :

[١] دور الولاة الملقبين بلقب بيكر بك (١٥١٨ — ١٥٨٧)

[ب] دور الباشوات (١٥٨٧ — ١٦٧١) .

[ج] دور الدايات (١٦٧١ — ١٨٣٠) .

وسنشير للأحداث الهامة التى أحاطت بالجزائر في كل طور من هذه الأطوار .

(١) لفظ تركى معناه أمير الأمراء — وكانت الجزائر يومئذ إحدى ثلاث ولايات بالامبراطورية العثمانية تلقب رئيسها بهذا اللقب (ولاية الأناضول ، والرومى ، والجزائر) — انظر لمجبلانى ص ٢٢٧ .

فترة حكم الولاة (البيكار بك) :

حاول الأسبان أن يتخلصوا من خير الدين ، كما تخلصوا من شقيقه ، فأرسلوا حملة في عام ١٥١٩ نزلت قرب الجزائر ، لكن استطاع خير الدين أن يوقع بها هزيمة وأسر من رجالها ثلاثة آلاف مقاتل فيهم عدد كبير من الضباط ، وأستولى خير الدين على مدينة (القل) الساحلية .

لكن نجح الأسبان في إثارة (أحمد بن القاضى) (١) المناوئ لخير الدين ، فتوجه بقوة نحو الجزائر ، كما ثار ضده الحفصيون بتونس وبوزيان في تلمسان والوطاسيون بالمغرب الأقصى ، واضطر خير الدين إلى اللجوء إلى (جيجل) ثم إلى جزيرة (جربة) حيث استطاع أن يستعيد قوته وأن يهاجم الجزائر بل وأستولى على قلعة بنيون الأسبانية في مايو ١٥٣٠ ، وسهل له الاستيلاء عليها لإنشاء مرسى الجزائر الذى أصبح ملجأ صالحاً لسفنه ، وفي ١٥٣٣ قاد هجوماً عنيفاً على تونس وزحف عليها .

· وذاع صيته بعد هذه الانتصارات المتتالية فأنعم السلطان سليم عليه بلقب الباشوية وولاه إمارة الاسطول العثماني ، فظل كذلك حتى وافته المنية في عام ١٥٤٦ .

وخلف خير الدين في إدارة شؤون الجزائر ٨٩٤٠ / ١٥٣٤ حسن اغا وفي عهده أعد شارل الخامس ملك أسبانيا حملة لغزو الجزائر ذاتها اشترك فيها بنفسه . لكن استطاع الجزائريون — كما أوضحنا سابقاً عند الحديث عن الاطماع الأسبانية — أن يوقعوا الهزيمة بهذه القوة ، وهبت رياح حطمت عدداً كبيراً من سفن الاسطول الإسباني . وكان من نتيجة هذا النصر أن نعمت الجزائر لفترة طويلة بالامن . فقد أصبح الاوربيون يعملون لقوتها حساباً ، كما هز مركز الأسبان في وهران وغيرها من مناطق نفوذهم بالشمال الأفريقي (٢) .

(١) أحمد بن القاضى من أعيان بيوتات الجزائر الساكنة بناحية (بلاد القبائل) ، وولاه خير الدين على تلك الناحية — لكنه خرج عليه .

(٢) أحسان حقى : الجزائر العربية (١٩٦١) ص ٥٣ .

وفي عام ١٥٤٤ عين (حسن باشا) ابن خير الدين والياً على الجزائر واستمرت ولايته حتى عام ١٥٥٢ ، فوجه جهده أول الأمر لتحسين الجزائر ، ثم هاجم تلمسان و مستغانم فاستولى عليهما ؛ كما هاجم الأسبان في وهران ، ولكنه لم ينجح في الاستيلاء عليها . خاصة أن فكرة التحالف مع السعديين في المغرب لتكوين جبهة إسلامية ضد الأسبان لم يكتب لها النجاح حيث كان السعديون أنفسهم يطمعون في بسط نفوذهم على تلمسان و مستغانم وغيرهما من مدن المغرب الأوسط ، وقد أدى هذا الصراع بين الأتراك والمغاربة استمرار فترة طويلة .

وفي عام ١٥٥٩ هـ / ١٥٥٢ م تولى الأمر في الجزائر (صالح ريس) ، وكان من أعوان خير الدين ، وقد وقعت بينه وبين السعديين معارك نتيجة تأييده للأمر الوطاسي (أبي حسون علي بن محمد الشيخ) ليستعيد نفوذه في (فاس) . وقد نجح جيش صالح ريس في دخول فاس وتنصيب أبي حسون فيها — لكن دارت الدائرة على أبي حسون بعد عودة الجيش الجزائري لا وعاد السعديون للعرش ، كما وجه الولى الجزائري ضربات قوية للأسبان ، ونجح في طردهم من بجاية في ١٥٥٥ ، ومن المهدية في العام التالي ، وأستولى في عام ١٥٥٦ على طرابلس ، وعين طرغوث^(١) والياً عليها ، فأتاح بذلك ميناء هاماً في البحر المتوسط للأسطول العثماني ، على أن وفاة صالح ريس في عام ١٥٥٧ أدت لإضراب الأمور في الجزائر فتنازع رؤساء الفرق العسكرية على السلطة فيها .

وأعاد السلطان العثماني - (حسن باشا) لولاية الجزائر ليعيد الأمور بها إلى نصابها . وبعد أن أستتب الأمر للوالى الجديد بالجزائر هاجم القوات المغربية التي كانت قد استولت على تلمسان ، وطارد المغاربة حتى أبواب فاس ، وقد

(١) طرغوث : اسمه بالتركية (طورغودرايس) — وأصله من بلاد الأناضول نشأ صغيراً في الخدمة البحرية مع خير الدين ، واشتهر في قيادة السفن ، وله غزوات عديدة في البحر المتوسط ، ومات أثناء محاصرة جزيرة مالطة سنة ٩٧٣ هـ (١٥٦٥ م) .

دبر مؤامرة للتخلص من الأمير المغربي (أبو عبد الله محمد الشيخ الملقب بالممدى) فأرسل إليه جماعة من الجنود (اثني عشر جندياً) دخلوا في خدمته مدعين أنهم هاربون من الجيش التركي حتى إطمأن إليهم وقربهم إليه وأتتهى الأمر بقتله في ذى الحجة ٩٦٤/٢٣ أكتوبر عام ١٥٥٧^(١).

ولمجه حسن باشا إلى الأسبان وكانوا قد أعدوا قوة كبيرة من ١٢٠٠٠ مقاتل على رأسها الكونت الكوديت (Le Comte Al Caudete) حاكم وهران لمهاجمة (مستغانم) ، وأتتهت المعركة — كما شرحنا سابقاً — بهزيمة ساحقة للأسبان فقد أيد معظم جيشهم وقتل الكونت الكوديت نفسه . لكن استدعى السلطان العثماني حسن باشا للاشتراك مع الأسطول العثماني في حصار مالطة مقر رهبان القديس يوحنا . . وخلفه على ولاية الجوارر عليج على ١٥٦٨ — ١٥٨٧ وكان في الأصل من الإنكشارية وعمل في الملاحة في البحر المتوسط واشترك مع الأسطول العثماني في حصار مالطة وتولى قيادة الأسطول الشرقي بدلاً من طرغوث^(٢).

وعندما عين عليج والياً للجزائر وجه اهتمامه إلى الأسطول أكثر من غيره حتى أصبح من بعده — ولمدة نصف قرن — مبعث رهبة الأوربيين^(٣).

وقد شهدت فترة ولاية عليج على الأحداث الهامة التي أدت إلى بسط النفوذ العثماني على تونس .

على أننا نشير إلى أن سقوط تونس في يد العثمانيين بعد أن بسطوا نفوذهم على الجزائر — دفعهم للتفكير في بسط نفوذهم أيضاً على المغرب منتهزين الخلافات التي كانت بين أفراد أسرة السعديين . وكان المغرب يواجه

(١) سنشرح بتفصيل دوائمه هذه المؤامرة عند الحديث عن الدولة السعدية بالمغرب

(٢) Sernard, Auguste : l'Algerie (Paris, 1930) P. 356

(٣) إحسان حقى — مرجع سابق ص ٥٥ .

أيضاً الاطماع البرتغالية — ولكن الجيش المغربى أوقع بالبرتغاليين هزيمة ساحقة فى معركة وادى المخازن (١٥٧٨ م) وجاءت وفود الدول الإسلامية للمغرب للتهنئة ومنها وفد عثمانى ، لكن العثمانيين أرسلوا حملة ضد المغرب سنة ١٥٨٠ بحجة أن السلطان المنصور السعدى أساء إستقبال الوفد العثمانى ، ولكن السلطان المغربى أرسل وفداً مغربياً لاسترضاء السلطان العثمانى كما سنوضح بالتفصيل عند دراسة الاسرة السعدية بالمغرب . وكان إنشغال الدولة العثمانية بمشاكلها مع الدول الأوروبية بالإضافة إلى مشاكلها الداخلية كفيلاً بأن يبعد خطرهم لفترة طويلة عن المغرب .

حكم الياشوات فى الجزائر (٩٩٥ — ١٠٦٩ هـ / ١٥٨٧ — ١٦٧١) :

كانت الجزائر فى الفترة السابقة تحكم بواسطة الولاة ، وكانوا مخلصين للدولة العثمانية دولة الخلافة ، فلم يفكر أحدهم فى الإستقلال . والحقيقة إن الجزائر كان لها مركز خاص بالنسبة للولايات العثمانية الأخرى فقد كانت تتمتع بلا مركزية واسعة ، وكانت السلطة العثمانية عليها إسميه أورمزية فقط ، تسكاد أحياناً لا تتعدى الدعاء للخليفة العثمانى على المنابر فى مساجد الجزائر .

وكانت الجزائر مستقلة فى ميزانيتها ، ولها (سكة) خاصة بها — وكان هناك مجلسان استشاريان إلى جانب الحاكم (مجلس الشورى) و (الديوان) ، وكانت هناك ثلاثة أقسام إدارية كبيرة على كل منها باى هى :
بايلك الشرق — مقره قسنطينة .

وبايلك الغرب — ومقره المعسكر Mascara وتغير إلى وهران .

وبايلك تيطرى — مقره المديه Medea ^(١) .

لكن منذ عام ١٥٨٧ كانت استامبول ترسل للجزائر ولاية غرباء عن الجزائر يحملون لقب باشا ، وكان الباشا يعين لمدة ثلاث سنوات وإن كان من النادر أن يكمل هذه المدة . وكان باشوات الجزائر مثل غيرهم من الباشوات العثمانيين يشتركون مناصبهم بالمال ، وكان الجنود يمثلون مركز القوة فكان الباشوات حريصين على جمع أكبر قدر من المال باسم (الضريبة) أو غيرها لدفع الالتزامات المتعددة ، وفي مقدمتها رواتب الجند والهدايا التي يتقرب بها الباشا من السلطان وحاشيته .

وشهدت هذه الفترة من تاريخ الجزائر ثورات متعددة من القبائل — حيث كانت للزعماء المحليين سلطة ونفوذ بالإضافة إلى سلطة طوائف الجند والبحرية وغيرهم .

وقد زاد الأمر سوءاً ضعف الدولة العثمانية، مما أثر على مركز ممثلها في الجزائر ، خاصة أن الدولة جرت على التغيير المستمر للباشوات ، وأنهمك هؤلاء في جمع أكبر قدر من المال في فترات حكمهم القصيرة — فأضعف ذلك من مراكمهم وجعلهم موضع السخط والنقمة .

وفي عام ١٦٥٩ قرر الانكشارية ^(١) أن مجردوا الباشا من سلطاته وأن تكون السلطات التنفيذية بيد رؤسائهم الأغوات ^(٢) وأن يبقى الباشا مجرد ممثل فخري للسلطان العثماني ، وأصبح يتولى الأمر أحد الأغوات يغير كل شهرين . وترتب على هذا فوضى لا مثيل لها خاصة أن تغيير الأغوات لم يكن يتم بيسر بل كان يؤدي لحروب بين أنصار الأغا القائم والأغا الجديد ، وأنهى الأمر إلى أن جميع من تولوا هذه السلطة قتلوا بأيدي الجند حتى أن عديدين رفضوا قبول هذا المنصب الخطير .

(١) أصلها (البشيشرية) ومعناها الجنود الجدد وتمنح الجيوش غير النظامية التي كانت بالدولة التركية قبل السلطان عمود .

(٢) أغا — كلمة تركية وهو رئيس الجند (كل ١٠٠ جندي من الإنكشارية عليهم رئيس هو الأغا) .

وزاد الأمر خطورة تعرض السواحل الجزائرية لهجمات الدول البحرية الأجنبية التي كانت تتنافس في ذلك الوقت على النفوذ في البحر المتوسط خاصة فرنسا وإنجلترا وهولنده جنوه .

وقد مرت علاقات الجزائر بفرنسا بالذات منذ ذلك التاريخ بفترات دقيقة بسبب رغبة فرنسا في تدعيم مركزها في البحر المتوسط والثغور الجزائرية بالذات لاستناداً على معاهدتها مع السلطان العثماني (معاهدة احترام مراكبها في البحر) وكانت هذه العلاقات تتأرجح من حين لآخر بسبب أعمال القرصنة في البحر المتوسط وبسبب ما كان يصيب أتباع كل من البلدين من نتائج هذه الأعمال (١) .

ويشبه بعض المؤرخين هذه الفترة من تاريخ الجزائر بفترة الفوضى في التاريخ الروماني — حين كان الجنود يستندون شؤون الإمبراطورية الرومانية لمن يوافق هواهم من القادة وكان أنشغال الباشوات بشؤونهم الخاصة ومحاولة الإثراء بأية طريقة — من العوامل التي أدت إلى سقوط هيبتهم ، كذلك كان الباشوات يدفعون أهل البلاد إلى أعمال التعدي على السفن والثغور لحسابهم ، ولذا لم يعن الباشا بأن يحسن تمثيل السلطان أو يقوم بالمهمة الملقاه على عاتقه ، ولم يكن الجند يحسون بوجوده بينهم إلا في الإحتفال الذي يقام لاستقباله يوم وصوله من القسطنطينية .

وقد حاول بعض الباشوات أن يكسروا شوكة الانكشارية بالإستعانة عليهم ببعض زعماء القبائل ، وأدى هذا بالطبع إلى حروب شتى ساهمت بدورها في انتشار الفوضى في البلاد .

(١) حاولت فرنسا بعد موقعه (لباتو) الشهيرة بجنوب بلاد اليونان والتي تعظم فيها الأسطول العثماني (جادى الأول ١٩٧٩ هـ أكتوبر ١٥٧١) وقد أثمرت لها من قبل — ان تصل مع الدولة العثمانية إلى إتفاق لوسط نفوذها على موانئ الجزائر — وأخيراً نجحت في بعض الامتيازات الخاصة ، وذلك بتصريح من السلطان العثماني بإقامة محارس تجارية لها في (القالة) وغيرها من الموانئ الجزائرية على الا تقيم بها حصونا ، لكن كانت هذه بداية لتحقق الاطماع الفرنسية التي تحققت بعد ذلك بما يزيد عن قرن ونصف (سنة ١٨٣٠) .

فترة حكم الدايات (١٦٧١ - ١٨٣٠) :

لما ضربت الفوضى أطناها في البلاد أستولى رؤساء البحرية — وقد كانت يدهم السلطة الحقيقية — على السلطة ونصبوا واحداً منهم والياً على البلاد بلقب داي (١) على أن تبقى بيده السلطة مدى الحياة .

ولما رأت السلطنة العثمانية أنها عاجزة عن فرض إرادتها على الجزائر — كتفت عن إرسال الباشوات وصارت تكتفى بإرسال الخلع للداي وتلقبه بلقب (باشا) باعتباره ممثلاً لسلطتها في هذه الجهات .

وكانت للداي سلطة واسعة ، ويعاونه في الحكم مجلس استشاري من كبار الموظفين . والداي هو الذي يختار وزراءه بنفسه . وكان الداي يقيم في قصر الجينية ، ثم نقل مقره إلى قلعة القبة — ومع ما كان للداي من سلطة فقد كان عرضة دائماً لقيام فتنة عسكرية تؤدي بحياته .

وإلى جانب الداي كان الاغا — قائد الجيش ، وشيخ الإسلام للشؤون الدينية ، والباشكاتب وهو بمثابة الأمين العام . ورغم أن الجزائر كانت تشترك في حروب الدولة العثمانية بقوة بحرية تنضم إلى الاسطول العثماني — فإن هذه الفترة في الحقيقة تمثل ضعف الصلات بين الجزائر وأستامبول ، فقد كان الدايات ينتخبون محلياً كما ذكرنا وكانت سلطة الدولة العثمانية عليهم ضعيفة .

هذا وقد كانت القوة العسكرية في الجزائر تتألف من (الالوجاق) وهم الجنود الأتراك الذين ينضمون للقوة العسكرية طواعية من مختلف أنحاء الإمبراطورية ، فيلقون تدريباً خاصاً ثم يوزعون على (الالورط) المختلفة .

(١) لفظ تركي معناه (الخال) ، وتلقب الجنود لأميرهم بهذا اللقب هو من قبيل التكريم والإشارة إلى أنه أحد أفراد أسرهم ، وظل هذا اللقب يطلق على (ولاية الجزائر) حتى استيلاء الفرنسيين عليها .

وكانت هذه القوة هي المسؤولة عن الدفاع عن البلاد ، والمحافظة على الأمن وكان رؤساؤها يؤلفون (الديوان) . وقد أصبح هؤلاء الرؤساء سلطة كبيرة حتى أنهم أصبحوا مصدر الفوضى والاضطرابات بدلا من أن يكونوا حماة الأمن والنظام .

وفي الفترة المتأخرة من الحكم العثماني في الجزائر قل الاعتماد على هؤلاء الجند الذين كانوا يجلبون من مختلف أنحاء الإمبراطورية العثمانية ، وإتجه الدايات إلى إيجاد قوة جديدة من عناصر محلية أو من جنود مرتزقة (١) .

كما أن بعض الدايات لجأوا إلى الاستعانة ببعض شباب القبائل لإخضاع الاضطرابات التي سببتها قبائل أخرى وذلك مقابل امتيازات ضرائبية وغيرها من الامتيازات .

هذا وقد ترتب على زواج الانكشارية من نساء بعض القبائل التي رحبت بمصاهرتهم ظهور طبقة من المولدين (٢) دخل بعضهم في الجندية ومنهم تكونت فرق (القولو على) (٣) .

وبالإضافة إلى هؤلاء الجنود كان هناك (رجال البحر) ، وكما ذكرنا من قبل فقد لعبوا دوراً هاماً في تاريخ الجزائر وعلاقتها سواء بالدولة العثمانية أو بالدول الأوروبية الأخرى التي كانت تتعرض سفنها في البحر المتوسط وسواحل شمال أفريقية لهجوم مستمر ، وهو ما أطلق عليه الكتاب الأجانب تعبير (القرصنة) وقد تعرضنا لتحليل ذلك من قبل .

وكان للبحرية الجزائرية مركز ممتاز ، وكان نصيب البحارة من الغنائم مغرياً لدخول الكثيرين في البحرية حتى أن عدداً كبيراً من أسرى المسيحيين

(١) عن الجيش الجزائري انظر ما كتبه :

D. Grammont, H. : Histoire D'Alger sous la Domination Turque (Paris 1887)p.p . 381 — 382

(٢) من أشهر هذه القبائل قبيلة الزواوة حتى أنه أطلق على من دخل في خدمة

الفراسيين من جنود القبائل فيما بعد اسم (الزواف) نسبة لهذه القبيلة .

(٣) لفظ تركي مركب معناه — أبناء الجنود .

اعتنقوا الاسلام وانخرطوا في سلك البحرية وأطلق على هؤلاء اسم
(العلوج)^(١١).

وقد كان جزء كبير من موارد الخزينة الجزائرية من حصتها من أرباح
القرصنة بالإضافة إلى الضرائب التي كانت تفرض على الأهالي بصورة يعوزها
النظام والعدالة ، وتستخدم كافة وسائل العنف والقسوة لتجصيلها ، إذ أن الدولة
لم تكن تهتم كثيراً بالموارد الأخرى زراعية كانت أم صناعية — كما لم تكن تعتبر
نفسها مسئولة عن حفظ الأمن وغير ذلك مما نعتبره اليوم من أول وظائف الدولة
الحديثة ، كالإهتمام بالتعليم أو الصحة أو غيرها من الخدمات. فلم تكن لهذه كلها
اعتبارها في ذلك الوقت ، وقد لعبت التجارة بالذات دوراً هاماً في حياة الجزائر
وأثرى عدد كبير من التجار والبيوت التجارية ، وبرز عدد من اليهود في هذا المجال
تذكر منهم على وجه الخصوص أسرة بوشناخ (Busnach) ، وهي أسرة
يهودية نجحت للجزائر عام ١٧٢٣ واستطاعت بعد وقت أن تصبح من أكبر
الأسر ثراء بل إن هذا الثراء مهد لهم سبل التقرب إلى الدايات حتى أصبح لهم
نفوذ سياسي ضخم^(١٢).

وسنرى فيما بعد كيف أن هذه الأسرة التجارية اليهودية لعبت دوراً مؤثراً
في تاريخ الجزائر .

وظلت الأحوال في الجزائر على هذا المنوال حتى استيلاء الفرنسيين عليها .

(١) أسرى المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام .

Julién, Charles André : Histoire De l'Algerie Contemporaine (*)
(Paris 1964) p.p. 11 — 12

الفصل الرابع

تونس ولاية عثمانية

وصل الضعف والإضطراب بالأسرة الحفصية في منتصف القرن السادس عشر إلى الارتداء في أحضان الأسبان ، وتوقيع معاهدة معهم تعطى الأسبان امتيازات ضخمة ، وتيسر لهم سكنى جميع أنحاء القطر التونسي . بل وتنازلت لهم عن مدن «عنايه» ، و«بنزرت» ، و«د حلق الوادي»^(١).

وأدى هذا الثورة وطنية انتهت بتولية السلطان الحفصي أبي العباس الثاني الذي حكم تونس ٩٤٢ - ٩٨٠ / ١٥٣٥ - ١٥٧٢ م ، لكن الأمور في تونس لم تستقر ، فالسلطان الحفصي لم يكن من القوة بحيث يستطيع أن يسك بزمام الأمور الداخلية ، وأن يقف في وجه الاطاع الأسبانية .

وحين اشتد الخلاف بين الأمير الحفصي «أبي العباس الثاني» ، ووزيره «أبي الطيب الحضار» - اتصل هذا الأخير بالعلاج على وإلى الجزائر وحرصه على احتلال تونس ، فاتهز العلاج هذه الفرصة وخرج على رأس جيشه حيث التقى بجيش الأمير الحفصي عند سهل «باجه» ، و«د قتال مرير» انخذل أبو العباس وتقدم العلاج على صوب المدينة المحاصرة فامتحوز عليها سنة ٩٧٢ / ١٥٦٩ ونصب عندها أحد قواده ، وأخذ البيعة بها للسلطان سليم الثاني العثماني - أما أبو العباس الحفصي فقد لجأ إلى الأسبان مستجداً بهم ، فاعد الملك فيليب الثاني (٢) قوة كبيرة لمواجهة تونس على أن يقتسم مع أبي العباس الحفصي حكم البلاد

(١) معاهدة شارلمان ، والحسن الحفصي بتاريخ ٩٤٢ هـ (يوليو ١٥٣٥) وقد أشرنا إليها من قبل .

(٢) تولى الحكم في أسبانيا بعد اعتزال أبيه شارل الخامس ولجؤه إلى دير في أسبانيا (١٥٥٦ - ١٥٩٨) .

ودخلها — لكن أبي العباس لم يقر الأسبان على هذا العرض فليجأ إلى صقاية سنة ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م وأقام بها حتى مات . غير أن أخاه « محمد بن الحسن » قبل شروط الأسبان ، وتمكن بمساعدتهم من استرجاع « تونس » . وأخذ الأسبان يعملون مع الأمير الحفصى على ترميم حصون « حلق الوادى » و « الباستيون » (١) وأسوار البلاد .

وفى ربيع الأول ٩٨١ هـ يولية ١٥٧٣ م خرجت قوة عثمانية كبيرة من القسطنطينية على رأسها سنان باشا الوزير العثماني ، بالإضافة إلى قوة بحرية من نحو ألف سفينة بقيادة « العالج على » ، وكان قد أصبح قائداً للأسطول العثماني فعمد لتقويته وتسليحه بأحدث الأسلحة في عصره ، كما خرجت حاميات تركية من « طرابلس » ، و « الجزائر » ، و « القيروان » . وحاصر العثمانيون « حلق الوادى » ، برأ وبحراً ، فاضطر الأسبان والأمير الحفصى الموالى لهم إلى الهرب والالتجاء للحصون ، فلحق بهم الجيش التركي وتمكن سنان باشا من تضيق الخناق على الحاميات الأسبانية حتى سلمت للجيش العثماني وقبض على الأمير الحفصى « محمد بن الحسن » وأرسله إلى القسطنطينية ، وانطوت بذلك صفحة حكم الحفصيين في تونس ، بعد أن حكموا هذه البلاد ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين عاماً (٢) .

فترة حكم الدايات :

لما أتم سنان باشا فتح تونس — أخذ ينظم شؤونها فالحقها في بداية الأمر بولاية الجزائر — لكنه أوجد بالقصبة « ديوانا » اشترك فيه بعض أعيان البلاد ، وعهد بحراسة البلاد إلى أربعة آلاف جندي من الانكشارية ، على كل ١٠٠ جندي منهم ضابط يسمى « الداى » وجعل لهم رئيساً هو « الاغا » بينا عهد بحماية المال للمأمور لقب « بالباى » ورجع سنان باشا إلى الاسيئانه لكن فار

(١) كان هذا الحصن (القامة) خارج باب البحر .

(٢) الناصرى ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد : الاستقصاء ، ٢ هـ (طبعة الدار البيضاء .

١٩٥٥) ص ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١

أحمد الانصارى : المنهل المذهب فى تاريخ طرابلس الغرب (طرابلس الغرب د.ت) ص ٢٢٩

(سنعرف بالمؤات فى الفصل التالى عند الحديث عن ليبيا) .

صغار الجند على رؤساء الديوان سنة ٨٩٩٩ / ١٥٩١ م وعينوا أحد الدايات د ابراهيم ود علي ، حاكماً على البلاد واضطرت حكومة الاسيانة لإقرار هذا الوضع . وقد تابع على حكم تونس منذ ذلك التاريخ حتى عام ١٦٤٠ م عدد كبير من الدايات .

ومن أشهر هؤلاء الدايات عثمان داي ١٥٩٨ - ١٦١٠ ، وقد اشتهر بما بذله من جهد لتعمير البلاد ، وما أصدره من القوانين المنظمة لشؤون الرعية ، وكذلك ما بذله لتيسير استقرار مهاجري الأندلس الذين اقتطعهم الأراضى ومنحهم الأموال فقامت عدة مدن جديدة احتضنتهم وعمرها .

كذلك يوسف داي د ١٦١٠ - ١٦٣١ ، ومن آثاره الباقية جامعته ومدرسة اليوسفية . وفي عهده اشتد الخلاف على الحدود بين الجزائر وتونس كما استرجعت تونس جزيرة جربة ، من ولاية طرابلس العثمانية (١) .

فترة حكم البايات :

نجاح أحد البايات هو مراد باي في أن يسيطر على شؤون تونس ، وأن يظفر من الخلافة العثمانية بلقب د باشا ، فتحول النفوذ من يد د الداي ، إلى الباي ، بل نجح مراد باي في أن يورث الأمر من بعده لابنائه فأسس أسرة حاكمة في تونس هي الأسرة المرادية التي استمرت تحكم البلاد حتى عام ١١١٤ هـ ١٧٠٢ م — وقد قام بايات هذه الأسرة بعدة مشروعات عمرانية من بناء المساجد ومدارس العلم إلى غير ذلك من الأعمال الهامة . لكن كثر النزاع بين أفراد الأسرة ذاتها على الحكم واستتجد فريق من المتنازعين بالجزائريين فاتهمزوا هذه الفرصة للتدخل في شؤون تونس ، وقد خلقت هذه المنازعات الكثير من أعمال التخريب في المدن التونسية .

(١) عبد الوهاب ، حين حسى : مرجع سابق ص ٠ م ١٦١ - ١٦٥

فترة حكم الاسرة الحسينية ١٧٠٥ - ١٩٥٧ :

في ربيع الاول سنة ١١١٧ هـ - يولية ١٧٠٥ م انتقلت الولاية في تونس إلى (حسين بن علي) فأسس أسرة حاكمة جديدة هي الاسرة الحسينية التي استمرت في الحكم في تونس إلى الاستقلال وإعلان الجمهورية بها عام ١٩٥٧ م (١).

ومؤسس هذا البيت (حسين باي الأكبر) يرجع أصله لجزيرة كريت (٢) وفد أبوه علي تونس أيام الدولة المرادية ، وانخرط في الجند ، ولشأ لابنه حسين في كنف البايات من بني مراد ، وتدرج في عدة وظائف في الولاية حتى انتخب والياً ، وقد عمل حسين باي علي ترميم سور مدينة تونس وتحصين قلاعها ثم عمل على إقرار الأمن والعدل في البلاد فازدهرت في عهده الزراعة والصناعة والتجارة . ومن منشآته العلمية مدرستي الحسينية والنخلة ، وبني قصرأ في (باردو) اتخذها مقراً رسمياً لحكومة الإيالة ، كما بنى مسجداً ، وأهتم بإحياء معالم مدينة (القيروان) وكانت قد تخربت أثناء الحروب بين أفراد الاسرة المرادية .

وقد حاول حسين باي أن يضع حداً للتنافس بين الطامعين في الحكم فجعل الولاية وراثية في بيته بتداولها الأكبر ، فالأكبر من ذريته - لكن مع ذلك خرج عليه ابن أخيه (علي بن محمد) وأنتهى الامر باستشهاد (حسين باي) جنوب القيروان في عام ١١٠٥٣ هـ / ١٧٤٠ م ، وادى هذا للنشوب حروب متعددة بين أفراد الاسرة الحسينية وإلى تدخل الجزائر في شؤون تونس .

وقد حفلت الفترة التي حكم فيها علي بن محمد ١٧٤٠ - ١٧٥٦ والذي

(١) عبد الوهاب ، حسن حسني : مرجع سابق ص ١٦٧ - ١٧٧

(٢) كانت هذه الجزيرة تابعة للدولة العثمانية - إلى أن استقلت سنة ١٨٩٨ - وألحقت بعد ذلك ببلاد اليونان .

اشتهر في تاريخ تونس باسم (الباشا علي) - وهو اللقب الذي منحه إياه عمه قبل خروجه عن طاعته - بالحروب بينه وبين ابنه (يونس) الذي خرج عليه ، ثم بينه وبين أبناء حسين باي الذين أرادوا التآمر لايهم منه وطلبوا معونة الجزائر لهم فأمدتهم بجيش زحف على مدينة الكاف ، ومنها على تونس العاصمة فدخلها وقتل (الباشا علي) .

واشتهر د علي باشا ، بتشجيعه للعلم والعلماء ، وقد كان هو نفسه على قدر كبير من العلم^(١) ، وقد جمع في قصر باردو مكتبة حوت الكثير من المخطوطات النادرة فقد أغلبها أثناء الحروب والاضطرابات ، لكن نقل المتبقى منها لجامع الزيتونة ، وقد أهتم بتأسيس المدارس وتزويدها بحاجتها من الكتب وغيرها ، والتف حوله لفيف من الأدباء والعلماء (٢) .

ونولى الأمر بتونس بعد ذلك إبننا حسين باي - محمد باي (١٧٥٦ - ١٧٥٩ م)^(٣) ، ثم علي باي الثاني (١٧٥٩ - ١٧٨٣ م) وقد اشتهر هذا الأخير باهتمامه بترقية البلاد وتعميرها وبتعصيد الفلاحة والصناعة ، وتشجيع العلوم ، وقد وقع في مدة ولايته خلاف مع فرنسا بسبب ضم فرنسا جزيرة (كورسيكا) لها عام ١٧٦٨ وعدم اعتراف إيالة تونس بهذا الإجراء - لكن سويت المشكلة وأتاح ذلك فرصة لتونس لتقدم الدولة العثمانية ، وأزرتها في حربها ضد روسيا عام (١٧٧١ م) .

ومن مآثر علي باي - عنايته بالعلم فأنشأ المدارس ، والملاجئ (التكايا) وأهتم بتوفير المياه اللازمة لرى مساحات واسعة من الأرض .

(١) لعل باشا كتاب في النحو هو : التسهيل لإبن مالك في النحو .

(٢) من هؤلاء الأدباء الشاعر لالا (علي التراب الصفاقسي) ، و (محمد الورغي) ، والأديب (محمد الشريف المياحي) الذي رجم لعلماء عصره .

(٣) اشتهر هو أيضاً بالعلم والادب وله قصائد مشهورة يتنق فيها بوطنه تونس وهو غنى غريته بالجزائر قبل أن ينجح في استرجاع السلطة .

وتولى الامر في تونس بعد علي باى ابنه حموده باشا (١٧٨٣ - ١٨١٤)
فقام بأعباء الولاية بحكمة مسترشداً بمعرفة عدد من أعيان البلاد تخص منهم
بالذكر الوزير (يوسف صاحب الطايح) (١) ، ورئيس السكتبة (محمد بن محمد
الاصرم) ، وقائد الجيش (سليمان كاهية) ، فنهضت البلاد في عهده نهضة
واضحة في مختلف مجالات الفلاحة ، والتجارة ، والصناعة وكان يفخر بما تنتجه
بلادهم من مصنوعات ومفوجات حتى أنه كان يرفض لبس أية ملابس من
مفوجات غير وطنية فكان في ذلك مثلاً يحتذى .

وحفلت فترة حكم حموده باشا بالحروب ، ومن أشهرها المعارك التي
عاضها ضد الثائر على برغل الذي طرد على بن محمد قرمانلى حاكم طرابلس
فاستتجد هذا الاخير بحموده باى ، واعقب ذلك استيلاء على برغل على جزيرة
جربة التابعة لإيالة تونس - فاعد حموده باى جيشاً من أربعين ألف مقاتل
هزم على برغل وأعاد القرمانلى إلى حاضرة حكمه .

كذلك شن عدة معارك ضد الحكام الجزائريين الذين كانوا دائماً يطمعون
في مد نفوذهم لتونس .

هذا وقد ارتبط حموده باى بعلاقات طيبة مع نابليون بونابرت ، كما
ارتبط بمعاهدات تجارية مع كل من أسبانيا ، وهولانده ، والولايات المتحدة
الأمريكية .

وفي سبتمبر ١٨١٤ - تولى عثمان باى أمر تونس بعد وفاة أخيه حموده باى .

(١) أصله مملوك ، دخل منذ طفولته في خدمة حموده باشا ، ولمس فيه علامات النجابة
والإخلاص ، فإزال يتدرج في وظائف الدولة حتى صار حافظ سر الباي وسمير نجوته ، وعمدة
الدولة في كافة المهام — وقد أثار مركزه هذا حسد كبار موظفي الدولة عليه فاتهموا فرصة
وفاة حموده باى وتولية ابن عمه (عمود بن عمود باى) وشوا به لديه فقتله — وقد اشتهر
هذا الوزير بالبز فاتفق ثروته الطائلة على أعمال الخير يمين مساجد ، ومدارس ، وكشاتب
قرآنية وسقايات أمر ببنائها في الأماكن التي تفتقر الماء العذب .
أنظر ترجمته — عبد الوهاب أحسن حسنى : مرجع سابق ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

نازعه السلطة ابن عمه (محمود باى) الأكبر سناً وبذا يصبح أحق بالولاية حسب قاعدة الوراثة المعمول بها فى الدولة الحسينية - وكان عثمان باى قليل الخبرة - استهل حكمه بإبعاد أغلب أهل الرأى الذين عاونوا أخاه فى الحكم ، وانتهى الأمر بقتل عثمان باى بعد ثلاثة شهور تقريباً من توليه الحكم وخلفه محمود باى فى (٢٤ ديسمبر ١٨١٤) .

وقد شهدت تونس فى فترة حكم محمود باى ١٨١٤ - ١٨٢٤ الكثير من أوجه العمران ، فتعددت بها الجوامع والزوايا والمدارس والتكايا والمستشفيات وغير ذلك من أوجه العمران .

ساعد على ذلك الحدوه الذى ساد البلاد بعد انتهاء مشكلات الحدود مع الجزائر ، وعقد صلح نهائى معها بتدخل الدولة العثمانية . لكن يؤخذ على محمود باى قتله للوزير (يوسف صاحب الطابع) الذى أدى للدولة خدمات جليلة فى عهد حموده باى والذى اشتهر بالتقوى والبر لكن نجح بعض حساده فى الإيقاع به لدى الباي الجديد فقتله ظلماً فى عام ١٨١٥ كما ذكرنا سابقاً .

وخلف محمود باى ابنه حسين باى ١٨٢٤ - ١٨٣٥ ، وقد قام بالكثير من الإصلاحات بمعاونة نخبة ممتازة من الرجال الذين اصطفاهم لمساعدته ، منهم وزيره الأكبر (شاكير صاحب الطابع) ، ووزير القلم (محمد الاصرم) والقائد (محمود الجلولى) .

وقد عاصرت ولايته أحداثاً هامة وخطيرة فى العالم الإسلامى كان لها صداها فى تونس ، ففي ١٨٢٧ وقعت موقعة نوارين البحرية التى التقى فيها الأسطول العثمانى معزراً بسفينة حربية من مصر والجزائر ، وتونس - بالأساطيل الأوربية فى المياه اليونانية ودارت فيها الدائرة على السفن الإسلامية .

ومنهما مهاجرة فرنسا فى عام ١٨٣٠ للجزائر مما أضطر الكثيرين من أعيانها للهجرة إلى تونس فأكرم الباي وفادتهم .

وخلف مصطفى باى أخاه فى الولاية لكن مدة ولايته لم تدم أكثر من عامين (٨٠ - المغرب)

ونصف عام فقد تولى في ١ أكتوبر ١٨٣٧ وخلفه المشير أحمد باي ١٨٣٧ - ١٨٥٥ وحفل عهده بمظاهر الحركة الإصلاحية ، وقد وجه عناية خاصة للنموض بالجيش فأقل على جمع الجنود وتدريبهم وتدريبهم حتى أصبحت لديه قوة ضاربة لم تنتظم لغيره من ولاية تونس (١) .

وأنشأ أحمد باي - مدرسة عسكرية لتخريج الضباط الفنيين والمهندسين والموظفين أطلق عليها اسم (مكتب المهندسين) أو (مكتب العلوم الحربية) أو (مدرسة باردو العسكرية) .

وقد جلب لها أحمد باي أساندة إيطاليين ، وانجليز ، وفرنسيين - وكانت تدرس فيها الرياضيات والمدفعية والتعبئة الحربية والشخصيات والتاريخ والجغرافيا (٢) .

وقد أصبح لتونس جيش ينيف على ثلاثين ألف جندي من المشاة وفرقة من الخيالة ، وأربعة الآيات من المدفعية - أما الأسطول فقد دعمه بشراء اثنتي عشرة باخرة حربية وبارجة من الطراز الكبير أطلق عليها اسم (الحسينية) ، وأعد مرسى حربيا (بغار الملح) الحق به دارا لصناعة السفن بحلق الوادي ، ومعامل لصنع السلاح وإصلاحه (٣) .

(١) أحمد أين أبي الضياف : لمحات أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان - تونس ١٩٦٣ / ١٩٦٤ - ٤٠ ص ٢٥ (المؤلف هو لمين الشيخ بالضيايف كاتب الوزير يوسف صاحب الطابع ، ولد بتونس في ١٨٠٤ م ، وتلقى العلم على مشاهير عصره ثم تولى عدة وظائف حتى كان عهد المشير أحمد باي فقربه ، وجعل بيده قلم دولته ، واعتمد عليه في سفارته للدولة العثمانية وأصابعه معه لفرنسا ، وحين تولى المهير محمد الصادق حملته من أعضاء مجلس الشورى الخاص سنة ١٨٦٠ واعتمد عليه في شرح القانون الأساسي المعروف بعهد الأمان ، وأعفى من الخدمة كطله حين أقعده الشيخوخة وتوفي في ١ أكتوبر ١٨٧٤ - وجاء كتابه وافيًا يدل على المسام كامل بالأحداث الهامة بالإضافة إلى ما أمتاز به من قدرة على الكتابة والتحليل) .

(٢) الفاضل بن عاشور : الحركة الأدبية والفكرية في تونس (١٩٥٦) ص ١٢ ، ٢٣ .

(٣) عبد الوهاب ، حسن حسني : مرجع سابق ص ٢٠٠ .

وقد اهتم المشير أحمد باي - بتنظيم التعليم بجامع الزيتونة فعمر خواته بالعديد من الكتب ، ودعا عدداً من الأساتذة الأجانب للحضور لتونس للالتقاء ، بأساتذة هذه الجامعة وكان لهذا أثره في الإحتكاك بين العقلية الغربية والعقلية الإسلامية .

ونشير في هذا المجال إلى زيارة الباي نفسه لفرنسا مصحوباً بخاصة رجال الدولة ، فزاروا أهم معالم العاصمة الفرنسية ، وكان لهذا الإحتكاك الفكري والثقافي أثره ، بالإضافة إلى أثر ذلك في توطيد العلاقات بين الدولتين ، وقد أفاض أحمد بن أبي الضياف في وصف ما شاهدوه في باريس^(١) .

ومن مآثره الثقافية تأسيس المكتبة (الأحمدية) في عام ١٨٤٠^(٢) .
ويذكر لهذا الباي إصداره الأمر بفتح سوق العبيد في العاصمة ، كما أصدر أمراً في عام ١٨٤٦ بفتح جميع العبيد الموجودين بتونس .
وقد أنشأ مدينة جديدة على بعد ١٤ ميلاً من تونس ، عرفت بأسم « المحمدية » وعمرت هذه المدينة بعد إنشائها فنقل إليها مقر حكومته بدلاً من « باردو » .

على أن مالية تونس لم تتحمل كل هذه الإصلاحات ، فأضطرت الحكومة لإحداث ضرائب جديدة على الصادر والوارد ، ومكوس على الأشياء المباعة لسد عجز ميزانيتها ، كما احتكرت الحكومة بيع مواد مختلفة كالملح ، والدخان والجلد ، والصابون .

وكانت هذه الأوضاع الإقتصادية بالإضافة إلى الحكم المطلق المستبد بداية المشكلات التي واجهتها تونس . فقد أدى ذلك إلى تدهور الحالة فجاءت

(١) أحمد بن أبي الضياف : الاتحاف - ٣٢٣ م ٩٦ إلى ١١٠ .

(٢) الحبيب الجنتاني : الحركة الإصلاحية في تونس خلال النصف الثاني من القرن التاسع

عشر (حوايات الجامعة التونسية - ١٩٦٩) ص ١١٧ .

الجنود وتفرق الجيش ، وأغلقت مدرسة باردو أبوابها وذلك لزيادة الضرائب بما أثقل الظهر وأوجب الفقر . كما يقول محمد بهيم التونسي^(١).

وقد زاد في الأعباء المالية التي تحملتها تونس ، وأدى لزيادة التدهور الإقتصادي - اشتراكها في حرب القرم ١٨٥٤ إلى جانب الدولة العثمانية ضد روسيا - هذا بالإضافة إلى مفاسد كبار رجال الدولة^(٢).

وحين تولى محمد باي الثاني ١٨٥٥ - ١٨٥٩ تصدى لإصلاح الأوضاع التي وصلت إليها البلاد .

ومن أبرز إصلاحاته الإصلاح الدستوري ، فأصدر عام ١٨٥٧ ماعرف باسم « عهد الأمان »^(٣) وقد أدت لإصداره عدة ظروف فقد كانت الدولة العثمانية قد طالبت بتطبيق فرمان التنظيمات الذي أصدره السلطان عبد المجيد عام ١٨٣٩^(٤) وكان سفراء الدول الأجنبية يضغطون من جانبهم على الباب العالي مطالبين بسرعة تطبيق هذه التنظيمات التي تحفظ حقوق رعاياهم في كافة الولايات العثمانية ، واستغلت فرنسا وانجلترا ظروف صدور الحكم على يهودى في تونس بالإعدام فضغط القنصل الفرنسى ليون روثنى (Leon Rochés) والقنصل الإنجليزى ريتشارد وود (Richard Wood) على الباي منتقدين الحكم الصادر مطالبين بتطبيق فرمان التنظيمات الخيرية ، ووصل الأمر لتلويح القنصل الإنجليزى بأن الاسطول البريطانى فى مالطة مستعد للتدخل عندما يطلب منه ذلك ، كما هاجم وزير خارجية فرنسا فى ٢٠ يولية ١٨٥٧ تصرف الباي فى القضية التي حكم فيها بإعدام اليهودى^(٥).

(١) محمد بهيم التونسي : صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار (القاهرة : ١٨٩٠)

٢٨ ص ٦ - ٩ .

(٢) أحمد بن أبى الضياف - مرجع سابق - ج ٤ ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٣) أنظر قصوده فى ملحق كتابنا هذا .

(٤) محمد بهيم : ج ٥ ص ٥٥ - ٥٨ .

(٥) أحمد ابن أبى الضياف - ج ٤ ص ٢٢٣ - ٢٤٠ .

في هذا الجوقام الشيخ ابن أبي الضياف كاتب أسرار الوالي بصياغة
نصوص عهد الأمان بالإشراف بما جاء في التنظيمات الخيرية العثمانية - وفي
موكب حضر فيه ممثلو الدول الأوروبية وكبار موظفي الدولة وأعيانها قرئت
نصوص عهد الأمان في ٢٠ محرم ١٢٧٤ ١٠ د سبتمبر ١٨٥٧ ، وحلف الباي
على العمل بمقتضاه (١) .

والحقيقة إن صدور عهد الأمان في وسط هذه الظروف والملاسات إن
دل على شيء فهو يدل على زيادة تدخل الدول الأوروبية في سياسة تونس
الداخلية - وقد كسب الأجانب بمقتضى هذا العهد مزايا عديدة من حيث
مساواتهم بالوطنيين في حقوق الملكية وفي حق العمل والتقاضى وغير ذلك
بما كانوا محرومين منه (٢) .

واعتنى محمد باي بعد ذلك بتنظيم القضاء الشرعى فكان « المجلس الشرعى »
يعقد يوميا بانتظام منذ عام ١٢٧٣ هـ ١٨٥٧ م ويحضره القاضيان المالكي والحنفى
وليس أدل على حرصه على إنصاف المظلوم من هذا المنشور الذى أصدره
يحرص فيه المظلوم على رفع ظلامته وبث شكايته ويبرأ إلى الله من مظلمته إن
لم يبادر المظلوم بشرح حالته .

كذلك أحدث في عام ١٨٥٨ م مجلساً بلديا بتونس لتنظيم شؤون المدينة
وإصلاح طرقاتها وإنارتها (٣) .

ويذكر لهذا الباي إدخاله الطباعة العربية لنشر الأوراق الرسمية . وقد أشتهر
في دولته كثير من رجال العلم اذ ذكر منهم شيخ الاسلام ، محمد بيرم الرابع ،
والقاضى ، محمد الطاهر بن عاشور ، وغيرهما كثيرون .

(١) نقولا زيادة : تونس في عهد الحماة (١٩٦٣) ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٢) محمد بيرم : مرجع سابق ص ٨ - ١٠ .

(٣) عبد الوهاب ، حسن حسى : مرجع سابق ص ٢٠٧ .

وفي المجال الإقتصادي تصدى محمد باي لمواجهة الوضع الذي كانت تشكو منه البلاد ، ولم يلجأ لحل الأزمة المالية إلى سياسة الإستدانة أو إلى إرهاب الأهالي بالضرائب بل بالعكس فإنه خفف الجبايات عموماً وأسقط ما كان على الأهالي من ضرائب وعوضها بضريبة أخرى تعرف (بالمجبي) يدفعها الرجال القادرون من سكان المملكة وقدرها ستة وثلاثون ريالاً في السنة — ولا شك في أن سياسته الإقتصادية هذه تدل على حسن حكمه فقد انقذ البلاد من هاربة - كما يقول ابن أبي الضياف (١) .

وكانت فترة ولاية محمد الصادق باي ١٨٥٩ - ١٨٨١ - حاسمة في تاريخ تونس - وبذلت في هذه الفترة جهوداً صادقة في محاولة لإصلاح وضاع البلاد ، لكن تصاعدهم بعوامل أخرى أقوى منها - تهوى بالبلاد إلى أقصى درجات الإضمحلال وتقر بهما من برائن الإستعمار الخفيف - خلقتها أيدي الطامعين الأجانب . ويجمع عدد كبير من المؤرخين على أن محمد الصادق باي كان منذ بداية عهده عاقد النية على الإصلاح ، ويحمل هؤلاء الأوصاف التي وصلت إليها البلاد إلى المقربين للباي والذين ألقى إليهم بمقاليد الأمور فأساءوا التصرف واستغلوا الثقة الممنوحة لهم في الإثراء على حساب الوطن وأمنه . ولعل أبرز دليل على نية الإصلاح والإصلاحات المدلية ، التي اتخذها الباي لتقنين عهد الأمان وإنشاء المجالس الأهلية ، للفصل في القضايا ، و د المجلس الأعلى ، من ستمين عضواً لإبداء الرأي في المسائل السياسية والإقتصادية - وقد بدأت هذه المجالس نشاطها منذ أبريل ١٨٦١ م . وكما يقول أحمد ابن أبي الضياف د إذا كانت المصلحة السياسية قد اقتضت وجود عهد الأمان فإن حفظ النفس ، والمال قد إقتضى إنشاء مجالس للجبايات والأحكام الشرفية ومجالس عليا للتحقيق (٢) .

وقد تلقى الباي تهنئة الإمبراطور د نابليون الثالث ، على هذه الإصلاحات العظيمة (٣) .

(١) أحمد بن أبي الضياف : ج ٤ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٣٢٠ وما بعدها .

(٣) عبد الوهاب ، حسن حسن : مرجع سابق ص ٢٠٩ .

وإن كانت فرنسا وإيطاليا بالذات قد رحبتا بهذه التشريعات التي كفلت للأجانب حق ملكية العقارات وممارسة الحرف مما أدى إلى تدفق المهاجرين الأجانب من أصحاب المصارف والمتاجر والمغامرين على البلاد - لكن كان هناك اعتراض على عدم منح رعايا هذه الدول الإمتيازات التي اقترتها الدولة العثمانية^(١).

على أن التدهور الاقتصادي الذي بدأت تعاني منه تونس منذ ١٨٣٠ وصل في هذه الفترة إلى أقصاه بحيث طغى على كل محاولات الإصلاح .

ويرجع هذا الوضع الذي آلت إليه البلاد إلى عدة عوامل منها :

١ - انقياد الصادق باي إلى شخصيات ثبت أنها لم تكن أهلاً للثقة ، وفي مقدمة هؤلاء وزيره الأكبر مصطفى خزنه دار ، الذي تولى عدة مناصب في وقت واحد وزارة العمالة ، والداخلية ، والخارجية ، والمال ، ووصلت جملة مرتباته مقابل مناصبه هذه في وقت كانت البلاد وأهلها يشنون فيه من الضائقة المالية ٣٨٠.٠٠٠ ريال تونسي سنوياً . ولم يكتف هذا الوزير بذلك بل حرص على أن يحصل على الثروة بكل طريق آخر ، فاستأصل الأموال من أربابها ورمام بالذل والإفلاس ، وصارت مفسده على كل لسان يتناقلها العامة والشعراء وغيرهم^(٢) .

ولم يقف الباي موقفاً حازماً من وزيره فقد كان ينقاد إليه إنقياداً كاملاً^(٣) .

وقد سار على منهج مصطفى خزنه دار ، غيره من أرباب الدولة فكان هم كل منهم أن يامن على نفسه بثروة بعدها لتقلبات الزمان ، فأمتدت الأيدي إلى الأموال بحق وبغير حق حتى أصبحت البلاد على شفا الهلاك^(٤) .

[Safwat, M.M.: Op. Cit P.P. 27,40, 51

(١)

(٢) محمد بيرم : مصدر سابق ج ٢ ص ٢٣ .

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ١٨ .

(٤) عبد الوهاب ، حسن حسني : مرجع سابق ص ٢٠٨ .

٢ - لجأت الحكومة لسد العجز في ميزانيتها عن طريق الإقتراض من الأجانب فاقترضت أولاً مليون فرنك بأرباح فاحشة ، ثم عقدت قرضاً ثانياً قدره ٣٥ مليون فرنك من فرنسا عبثت به الأيدي قبل أن يصل إلى خزينة الدولة ، وأخيراً لجأ الباي إلى مضاعفة الضرائب على الأهالي ، وأصدر سنة ١٨٦٣ قراراً بذلك فكان هذا بمثابة الشعلة التي أشعلت نار الثورة .

ثورة ١٨٦٤ - أسبابها ونتائجها :

تزعم الثورة التي نشبت عام ١٨٦٤ د علي بن غدام ، وهو من قبيلة ماجر ، ولا شك في أن مضاعفة د المجبى ، لم يكن السبب الوحيد وراء هذه الثورة فإن الوضع كله في تونس د من زيادة في أداء المجبى ، إلى مجموع التكاليف الجبائية ، إلى تعسف العمال والحكام في الأقاليم ، إلى إثرأه الممالك الفاحش ، إلى ببطء سير العدالة ، إلى سحق الجنود من أجل تخلف مرتباتهم ، إلى العسر الشديد في الحالة الاقتصادية ، إلى التبذير في النفقات ، إلى تزايد غضب الشعب على المنح المخولة للقناصل الأوربيين - كل هذه كانت الدوافع الباعثة على الحق والسخط ،^(١) .

وقد كتب علي بن غدام في ١٧ صفر ١٢٨١ هـ ٢٢ يوليو ١٨٦٤ ، - يقول :
« إن مطالبه هي نهى الظلم عن المظلوم ، والوقوف عند باب الحق قدر الاستطاعة . . . إن ثورة الناس هي لرفع الظلم ونهى البغاة والعمال الذين طالت أيديهم ،^(٢) .

وفي رسالة أخرى مؤرخة أول ديسمبر ١٨٦٥ عبر هذا الثائر للباي د ثأته سوف يستمر إلى أن تخفف الدولة من الضرائب التي أثقلت كواهلنا ، على حد قوله^(٣) .

(١) سلامة ، ب : ثورة علي بن غدام ١٨٦٤ (تونس ١٩٦٧) ص ٤٩ .

(٢) نص الرسالة موحود في :

عبد الجليل التميمي : بحوث ووثائق في التاريخ العربي (١٨١٦ - ١٨٧١) (تونس

١٩٧٣) ص ٨١-٨٢ .

(٣) نفس المرجع ص ٨٣ .

والحقيقة إن هذه الثورة في تطوراتها ، وفي مواقف الدول الأجنبية منها - تعطى صورة واضحة للأوضاع التي آلت إليها تونس في ذلك الوقت ، كما توضح بجلاء مرامي الدول الأجنبية وأهدافها التي كانت تسعى لتحقيقها .

فحين شعر الباي بعجزه عن وقف تيار الثورة أضطر للرضوخ لبعض مطالب الثوار الخاصة بالعودة بالضرائب إلى ما كانت عليه - لكن لم يصبح من السهل قمع الثورة بهذا الشكل بعد أن اندلعت ، ولذا تطورت مطالب الثوار فأصبحوا يطالبون بمراجعة نظام الضرائب كله ، ثم طالبوا بعزل العمال ومحاسبتهم عما اقترفوه في حق الأهالي ، وتطور الأمر إلى المطالبة بتعديل النظام القضائي لما فيه من تطويل في الإجراءات وإرهاق للرعية . بل طالبوا بتعديل الدستور - فكان شعار الثوار : كفانا مجبى ، وممايك ، ودستور^(١) .

وقد شرح ذلك بوضوح (Campehon) مدير مدرسة باردو الحربية في رسالته التي بعث بها إلى وزير الحربية الفرنسي بقوله : إن الاعرابي يطلب من ساداته ألا يثقلوا كاهله بالضرائب الفادحة ، وأن يسوس أموره أقل عدد ممكن من المأمورين ، وأن تكون العدالة التي تطبق سريعة الإجراءات خالية من الشعب ، ولكن لا يوجد شيء من هذا اليوم ،^(٢) .

وهكذا نرى أن الثورة كانت واضحة المطالب والأهداف وكانت دوافعها سياسية واجتماعية واقتصادية - وكانت قومية شاركت فيها غالبية الشعب التي كانت تعاني من المظالم وإن دلت على شيء فهي تدل على الوعي الشعبي .

أما مواقف الدول الأجنبية والباب العالي من أحداث الثورة فهي - كما ذكرنا - تنبع من الأهداف والرامي الحقيقية لهذه الدول .

فن جهة الدولة العثمانية - أهتمت بالأمر من حيث تبعية تونس للباب العالي ، والخوف من أطاع الدول الأوروبية ، وكانت أحداث الجزائر مازالت

(١) جانباچ ، جان : ثورة ١٨٦٤ ، ثورة علي بن غدام (أصول الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية - تونس ١٩٦٥) ص ١٢٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٣ ، ١٤ .

مائلة في الأذهان - لذا أوفدت الدولة سفيرها في إيران « حيدر أفندي » ، إلى تونس لبحث الأوضاع فيها . . وكانت التعليقات التي زود بها تقضى بالعمل على تأكيد تبعية تونس للدولة العثمانية - وقد أدرك هذا المندوب العثماني حقيقة الوضع ، فأشار إلى اسراف الباي وحكومته مما أدى إلى إفلاس البلاد ، وأن هذا الوضع فتح الباب على مصراعيه للتنافس بين قناصل كل من إنجلترا ، وفرنسا وإيطاليا ولذا يتحتم تسوية المسألة إنقاذاً للبلاد^(١) . وقد أثار وجود المبعوث التركي مشاعر الجماهير فاندفعت في المساجد الشوارع للتعبير عن تعلقها بالسلطان حامى الإسلام .

أما من جهة فرنسا - فإن قنصلها في تونس دي بوفال (De Beauval) (٢) وجد في هذه الثورة فرصة ذهبية للتدخل في شؤون تونس ، فنادى بتشجيعه للثورة ، بل تقدم بطلب تنحية المعروفين بعدائهم لفرنسا عن مراكز السلطة ، كما طالب بإلغاء الدستور - وشاع خبر هذين المطلبين بين الأهالي ، وكان لذلك وقع سيء في النفوس فقد وجد الناس في هذا تدخلا سافراً في شؤون البلاد وإتجاها من فرنسا لتثبيت نفوذها دون قتال (٣) .

أما القنصل الإنجليزي ريتشارد وود (Richard Wood) فقد كان على النقيض من ذلك يطالب بالحاح بالإلتزام بالدستور . بل إنه لم يفتأ يسدى النصح للباي عما يجب عمله لإخماد الثورة ، بل إنه قام بجولة في عدة مدن ساحلية بحجة ممارسة نشاطه الدبلوماسي وكان يجتمع بالأهالي ويبصرهم بعاقبة الأمور ويدعوهم للإلتفاف حوله الباي والركون للهدوء (٤) .

(١) عبد الجليل التميمي ، مرجع سابق ص ٤٣ ، ٣٥ .

— وكذلك سلامة ، ب . : مرجع سابق ص ١٠١ - ١٠٧ .

(٢) حل محله في عام ١٨٧٤ روستان Roustan كقنصل لفرنسا في تونس ، وهذا الأخير هو الذي اصب الدور النهائي للتمهيد للاستعمار الفرنسي لتونس .

(٣) وثائق فرنسية - وثيقة رقم ٣٥٣ .

(٤) تولى منصبه كقنصل لإنجلترا في تونس عام ١٨٥٧ م

أما إيطاليا فقد كانت تخشى أن تلقى تونس نفس مصير الجزائر، وكانت الجالية الإيطالية بتونس أكبر الجاليات الأجنبية وكانت لغتهم أكثر اللغات إنتشاراً فكانت مطاعمهم في تونس واضحة ، ولذا فقد حشدوا في السواحل الإيطالية القرية قوة كبيرة لتسكون على أهبة الإنبحار والتدخل في الوقت المناسب (١).

على كل لقد استطاعت قوات الحكومة في النهاية أن تقضى على الثورة بعد أن نشرت الفرقة بين صفوف الثوار - وبدأت قوات الثوار منذ يولييه ١٨٦٤ تستسلم وانتهى الأمر بالقبض على « علي بن غداهم » وزج به في السجن وبقي به حتى وافاه الاجل المحتوم في ١١ أكتوبر ١٨٦٧ .

على أن هذه الثورة في تطورها والتفاف الجماهير للمطالبة بأهداف واحدة محددة - كانت في الحقيقة تعبيراً قوياً عن حيوية الشعب التونسي وعلى رفضه للضغوط ولعوامل الظلم والجور ، ولا بكل تدخل أجنبي في شؤون بلاده .

على أن البلاد لم تكن تتخلص من الإضطرابات التي لازمت هذه الحركة الشعبية حتى أبليت في أوائل سنة ١٢٨٢ / ١٨٦٥ م بظهور مرض الكوليرا ، ثم تلى ذلك إنتشار الحمى التيفوسية سنة ١٨٦٧ م . وأدى ذلك لتعطيل الإنتاج الزراعي والصناعي فأنتشرت المجاعة والقحط وارتفعت الأسعار ولاقى الناس من ذلك ضيقاً وعنتاً شديدين (٢).

ولم يكن أمام الحكومة التونسية في هذه الظروف إلا طرق أبواب الاقتراض . ففى دام ١٨٦٥ عقدت قرضاً في باريس قيمته ٢٥ مليون فرنك . ولما عجزت الدولة عن دفع فوائد القروض وأمتنعت البنوك عن إقراضها لجأت للاقتراض

(١) ابن أبي الضياف - ص ٥٠ ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٢) محمد بيوم - ص ٢٠ ص ٣٥ - ٣٧ .

من الأجانب المقيمين في تونس ذاتها . وانتهى الأمر بتوحيد الديون في دين موحد بفائدة ١٢ ٪ ، وشكلت لجنة مالية مختلطة (كومسيون مالي) من أجنب وتونسيين تتولى قبض إيرادات الدولة وتوجيهها . وقد قسمت هذه الإيرادات التي قدرت بـ ١٣ مليون فرلوك إلى قسمين متساويين - خصص القسم الأول منها لسداد الديوان ، والثاني للخزانة^(١) . وقد تراءس هذا الكومسيون المالي عام ١٨٦٩ - خير الدين وظل كذلك حتى تولى رئاسة الوزارة بعد سقوط مصطفى خزانة دار ، عام ١٨٧٣ .

وكانت تولية « خير الدين » الوزارة عام ١٨٧٣ فاتحة عهد جديد (٢) . وقد عبر الشعب التونسي تعبيراً صادقاً عن فرحه لعزل مصطفى خزنه دار وتولية خير الدين (٣) .

بدأ خير الدين بعلاج المشكلات الإجتماعية والاقتصادية والسياسية والقضائية التي كانت تعانى منها البلاد ، فألغى الضرائب المرهقة التي كان يشكو منها الشعب ، وأجرى حركة تطهير بين الموظفين ، وأصدر عفواً عاماً عن

(١) محمد بيرم : مرجع سابق ج ٢ ص ٤١ (نس الأمر الصادر بترتيب الكومسيون المالي) .
(٢) لعب خير الدين دوراً حاسماً في تاريخ تونس في هذه الفترة ، فكانت له مواقف وطنية حكيمة وبداية حكم الصادق باي حين كان عضواً في المجلس الخامس ، ورئيساً لمجلس الشورى ، وكان وراء تدعيم المؤسسات الدستورية ، وأعرض على مضاعفة الضرائب على الأهالي ، ولصح الباي بالعدول عن ذلك مذكراً إياه إن ذلك سيؤدي إلى مصاريف مضاعفة لتجهيز الجيوش لإخضاع الفاضيين - وقد أعتزل السياسة فترة ألف فيها كتابه المسمى :

« أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » طبع عام ١٢٨٤ هـ - ١٨٦٧ م - كما طبع مرة أخرى بالإسكندرية في ١٢٩٩ هـ ١٨٨٢) .

— المنجي الشملي : خير الدين باشا (تونس ١٩٧٢) .

— كذلك أبو القاسم محمد كرو : خير الدين التونسي (تونس ١٩٧٣) .

— كذلك أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ١٩٤٨ (ص ١٥٢ وما بعدها) .

(٣) محمد بيرم : مصدر سابق ص ٤٤ - ٤٧ .

المعتقلين السياسيين ، ونظم العلاقات بين الملاك والمزارعين والحكومة ووزع مساحات من الأراضي على صغار المزارعين وشجعهم على زراعة الزيتون والتخيل على وجه الخصوص ، وأبطل الحملات العسكرية لتحصيل الضرائب بالقوة والإرهاب ، وأوجد أول (مجلس صحي) لمراقبة الأمراض الوبائية ، وأحدث إدارة للأوقاف العامة بنظام محكم ، وشرع في توحيد الأحكام في البلاد ، وأنشأ في عام ١٨٧٥ (المدرسة الصادقية) وهي أول معهد درست فيه العلوم العصرية في تونس ، وكان هدفه من تأسيسها التوفيق بين العلوم العصرية والعلوم والتقاليد الإسلامية ولتعليم اللغات ، وفكر في إرسال الممتازين من خريجيها للدراسة في جامعات أوروبا ، كما زاد مرتبات المدرسين بجامعة الزيتونة وأمر بإصلاح التعليم فيها ، كما أسس (المكتبة الصادقية) وجمع بها سائر الكتب التي كانت مبعثرة في الجوامع والمدارس . وقد حظيت حركة الطبع والنشر في أيامه باهتمام وتفضيد ، ولقيت صحيفة (الرائد) وهي أول صحيفة عربية في تونس تشجيعاً منه كفعل لها الاستمرار .

هذا وقد بذل جهده لإحياء الصناعات الوطنية التي كانت قد أخذت في الإندثار وراجت التجارة في عصره .

لكن رغم ما حققه في مختلف الميادين من نجاح ، كان كفيلاً لو سار إلى نهايته أن يخلص الأمة التونسية من الأوضاع التي تردت فيها . فقد اضطر خير الدين بعد أربع سنوات من تولية الحكم إلى أن يطلب إعفاهه بسبب الدسائس والمؤامرات التي كانت تحاك له خاصة من (مصطفى بن اسماعيل) الذي نال الحظوة عند الباي . وكان تخليه عن الحكم في عام ١٨٧٧ وتولية (مصطفى ابن اسماعيل) بداية للنكسة التي أصابت تونس فأصبحت البلاد مثل مركب فقد رباؤه وسط الحفظم تتلاطمها الأمواج وتتقاذفها الرياح من كل جانب فلا تدرى أى ساحل تقصد (١) .

(١) عبد الوهاب ، حسن حمق : مرجع سابق ص ٢١٢

.. وكذلك محمد بيرم ج ٢ ص ٨٤ .

(ظروف استعفاء خير الدين)

وما زالت الحالة الداخلية في تونس تتحرج وترتبك في وقت كانت الدول
الاستعمارية الطامعة فيها تسير الامر لتحقيق أهدافها حتى تهيأت الظروف
لفرنسا لتضرب ضربتها .

وهذا ماسنوضحه في الفصول التالية .

* * *

الفصل الخامس

ليبيا ولاية عثمانية

أثر موقع ليبيا الجغرافي وطبيعتها في تاريخها ، فهي تمتد إلى أكثر من ثمانمائة ميل من تونس غرباً إلى مصر شرقاً ، كما تمتد مئات السكيلومترات جنوباً . ومنذ الأزمنة القديمة وجدت فيها وحدتان سياسيتان منفصلتان هما برقة وطرابلس ، فخليج (سرت) يقسم المنطقة الساحلية إلى قسمين ، بينما تمتد الأقاليم الصحراوية الداخلية صوب بحيرة تشاد والسودان الغرب وتسكنها قبائل بدوية ، اللهم إلا حيث يوجد نوع من الاستقرار في الواحات الموجودة في هذا الإقليم الثالث من أقاليم ليبيا المعروف باسم (فزان) .

وقد وقعت برقة فترة تحت نفوذ اليونان ، بينما كانت طرابلس الغرب تحت تأثير القرطاجنيين ، هذا بينما كان البربر يقيمون في الأراضي الواسعة الشاسعة لا يكادون يعترفون بسلطان.. ولما امتد النفوذ الروماني إلى شمال أفريقيا - رأت هذه الأقاليم نوعاً من الوحدة ، فقد دخلت كلها تحت إمبراطورية واحدة .

وحين فتح للعرب مصر مدوا نفوذهم إلى هذه الجهات وبدأت القبائل العربية تتدفق عليها ، فاستقرت على الخصوص جماعات بني سليم في برقة ، واستقرت جماعات من بني هلال في منطقة طرابلس ، وحملت القبائل العربية لهذه الجهات لغتها ودماءها ودينها وتمت عملية التعريب بسرعة مذهلة - ورغم ما بدا في أول الأمر من الخلافات العربية البربرية - لكن فكرة الإسلام العالمية سهلت إخضاع أقطار الشمال الأفريقي كلها للحكام المسلمين وتم أو كاد يتم انصهار العرب والبربر في بودقة واحدة (١) .

(١) مجيد خدوري : ليبيا الحديثة (ترجمة نيقولا زيادة - بيروت ١٩٦٦) ص ١٤ - ١٦
— وارجع L. ذكرناه في التمهيد عن انتشار العرب والإسلام في شمال أفريقيا .

ومنذ ذلك التاريخ ارتبط تاريخ ليبيا بتاريخ الأمة الإسلامية في مشرقها وفي مغربها ، وكان موقعها بين الجناح الغربي للأمة العربية وجناحها الشرقي مما جعلها تتأثر بالاحداث في المشرق والمغرب الاسلاميين معاً .

وكانت للحواضر الليبية إلتصالاتها مع مراكز الحضارة والتجارة بغرب القارة الأفريقية ، فقد كانت القوافل تفتد إليها من قلب القارة ، وكانت موانئها تعتبر من المنافذ الهامة التي تصل إليها غلات أفريقيا الغربية ، كما كانت لها إلتصالاتها مع الموانئ التجارية الهامة في إيطاليا وغيرها من أقاليم البحر المتوسط الأوروبية^(١) .

هذا بالإضافة إلى أن موقع ليبيا في طريق الحجاج من شمال غرب أفريقيا وغربها إلى الأراضي الحجازية — جعل لها أهمية خاصة في هذه العصور التي كانت القوافل هي وسيلة النقل الرئيسية فيها .

وقد زار الرحالة الحسن بن محمد انوران (ليو الأفريق) ليبيا في الفترة بين ١٥١٥ ، ١٥١٩ وهو في كتابه الشهير (وصف أفريقيا) يقسم القارة الأفريقية (يقصد أفريقيا شمال خط الإستواء) إلى أربعة أقسام : بلاد البربر ، وتومبديا ، وليبيا ، وأرض الزنج^(٢) .

وقد خصص الكتاب السادس للحديث عن طرابلس ، ولبده ، وفزان ، وصحراء ليبيا . وأشار إلى القبائل التي تسكنها وتلك التي تنتقل بين (مصراته) الواقعة شرقي طرابلس على بعد ١٠٠ ميل تقريباً — وبين (فزان) والسودان . وذكر أن مصراته كانت تشتهر في وقته بالسجاجيد ، بينما أشار إلى الجذب الذي يصيب الأقاليم الداخلية في برقة ، فسكانها كما يقول يبدون دوماً محتاجين ويرجع إلى هذه الحالة من شظف العيش — السبب في الخشونة التي يقول إن

(١) أنظر خريطة طرق غلات أفريقيا الشمالية للعالم الخارجي .

(٢) يشبه هذا التقسيم ما ورد في مقدمة ابن خلدون .

أنظر البحث القدي نضره مؤلف هذا الكتاب عن الحسن بن محمد الوزان بمجلة المناهل التي تصدرها وزارة الدولة المكلفة بالهؤون الثقافية بالمغرب — العدد الثاني — مارس ١٩٧٥ س

أهل برقة يتصفون بها ، والى افتقار البلاد إلى الأمن . فالمسافر يتعرض في برقة دائماً للمخاطر . ولكن طرابلس — كما يذكر — كانت بالعكس عامرة ، بيوتها جميلة ، وميادينها منتظمة وتكثر في أسواقها المصنوعات خاصة النسيج ومدارسها ومساجدها متعددة كما توجد بها الملاجىء والمستشفيات^(١) .

وكما أشرنا سابقاً عند حديثنا عن نشاط الأسبان الاستعماري في شمال أفريقيا — منهم نجحوا في عام ١٥١٥ في الإستيلاء على ميناء (طرابلس) ، فاتخذوه قاعدة لعملياتهم الحربية في البحر المتوسط ، وأحاطوا الميناء بسور ضخيم لحمايته من هجوم الليبيين ، وظل الأسبان يحكمون طرابلس قرابة عشرين عاماً . ويبدو أن زيارة (ليو الأفريقي) لطرابلس والموانئ الأخرى في ليبيا القريبة منها — كانت في هذه الفترة من سيطرة الأسبان على ميناء طرابلس ، فعند حديثه عن (تاجوراء) ذكر أن سكانها تضاعف عددهم بسبب نزوح الطرابلسيين إليها بعد إستيلاء الأسبان على طرابلس^(٢) .

وقد تنازل الأسبان في عام (١٥٣٥ م) عن طرابلس لفرسان القديس يوحنا في مالطة .

وواجه الأسبان في طرابلس — كما واجه فرسان القديس يوحنا من بعدهم — محاولات عدة من الليبيين بغية إسترجاعها . وكان الليبيون يتخذون من (مصراته) و (تاجوراء) الواقعة شرقي طرابلس مراكز هجومية ضد المستعمرين — لكن لم تكن هذه الهجمات مجدية فقد كان العدو يتحصن في المدينة ويحصد معاونة بحرية فعالة من سفنه في البحر المتوسط .

The History and Description of Africa—Done into English in^(١) the year 1600 by John Pory (London 1869) vol. 111 pp. 773—802

ملاحظة : خلف لنا الجغرافيون والرحالة العرب السابقون الرحالة الحسن بن الوزان من أمثال : ابن الفقيه ، المقدسي ، ابن حوقل ، الإدريسي ، وكذلك الجبائي في وصف رحلته وصفها لليبيا ومدنها .

(٢) نفس المرجع السابق .

وحينئذ ذهب وفد من (تاجوراء) للاستيانة يستنجد بالقوة الإسلامية الناهضة في ذلك الوقت ضد أعداء المسلمين ، فأرسل السلطان سليمان القانوني قوة على رأسها (مراد أغا) . ويشير صاحب كتاب المنهل العذب إلى هذه البعثة الليبية فيقول : لما تفاقم الخطب على أهل طرابلس واستفحل أمر ما نزل بهم من فتنة الاسبانيول ومغالبتهم على حاميتهم ، وطلوعهم على أهلها بسوم الخسف — انتدب جماعة من أهلها سكنة تاجوراء ، ووفد وفدهم إلى دار السعادة العالية مستنجدين بالخلافة الإسلامية وكان ذلك سنة ٩٢٦ هـ ، (١) .

فأرسل لهم السلطان العثماني قوة على رأسها (مراد أغا) لكنها عجزت عن الاستيلاء على طرابلس ، فلجأت القوة إلى تاجوراء وتمركزت فيها واهتمت بتحصينها وتمهيد الطريق بينها وبين طرابلس ، كما أرسلت تطلب النجدة من السلطان — فأرسل في عام (١٥٥١ م) قوة بحرية أخرى على رأسها سنان باشا وطرغود نيجمت في فتح ثغرة في تحصينات المدينة ودخولها وانتزاعها من أيدي فرسان القديس بوحنا وبذا أصبحت ليبيا ولاية عثمانية .

وقد حكم سلاطين آل عثمان ليبيا كما حكموا غيرها من ديار العرب لا كحكام أتراك ، بل كخلفاء مسلمين . وهذه الرابطة الدينية حملت رعاياهم بقطع النظر عما إذا كانوا عرباً أو أتراكاً على الشعور بأنهم أهل بيت واحد تحت حكمهم (٢) .

ويقسم المؤرخون عادة فترة الحكم العثماني في ليبيا إلى قسمين :

١ — الفترة الأولى — تمتد من ١٥٥١ إلى ١٧١١ .

٢ — الفترة الثانية — تمتد من ١٨٣٥ إلى ١٩١١ .

وبين الفترتين من ١٧١١ إلى ١٨٣٥ (ما يقرب من قرن وربع) كانت السلطة في يد أسرة القره مانلي التي ظلت تتوارث الحكم طوال هذه المدة .

(١) أحمد الانصاري : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب (نشر مكتبة الفخراني د . ت) ص ١٩٩ . وكان المؤلف من أعضاء مجلس شهر أمانات ، وقد طبع الكتاب لأول مرة في الاستيانة سنة (١٨٩٩ م)

(٢) خدوري - مرجع سابق ص ١٧ .

فترة الحكم العثماني الأول (١٥٥١ - ١٧١١)

لم يختلف الحكم العثماني في ليبيا في هذه الفترة عنه في غيرها من الولايات العثمانية ، فقد عين العثمانيون والياً لحكم هذه الولاية . وكان القائد البحري العثماني (طرغود) أول وال عثماني عليها ^(١) .

وعمل هذا الوالي لمرض نفوذ الدولة العثمانية على الشواطئ الليبية كلها . لسكن نفوذ العثمانيين في الحقيقة لم يتمد السواحل ، ولم يتغلغل العثمانيون في الحياة العامة للسكان بل تركوا إدارة الأقاليم الداخلية للحكام المحليين وزعماء القبائل ، واكتفى الباب العالي بأن تحمل إليه الضريبة السنوية ، ولم يذل العثمانيون جهداً لإنعاش البلاد وتطوير اقتصادها ، ويبدو أن هذا النوع من التدبير لقي هوى في نفوس حكام ليبيا وسادتهم العثمانيين ، لكن بالتدريج ضعف نفوذ السلطان العثماني بحيث لم يبق له الا المظهر الإسمي متمثلاً في ذكر اسمه في الخطبة ، كما أن الضرائب كثيراً ما امتنع الناس عن دفعها .

وأكثر الولاة العثمانيون من الجنود الإنكشارية في طرابلس بالذات لما يتنا من الاطماع الخارجية ، ولحفظ النظام والأمن ، وتزاورج أفراد هذه القوات العسكرية بالليبيات فتكونت من ذلك طائفة من المولدين (القولوجية) .

وكانت السلطنة العثمانية تكثر من تغيير ولائها في ليبيا - شأنها في ذلك شأن باقي ولايات الدولة ، وذلك خشية أن ترسخ أقدام الوالي في الولاية فيفكر في الانفصال عن الدولة . ولذا فقد تعاقب على ليبيا عدد كبير من الولاة يذكرهم صاحب كتاب المهمل العذب وسنوات توليتهم فنهم : (يحيى باشا ٩٧١ هـ) ، (مصطفى باشا ٩٧٣ هـ) ، (محمد باشا عرف الزكري ٩٨٢ هـ) و (جعفر باشا ٩٩٠ هـ) ، و (سليمان طاي) الذي ولاه الجند عام ١٠١٢ هـ بعد أن

(١) اغترق (طرغود) باشا في كثير من حروب الدولة العثمانية ضد الأسبان وغيرهم من الأوربيين وقتل في إحدى الحروب ضد مالطة - سنة ٩٧١ . (١٥٦٣ م) وحل جثته إلى طرابلس حيث دفن هناك .

حاصروا جعفر باشا في قصر الحكومة ، ولم يمنحوه الأمان إلا بعد أن وعد
بترك البلاد ، وكان آخر الولاة العثمانيين في هذه الفترة خليل باشا (١١١٤هـ)^(١)

وقد ترتب على هذا التغيير المستمر في الولاة أن واد نفوذ جنود الإسكشارية
وأستبدوا بالأمرو اضطرت الولاة لإسترضائهم فاعتبروا أنفسهم طبقة ممتازة .

وأصبح ميناء طرابلس ، وغيره من موانئ ليبيا — موانئ للقرصان الذين
زاد نشاطهم حتى أن الدول الأوروبية البحرية — اضطرت لدفع الإتاوات
باستمرار ، وعقد الإتفاقات مع حكام ليبيا لضمان سلامة سفنها ورعاياها ،
وأصبحت الدولة تقاسم القرصان دخلهم ، فأصبحت القرصنة تمثل جزء مهماً
من دخل ليبيا . وأدى هذا بالتالي لزيادة نفوذ رؤساء القرصان الذين تلقبوا
بالقباة مختلفة وناقسوا الولاة في السلطة والنفوذ .

وساعدت كل هذه العوامل على إضعاف نفوذ الولاة واضطراب الأمن في
البلاد ، فكثرت الفتن والفتاقل الداخلية وزاد تدخل رؤساء الجند في
أمر الدولة ، بالإضافة إلى نفوذ القراصنة ومثلى العصابات المحلية . ذلك في
الوقت الذي كانت الدول الأجنبية فيه لازالت تطمع في وضع أيديها على الموانئ
الليبية الهامة متذرة بالاضرار والمخاطر التي تتعرض لها سفنها ورعاياها من
جرائم أعمال القرصنة ، ومن جراء عدم استتباب الأمن في ليبيا ؛ وعدم وجود
الشخصية القوية التي تمسك بزمام الأمور .

ويعطينا صاحب كتاب (المنهل العذب) صوراً عن المدى الذي وصل إليه
بعض الولاة العثمانيين من الضعف وانعكاسات هذا على الأمن في البلاد - فحين
يتحدث عن جعفر باشا يؤكد أنه كان ضعيف الشكيمة ، عاجز الرأي والحيلة
فتغلب عليه الجنود ، واضطربت البلاد ، وكثر الثوار والبغي والفساد ، وتغطف
الناس من السابلة : وسرى هذا الداء في جميع أعمال البلاد ، واطلم الجو من بنى
الجنود وجور العمال ، (٢)

(١) المنهل العذب ص ٢٢٥ وما بعدها .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٣٢ .

أما عن (سليمان طاي) فيذكر أنه عاد فأساء السيرة ، ويسط في الناس يد الجور ، وأطلق يد الجند ، وأباح لهم في هذه السنة (١٠٢٢ هـ) نهب قرية تاجوراء ، فجاسوا خلالها ودمروها وساموا أهلها سوء العذاب ، ونهبوا جميع أموالهم وكافة مواشيهم (١).

أما خليل باشا — آخر هؤلاء الولاة فقد تورط في الحروب والخلافات التي كانت ناشبة بين تونس والجزائر ، وأدى هذا إلى مهاجمة والي تونس لطرابلس وإضطراب الأمر فيها (٢)

أتاحت كل هذه الظروف لأحمد القره مانلي لأن يتولى الأمر في ليبيا في عام ١١٢٣ هـ (١٧١١ م) ويؤسس أسرة حاكمة بها ، حكمت ليبيا كما ذكرنا ما يقرب من قرن وربع .

ليبيا في ظل أسرة القره مانلي (١٧١١ - ١٨٣٥)

يفتتح أحمد القره مانلي إلى أسرة تركيه - هاجرت إلى ليبيا وأستوطنت طرابلس . وقد ولي أحمد القره مانلي عدة مناصب عسكرية في ليبيا ، وكان قائداً (للمنشية) أيام ولاية خليل باشا ، وأستطاع بسياسته أن يتقرب إلى الجنود والشخصيات البارزة في البلاد .

فلما وصلت الأحوال في ليبيا في آخر أيام خليل باشا إلى درجة كبيرة من الفوضى والإضطراب وحدث صدام بين الوالي وبين بعض رؤساء القرصان - اضطر للهرب ، ولما شعر خليفته في الولاية (محمد أبو اميس) بما يتمتع به أحمد القره مانلي من نفوذ لدى الجند والشعب - فكر في التخلص منه - فأرسله على رأس قوة إلى إقليم (غريان) في الداخل ، وقيل إنه كان قد أرسل لعاملها سرّاً بقتله هناك حتى لا يتنازع السلطة - لكن تسرب الخبر إلى بعض أعيان طرابلس من المقربين إلى أحمد القره مانلي فأرسلوا له على الفور يفتنون نظره إلى ما هو مدبر

(١) المنهل العذب ص ٢٤٢.

(٢) نفس المرجع ص ٢٩٤ وما بعدها.

له ، ويدعونه للعودة إلى العاصمة - فعاد إليها فأخثاروه والياً في يوم الثلاثاء الحادى عشر من جمادى الآخرة سنة ١١٢٣ هـ (يولييه ١٧١١ م) وذلك بموافقة أعضاء الديوان وأعيان البلاد (١) .

ونجح أحمد قره مانلى فى التغلب على القوة البحرية (٣٠٠ مقاتل) التى أرسلتها الدولة العثمانية بهدف إعادة الوالى العثمانى (خليل باشا) إلى السلطة ، ووقع هذا الوالى فى يد قوات أحمد القره مانلى فقتله . وأعلن أحمد القره مانلى ولاده للسلطان العثمانى (أحمد خان الثالث) ، وبمقتضى هذا السلطان والمقربين منه ، فاضطر السلطان لتشيته فى الولاية ومنحه رتبة الباشوية (٢) .

وهكذا وطد أحمد باشا قره مانلى مكانته فى ليبيا بالقوة ، ودفع الإتاوة للباب العالى على نحو لا يختلف كثيراً عن ذلك الذى اتبعه محمد على فى مصر .

وركز أحمد باشا جهده فى القضاء على الإضطرابات الداخلية ، فتخلص من المناوئين له من أصحاب المصيات فى البلاد ، وضرب على أيدي العابثين بالأمن فيها ، وعكف على تنظيم شئونها وحرص على تدعيم وحدة ليبيا بولاياتها الثلاثة فنشر سلطانه إلى (برقة) و (فزان) ، وعين أخاه (الحاج شعبان بك) عاملاً عنه فى برقة وبنغازى ، ليعمل على استتباب الأمن هناك ، كما ضرب على أيدي قطاع الطرق لضمان سلامة القوافل التجارية عبر الصحراء لبلاد السودان ، وللملك وإمارات غرب أفريقيا ، وذلك حتى يعيد الرواج الإقتصادى إلى البلاد ، كما حتم على الدول الأوروبية دفع الجزية لضمان سلامة أتباعها ، فقد كانت هذه بالإضافة إلى الجزية التى تدفعها القبائل العربية وضريبة الروس التى تفرض على غير المسلمين - تمثل أهم مصادر الدخل فى الدولة ، وحرصت الدول الأوروبية - لرعاية مصالحها - على تعيين قناصل لها فى طرابلس ، وساعد استتباب الأمن ، واستقرار الأوضاع بالإضافة إلى الأحوال المناخية الثلاثة على رفرة الإنتاج الزراعى وانتشار الرخاء (٣) .

(١) يصف صاحب كتاب المنزل المدب (عماد أبا اميس) باللازم وأن أسانه سلم موادع بينما قلبه حرب منازع ص ٢٩٩ .

(٢) نيقولا زياده - مرجع سابق ص ٤٥ .

(٣) يذكر صاحب المنزل المدب بالنفصل سلسلة الحروب التى شنها أحد أترة مانلبى على العائين بالأمن - ص ٥٠ ص ٣٠١ - ٣٠٤ .

ومن . آثر أحمد قره مانلى الجامع الذى ببناء قرب (باب المنشية) .
والمدرسة المتصلة به وقد وقف عليها الكثير من الأوقاف ، كما بنى (برجاً) فى
الجهة الغربية من ميناء طرابلس على جزيرة الساحل (١) .

وأهتم أحمد باشا بتدعيم وتقوية البحرية الليبية إذ أنها القوة التى كانت
تعتمد عليها الدولة لنشر سلطانها فى البحر المتوسط والثغور الهامة به ، وعليها
تعتمد هيبتها أمام الدول الأجنبية .

وقد واجهت طرابلس فى أيامه هجوماً بحرياً قامت به القوات الفرنسية
فى عام (١٧٢٨) لكن لم تنجح القوات المهاجمة فى النزول للمدينة
والإستيلاء عليها .

وهكذا نجح أحمد القره مانلى فى تدعيم سلطته فى ليبيا ، وفى نشر الأمن
والسلام والهدوء فى ربوع البلاد ، وأستمر والياً إلى أن توفى فى السادس عشر
من شوال ١١٥٨ هـ - ١٧٤٥ م وخلفه فى الولاية أبنته محمد باشا قره مانلى . .

وسار محمد باشا قره مانلى على سياسة أبيه ، وتابع إرسال الهدايا المعتادة
للسلطان العثمان وحاشيته ، فاضطر للاعتراف بولايته . ولم تحدث فى أيامه
اضطرابات داخلية هامة فقد كان الجهد الذى بذله أبوه كافياً لأن يبقى الأمن
مستتباً وتدين له القبائل بالطاعة .

وأهتم محمد باشا بالأسطول فجدد سفنه ومعداته وزوده بما كان فى حاجة
إليه فكانت ليبيا فى عهده مهابة الجانب .

وفي عام ١١٦٤ هـ (١٧٥٠ م) عقد معاهدة مع انجلترا لضمان سلامة سفنها
بلا إستئذان من الباب العالي وكان ذلك سبباً في غضب السلطان (محمود خان
الاول) عليه ، لكنه استطاع استرضاءه بالهدايا ، ولما توفي محمد باشا قره مانلي
في عام ١١٦٧ هـ (١٧٥٤ م) خلفه ابنه علي قره مانلي .

وكان علي قره مانلي صغير السن حين تولى أمر البلاد — فحدثت في بداية
حكمه بعض المشكلات بينه وبين بعض البلاد الأوربية (كالبندقية) التي كانت
مرتبطة بمعاهدات مع حكام ليبيا لضمان سلامة سفنها ، لكن لم يحترم القراصنة هذه
المعاهدات فثارت ثائرة هذه الدول ، كما أصيبت البلاد في عهده بالقحط —
لكن حين اشتد ساعده نجح في ضبط البلاد وحسن القيام بأمرها .

وفي أواخر ولاية علي باشا ساءت الحالة ، وخرج عليه ابنه يوسف قره
مانلي ، واضطرب الأمن في الداخل ، بالإضافة إلى قلة الأمطار وانتشار
الأمراض ، مما أدى لضعف الإنتاج الزراعي ، وعادت الأمور للإضطراب
في الموالي مما أدى للإصطدام بالدول الأوربية صاحبة المصالح في هذا البحر .

ويصف صاحب المنهل العذب ما آلت إليه الأمور في هذه الفترة من حكم
علي قره مانلي باشا بقوله : « لقد ساءت الحالة وانحلت الإيالة ، وأهملت التنظيمات
العسكرية والتنظيمات السائرة وثقل على علي باشا إعطاء مرتبات العساكر ،
وعجز عن القيام بمهام الأمور فتتابع فرار العساكر ، وخلا الجو للأندال
حتى صار النهب والغصب بالسبل والأسواق علناً من غير مبالاة وكثر المهرج
والمرج ، فاجتمع بعض الأعيان والأمراء للمفاوضة فيما ألم بهم من الإضمحلال
وسوء الحال ، فأجمعوا على عرض منازلهم على أعتاب الخلافة ، واستمداد
المراحم بالإنفقات إليهم » (١) .

وأدى تنافس وتناحر أفراد البيت القره مانلي على الولاية إلى تدخل حكام
الجزائر وتونس في شئون ليبيا — فأتى (علي باشا يرغل الجزيري) أخو والي

(١) المنهل العذب ص ٣١٥ .

الجوآئر بقوة بحرية وأستولى على طرابلس في ٢١ ذى الحجة ١٢٠٧ هـ (١٧٩٢م) وفر على باشا قره مانلى وأبنائه وأمرته إلى تونس — وبمعاونة جيوش تونس استطاعت أسرة قره مانلى أن تستعيد السلطة . وتولى أحمد بك قره مانلى ابن على باشا قره مانلى السلطة في رجب ١٢٠٩ هـ (١٧٩٤ م) لكن لم تطل مدته في الإمارة أكثر من سنة وشهرين ، فقد انتهز أخوه يوسف قره مانلى فرصة خروجه إلى تاجوراء فاستولى على الأمر ووجد تأييداً من (حموده باشا) والى تونس ، وفر أحمد بك قره مانلى إلى مسراته ومنها إلى مالطة وأصدر الباب العالي فرماناً في ١٢١١ هـ (١٧٩٦م) بتقليد يوسف باشا أمر الولاية^(١)

وقد اهتم يوسف باشا قره مانلى في بداية ولايته بتقوية الأسطول وتحصين ميناء طرابلس ، فأنشأ عدة أبراج في مواقع متباعدة من سور الميناء ، وفي عدة مناطق خارج البلد ، وبني حائط السور الممتد من قرب قصر الحاكم من جهة البحر إلى دائره الكرك .

وألزم يوسف باشا قره مانلى الدول الاجبية بدفع (الجعل) السنوى والهدايا المعتادة لضمان سلامة سفنها ، وتحديد الاتفاقيات المعقودة بينها وبين ولاية طرابلس بهذا الشأن^(٢) .

ولم تقتصر علاقات ليبيا في هذه الفترة على الدول الأوروبية فقد كانت الثغور الليبية — كما ذكرنا — تعتبر من المنافذ التجارية الهامة لدول غرب وشمال غرب أفريقيا ، ولذا فقد ارتبطت ليبيا مع دولة (بورنو) و (كانم) وغيرهما من دول هذه المنطقة بعلاقات ودية — وقد حدث في عهد يوسف باشا قره مانلى أن استنجد حاكم بورنو — الشيخ محمد الأمين — ضد بعض المنشقين عليه

(١) المنهل العذب ص ٣١٦ — ٣٢٥ .

(٢) بلغ مادفعته الدول الأجنبية (الولايات المتحدة ، انجلترا ، وفرنسا ، الدانمرك ، والسويد ، والبرتغال ، وهولندا ، وسردينيه) في الثلاث سنوات الأولى من ولايته ٣٣٣.٠٠٠ قرش وهو مبلغ لا يستهان به في ذلك الوقت . — أنظر نيقولا زيادة ص ٤٦ ، ٤٩ .

فجهز يوسف باشا قوة عسكرية عقد لواءها لقائده (عبد الجليل بن غيث بن سيف النصر) وارتحل بهم هذا القائد الليبي في أواخر عام ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) حتى وصل إلى هذه الاصحاق البعيدة ونجحت النجدة الليبية في إخضاع الثائرين ، وعادت بهدايا وفيرة من الرقيق وغيرهم (١) .

وقد استمرت العلاقات الودية مع (بورنو) وكانم وغيرهما من بلاد غرب أفريقيا بدليل أن المستكشفين الأجانب كانوا يطلبون خطابات توصية من الوالى الليبي لحكام هذه البلاد . وقد كتب يوسف باشا في عام (١٨٢٣) خطابات من هذا القبيل يوصى حاكم بورنو ببعض المستكشفين الإنجليز (٢) .

نهاية حكم الاسرة القرمانلية :

شهدت الفترة الأخيرة من ولاية يوسف باشا قره مانلى عدة اضطرابات داخلية ، فقد عادت المنازعات بين أفراد البيت القره مانلى . وكان يوسف باشا - كما رأينا - قد وصل إلى الولاية بعد تغلبه على أخيه أحمد بك قره مانلى الذى فر إلى مالطة وظل يترقب الفرصة المناسبة ليسترجع السلطة ، هذا بالإضافة إلى اضطراب الأمن وسوء الحالة الاقتصادية ، فامتنع كثير من ولاية الاقاليم والاهالى عن إرسال الخراج وغيره من الاموال التى كان يفرضها الوالى على الاقاليم المختلفة ، خاصة بعد أن أرتبكت أحواله المادية وزادت مصاريفه ، وتوقفت كثير من الدول الأجنبية عن دفع الإتاوات التى كانت تدفعها للدولة لضمان سلامة رعاياها - واضطر يوسف باشا لفرض ضرائب أثقلت كاهل الاهالى وذلك لسداد الديون المتراكمة عليه وسداد حاجاته المتزايدة . ووصل الامر إلى أن اضطر الوالى إلى بيع سفنه التى كانت تحمى موانيه وسواحله وتفرض سلطانه ، وأستعمل نحاس مدافعه لسك النقود النحاسية وبذا أصبحت العملة مفسوشة ، ولم يف كل هذا بحاجاته فكان كلبا أحتاج إلى المال وزع المبلغ المطاوب على الاهالى .

(١) المنهل الذب ص ٣٤٦ .

(٢) نيقولا زيادة ص ٥٠ .

ويصف لنا صاحب (المنهل العذب) ما آلت إليه الأوضاع في نهاية ولاية يوسف باشا فيقول :

« إن يوسف باشا لما انتقل من طور الشبيبة إلى طور الشدية أستهان بأهل الإيالة واغتر بظاهر الطاعة من أهلها ، وحلمهم بمقتضى ما كان له من إطلاق التصرف — من مصاريق شهواته وألوان لذاته أكثر من طاقته حتى آل الأمر إلى فاقته وفاقتهم ، فباع من إسطول الإيالة الحربي ، وسك مدافعه التحاس فلوساً ، وأرخص عتات التصرف لأبنائه وأصحابه ، وقسم الإيالة بينهم ، (١) .

وقد أدى هذا إلى ثورة الأهالي الذين ضاقوا بمطالبه وعجزوا عن إجابتها - فاضطر الوالي أن يعلن للأهالي عن تركه تلك التكاليف التي يطالب بها - لكن الأمر كان قد وصل إلى حد أنه أفلت من يده - وانتشرت الثورة وروح التذمر في مختلف أنحاء البلاد حتى أن الأقاليم والمدن الهامة ، مثل مصراته وفزان ، وأورفلة - خرجت من سلطانه وأصبحت تحت سلطان ذوى العصيات من الشخصيات في هذه المناطق ، واضطر يوسف باشا إلى أن يستجيب بياى تونس مرة أخرى فكتب إليه بقول : « إن إقامة بيتنا كانت على يد يتكم ولكم علينا منته وفضل ، والآن تداعى ذلك البناء ، والمطلوب من فضلكم تلافية قبل أن يخر ، بما يظهر لكم من الإغاة ، (٢) .

ولما تفاقم الأمر ويئس يوسف باشا من قدرته على جبر الصدع - تنازل عن الولاية لابنه على بك قره مانلى - أملاً في أن تهدأ النفوس وينقاد له الأهالي ، وكتب يوسف باشا إلى السلطان العثماني بذلك - فأناه فرمان بتقليد على باشا الولاية في غرة ربيع الآخر سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) .

وفي هذا الوقت الذى كانت فيه ليبيا تعاني من هذه المشكلات الداخلية كانت المنطقة كلها تتوج بأحداث هامة .

(١) المنهل العذب ص ٣٤٨ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٥٢ .

ففى عام ١٧٩٨ احتل بونابرت مصر ، وأوجد الفرنسيون باعتمادهم على هذه المنطقة من أملاك الدولة العثمانية الواقعة شرقى ليبيا - اضطراباً عديداً فى المنطقة كلها . كما أن موقف نابليون فى مصر بعد تحطيم أسطوله فى أبى قير أصبح يحتم عليه أن يلتفت إلى ليبيا ، ولذا فقد كتب فى ٢٢ يناير ١٧٩٩ رسالة إلى القنصل الفرنسى فى طرابلس يطلب منه فيها أن يتصل بيوسف باشا ، ويرتب معه أمر مرور الرجال والذخائر من فرنسا إلى مصر بطريق ليبيا (١) .

ولم يخف أمر هذه المحاولات الفرنسية على إنجلترا التى كان أسطولها يتعقب الحملة منذ خروجها من ميناء طولون - ففرضت حصاراً على شواطئ ليبيا . وحتى بعد أن أجبرت فرنسا على الجلاء عن مصر وعقد صلح (ميان) (١٨٠٢) وبمقتضاه أعيدت مصر إلى حكم العثمانيين - ظلت ليبيا ميداناً للتنافس بين الدولتين (فرنسا ، وإنجلترا) لأهمية موقعها وموانئها المطلّة على البحر المتوسط وإلى تعتبر منافذ أيضاً للمناطق الداخلية غرب وشمال غرب أفريقيا - كما ذكرنا سابقاً . وقد تمثل التنافس الإنجليزى الفرنسى فى ليبيا فى نشاط سفيرى الدولتين لدى باشا ليبيا - وقد زاد تدخل فرنسا وضغوطها على يوسف باشا بعد استيلائها على الجزائر فى ١٨٣٠ ، وكانت لهذا الحدث آثاره العنيفة فى المنطقة كلها ، فقد فتحت فرنسا بهذا العمل أول ثغرة فى أملاك السلطان العثمانى فى الشمال الأفريقى ونجحت فى نفس هذا العام فى أن تعقد مع يوسف باشا القره مانلى معاهدة أصبحت بمقتضاها لها حقوق الدولة الأفضل رعاية .

وفى نفس الوقت كانت علاقة الولايات المتحدة الأمريكية باليبيا تمر بمرحلة خطيرة أيضاً ، فقد أنذر يوسف باشا فى عام ١٨٠٠ م - الولايات المتحدة بضرورة دفع مبلغ من المال لليبيا فى مقابل ضمان سلامة سفنها ، ولم تجب الولايات المتحدة الوالى على هذا الطلب ، وحدث فى أكتوبر ١٨٠٣ م أن جنحت إحدى السفن الأمريكية على الشاطئ اللبى وأسر بحارتها وضباطها ، فأعدت الولايات المتحدة حملة للإنتقام ، وأستغلت الخلافات بين أفراد البيت القره

مانلى ، فأغرت (احمد بك قره مانلى) والى طرابلس السابق — وكان فى ذلك الوقت لاجئاً فى مصر - بمرافقة الاسطول الأمريكى لإعادته إلى حكم ليبيا ، ونجحت الحملة الأمريكية فى أن تنزل فى (درنة) ببرقة وتستولى عليها فى أبريل (١٨٠٤ م) ، وخشى يوسف باشا العاقبة بعد سقوط درنه فجنح إلى المصالحة ، وتوسط والى الجزائر وقنصل إنجلترا فى ليبيا بين الطرفين ، فعقدت معاهدة صلح بينهما ، وأعاد الأمريكان حليفهم أحمد قره مانلى إلى مصر فظل بها حتى وفاته سنة ١٨١١ م (١)

هذا على أن الدول الأوروبية التى كانت مضطرة فيما مضى لدفع أتاوات للسلطات الحاكمة فى ليبيا لحماية سفنها ورعاياها - شعرت بأن الوقت قد حان لوضع حد لهذا الوضع المبهين الذى وصف بأنه لا يقل عن عمليات إلا سترقاق التى تعرضت لها القارة الأفريقية لسنوات عدة - فعقد مؤتمر اكس لاشابل سنة ١٨١٦ لبحث هذه المشكلة ، واتخذ المؤتمر قرارات تقضى بوضع حد لعمليات الاعتداء على السفن الأوروبية ، وأن يعتبر هذا من مسؤولية الدول التى يتبعها القراصنة دون أن تتقاضى أى شئ فى مقابل ذلك ، وعهد المؤتمر لبريطانيا وفرنسا باحمل لتنفيذ قراراته ، وأن تقوم الدولتان فى البداية بإبلاغ الباشا فى طرابلس بقرارات المؤتمر . وفعلاً أبحر الاسطولان الفرنسى والإنجليزى إلى طرابلس ، وفى ٨ أكتوبر ١٨١٩ أبلغ الباشا بقرار المؤتمر ، ولم يكن أمام يوسف باشا إلا أن يعان إذعانه لقرار الدول - ولا شك فى أن هذا الأمر أدى إلى أن فقدت ميزانية ليبيا جزءاً كبيراً من دخلها ، فكانت ضربة لليبيا شديدة بما أصاب دولة المماليك فى مصر حين فقدت سيطرتها على طرق التجارة الآتية من الشرق واحتكارها لهذه الطرق .

وهكذا كانت الظروف الداخلية والظروف الخارجية المحيطة بليبيا فى هذه

(١) المنهل المذنب ص ٣٣٦ .

والدراسة التمهيدية لعلاقة أمريكا بشمال أفريقيا فى ذلك الوقت — انظر .

Louis, B. wright and Julia, H. Macleod : The first Americans in North Africa (Princeton 1945)

الفترة من حكم الأسرة القرمانليه غير مؤاتية - وقد رأت الدولة العثمانية أن الوقت قد حان لإنهاء حكم هذه الأسرة وإعادة ليبيا إلى سلطان الدولة مباشرة .

ويورد صاحب (المنهل العذب) قصة لها صلة بهذا القرار الذى إتخذته السلطنة بإنهاء حكم الأسرة القرمانلية - فيذكر إنه فى أواسط جمادى الأول سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م) - قدم (محمد شاكر أفندى) فى أسطول من دار الخلافة العلية حاملاً لسيف وفرمان عال من أمير المؤمنين مؤكداً للفرمان السابق بتثبيت (على باشا قره مانلى) على ولايته فتلقاه الوالى بالترحاب وأطلقت المدافع استبشاراً بقدمه ، وبالح فى إكرامه . واستقدم المندوب السلطانى أعيان وزعماء الثوار فقدم لهم النصيح بالإخلاق إلى السكينة واجتهد فى إصلاح ذات البين بينهم وبين الوالى - لكنهم أجابوه بقولهم : إن هذه الحروب والفتن الأهلية أبادت قواتنا وشتت شملنا فنحن قد انسلبت أمانيتنا فى هذه العائلة ، واسترحموا إنقاذهم من قبضتهم وظلمهم وقدموا له عرضاً عمومياً بذلك فأخذه منهم ووعدهم خيراً ورجع بعد ذلك إلى دار السلطنة (١)

ومهما تكن الدوافع التى دفعت الدولة العثمانية للتفكير فى وضع حد لحكم هذه الأسرة - فقد كانت الأوضاع كلها توحى بضرورة التغيير ، ولم يكن مستبعداً إن لم تقدم السلطة العثمانية على ما أقدمت عليه أن تغرى الأوضاع التى آلت إليها ليبيا - دولة من الدولة الطامعة فى هذه المنطقة لتتخذ خطوة من جانبها . ولذا فلعلم هذه الخطوة التى اتخذتها الدولة العثمانية فى عام ١٨٣٥ أخرت هذا المصير الذى لقيته ليبيا فيما بعد فى عام ١٩١١ م .

وقد أرسلت الدولة حملة من ٢٢ سفينة بدعوى حفظ الأمن والنظام فى ليبيا ، وكان على رأس الحملة الفريق نجيب باشا ، ووصلت القوة العثمانية إلى طرابلس فى أوائل محرم سنة ١٢٥١ هـ (مايو ١٨٣٥) فاحتفل على باشا بقدوم ممثل السلطان . وفى أواخر هذا الشهر دعا القائد العثمانى على باشا إلى سفينته ، فلما وصل ألقى القبض عليه ، واستحضر القاضى والمفتى والعلماء

والأعيان وأعلنتهم بالفرمان الصادر من قبل السلطان العثماني بولايته وأمرهم
بإتخاذ الإجراءات الكفيلة بحفظ الأمن والنظام في الولاية ، وأعلن نجيب باشا
قناصل الدول في طرابلس بالأمر وأفهمهم إنه جاء لحفظ الأمن والنظام وتأمين
الناس على حياتهم وأملأهم .

أما مصير الباقين من أسرة القره مانلى فقد ذكر صاحب المنهل العذب أن
محمد بك قره مانلى قتل نفسه ، بينما فر أخوه أحمد بك إلى مالطه وارسل على باشا
إلى الاسيستانه .

وهكذا طويت هذه الصفحة من حكم هذه الأسرة في ليبيا .

فترة الحكم العثماني الثاني (١٨٣٥ — ١٩١١)

تولى شؤون ليبيا في الفترة ما بين ١٨٣٥ ، ١٩١١ — ثلاثة وثلاثون
والياً في وقت كانت فيه ليبيا في ميسس الحاجة للإستقرار والهدوء والحكم
يتصفون بالحزم والقدرة على الضرب على أيدي العابثين بالنظام والأمن وعلى
تنظيم الولاية وتوجيهها لما يكفل لها النمو والتقدم الإقتصادي .

لكن كثرة تغيير الولاة بهذا الشكل — لم يفتح الفرصة حتى للقادرين منهم
على تنفيذ المشروعات العمرانية المطلوبة . وقد قضى معظم هؤلاء الولاة في
السلطة مدة لا تتجاوز بضعة شهور ، وبعض لم تتعد الشهرين ، ولذا قضى معظمهم
فترة حكمه في محاولة إخفاء الثورات التي كانت قد اندلعت في أنحاء ليبيا
المختلفة منذ أواخر عهد القره منليين — دون جدوى^(١) .

(١) لم تزيد مدة ولاية (على كالي باشا) مثلاً عن شهرين (٩ ذى الحجة ١٢٩٥ —
٩ ربيع الآخر من نفس السنة) ، أما الوزير محمد رشيد باشا فتولى (٢٢ جمادى الآخر
١٢٨٨ — ١٩ صفر ١٢٨٩) ، والمشير مصطفى عاصم باشا تولى (٢٩ شعبان ١٢٩٢ —
٨ جمادى الآخر ١٢٩٣) والوزير محمد صري باشا تولى (٩ ربيع الآخر ١٢٩٥ — ٥ ذى
الحجة ١٢٩٥) .

وبذا لم تتجاوز مدة ولاية كل منهم ثمانية أشهر .

وإذا أضفنا إلى ذلك أن ليبيا كانت تتعرض من وقت لآخر للقيح والجذب بسبب قلة الأمطار وعدم توفر المياه النقية الصالحة للشرب وما يترتب على ذلك من انتشار الأمراض الفتاكة بسبب إضطراب الأهالي لتناول المأكولات الرديئة — يمكننا أن ندرك مدى ما وصلت إليه البلاد في هذه الحقبة من فوضى وإضطراب .

ويعطينا صاحب المنهل العذب صورة لذلك فيذكر ، إنه في أواخر سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) وقع إمساك في الغيث وجذب شديد ومحل عظيم ، ونقص في الأموال والأنفس والثمرات فارتفعت أسعار الحبوب وعجزت الناس عن الأقوات ، وتفشى فيهم المرض والموت من تناولهم المأكولات الرديئة واشتد الخطب على الرعية وجزعت به الناس ، وطاشت أفسكارهم وباعت الأغنياء مواشيهم وآلات حرثهم لسد رمقهم ، وسمت العرب عامهم هذا (عام الحزور) لأنه كان أكثر غذائهم منه ،^(١) .

وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت تعاني من إضطرابات داخلية نتيجة ظهور الأحزاب والجمعيات المطالبة بالإصلاح ، ووقوف السلطات الحاكمة في وجه هذه الحركات ومحاولة قضاها بالقوة ، هذا في وقت كانت الشعوب الأوروبية بالذات الخاضعة للدولة قد بدأت تتحرك مطالبة باستقلالها ، فقامت حركات في اليونان وبلغاريا والصرب ورومانيا ، ووجدت هذه الحركات تأييداً من بعض الدول الكبرى مثل روسيا ، وأضطرت الدولة العثمانية لأن تقوض غار حروب طاحنة . وكان على الولايات العثمانية أن تقدم العون للدولة الأم في حروبها هذه ، وهكذا انعكست آثار هذه الإضطرابات الداخلية والاضطراب الخارجية على مختلف ولايات السلطنة .

وإذا كانت فرنسا قد فتحت ثغرة في الأملاك العثمانية بشمال أفريقيا بعملياتها على الجزائر (١٨٣٠ م) فإن حرب القرم التي شنتها روسيا على الدولة في عام

(١) المهمل العذب ص ٤٠٦ .

١٨٥٣ م - أثارت بعنف مشكلة (رحل أوروبا المريض) - كما كان يطلق على الدولة العثمانية في ذلك الوقت - ومصير أملاك هذه الدولة الضعيفة في شمال أفريقيا وفي أوروبا وغيرها من المناطق الإستراتيجية الهامة التي كانت تحت سلطان العثمانيين . وأصبح مصير هذه الأملاك العثمانية متروكاً على مدى إتفاق الدول الأوروبية فيما بينها على نصيب كل منها من هذه الأملاك ، وما تسمح لغيرها من أعدائها والمنافسين لها لإقتطاعه منها . على أنه من الإنصاف أن نذكر أن بعض الولاة العثمانيين في هذه الفترة حاولوا القيام ببعض الإصلاحات فمشقر باشا (١٢٥٤ - ١٢٥٨ هـ ١٨٣٨ - ١٨٤٢ م) عمد إلى إصلاح ما ثلم من القلاع وما تخرب من الجوامع . وألشأ قصرأ للحكومة بأورفله ، وحلأ للحكومة بالموضع المعروف (أبى نجيم) السكائن بين سوكته وأورفله . وشكل من هناك ناحية ، كما ولى حلیم باشا على نغازی لينظم شئونها . وقد حفل عهده بالحروب ضد الخارجين على سلطان الدولة (١).

كما أهتم خليفته في الولاية الوزير محمد أمين باشا (١٢٥٨ - ١٢٦٣ هـ . ١٨٤٢ - ١٨٤٦ م) بتنظيم الشؤون المالية والإدارية للولاية ، فجاء معه دفتر دار (عزمى بك) وهو أول من ولى مثل هذا المنصب في ليبيا . ثم رتب القضاة والمديريات واللواآت ، وأسس المجالس والأفلام والدفاتر وعدل أموال الحباية ، وأنشأ المستشفی العسکری بالمنشية ، وجعل الأميرالای (بکر بك) متصرفاً بفزان ، كما ولى من الموثوق بهم وأصحاب الكفاءات من الأهالی قائمقامين ومديرين ، وأمن زعماء القبائل الذين كانوا خارجين على سلطان الحكومة وجعلهم أعضاء بمجلس الإدارة ، وبالع في إكرامهم فأنسوا إليه واستكانوا للسلام وأستقروا بالمدن كما نجح بفضل جهود (اللواء أحمد باشا) في أن يضرب على أيدي الذين أبوا الخلود للسكينة .

ولعل الوزير محمود نديم باشا (١٢٧٧ هـ - ١٢٨٣ / ١٨٦٠ - ١٨٦٦ م)

(١) التهل المدب ص ٣٦١ وما بعدها

من أبرز الولاة العثمانيين في هذه الفترة — فقد حفل عـمـده بالعديد من الإصلاحات في مختلف المجالات — ووجه اهتمامه إلى الزراعة باعتبارها الثروة الحقيقية في ليبيا ، فجلب أشجار الزيتون وغيرها ووزعها على الأهالي بواسطة مشايخهم وحملهم على غرسها في الأماكن الصالحة ، فازدهرت الزراعة في عهده إزدهاراً كبيراً . ومن الناحية الإدارية انتهز نديم باشا فرصة صدور فرمان العالي بالتنظيم النهائي للولاية في عام (١٢٨١ هـ - ١٨٦٤ م) فقام بتوزيع الوظائف بمقتضى أحكام هذا فرمان ، ووضع مجالس الجنائيات والحقوق والتجارة وفق نظامه .

ويرجع إلى نديم باشا الفضل في تأسيس أول مطبعة حكومية بقصر الحكومة في ليبيا ، وصدرت عنها أول جريدة رسمية باسم (طرابلس غرب) . ولتسهيل الاتصال بين سكان الثغر وأهل المنشية والقرى المجاورة — فتح نديم باشا باباً جديداً للثغر من الجهة الغربية ، ولا شك في أن طول مدة حكم نديم باشا واستقراره في الولاية لمدة ست سنين وثلاثة أشهر — بالإضافة إلى ما أتصف به من سداد الرأي والهمة العالية — أتاحت له الفرصة للقيام بما قام به من مشروعات عمرانية (١) .

وكان خليفته المعير علي رضا باشا (١٢٨٣ - ١٢٨٧ هـ / ١٨٦٦ - ١٨٧٠ م) على شاكلته ، فقد حرص على النهوض بالولاية وتوسيع نطاق التجارة والصناعة والزراعة بها ، كما اهتم بتسوية الطرق والمعابر بداخل الثغر وخارجه وتنظيم البوستان ، ومد التلغراف برأ من نفس الولاية إلى مشارف متصرفيه (لواء الخمس) مصمماً على إيصاله إلى الحدود المصرية . . . وتصدى لعلاج مشكلة قلة الماء في الثغر (طرابلس) ، وشدة احتياج السكان إليه لعدم وجود الأنهر ،

(١) يصفه صاحب المنهل العذب « بأنه كان نائب الرأي ، عالي الهمة ، قام بأعباء الولاية أتم قيام ، وأخذ كل طبقه بما عليها ومالها ويحفظ عليها كمالها » .
— أنظر المنهل العذب ص ٣٩٦ .

وندرية العيون الجارية - فتشبت بإخراجه من أعماق الأرض بواسطة الأدوات الحديدية ، فحضر عيناً بخارج الثغر ، وجعل عليها سيلا ، وربط الأودية وجعل لها ترعاً وسواقي وسلط مائها على المزارع ، وحمل الناس على الإجهاد في الزراعة ، وتعاطى أسباب الثروة وال عمران ، وأسس سوقاً في العزيزية في ظاهر المدينة .

ولم تقتصر عناية هذا الوالي على العاصمة فحسب - بل إمتد نشاطه وإهتمامه إلى الأقاليم الداخلية . ففي (غدامس) عين حاكماً لإدارتها وتنظيم أمورها كما اعتنى (بطبرق) عناية خاصة فأنشأ بها محجراً صحياً ، وميناء وقلعة ودوراً للتخزين .

ولا شك في أن إعفائه من الحكم بعد هذه الفترة الوجيزة (سنتين وتسعة أشهر) يعتبر خسارة كبيرة لليبيا ، فقد أثبت انه من أقدر الولاة على النهوض بالبلاد ومن أفضاهم تفهماً لمشكلاتها الحقيقية (١) .

وقد اتجهت السلطنة العثمانية - بسبب المخاطر التي أصبحت تتعرض لها ليبيا بعد أن أخذت الدول الإستعمارية تنشب أظفارها في أملاك الدولة بشمال أفريقيا - إلى أن تختار ولايتها في ليبيا من العسكريين برتبة مشير ، وكان الوالي بالإضافة إلى وظيفته هذه (قومانداناً) للفرقة العسكرية بالولاية (٢) .

كما حرصت الدولة على تعزيز القوة العسكرية في الولاية بقدر إستطاعتها ، فأرسلت عدة بواخر سلطانية مشحونة بمدافع (كروب) والمهمات والذخائر الحربية ، وصار الشروع في إقامة الاستحكامات المتصلة على النظم الجديدة ، وذلك في الأماكن الهامة ، فأكلت استحكامات (برج الثراب) ، و (سانية

(١) نيقولا زيادة - مرجع سابق ص ٥٥ .

(٢) تولى المشير على رضا باشا (١٢٨٣ - ١٢٨٧ هـ) ثم أعيد للمرة الثانية ١٢٨٩ - ١٢٩١ هـ) ، وتولى المشير سامح باشا (١٢٩١ - ١٢٩٢ هـ) ، والمشير مصطفى عاصم باشا (١٢٩٢ - ١٢٩٣ هـ) ، والمشير مصطفى باشا (١٢٩٣ - ١٢٩٥ هـ) وكلهم بالعلم من العسكريين .

الباشا) وزودت النقطةتان بالمدافع الهائلة - ولكن الدولة العثمانية كما سنوضح فيما بعد اضطرت قبيل الاحتلال الإيطالي لليبيا إلى سحب جزء كبير من قواتها لإخضاع الثورة التي نشبت في اليمن .

والحقيقة إن ليبيا كانت في هذه الفترة التي أطلق عليها فترة الحكم العثماني التأخر - مسرحاً لصراعات حامية ، فقد اتجهت إليها أنظار الكثير من الدول الأوروبية ، فبينما كانت المخاوف تثار حول نوايا فرنسا بالذات تجاه ليبيا - بعد إعلان حمايتها على تونس - حتى أن وزير الخارجية الفرنسية اضطر لأن يعلن بصراحة في يولية ١٨٨١ إن بلاده لا تفكر في إحتلال القطر الطرابلسي ، وكل ما تريده بلاده هو الاتبدى طرابلس روحاً عدائياً نحو فرنسا - فأبى إيطاليا وألمانيا كانت تثار أيضاً المخاوف حول أطماعهما التوسعية بعد أن تخلصت الدولتان من مشكلاتهما الداخلية ، وظهرت كل منهما كدولة موحدة قوية تطمح في دخول ميدان الإستعمار وتطلع لنصيب فيه كغيرها من الدول التي سبقتهما في هذا الميدان . وكانت انتصارات ألمانيا على فرنسا في عام ١٨٧٠ توحى بأن الخطوة التالية ستكون تقدمها نحو ليبيا ، ولذا فقد أثيرت الشكوك حول زيارات الرحالة الألمان من أمثال ناختيجال (Nachtigal) ويونكر (Junker) لهذه البلاد . أما إيطاليا فقد كان نشاطها المتزايد في مختلف الليادين في هذه البلاد مثيراً للخوف ، وهو ما مستعرض له بالتفصيل عند الحديث عن الإستعمار الإيطالي في ليبيا .

على أننا نشير الى أن الولايات المتحدة الأمريكية كان لها أيضاً دور في هذا الصراع ، فقد سعى القنصل الأمريكى في طرابلس فيدال (Fedal) في عام ١٨٧٣م - لأن يحصل لبلاده على ميناء يكون قاعدة للأسطول الأمريكى في البحر المتوسط ووقع إختياره على ميناء (طبرق) بالذات . ولكن الصراعات الدولية في ذلك الوقت لم تهيه لهذا المشروع فرصة الخروج لحيز التنفيذ .

وقد لجأت الإدارة العثمانية الى فصل برقة عن طرابلس وجعلت برقة (سجقاً) مستقلاً عن الولاية . على أن الأوضاع في برقة تأثرت منذ النصف الثاني للقرن

التاسع عشر بقيام الحركة السنوسية فيها ، وقد أدت الظروف التي أحاطت بليبيا إلى قيام نوع من الاتفاق بين السنوسيين والدولة العثمانية - لفترة ما على الأقل .

ولو أننا سنشير بالتفصيل لدور السنوسيين في مواجهة الإستعمار الإيطالي لليبيا فيما بعد — لكن قد يكون من المناسب هنا أن نشير لنشأة هذه الحركة في وتطورها في الفترة السابقة للغزو الإيطالي لليبيا .

السنوسية والدور الذي لعبته في ليبيا حتى عام ١٩١١

شهد العالم الإسلامى حركات إصلاحية ظهرت بصفة خاصة في وسط ما أحاط به من مشكلات .

ولعل الحركة الوهابية التي تزعمها - في القرن الثامن عشر - محمد بن عبد الوهاب - من أبرز هذه الحركات . وكان جوهر هذه الحركة هو محاربة الفساد الذي استشرى ، فكانت الدعوة حرباً على كل ما ابتدع بعد الإسلام الأول من عادات وتقاليد . فلا احتفاء بزيارة قبور ، ولا خروج للنساء وراء جنازة ، ولا إقامة اذكار ليغنى فيها ويرقص ، ولا يحمل يتبرك به . وقد لخصت تعاليمها في أساسيين :

١ — التوحيد في العقيدة — مجردة من كل شرك .

٢ — التوحيد في التشريع — فلا مصدر له إلا الكتاب والسنة .

وقد أراد مؤسس الوهابية أن يعيد في محاربته عوامل الفساد هذه — عهد أسلافه من الخنابلة ، ولا سيما ابن تيمية . وكان قد درس كتبه ووسائله الإصلاحية^(١) .

ودخلت الدعوة الوهابية طوراً جديداً بانضمام أمير الدرعية - ابن سعود - إليها ، وقيامه بنشر الدعوة في جميع أنحاء الجزيرة العربية باللسان عند من يقبلها وبالسيف عند من لا يقبلها ، فشعرت الدولة العثمانية بالخطر يهددها بخروج الحجاز موطن الحرمين الشريفين من يدها — فعمدت للقضاء على الوهابيين .

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث (١٩٤٨) ص ١٠ - ١٢ .

وقد شهد المغرب العربي حركات مماثلة تمثلت في الطرق الصوفية . وسنرى أن اتباع هذه الطرق لعبوا دوراً هاماً في مواجهة الإستعمار الأوربي في وقت كانت السلطات الحاكمة قد وصلت لدرجة من الضعف والإنشغال بمشاكلها الداخلية بحيث لم تستطع أن تواجه المستعمر الغاصب (١) .

ومؤسس هذه الحركة هو محمد بن علي السنوسي . وكان على رأس الحركة في هذه الفترة التي نعالجها ثلاثة هم :

- ١ — السيد محمد بن علي السنوسي في الفترة من ١٨٣٧ إلى ١٨٥٩ م .
- ٢ — السيد محمد المهدي في الفترة من ١٨٥٩ إلى ١٩٠٢ م .
- ٣ — السيد أحمد الشريف في الفترة من ١٩٠٢ إلى ١٩١٨ م .

فترة السيد محمد بن علي السنوسي (١٨٣٧ — ١٨٥٩ م) :

ولد محمد بن علي السنوسي في ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٠٢ هـ (١٧٨٧ م) . بالقرب من مدينة (مستغانم) بالجزائر ، وبعد وفاة والده كفله عمته السيدة فاطمة وكانت على علم فقد كانت تعمل بالتدريس والإرشاد ، وكذلك كان أفراد هذه الأسرة على هذا المنوال من العلم والمعرفة (٢) .

وذهب محمد بن علي السنوسي إلى مدارس مستغانم ، وأظهر منذ نعومة أظفاره حباً عظيماً للدراسة ، وانتقل بعد ذلك إلى جامع القرويين في فاس حيث

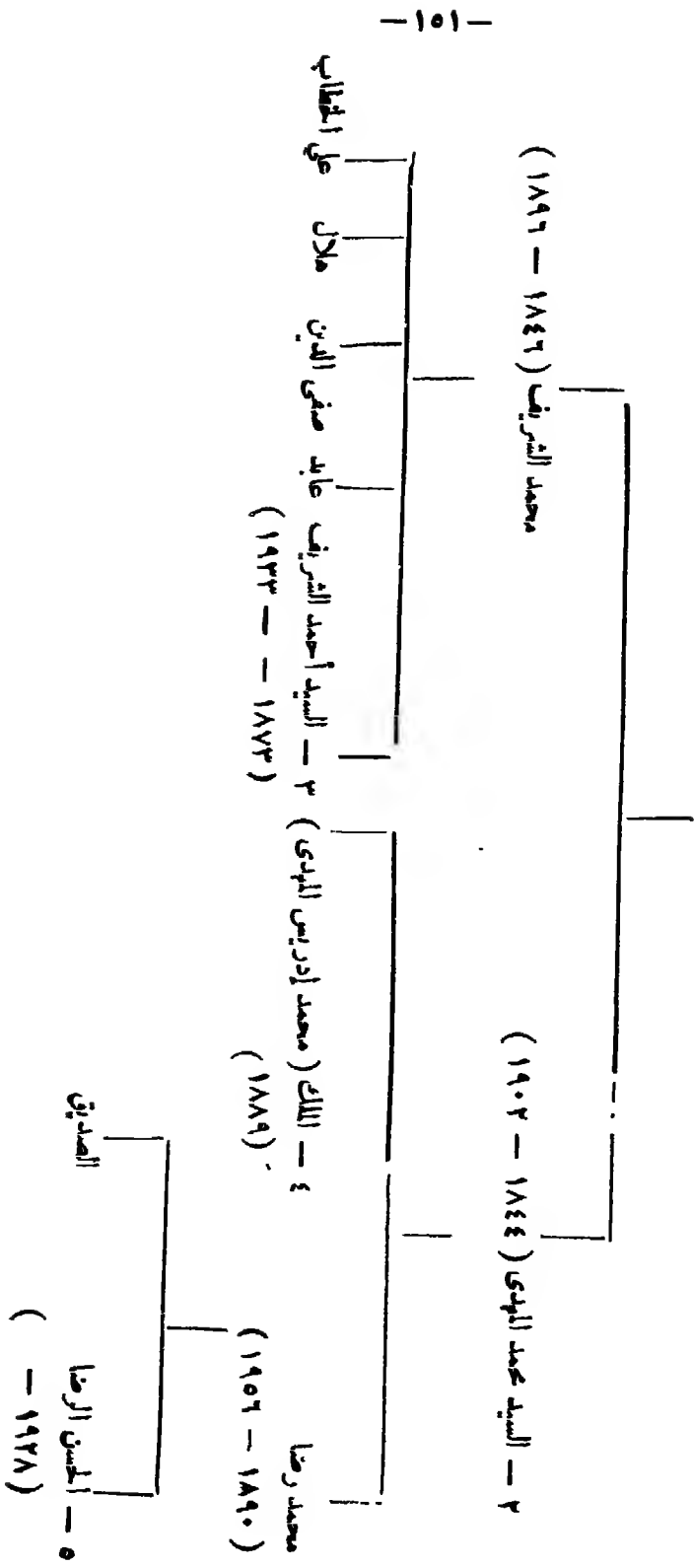
(١) من هذه الطرق (القادرية) و (الجزولية) — وقد لعبت دوراً هاماً في مواجهة الاستعمار في المغرب الأقصى .

(٢) يرجع نسب السنوسي إلى فاطمة وعلي بن أبي طالب ، ويفسر آدمز Adams السبب في تلقيبه بالسنوسي بأن جده التحق بإحدى قبائل شمال أفريقيا وهي قبيلة (بنوسنوس) فنسب إليها .

Adams, C.C. : the Sanusiya ordet (N.D.) P. 8

(٣) الأشهب ، محمد الطيب بن إدريس : السنوسي الكبير (القاهرة ١٩٥٦) ص ٨٠ .

١ - السيد محمد بن علي السنوسي
(١٧٨٧ - ١٨٥٩)



أقام سبع سنوات (١٨٢٢ - ١٨٢٦)^(١) . ثم رجع إلى الجزائر وكان بها في بداية الإستعمار الفرنسي ، ومنها أنتقل إلى القاهرة ، فأقام في الأزهر مدة يتعلم ويعلم ، ثم غادر القاهرة إلى الحجاز . ويعال البعض سبب مغادرته لمصر بأنه وجد معارضة عنيفة من علماء الأزهر إذ وجدوا في تعاليمه ومبادئه بفتح باب الإجهاد جراحة غير معتادة فناصبوه العداوة^(٢) .

هذا ويشير شكيب أرسلان ، إلى أن السنوسى لم يكن عالماً فحسب ، بل كان أيضاً فارساً ماهراً ورث الفروسية عن والده ، ولذا فاز هذا الكاتب يذكره إن السنوسيين ينزع فيهم عرق إلى السيف ، كما ينزع عرق إلى القلم ،^(٣) .

وبقى محمد بن على بالحجاز حتى عام ١٨٤٠ وأتاح له ذلك فرصة الإلتقاء بعدد كبير من المسلمين والمشايخ ورجال الدين وأقطابه وحصل منهم على إجازات^(٤) .

وفي الحجاز أسس أولى زواياه عند جبل (أبي قيس) وكان ذلك في عام ١٨٢٦ م ، ثم أنشأ زوايا أخرى في الطائف والمدينة المنورة وبدر^(٥) .

وتعددت رحلات السنوسى بعد ذلك في طلب العلم والإلتصال بأربابه ، وفي التعرف على أحوال العالم الإسلامى فقد جاب الشمال الأفريقى كله مرات

(١) محمد شكرى — تاريخ ذهابه إلى قاس بعام ١٢٣٣ هـ (١٨٢١ - ١٨٢٢ م) ويذكر أن سنة كان في ذلك الوقت ثلاثين عاماً ، ولا شك في أن زيارته لهاس وإتصافه هناك بأتباع الصوفية كان له أكبر الأثر في اتجاهاته .

— شكرى ، محمد فؤاد : السنوسية دين ودولة (١٩٤٨) ص ١٣ - ١٤ .

— أرنولد ، توماس : الدعوة إلى الإسلام (ترجمه حسن إبراهيم حسن ، وعبد المجيد

عابدين) ١٩٤٧ ص ٣٦ .

(٢) Rinn, Louis: Marabouts et Kouan (Alger 1844) P.P. 486-487

(٣) أرسلان شكيب : حاضر العالم الإسلامى (القاهرة ١٩٢٦) ج ١ ص ٢٧٧ .

(٤) Pritchard, Evans: The Sanusi of Cyrenaica (Oxford 1948) P.11

Ibid p.12.

(٥)

بالإضافة إلى مصر والحجاز واليمن والشام وغيرها من البلاد الإسلامية . ويحاول الأشهب أن يحدد سنوات إقامه السنوسى فى كل من هذه البلاد المختلفة متتبهاً تنقلاته ، ويشير إلى أنه حصل على هذه التواريخ من مخطوط قديم ، وإن كنا لا نعرف الكثير عن هذا المخطوط الذى ذكره . وفى تنقلاته كان السنوسى يدعو لمبادئه (١) .

وغادر السنوسى الحجاز - كما ذكرنا - عام ١٨٤٠ م قاصداً قابس ، فربمصر واستأنف رحلته إلى سيوه وبقي فيها بضعة أسابيع لمرضه ، ثم ذهب لبغداد عن طريق الجبل الأخضر ، ووصل طرابلس الغرب فى أواسط جمادى الثانية ١٢٥٧ هـ (أغسطس ١٨٤١ م) ومنها إلى قابس بتونس . ومن قابس كان ينوى التوجه إلى الجزائر ، لكن وصل إلى عليه أن المرسيين قد بثوا عيونهم على الحدود التونسية الجزائرية للقبض عليه ، فدفعه ذلك للعودة إلى طرابلس ، فالجبل الأخضر حيث كان قد أمر أتباعه بتأسيس (الزاوية البيضاء) فتم تأسيسها فى أواخر عام ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م) وأصبحت أم الزوايا السنوسية (٢) .

ويقول إنه فكر لفترة فى أن يتخذ من (بنغازى) مركزاً لحركته لكنه عدل عن ذلك وفضل عليها الزاوية البيضاء حتى لا يصطدم بالأتراك العثمانيين (٣) .

ولعل السؤال الذى يفرض نفسه علينا هو - لماذا أختار السنوسى الكبير برقة بالذات مركزاً لحركته ؟ وهل هذا الاختيار تم عن طريق الصدفة أم إنه جاء حسب دراسة وتخطيط ؟

نقد اختلفت الآراء فيما يتعلق بهذا التساؤل . فقد ذهب البعض - وعلى رأسهم بريتشارد - إلى أن هذا الاختيار جاء صدفة وأن كل ما فى الأمر هو أن

(١) الأشهب : السنوسى الكبير ص ١١ .

Pritchard, Evans: Op. cit. P.13

(٢)

(٣) الأشهب برقة العربية (١٩٤٧) ص ١٤٠ .

السنوسى كان مضطراً فى هذه الظروف للإستقرار بعض الوقت فى ليبيا، فالطريق إلى الغرب كان مغلقاً فى وجهه لوجود الفرنسيين فى الجزائر ، والطريق إلى الشرق أيضاً كان مغلقاً لوجود العثمانيين فى مصر ومكة - فاضطر للبقاء فى ليبيا وأستتبع ذلك بناء الزوايا التى أقيمت بها ^(١) .

ويرجح البعض أن السنوسى ثان يفكر فى بادية الأمر فى إتخاذ الحجاز مركزاً لحركته بدليل تأسيسه أولى زواياه هناك ، ولما يوفره الحجاز من إمكانيات لا تتوفر فى غيره بسبب تجمع وفود الحجاج القادمين من مشارق الأرض ومغاربها فيه فى موسم الحج - لكنه لما اضطر لترك الحجاز لم يكن أمامه فى هذا الوقت سوى ليبيا كميدان يمكنه أن يمارس فيه نشاطه .

لكن البعض يرى أن اختيار ليبيا ، وبرقة بالذات كميدان لنشاطه جاء بعد جولات متعددة ، فهو أمر تم بناء على دراسة واختيار دقيقين - ولعل اختيار برقة ومنطقة الجبل الأخضر بالذات - ترجع لأسباب منها :

١ - إن هذه المنطقة فى موقع ممتاز لوقوعها فى طريق حركة القوافل التجارية مع طرابلس الغرب ، ومصر ، وفزان ، وتونس ، وبرنو ، ووادى ، وغات - بالإضافة إلى القوافل مع السودان وغيرها من أقاليم داخل القارة ^(٢) .

٢ - لا تثير هذه المنطقة المشاكل مع الأتراك العثمانيين الذين كان نفوذهم الحقيقى فى المدن الكبيرة الساحلية .

٣ - تتيح هذه المنطقة بيئة صالحة لنشر الدعوة السنوسية فسكانها بدو يفتقرون لمن يفقههم فى تعاليم الإسلام الصحيحة وأمثال هؤلاء يوجد عتدم الخماس والإستعداد للتضحية اللازمان لمثل هذه الدعوة فى مراحلها الأولى .

وفى عام (١٨٤٦ م) بعد ست سنوات قضائها السنوسى فى الجبل الأخضر -

١Pritchard, Evans: Op. cit. p. 14

(١)

٢Adams: Op. cit P. 6.

(٢)

غادر الزاوية البيضاء إلى الحجاز حيث أمضى ثمانى سنوات ، ولما عاد من الحجاز عام ١٨٥٦ اتخذ (الجغبوب) مركزاً له فانتقل إليها في صفر ١٢٧٣ هـ (أكتوبر ١٨٥٦ م) .

وأما إن اتخذ السنوسى الجغبوب مركزاً له وعدم نزوله (بالزوية البيضاء) بعد عودته من الحجاز تساؤلات عن السبب وراء هذه الحركة .

وقد أرجع الكتاب الأوروبيون ذلك إلى رغبته فى الإبتعاد أكثر عن نفوذ الأتراك وسلطانهم بسبب الشكوك التى أخذت تحوم حول أهداف السنوسيين ومراميمهم خاصة بعد ما لقيته دعوتهم من أنشاز كبير ^(١) .

هذا بينما أعتبر البعض أنتقاله إلى الجغبوب بمثابة مرحلة أخرى من مراحل الجهاد بهدف نشر الإسلام فى غرب أفريقيا ، وأن الجغبوب كانت تمثل عمقاً أكثر ، فهى فى موقع متوسط بين عدة مناطق فى شمال ، وشمال غرب ، وغرب القارة ومركز هام لإلتقاء القوافل ^(٢) .

وقد أرجع البعض ذلك إلى أن السنوسى - وكان قد قارب العقد السابع من عمره - وجد فى هذا المكان البعيد مجالاً أوسع للتعبّد والدراسة والرياضة الروحية .

وباستقرار السنوسى فى الجغبوب أصبحت لها مكانة خاصة وافتتحت طرق جديدة للتجارة بين الكفرة والجغبوب وبينها وبين الواحات الأخرى فى صحراء مصر الغربية ^(٣) .

وقد أخذ عدد الزوايا السنوسية يزداد ويتضاعف بزيادة أتباعها والمنتمين إليها . وهناك خلاف كبير فى تقدير عدد المنتمين للحركة السنوسية ، وقد قدر

Adams: Op. cit. P. 9

(١)

Pritchard, Evans : Op. cit. P.P. 15—16

(٢)

Cumming, D.C.: The Modern History of Cyrenaica (N.D.) (٣)

P. 19

عدد الزوايا في أوج قوة الحركة السنوسية بثلاثمائة، والبعض أعطى أرقاماً غير ذلك - ولعل هناك مبالغة في هذا العدد قصد بها التهويل من أمرها وإثارة المخاوف منها^(١).

ويلاحظ أن معظم الزوايا السنوسية أقيم في الصحارى بين البدو، وما أسس في مدن شمال أفريقيا كان ضئيلاً. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن مجتمع البدو كان أكثر ملائمة للسنوسية من مجتمع المدن بالإضافة إلى الرغبة في البعد عن السلطات الحاكمة.

ولعل إلقاء بعض الضوء على (زاوية الجنبوب) يعطينا فكرة عن الزاوية السنوسية وعن حياة السنوسيين ونشاطهم وأهدافهم.

كانت الجنبوب قبل أن يستقر بها السنوسى ويعمرها مجرد واحة غير مأهولة تقتصر إلى الماء الكافى للرى، وكانت مأوى لقطاع الطرق - لكن تغير حالها تماماً منذ بنيت بها الزاوية السنوسية فأصبحت خلية عامرة بالنشاط والحياة

وتشتمل الزاوية على عدة مباني من أهمها المسجد، والمدرسة. وكان مسجدها يسع حوالى خمسمائة متعبداً، أما التلاميذ الذين كانوا يدرسون بها فقد قدر عددهم بحوالى ثلاثمائة تلميذ.

وتشتمل الزاوية على (مضافة) تحوى أما كن فسيحة لإيواء التجار والزوار والمسافرين، ويقضى المسافر عادة في بيت الضيافة ثلاثة أيام حسب العرف عند العرب، هذا بالإضافة إلى قاعات كبيرة يحفظ فيها التجار بضائعهم ومتاجرهم وعروضات يحفظ فيها بالإبل وقد حفر بئران لسد حاجات سكان الزاوية من الماء.

وبالزاوية منازل للمدرسين وطواحين للقلل، وتحاط الزاوية بسور تعلوه حصون وأبراج لدفع أى هجوم على الزاوية إذا تعرضت لأى خطر^(٢).

Duveyrier H. : Le Confrerie Musulmane de Sidi Mohamed (١)
ben Ali Senoussi et son Domaine Geographique (Paris 1886)
P.P. 57—58

Wingate, F.R. : Mahdism and the Egyptian Sudan (1891) ٢١
P. 4

وقد اختلف الكتاب في تقدير كثافة السكان بالجغبوب بعد أن عمرت ، فقد قدرها البعض بسبعة آلاف نسمة^(١) ، بينما قدرها آخرون بألف نسمة فقط ، بالإضافة إلى عدد من العبيد كان يشتريهم السنوسى ويعتقهم لكنهم يبقون في خدمة الزاوية^(٢) .

وكانت مهمة التعليم في الزاوية تسند إلى معلم خاص ، يقوم بإعداد الدارسين إعداداً كاملاً ليكونوا أكفاء لفتح تعاليم السنوسية ومبادئها في المناطق الأخرى التي يرى رئيس الدعوة نشرها فيها .

وكان إمام المسجد يؤم المصلين ، لكن شيخ الزاوية كان عادة هو الذى يؤم المصلين في يوم الجمعة . وكان يطلق على الذين أخذوا الطريقة السنوسية وتمسكوا بورها كما ذكرها السنوسى في مؤلفه السلسيل المعين - لفظ (الإخوان) أو (المرادين)^(٣) . وقد أعطانا الأشهب صورة كاملة للنظام الذى كانت تسير عليه الزاوية السنوسية وواجبات كل فرد فيها . وحسب هذا النظام كان يجتمع في الزاوية من حين لآخر المجلس الذى يعاون رئيس الزاوية ، وهو يتكون من وكيل الزاوية وشيوخ القبائل المرتبطة بالزاوية ووجهاء المحاورين ، وذلك لفض المنازعات والبث في الشئون المتعلقة بالزاوية من زراعة أو رعى أو تشغيل العمال^(٤) .

هذا وقد كان الإخوان يتعاونون عادة في العناية بالأرض المحيطة بالزاوية واستثمارها فتقوم كل جماعة بالعمل أياماً معينة^(٥) .

White, Arthur Silva : From Spinx to Oracle through the (١)
libyan Desert. (London—1899) p. 122

Pritchad, Evans : Op. cit. P. 16 (٢)

(٣) السنوسى ، محمد بن على : السلسيل المعين في الطريق الأربعين (مخطوط بدار
الكتيب المصرية تحت رقم ٢٥٦٧ ت) .

(٤) الأشهب : السنوسى الكبير ص ٣٠ — ٣٢ .

(٥) ثيقولا زيادة : مرجع سابق ص ٧٣ ، ٧٤ .

وكانت موارد الزاوية تأتي عن طريق التجارة ، والزراعة ، والرعى ، والهبات الخيرية، والزكاة الشرعية وما ترسله الزوايا الأخرى سنوياً من سلع عينية وغيرها ، فقد كان الفائض من كل زاوية يرسل جزء منه إلى مركز السنوسية للصراف منه على شئون الدعوة .

هذا وللسنوسى الكبير عدة مؤلفات شرح فيها المبادئ الرئيسة لمذهبه، لكن فقد الكثير منها بسبب العدوان الإيطالى والفرنسى على المغرب العربى ، ومعظمها تأليف فى الفقه والصوفية . وقد اهتم حفيده السيد ادريس بطبع بعض هذه المؤلفات والبعض ما زال مخطوطاً^(١) . وكانت وفاة السنوسى الكبير فى ٩ صفر ١٢٧٦ هـ ٧ سبتمبر ١٨٥٩ م ، ودفن فى الجغبوب فى ضريح فخيم ، وبدأ أصبح هذا الضريح مزاراً ومركزاً للحج والتبرك ، وكان هذا من الأشياء التى فتحت الباب لكثير من النغف الذى وجه للسنوسية^(٢) .

وكان السنوسى الكبير قبل وفاته قد هباً الأمر لابنه المهدي^(٣) .
فترة السيد محمد المهدي (١٨٥٩ — ١٩٥٢) :

كان السيد محمد المهدي حدثاً فى سن الخامسة عشرة عند وفاة والده ، فأقيم مجلس وصاية عليه من عشرة شيوخ يتولى شئون السنوسية حتى يبلغ المهدي الرشد^(٤) .
(١) مما طبع :

- ١ — إيقاظ الوسنان بالعمل بالحديث والقرآن (القاهرة ١٩٣٨) .
 - ب — الدرر السنية فى أخبار السلافة الإدريسية (القاهرة ١٣٤٣ هـ) .
 - ج — المسائل العشر (المسمى بـ فى المقاصد وخلاصة المراسد) (القاهرة ١٣٠٣ هـ) .
 - د — مقدمة مولانا الإمام مالك (القاهرة ١٣٨٥ هـ) .
 - هـ — المسلسلات العشرة فى الأحاديث النبوية (القاهرة ١٣٥٧) .
- ومن المخطوطات :

- ١ — السلسيل المعين فى الطرائق الأربعين (بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٧ ت) .
- ب — المنهل الرايق فى أصول الطرائق (بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢٥ — مصطلح حديث تيمور) .

- (٢) Adams, C.C. : Op. cit. P. 10
- (٣) Rinn, Louis : Op. cit. P. 494
- (٤) Pritchard, Evans : Op. cit P. 20

لكن كانت فترة زعامة المهدي للحركة فترة مناسبة وكافية لأن تبلغ الحركة مداها وتحقق الكثير من أهدافها . وفي هذه الفترة انتقل مركز الحركة من الجغبوب إلى (الكفرة) في ظروف سنشير إليها بإيضاح فيما بعد .

وبأن اتجاه السنوسية منذ البداية - كما رأينا - أن يبتعدوا بحركتهم وأتباعهم عن مجال السياسة ، وذلك لفتح لهم مجال العمل دون الإصطدام بالسلطات الحاكمة أو بالقوى المتصارعة ، لكن كما سغرى إن السنوسيين لم يستطيعوا الإستمرار في هذا الخط إلى النهاية .

وقد حاولت أكثر من دولة (ألمانيا ، وإيطاليا بصفة خاصة) أن تستعين بالسنوسيين ضد أعدائهم - لكنهم لم تنجح في جرم للزوج بأنفسهم في ميدان السياسة . ويعبر بعض الكتاب في هذا المجال إلى أن (الإخوان) كانوا ممنوعين من مناقشة المسائل السياسية ، وأنهم كانوا يتحاشون ما من شأنه أن يسيء لعلاقتهم مع الدول الأوروبية أو مع جيرانهم ^(١) .

هذا على أن البعض يعتقد أنه كان لهم نشاط سياسي في الخفاء في معاضدة ومساندة الحركات الوطنية في الجزائر وتونس وفي غيرها من البلاد العربية ^(٢) .

بل يذهب (دوفريه) إلى القول بأن السنوسيين كان لهم عملاء في مختلف المدن بل والمصالح الحكومية في الشمال الإفريقي كله ، وأنهم كانوا وراء الكثير من حركات المقاومة للفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين ، بل لقد أسار البعض إلى أنهم كانوا وراء الكثير من أحداث إغتيال وقتل الأوروبيين من مبشرين ومستكشفين وغيرهم في أنحاء متباعدة من أفريقيا ^(٣) .

أما فيما يتعلق بالدولة العثمانية - فقد شعرت بشيء من الإرتياح والهدوء منذ استقر السنوسي الكبير في برقة تلك الولاية التي كانت تنظر الدولة إليها

Pritchard, Evans: Op. cit. P.P. 23-25

(١)

Rinn, Louis : Op. cit. P. 507

(٢)

Duveyrier : Op. cit. P.P. 13-14

(٣)

على أنها ولاية فقيرة، وفي نفس الوقت كانت كثيراً ماتموج بأعمال السلب والنهب والإضطرابات بسبب القحط وبسبب لجوء عصابات الخارجين عن القانون إليها . . . لكن نجح السنوسى فى إستمالة الأهاالى إليه ، فاستتب الأمن فى المنطقة وانتظم دفع الجزية السنوية لاستامبول ، حتى أن السلطان عبد المجيد أصدر سنة ١٨٥٦ فرماناً يستثنى ممتلكات السنوسيين من الضرائب ويسمح لهم بجمع العشور الدينية من أتباعهم ، كما أصدر السلطان عبد العزيز فرماناً ثانياً بهذا الخصوص (١) .

لكن لم يستمر الأمر بين السنوسيين والعثمانيين على هذا المنوال . فقد امتنع المهدي فى عام ١٨٧٧ م عن تقديم العون للسلطان فى حربه ضد روسيا ، كما أن الدولة العثمانية كما يبدو أخذت ترتاب فى نوايا السنوسيين وأهدافهم ، فأرسلت من رجالها من يقوم بزيارة المهدي فى الجغبوب وفى نفس الوقت يحاول أن يتكشف جلية الأمر . ولعل زيارة صادق باشا المؤيد سنة ١٨٨٦ ، وزيارة رشيد باشا وإلى بنغازى سنة ١٨٩٠ كانت تهدف لهذا الغرض - خاصة أن هذا الأخير أشار فى حديثه مع المهدي إلى أن السلطان يعتقد بوجود خزائن ملوثة بالأسلحة لدى السنوسيين ، وأن المهدي قام لفوره بفتح خزائن السكتب أمام رشيد باشا وقال له : هذه هى خزائنا (٢) .

وبما يلمت النظر أن انتقال المهدي إلى (الكهرو) جاء عقب هذه الزيارة مباشرة .

وأستمر الشك قائماً - كما يبدو - بين الدولة العثمانية والسنوسيين . لكن استمر السنوسيون أيضاً يخطبون ود السلطان العثمانى ، ويظهرون أنهم ليست لهم أهداف سياسية ، وكانت الخلافة العثمانية بسبب ما وصلت إليه من ضعف ، وبسبب أطماع الأوربيين وانقضاضهم على أملاك الدولة - مضطرة لأن تتفاوض عما يشاع عن نوايا السنوسيين .

(١) شكرى ، محمد فؤاد : مرجع سابق ص ٧٦ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٧٩ .

هذا على أنه في الوقت الذي توفي فيه السيد المهدي في عام ١٩٠٢ كانت السنوسية قد بلغت الذروة في لإنتشار وكان لها وقتئذ العديد من الزوايا في ليبيا وفي مصر والسودان وبلاد العرب^(١) وكانت معظم هذه الزوايا في أماكن ذات قيمة تجارية وإدارية وحربية ، كما كانت هذه الزوايا محكمة في إرتباطها بعضها ببعض الآخر ، وفي اتصالها بالمركز العام للسنوسية . ولذا فقد ذكر البعض أن السنوسية كانت في الحقيقة تمثل إمبراطورية داخل الإمبراطورية العثمانية (٢) .

فترة السيد أحمد الشريف (١٩٠٢ — ١٩١٨) :

لما توفي السيد المهدي - كان ابنه السيد محمد إدريس (٣) حدثاً فانتقلت رئاسة السنوسية إلى السيد أحمد الشريف .

وبذلك يلاحظ تتابع الوراثة في الإبن الأكبر . وكان هذا موضع تهكم من المؤرخين الغربيين ومثار شك في أهداف السنوسية - فن المعروف أن التصوف والوراثة الدموية أمران متناقضان ، لأن المشيخة مفروض إنها نتيجة جهاد وسلوك معينين وليست بالوراثة .

هذا وقد انقضت الفترة الأولى من رئاسة السيد أحمد الشريف - في كفاح مرير ضد الفرنسيين الذين كانوا قد ثبتوا أقدمهم في غرب أفريقيا وأخذوا يتوغلون في الداخل لتوسيع الرقعة الخاصة بهم . وواجه الفرنسيون في تقدمهم هذا من الغرب صوب نهر النيجر عمالك أسلامية وقف ملوكها في وجه المستعمرين .

(١) يقدرها نيقولا زيادة بـ ١٤٦ زاوية (منها ٤٥ في برقة ، ٢٨ في طرابلس ، ١٥ في فران ، ٦ في الكفرة ، ٢١ في مصر ، ١٤ في السودان ، ١٧ في بلاد العرب)

ليقولاً زيادة : مرجع سابق ص ٧٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٧٥ .

(٣) الذي أصبح ملكاً لليبيا فيما بعد في عام ١٩١٨ .

لكن تمكن الفرنسيون من مد نفوذهم في حوض النيجر الأعلى والأوسط وأدخلوا منذ عام ١٨٦٨ يعملون لمد نفوذهم شرقاً، فأرسلوا ثلاث حملات إحداها من الجزائر ، والثانية من الكونغو الفرنسية ، والثالثة من السنغال . وأصطدم الفرنسيون في زحفهم شرقاً صوب سودان وادي النيل بقوات رابع الزبير الذي كان في الأصل من قواد الزبير باشا رحمت ، لكنه كان قد انفصل بقواته واتجه غرباً ، واحتل مقاطعات من دارفور ثم اتجه نحو باجرمي (Bagirmi) وأستطاع إخضاع سلطنة برنو (Bornu) لنفوذه وبذا كون مملكة قوية واتخذ مدينة (دكوة) جنوب بحيرة تشاد عاصمة له ، لكن أستطاع الفرنسيون أن يوقعوا الهزيمة بقوات رابع بالقرب من بحيرة تشاد وظلوا حتى أوائل عام ١٩٠٢ حين أستتب لهم الأمر على حدود برنو (١) .

بعد ذلك أخذ الفرنسيون في الزحف شرقاً تجاه السودان ، وفي ذلك الوقت كان السنوسيون مرتبطين بعلاقات مع حاكم واداي ، وكانت لهم زاوية في (بيوعلالى) ، فبكان هجوم الفرنسيين في يناير ١٩٠٢ على هذه الزاوية السنوسية بداية الصدام بينهما ، فأعلن المهدي الجهاد المقدس ضد الفرنسيين . وبعد معركة طاحنة احتل الفرنسيون الزاوية المذكورة وكان المهدي قد توفي في ذلك الوقت فاستأنف أحمد الشريف القتال ضد الفرنسيين (٢) .

وحدث صدام في ١٩٠٤ بين قوات واداي تعززها قوات السنوسيين وبين الفرنسيين عند نهر شاري (Shari) الذي يصب في بحيرة تشاد ، ونجح الفرنسيون بعد ذلك في احتلال (وادي) وأقاموا على عرشها حاكماً من المواليين لهم ، وخسر الفرنسيون في هذه المعارك الكثير من جنودهم وقوادهم ، لكنهم باخضاعهم (باجرمي) ، وواداي أمنوا وجودهم في كانتهم .

(١) للدراسة التفصيلية لنقاط الفرنسيين الاستعماري هنا انظر :
شوقي الخيل: تاريخ كذب وأربعها (القاهرة ١٩٧٠) ص ٤٩٣ - ٥٠٣ .
(٢) Forbes, Rosita: The Secret of the Sahara Kufara (London 1921) p. 328

واستمر النضال ، والمناوشات بين الفرنسيين والسنوسيين والقوات الوطنية في هذه الجهات حتى عام ١٩١١ حين أخطر السنوسيون للإنسحاب للشمال تاركين الجنوب للفرنسيين ، فقد كان على السنوسيين أن يواجهوا عدواً أخطر — إذ شغلوا من ذلك الوقت بالكفاح ضد الإيطاليين في ليبيا ، بينما أخطر الفرنسيون للوقوف عند حدود برقة الجنوبية بسبب ارتباطاتهم الدولية التي عاقت حركتهم أكثر من ذلك (١) .

وقد شغل السيد أحمد الشريف في السنوات من ١٩١١ إلى ١٩١٨ بالكفاح ضد الإيطاليين الذين غزوا ليبيا .

وستعرض لهذه الفترة ولكفاح السنوسيين فيها ضد الغزاة الإيطاليين فيما بعد عند الحديث عن الغزو الإيطالي لليبيا - مراعاة لوحدة الموضوع .

وفي عام ١٩١٨ اعتزل السيد أحمد الشريف زعامة الحركة واتجه إلى تركيا فالحجاز حيث توفي في عام ١٩٢٣ م .

الباب الثاني

المغرب الأقصى

(منذ بداية القرن السادس عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر)

الفصل السادس : الدولة السعدية

الفصل السابع : الدولة العلوية

الفصل السادس

الدولة السعدية (١٥٠٩ - ١٦٤٠)

تذهب السعديون إلى أنهم من أولاد علي بن أبي طالب ، وقد قال بعض المؤرخين بصحة هذا النسب^(١) ، بينما أنكره آخرون وقالوا إنهم عرب من بني سعد بن بكر ولذا سموا بالسعديين^(٢) ، ويقول البعض إنهم سموا بهذا الاسم لأن البلاد سعت بهم ، ولا يرضى السعديون بهذا القول لأنه يبعدهم عن نسبة الشرف التي يحرسون عليها جد العرص .

وقد بدأ نفوذ السعديين في بلاد (درعه) والسوس الأقصى وكان ظهورهم في وقت كانت الشواطيء المغربية فيه عرضة لاطلاع البرتغاليين والاسبان ، بينما كانت الدولة الوطاسية قد وصلت إلى درجة من الضعف بحيث أصبحت عاجزة عن رد الأعداء الذين أخذوا يستولون على الثغور المغربية الواحد تلو الآخر .

(١) حقي ، إحسان : المغرب العربي مرجع سابق ص ١٠٩

والاستقصاء (طبعة الدار البيضاء ١٩٥٥) ص ٢٠٠ (المؤلف هو الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري - من مواليد سلا ، وهذه الطبعة في تسعة أجزاء تناول المؤلف فيها تاريخ المغرب من الفتح الإسلامي حتى وفاته سنة ١٨٦٣ م . وللتعريف الكامل بالمؤلف انظر الجزء الأول من كتابه ص : ٩-٥٤) .

(٢) ذكر ذلك المقرئ ، أبي العباس أحمد بن محمد المقرئ : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب (بولاق ١٢٧٩ هـ - ١٨٦٢ ، أربعة أجزاء) . .

(٣) أنظر . مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية المرعية التأليف درتية (نشر جورج كولان - ١٩٣٤) ص ٢ - ٥ .

(ولهذا الكتاب أهمية خاصة لأن معظم ما كتب عن الدولة السعدية كتب والدولة قديمة - فكما يقول الناشر إن هؤلاء الكتاب لم يكشفوا لنا إلا عن شطر واحد من شطري المنظر)

انظر مقدمة الناشر

ملاحظة : استعن بالخرائط رقم ١ ، ٨ ، ١١ ملحق الكتاب .

فالتفت القلوب حول (ابي عبد الله الملقب بالقائم بأمر الله) وبايعوه بالإمارة سنة (٩١٥ هـ - ١٥٠٩ م) فأخذ يعد العدة لتصفية الدولة الوطاسية وتثبيت أركان دولته حتى يستطيع التفرغ لمقاومة البرتغال .

وأخذت الوفود ترد إلى أبي عبد الله محمد السعدى — تبايعه وتشكو مما تتعرض له نتيجة هجوم البرتغال على البلاد ونهبها دون أن يجدوا من يقف في وجههم ، فنهض من سوس إلى بلاد (حاحة) حيث نزل (بأفغال) وظل هناك يعد العدة لمقاومة العدو إلى أن أدركته الوفاة سنة ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م (١) فتولى الأمر بعده ابنه (أبو العباس أحمد — الذى عرف بالأعرج) وكان قد بويج بولاية العهد في حياة أبيه فجددت له البيعة بعد وفاته ، واجتمع الناس على بيعته من سائر الأفاق وأتوه طاعتهم — كما يقول صاحب الاستقصاء — عن رضا منهم فاستقام أمره ، واستطاع أن يصرف عزمه إلى تهديد البلاد ، وإقتناء الأجناد وتعبئة الجيوش إلى الثغور وشن الغارات على العدو في الإقبال والبكور (٢) .

ومن وثائق الأرشيف البرتغالى يتضح أن أبا العباس أحمد لجأ في البداية ، إلى عقد معاهدة سلام مع (جيان الثالث) ملك البرتغال — لكن بعد أن استتب له الأمر بدأ يناوشهم ويشكو من نقضهم للاتفاق السابق (٣) .

وقد أحرز السلطان أبو العباس - الأعرج انتصارات عظيمة على المستعمرين الطامعين في (تلمست) و (آسفى) وغيرهما من الأماكن التى كانوا

(١) الاستقصاء ج ٥ (طبعة دار البيضاء) ص ١٤ .

(٢) نفس المرجع السابق وقفس الصفحة .

(٣) عن العلاقات مع البرتغال هناك مجموعة من المراسلات بينه وبين جيان الثالث وكذلك نص اتفاقية الصلح بينهما أنظر :

قد أستقروا بها ^(١) فانقشر بذلك ذكره وكاتبه أمراء (هنتاته) ولاية مراکش
يخطبون وده ويطلبون الدخول في طاعته ، فأجاب طلبهم وانتقل إلى مراکش
فدخلها في عام (٩٣٠ هـ - ١٥٢٣ م) ، وقد أثار هذا النصر حفيظة الوطاسيين
فخشوا على ما بقي لهم من نفوذ في فاس ونواحيها فالتجأوا لمحاربتة فكانت
لهم معه معارك متعددة .

هذا وقد كان أبو عبد الله محمد الشيخ - الشقيق الأصغر لأبي العباس
الأعرج - والياً على سوس في عهد أبيه وبقي كذلك حين ولي الأمر أخوه
أبو العباس الأعرج ، وكانت القبائل السوسية تكن له الولاء والاحترام فقد
نشأ بين أظهرهم وسبروه وعرفوا بنجابه وكفائته منذ تركه أبوه عندهم عند
إنتقاله إلى أفعال . وكان أخوه السلطان أبو العباس يستشير في أمور الدولة ،
فكانت كلمتهما واحدة - إلى أن دخل الوشاة بينهما فأفسدوا قلوبهما وأقتضى
الحال إلى القتال بينهما ، وأنقسم الجند حزبين انصرفت كل طائفة إلى متبوعها
وصاحب أمرها وتفاقلا مدة وأتتهى الأمر بأن غلب أبو عبد الله محمد -
الشيخ على أخيه أبي العباس وقبض عليه وأستولى على ما بيده وأودعه هو
وأولاده السجن وأصبح ملكاً مستقلاً بعد أن كان والياً من قبل أخيه وكان ذلك
سنة ٩٤٦ هـ ^(٢) .

رقد حفلت فترة حكم أبي عبد الله الشيخ (٩٤٦ - ٩٦٤ هـ) - (١٥٣٩ -
١٥٥٦ م) بالنشاط . فمن جهة البرتغال واصل الجهاد ونجح في طردهم
من حصن فوتي (٩٤٧ هـ) بعد أن كانوا قد أقاموا فيه لثنتين وسبعين سنة -
وأختطف أبو عبد الله الشيخ بالقرب من فوتي حصن (أكادير) . هذا على أن
البرتغال لإزاء شعورهم بما يهددهم من خطر - اضطروا لإخلاء (أسفى)
و (آزموور) و (آصيلا) من غير قتال (٩٤٨ هـ - ١٥٤٢ م) ^(٣) .
وبعد أن أطمأن أبو عبد الله الشيخ من فاحية البرتغال ، وبعد أن أستقرت

(١) أنظر ما ذكرناه في الباب الثاني عند دراسة الأطماع البرتغالية في المغرب العربي
استناداً لوثائق الأرشيف البرتغالي نفسها .

(٢) الاستقراء ٥ ص ١٧ ، ١٨ .

(٣) أنظر ما سبق أن ذكرناه عن تصفية الوجود البرتغالي .

له الامور في مراکش - إتجه إل مد نفوذه على باقى بلاد المغرب ، فخرج مولياً وجهه صوب الشمال يفتح البلاد ويستولى على القرى والأماصار حتى وصل إلى (فاس) مقر الوطاسيين فحاصرها نحو السنة إلى أن دخلها سنة ٩٥٦ هـ - ١٥٤٩ م ، وقبض على بقايا الوطاسيين وبعث بهم إلى مراکش عدا (أباحسون) فقدفر إلى الجزائر مستجيراً بالأتراك بها . كما اتصل بشارل الخامس (Charles Quint) الإمبراطور الأسباني يستنجد به لإسترجاع عرشه (١) . كما أن هناك مراسلات بين أبى حسون والامير فيليب ولى العهد الأسباني الذى أصبح ملكاً على إسبانيا (١٥٥٦ - ١٥٩٨ م) بهذا الشأن (٢) .

وعكف أبو عبد الله الشيخ بعد ذلك على تنظيم شؤون مملكته ، فنظم الضرائب لضمان المساواة والعدالة بين الأهالى ، كما تم في عهده تشييد عدة جسور على الأنهار الرئيسية في المغرب (جسر سبو ، وجسر وادى أم الربيع) .

وقد كان أبو عبد الله الشيخ رجل دولة بالمعنى الصحيح ، كان متمرساً بالحرب قادراً عليها ، مهيأً ذا شخصية قوية ، طاغية طويل الأناة والصبر ، كثير الأمل ، مثقفاً راسخاً في العلم ، عالماً بالشرعية - يحفظ القرآن ويفهمه . ولم يكن يعيبه إلا أنه كان قاسياً مسرفاً في القسوة ، قتل الفقيه (أبى على حرزوز) خطيب مكناس حين بلغه إنه كان في خطبه يحذر الناس من الإيقاد إليه ، ولما بلغه أن الفقيه (عبد الوهاب الزقاق) كان يميل إلى أبى حسون وينصره ، وأنه كان يرى في خروج السعديين على الوطاسيين تفريقاً لسكينة المسلمين أمر بالقبض عليه ، وكانت محاكمة قصيرة رائعة .. سأله السلطان أختر بأى شيء تموت .. فأجابه الفقيه .. أختر أنت لنفسك .. فإن المرء مقتول بما قتل به - فأمر السلطان بقطع رأسه (بشاتور) (٣) .

(١) أفاض مؤلف تاريخ الدولة السعدية في ذكر الأحداث المفصلة ومحاصر السلطان أبى عبد الله الشيخ لأماس وقبضه على الوطاسيين ونقلهم إلى مراکش وتكليفه بالانقياد للذين ظلموا لآخر لحظة متمسكين ببيعة الوطاسيين .

أنظر الكتاب المذكور (نشر جورج كولان) ص ٥ - ١٥ .

(٢) أما عن الاتصالات بين (أبى حسون) والأسبان فان الأرشيف الأسباني يزخر بالعديد من المراسلات في هذا الشأن - أنظر :

Archivo General de Simancas—Estado—Legazo 474 & 477

(٣) تاريخ الدولة السعدية - ص ٢٢ ، ٢٣ .

على أن العلاقات بين المغرب والأتراك العثمانيين الذين كانوا قد وطدوا نفوذهم في الجزائر ، وتونس ، وطرابلس بالإضافة إلى مصر - إزدادت توتراً بعد أن فر أبو حسون الوطاسي مستجيراً بهم وبدأ الصدام بين المغرب والأتراك حين تقدم أبو عبد الله الشيخ إلى (تلمسان) ، وكان الأتراك قد استولوا عليها فحاصروها تسعة أشهر ودخلها سنة ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م لكن عاود الأتراك الكرة وطرده منها فتركها على أن يعاود غزوها في فرصة أخرى مناسبة (١) .

وقد بعث الأتراك الفقيه (أبا عبد الله محمد بن علي الخروبي) سنة ٩٦١ هـ / ١٥٥٣ م لمفاوضة السلطان أبي عبد الله الشيخ لعقد هدنة بين الدولتين وعقد إتفاق لتحديد مناطق الحدود بينهما - لكن لم تسفر هذه المفاوضات عن نتيجة - فلجأ الأتراك للحرب ، منتهزين فرصة وجود أبي حسون الوطاسي بالجزائر فأمدوه بقوة لمحاربة أبي عبد الله الشيخ وإثارة الفتن في بلاده، وكان لأبي حسون أعوان في فاس وغيرها من مدن المغرب يمدونه بمعلومات عن الأوضاع هناك . (٢) ونجح أبو حسون بعد معارك طاحنة في دخول فاس عام ٩٦١ هـ / ١٥٥٣ م وفر أبو عبد الله الشيخ إلى مراکش حيث استنصر قبائل السوس لمعاونته على قتال عدوه، وخرج بجيش استطاع به أن يستعيد فاس ويقتل أباحسون وبذا صفا له أمر المغرب .

(١) ملاحظة :

كان التنافس على السلطة في تلمسان شديداً بين أفراد الأسرة الزيانية والعمانيين وحكام فاس - وهناك العديد من الوثائق بهذا الخصوص في الأرشيف الأسباني .
أنظر مثلاً : خطاب (مولاي الناصر بن مولاي عبد الله) من المطالبين بعرش تلمسان إلى شارل الخامس الإمبراطور الأسباني طالباً المعاونة ضد الأتراك لإسترجاع عرش أبياته (ربيع الأول ٩٦٢ هـ - ١٥٥٥ م) .
أنظر :

Archivo General de Simancas - Estado Legazo 449, Fól. 123-124.

(٢) أنظر خطاب (Bartolomé Dorader) من مليله بتاريخ ٢٧ يناير ١٥٥٣ للأمر فيليب يفيد أنه « أبا حسون لجأ إلى الباب العالي عن طريق باشا الجزائر طالباً النجدة بعد أن يش من معاونة الأسبان له : Estado Legazo 478. fol. 153

لكن العلاقات بين السلطان العثماني سليمان القانوني والحاكم المغربي أبي عبد الله الشيخ ظلت بعد هذه الأحداث تنسم بالتوتر .

وقد بدأت الدولة العثمانية بأن حاولت أن تجس النبض فبعثت رسولا إلى المغرب ، وكان السلطان المغربي في (تارودانت) فسافر إليه الرسول وسلمه رسالة من السلطان سليمان العثماني مكتوبة بالتركية ينهى فيها أبا عبد الله الشيخ بما أحرزه من انتصارات ويطلب منه أن يدعو له على منابر (المغرب) بصفته صاحب السلطة الشرعية الأولى في البلاد الإسلامية وأن يكتب اسمه على العملة . ويقال إن أبا عبد الله الشيخ لم يرد على رسالة السلطان العثماني برسالة مكتوبة لكنه أكتفى بأن قال لرسوله :

« لا جواب لك عندي حتى أكون بمصر إن شاء الله وحينئذ أكتب لسلطان القوارب ، - كما كان يسمى السلطان العثماني ، (١) .

في هذه الأثناء حل بالمغرب بضعة عشر رجلا من ضباط الجيش التركي بالجزائر ادعوا لأنهم ضاقوا ذرعا بمحياتهم في الجيش العثماني فأدخلهم رئيس الفرقة التركية بالجيش المغربي - علي (أبي عبد الله الشيخ) فافاضوا في شرح قضيتهم ، فأحسن الحاكم المغربي بهم الظن ، وأصبحوا موضع ثقة يبعث بهم برسائله إلى القواد والأمراء . وحدث أن كان الحاكم المغربي في إحدى تحركاته بجبل درن في موضع يقال له (أكلكال) بالقرب من (تارودانت) وكان نائما في خيائه ، وأستيقظ الضباط والجنود في يوم الأربعاء ٢٩ من ذي الحجة عام ٩٦٤ هـ ليسمعوا النبا .. لقد قتل أبي عبد الله الشيخ ، لقد قطع رأسه بشاتور ، والتفت الجميع بحثا عن الضباط الأتراك الذين كان الحاكم المغربي قد وضع ثقته فيهم فلم يجدوا لهم أثرا . لقد هربوا بعد أن أدوا المهمة التي كانوا قد جاءوا من أجلها ، وفي القسطنطينية بعد ذلك فتحت مخلعة كان فيها ملح ونخالة ، ورأس أبي عبد الله الشيخ فعلق على باب القلعة ، ويقول الإيراني

(١) الاستقصاء - ص ٥٠ من ٣٢ ، ١١٥ وتاريخ الدولة السعدية ص ٢٧ .

عن أبي عبد الله الشيخ ، إنه حمل إلى مراکش بغير رأس قد دفن قبلة جامع المنصور في قبور الأشراف هناك وقبره مشهور ، (١) .

وبعد مقتل أبي عبد الله الشيخ بويج ابنه محمد عبد الله الغالب بالله بالسلطة في فاس ثم راتته بيعة مراکش . وكان على السلطان الجديد أن يواجه أطماع الاتراك العثمانيين بالإضافة إلى قتال المستعمرين البرتغال .

وفي عام (١٥٥٧ - ١٥٦٥ م) تحرك حسن بن خير الدين باشا التركي صاحب تلمسان في جيش كثيف وصل إلى قرب عمالة فاس حيث التقى بجيش عبد الله الغالب بالله وانجملت المعركة عن هزيمة الاتراك وفرار حسن بن خير الدين إلى (بادس) وكانت في ذلك الوقت بيد الاتراك . (٢)

وقد أرسل السلطان الغالب لعماله على الأقاليم وفي الثغور بهذا النصر الذي أحرزه (٣) .

وحاول السلطان الغالب بالله في عام (١٥٦٩ / ١٥٦١ م) - أتتوا حصار البريجة (الجديدة) من البرتغال فحاصرها ٦٤ يوماً لكن اضطروا المسلمون رغم ما أبدوه من بسالة لفك الحصار (٤) .

(١) اليفراني ، أبو عبد الله محمد الصغير : نزعة الهادي في أخبار ملوك القرن الهادي مطبوع على الحجر بفاس - دون تاريخ وهناك طبعة له أخرى بباريس مع ترجمة فرنسية - لهوداس سنة ١٨٨٨) .

وانظر قصة هذه المؤامرة كما يرويها صاحب تاريخ ، الدولة السعدية ص ٢٧ - ٣٠ .
(٢) أستولى الأسباب بعد ذلك على حجز (بادس) أنظر الاستقصاء ص ٤٩ وانظر تقرير حاكم سبتة عن هذه المعركة في يونيو ١٥٥٧ .

Archivo General de Simancas—Estado Legazo 377 fol. 127

(٣) خطابات السلطان الغالب بالله لعبد الله بن أحمد قائد (أزور) وغيره من العمال المغاربة بالأقاليم (مؤرخ ١٧ جمادى الثاني ٩٦٥ - أبريل ١٥٥٦) .

Archivo General de Simancas—Estado—Legazo 484. fol. 3

(٤) أشرنا من قبل عند دراسة الأطماع البرتغالية في المغرب - إلى ما أوردته المصادر البرتغالية عن هذه المعركة - بنسب صاحب كتاب « تاريخ الدولة السعدية » للغالب بالله لأنه باع (بادس) لانساري ، وأسام لهم (البريجة) وتخاذل عن نصرته المسلمين بالأندلس - لكن لا يوجد ما يؤيد ذلك .

انظر الكتاب المذكور ص ٣٨ - ٤٠ .

ومن مشاريع الغالب بالله العمرانية تشييد جامع الاشراف بمراكش
والمارستان الكبير، وتجديد بناء مدرسة ابن يوسف (١).

هذا ونشير إلى أنه كانت للمغرب مع إنجلترا - وغيرها من الدول التجارية
علاقات، فقد كانت هذه الدول حريصة على تأمين تجارتها ورعاياها في
الثغور المغربية وإن كانت هذه العلاقات في الحقيقة وصلت لأقصى حد من
الإزدهار في عهد أحمد المنصور الذهبي بعد الإلتصار المغربي الخامس في معركة
وادي المخازن كما سنفصل بعد (٢).

وتوفي الغالب بالله في عام (٩٨١ هـ - ١٥٧٤ م) فبويج لابنه السلطان
أبو عبد الله المتوكل على الله، لكن لم تدم مدة حكمه طويلا، فقد نجح عمه
أبو مروان عبد الملك - المعتصم بالله - بمعاونة الأتراك في أن ينتزع منه
الحكم في عام (٩٨٣ هـ - ١٥٧٦ م) .

والظروف التي انتقل فيها الحكم من المتوكل إلى عمه أبي مروان عبد الملك
لها أهميتها فيما يتعلق بتاريخ المغرب الأقصى وعلاقاته سواء مع الأتراك العثمانيين
أو مع المستعمرين البرتغال والاسبان، فقد لجأ عبد الملك، وأخوه أحمد إلى
تلبسان، حيث أقاما عند واليها حسن بن خير الدين خشية بطش أبي عبد الله
المتوكل بهما، فقد عرف عنه ميله إلى سفك الدماء، وكان على صلة بأتباعها بالمغرب

(١) تنسب بعض المراجع إلى السلطان الغالب بناء هذه المدرسة بمحوار جامع ابن يوسف
الامتوني - وهذا ليس بصحيح فالمدرسة سابقة لعهد، أنشأها السلطان (أبو الحسن
المريفي) وقد أشار إليها ابن بطوطة في رحلته .

أنظر اليراني - المرجع السابق، والاصتقاء - ص ٣٩ .

(٢) أنظر خطاب عيادته الغالب إلى الملكة اليزابت للزوخ أول مجادى الأول
٩٧٧ هـ - أكتوبر ١٥٦٩ بالأورشيف البريطانية :

British Museum - Cotton Mss, Nero B. VII. F. 67

وأنظر الجبل، شوقي : العلاقات الإنجليزية المغربية خلال النصف الثاني من القرن
السادس عشر والأول من القرن السابع عشر (محله المناهل المغربية - العدد الثالث) .

الناقمين على المتوكل سلوكه ليهيئوا لهم الجو المناسب . وقصد أبو مروان .
وأحمد المنصور بعد ذلك الجزائر ، ومنها توجهوا إلى القسطنطينية للاستنجاد
بالسلطان سليم العثماني ليعينها على الإستحواذ على السلطة بالمغرب^(١) . وفي سنة ٩٨٣ هـ
سار عبد الملك وأخوه أحمد المنصور حتى أحواز فاس والتقى بجيش ابن
أخيهم (محمد المتوكل) وانتصرا عليه ولذا المتوكل بالفرار ملتجئاً إلى جبل
(درن) . وكان دخول أبو مروان عبد الملك فاس في السابع من ذي الحجة
سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة (٣١ مارس سنة ١٥٧٦ م) وبايعه أهلها وأجزل
للجيش التركي العطاء ثم صرف الأتراك مكرمين ، ثم دخل مراکش في عام
١٥٧٦/٩٨٤ هـ وبايعه أهلها أيضاً وبقي هو بمراكش بينما استخلف أخاه أحمد
على فاس وأعمالها .

أما عبد الله المتوكل فقد عاود الكرة على مراکش ، لكنه لم يتمكن من
اقتحام قصبتها ، وتكاثر عليه أتباع أبي مروان وأتباع أخيه أحمد الذي أسرع
من فاس لتجديده ، وانتهى الأمر بفرار المتوكل إلى (طنجة) ومنها قصد ملك الأسبان
فاستجده ضد عمه أبي مروان فلم ينجده فتوجه إلى بلاد البرتغال ليستنجد بملكها
دون سبستيان (D Sebastian) .

موقعة وادي للبخازن :

بعد أن خلصت البلاد لملوأي عبد الملك اتجه إلى تجديد القوة البحرية المغربية
لحماية الثغور وتمقب الأعداء وتفشيط الحركة التجارية - هذا بالإضافة إلى

(١) تمددت الروايات عن الأحداث المرتبطة بهذه النجدة التركية بعد ذلك صد المتوكل
والدور الذي لعبه عبد الملك وأخوه أحمد في فتح تونس ، فقد أشار اليفرائي في نزعة الحادي
إلى أن فتح تونس كان سنة ٩٨٢ هـ بعد وفاة السلطان الغالب ، وهذا يخالف الحقيقة إذ
أجمعت المراجع على أن ذلك الفتح تم قبل وفاة السلطان الغالب بأربعة وخمسة أشهر - أما
القول بأن عبد الملك وأخاه كانا أول من بشر السلطان العثماني بهذا النصر وأنه كافأهما على
ذلك بأن بعث لوالى الجزائر ليعتد بهما خمسة الآلاف من عساكر الترك تطاً معهما أرض
المغرب الأقصى فقد يكون صحيحاً .

ملاحظة :

ناقش الأستاذة صاء هذه الآراء المختلفة - أنظر ص ٦١ - ٦٤ وكذلك تاريخ
الدولة السعدية ص ٤٥ وما بعدها .

الإهتمام بتأسيس قوة عسكرية نظامية قائمة ، وقد اتبع النظام التركي في أساليبها ولباسها وسلاحها ومراتبها في القيادة وحقق ذلك في مدة قصيرة جداً^(١).

ويقول صاحب تاريخ الدولة السعدية « إن مولاي عبد الملك أمر بإنشاء السفن في (العرائش) ، و (سلا) وضيق على النصارى أشد تضيق وكان يصرف ما يغممه منهم على جيشه ، »^(٢).

في هذه الأثناء كان الملك دون سبستيان (D. Sebastian) ملك البرتغال الشاب — وقد كان سنه آنذاك لا يتجاوز أربعاً وعشرين عاماً — تداعب أحلامه فكرة متابعة الحرب في الشمال الأفريقي بهدف توجيه ضربة جديدة إلى الإسلام. وقد زار الملك (سبته) في عام ١٥٧٤ ليقف بنفسه على الأوضاع في الثغور المغربية^(٣).

وكان المتوكل على الله قد التجأ إلى دون سبستيان — كما ذكرنا — يستغيث به ويصور له الحالة في المغرب على غير حقيقتها مدعياً أن له أنصاراً كثيرين به، ويلتزم بإعطائه كل الشواطىء ويكتفى هو بدخول البلاد بعد أن يتحقق له الانتصار الموعوم. فكان هذا مشجعاً للملك دون سبستيان للقيام بالحملة الصليبية على شواطىء المغرب والتي طالما استحوذت على فكره^(٤). وقد حاول

(١) القاسى ، محمد القاسى : موقعة وادى المعازن الحاسمة ، مجلة البحث العلمى (التى يصدرها المركز الجامعى لاجت العلمى بالرباط) العدد التاسع — ديسمبر ١٩٦٦ م ص ٢٢٢ .

(٢) تاريخ الدولة السعدية — مؤلف مجهول ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٣) أنظر خطاب سبستيان إلى (D. Durate De Castelbranco) يحمل الأسباب التى تدعو للقيام بالعمليات العربية ضد المغرب (مؤرخ ١١ أبريل ١٥٧٦) .

British Museum—Additional Mss, 28360 f. 26

(٤) يورد الاستقصاء ردود العلماء ، ورسائل أعيان المغرب المتوكل حين بحث لهم ببر ارتكابه في احضان المستعمرين بشكك عمه ومن معه لبيعتة ونقضها من غير موجب شرعى .

الملك البرتغالي إغراء خاله (فيليب الثاني) ملك أسبانيا للمشاركة في هذه المغامرة دون جدوى، وإن كان قد وعد بإعاقته بسبعة آلاف جندي من الأسبان والإيطاليين ومن القاتكان والألمان دون أن تشارك أسبانيا رسمياً في هذه الحرب^(١).

وحين بلغت مولاي عبد الملك أخبار استعدادات الملك البرتغالي لهذه المعركة — أرسل له يثنيه عن هذه المغامرة ويبصره بمواقبها ويدعوه لتحكيم العقل وعدم الإنصياح لآراء المتهورين من رجال حاشيته، وفي نفس الوقت كان أحمد المنصور يعي الجيش المغربي ويعد العدة الكافية من رجال وعتاد. ووجد الحاكم المغربي في هذه الآونة الحاسمة معاونة كاملة من أتباع الحركة الدينية الجزولية ورئيسها في ذلك الوقت (ابن المحاسن يوسف الفاسي)، فقد تطوع عدة آلاف منهم للدفاع عن البلاد، فتجمع تحت راية أبي مروان عبد الملك نحو ١٠.٠٠٠ من المقاتلين من بينهم ٣.٠٠٠ من الفرسان، بينما قدر عدد الجنود البرتغاليين بـ ١٢.٥٠٠؛ كما اشترك في المعركة عدد كبير من السفن الحربية^(٢).

(١) British Museum—Additional Mss. 28359 F. 311
(٢) اختلفت للراجع اختلافاً يبنياً في عدد جنود كل من الفريقين. وقد أورد الاستقصاء ٥٠ ص ٦٩ الأقوال المتواترة عن أعداد جنود الفريقين.
— وقد قدر صاحب تاريخ الدولة السعدية عدد المسلمين بستة وثلاثين ألفاً والنصارى بعضهم أو أكثر ٦٢ ص.
— وأنظر تقارير المراسلين الأجانب عن الاستعدادات البرتغالية وبياناتهم عن هذه الحملة:

Public Record Office; State Papers. Foreign House Towns vol. 1. No. 44.
Public Record Office; State Papers. Foreign Portugal Vol. 1. No 11 & 11a. Copie Contemporaine.
(١٢ م — المغرب)

خرجت السفن البرتغالية من لشبونة في ٢٤ يولية سنة ١٥٧٨ ، ووصلت قانس في ٢٩ من هذا الشهر ، ومنها أبحرت إلى طنجة فوصلتها في ٨ يولية من هذا العام ، واتجه البرتغاليون إلى أصيلا وكانوا قد وضعوا أيديهم عليها بمعاونة المتوكل على الله . وبقي الجيش البرتغالي فترة في أصيلا — أتاح فرصة للجيش المغربي ليكمل استعداداته ، فقد أضاع سبستان الوقت في المناقشة في الطريق الذي تسلكه الحملة : هل تحتل العرائش ثم القصر الكبير كما أشار بذلك رجاله وحليفه الخائن لبلاده المتوكل على الله ، أم تتخذ طريق البر ؟ وأخيراً استقر رأى الملك على أن تكون المعركة برية ، وترجع بعض المراجع ذلك إلى رغبة الملك في استعراض فروسته وبطولته . ونجح مولاي عبد الملك في أن يستدرج الجيش الغازي إلى منطقة ناحية القصر الكبير في مكان تكثر به الأنهار حيث ينصب وادي لوكس في العرائش ويتصل به من الضفة اليمنى (وادي ريسانه) و (وادي المخازن) وهذا الأخير يده من الضفة اليسرى (وادي وارور) .

وتابع جيش سبستان سيره حتى وصل إلى الضفة اليسرى لوادي المخازن وعسكر في مثلث تتكون زاويته الغربية من التقاء نهري (وارور) و (وادي المخازن) . ووصل الجيش المغربي قبالة الجيش الغازي في هذا المكان حيث وقعت الواقعة الحاسمة بين الجيشين في متم جمادى الثانية ٩٨٦ هـ (٤ أغسطس سنة ١٥٧٨) .

وفي الليلة السابقة للمعركة أمر مولاي عبد الملك أخاه المنصور بنفسه قنطرة وادي المخازن تنفيذاً للخطة التي رسم لها — وكان الجيش البرتغالي قد انتظم على شكل مربع في مقدمته البرتغاليين ، وفي اليمين الألمان وفي اليسار المتطوعين الأسبان والطلليان ، وفي الجناحين الخيالة وأنصار المتوكل على الله ، وتقدر المراجع عددهم ما بين ٣٠٠ ، ٦٠٠ . أما الجيش المغربي فقد رتب على شكل هلال كان في وسطه مولاي عبد الملك وهو على محفة المن الأرض

كان قد أقعده عن السير ، وكانت الخياله في الجناحين^(١) .
وحمي وطيس المعركة ، وبعد معارك طاحنة وكروفر من الجانبين انتهت
المعركة بالإنهزام التام للجيش الغازي وفراره أمام الجيش المغربي المدافع عن
بلادهم ، ووجدوا جسر الوادي متهدما فلم يبق أمامهم إلا الاستسلام أو الموت
فكانوا بين مقتسلم وغريق^(٢) .

وكان من بين قتلى المعركة وغرقاهم (دون سبستيان) والمتوكل .
وقد حدث والمعركة في أشدها أن توى (أبو مروان عبد الملك)^(٣)
لكن كتم خليفته — أحمد المنصور ، وحاجبه (رضوان العليج) خبر وفاته

(١) أنظر محمد العاصي : البحث المشار إليه سابقاً ص ٢٢٤ — ٢٢٧ .
— أنظر الرسم التفصيلي للمعركة الذي عمله :

(Fray Luis — 1579)

— وكذلك تأريخ الدولة السعدية . مرجع سابق ص ٦١ وما بعدها .
(٢) هناك عدة تقارير عن الأمر كه بالارشيف البريطاني منها :

—British Museum—Additional Mss. 28262—F. 285.

وهو عبارة عن تقرير من فوق مدينة سودانيا مؤرخ (١٣ أغسطس ١٥٧٨)

—Public Record Office—State Papers; Foreign Royal Letters
Vol.II no. 77.

وهو تقرير من طيب يهودي بالمغرب مؤرخ (١٦ أغسطس ١٥٧٨) .

—Hatfield House Mss. Vol. XI. f. 46.

وهو تقرير من طيب برتغالي في الجزائر يدعى (Don Hector Hunz)

مؤرخ (١٦ أغسطس ١٥٧٨)

— ومن التقارير الواقعية عن المعركة :

(١) تقرير السكاين كبريت (D. Cabrette)

المؤرخ ١٨ نوفمبر ١٥٧٨ موجود في :

—British Museum—Additional Mss. 2836. ff. 74 & 75

(ب) British Museum; Harkiam Mss. 7035 f. 317

(ج) British Museum, Cotton Mss Vesparian C XIII f-f. 240-241

(د) مذكرات بعض الكتاب الإنجليز الذين كانوا في جيش سبستيان وأسروا وفك

أسرهم مثل (M. Christopher Ly)

(٣) هناك خلاف عن سبب وفاة أبي مروان عبد الملك — ومما قيل في ذلك إنه مات بسبب سم

دسه له قائد الترك في جيشه في كمين تناوله أنظر : الاستقصاء ج ٥ ص ٨٦ .

حتى لا يؤثر ذلك على نفسية الجيش الغربي .
وقد يبيع أبو العباس أحمد بالخلافة بعد أبي مروان عبد الملك — ولقب
بعد هذه المعركة (بالمنصور) ، أما المتوكل فقد أخذت جثته وسلخت وملئت
تبناً ، وأمر الملك أحمد المنصور بأن يطاف بها في المدن والقرى ليكون عبرة
ولقب من ذلك الوقت (بالسلوخ)^(١) . وهكذا مات في هذه المعركة ثلاثة ملوك
هم (أبو مروان بن الشيخ ، ومحمد بن عبد الله السلوخ ، ودون سبستيان) ولذا
تطلق بعض المراجع على هذه المعركة أحياناً (معركة الملوك الثلاثة) .

وهناك خلاف كبير فيما تذكره المراجع عن عدد القتلى من الفريقين ، لكن
أسرى البرتغال وصل عدداً ضخماً قدر بنحو أربعة عشر ألفاً اقتدوا بمبلغ ضخم
من الذهب حتى أن بعض المؤرخين يرجع لهذا السبب في تلقيب المنصور
(بالذهبي) إذ كان ما حصل عليه من الذهب من البرتغال — في تقدير بعض المراجع
أكثر مما جليه من السودان بعد فتحه . أما جثته سبستيان فقد أرجعها المنصور
إلى البرتغال ورفض أن يقبض المال مقابل ذلك^(٢) .
أما نتائج موقعه وادى المخازن فيمكن إجمالها فيما يلي :

أولاً : بالنسبة للمغرب :

- ١ — أعاد انتصار الشعب المغربي — ثقته بنفسه وبقدرته على القضاء
على المطامع الإستعمارية والمخططات التوسعية التي تعرضت لها بلاده منذ استولى
البرتغال على سبته في عام ١٤١٥ م .
- ٢ — أتاح هذا النصر فرصة الاستقرار والإزدهار للمغرب والتفرغ
للبناء والتعمير .
- ٣ — ومن الناحية الاقتصادية تدفقت على المغرب الأموال البرتغالية التي
دفعت لاقتداء الأسرى العديدين — كما ازدهرت تجارة المغرب وتسابقت الدول
الأوربية على ذلك^(٣) .

(١) تاريخ الدولة السعدية — مؤلف مجهول ص ٦٦ .

(٢) أنظر خطاب (Jacques Rossel) إلى Walsingham
State papers. Foreign Holland and Flanders Vol. XII No 6.
(٣) سنشير لهذه النقطة بالتفصيل فيما بعد عند الحديث عن عهد أحمد المنصور الذهبي
وعلاقاته بالدول الأوروبية .

٤ — وقد ترتب على الإستقرار ، والاعتزاز بالنصر أن ازدهرت الحركة الفكرية والأدبية فبرز كتاب وشعراء وأدباء من أمثال (عبد العزيز الفشتالى)^(١) و (المقرئ)^(٢) و (ابن القاضى)^(٣) وغيرهم .

٥ — دعم هذا النصر نفوذ السعديين في المغرب وفرض احترامهم على الجميع سواء في العالم الإسلامى أو في أوروبا — فأصبحت للمغرب شخصية بارزة ممتازة في العالم كله . وقد كان أول ما قام به السلطان أحمد المنصور إثر بيعته أن كتب للملك الاسلام يندبهم بهذا الفتح المبين والانتصار العظيم ، وتقاطرت الوفود من كل الجهات تحمل الهدايا وتقدم التهانى للمنصور ، ومن بينها هدية السلطان مراد العثمانى وكانت عبارة عن (سيف محلى) ، ولا شك في أن هذا النصر جعل الأتراك العثمانيين يعدلون عن محاولاتهم المتعددة لغزو المغرب أو على الأقل يترددون في أن يقوموا بمثل هذا العمل ، وقد بقى المغرب الأقصى الرقعة العربية الوحيدة التى لم تبطل بالنهوض العثمانى . كما ازدهرت عاصمة المنصور بوفود الدول الأوروبية ومنها وفد من ملك الأسبان ، وملك فرنسا ،

(١) هو أبو فارس عبد العزيز الفشتالى ، بدأ حياته ككاتب في ديوان إسماعيل المنصور ، وقد أصبح (وزير القلم الأعلا) كما يقول ابن القاضى — وقد قام بتدوين أخبار الدولة السعدية منذ نشأتها في مطلع القرن السادس عشر وسماه « مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء » — وهو في عدة مجلدات وقد نشر الاستاذ عبد الله ككون — ملخصاً لمناهل الصفا ونشرته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، اعتمداً على النسخة المخطوطة في خزانة القصر الملكى بالرباط تحت رقم ٢٧٤ بعد أن حققه د . عبد الكريم كريمة .

(٢) أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ التلمسانى :

صاحب كتاب « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب » وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب « فرغ منه ١٦٢٨ م بالقاهرة ، وطبع في أربعة أجزاء — يولاي ١٨٦٢م — ١٥٣٨ هـ

(٣) أبو العباس أحمد بن محمد ابن القاضى : درة الحجال في إسماء الرجال . (نسخة خطية — بالخزانة البدراوية بهاس — طبعت في جزئين بفاس) ١٩٢٦ ، لكنها طبعة كريمة ؛ التصريف

وسفراء إنجلترا — يتسابق الكل في إرضائه ، بل أرسل حاكم البرتغال الجديد إلى المغرب وفداً إلى فاس بهدية فاخرة لكسب ود الملك المغربي^(١).

ثانياً : بالنسبة للبرتغال والدول الأوروبية الأخرى :

كانت هذه الحقبة الساحقة كارثة تاريخية بالنسبة للبرتغال فلم تفقد البرتغال جيشها وملكها فحسب - بل بعد ذلك بقليل - فقدت استقلالها ، فقد أدى إنقراض أسرة سبستيان وعدم وجود وريث للعرش البرتغالي لضم البرتغال إلى التاج الأسباني ، وهكذا انتقلت إلى يد فيليب الثاني بضربة من ضربات الحظ — كما يقول هربرت فيشر — الممتلكات البرتغالية كلها ومنها (سبته) التي وقعت من ذلك العهد تحت النفوذ الأسباني^(٢).

وقد ترتب على ذلك أن أفقر الشعب البرتغالي ، ودخلت البرتغال في طور من أطوار التدهور -

وقد تعرضت البرتغال لصراع طويل من أجل العرش ، فقد طالب الأمير دون انطونيو (D. Antonio) بعرش البرتغال^(٣) وأدى ذلك لصراع بينه

(١) هناك قوائم بالهدايا المرسلة للسلطان المغربي من ملكة أسبانيا ، والكاردينال الحاكم (بعد سبستيان) في البرتغال ، والامطان العثماني^٢، وملك إنجلترا — أنظر :

— Public Record Office, State Papers, Foreign Barbary states
Vol XII.

— British Mus. Cotton Mss. 1 Nero B.I 230

— Ibid f. : 239.

(٢) فيشر ، هربرت : أصول التاريخ الأوربي الحديث ترجمة د. زينب عصمت راشد ، د. أحمد عبد الرحيم مصطفى — مراجعة د. أحمد عزت عبد الكريم (١٩٧٠) ص ٢٢٧٠، ٢٢٨.

(٣) وهو من أسرة الملك عما نوثيل ملك البرتغال ، وقد أسرى معركة القصر الكبير ، وفك أسره بعد ذلك ، ووصل البرتغال بعد موت إعمه (Roi Cardinal Henez) الذي أصبح قائماً بأعمال الملك بعد سبستيان .

وبين فيليب الثاني ملك أسبانيا ، ولقى الأمير البرتغالي تأييد الملكة اليزابيث ،
والسلطان المغربي أحمد المنصور ، وجرت بين الملكة والسلطان المنصور
خطابات متعددة بشأن مساعدة هذا الأمير للرجوع لعرش البرتغال ، ولم يكن
بالطبع الهدف مساعدته للرجوع لعرش أبائه لكن الأمر يرجع للصراع الدولي
في ذلك الوقت (١).

والحقيقة إن معركة وادي المخازن انسحبت آثارها على العلاقات الدولية
الأوربية بشكل أكثر مما هو متوقع من معركة محلية ، فقد تغيرت نظرة الدول
الأوربية كلها للمغرب بل جعلت هذه المعركة — الدول الأوربية التي كانت
تدفع إلى للإشتراك في الحملات الصليبية دون وعى — إلى أن تتردد قبل أن
تقدم على مثل هذه الأعمال العشوائية — ولذا فقد فتحت هذه المعركة صفحة

(١) انظر :

- أ — خطاب مولاي المنصور إلى د. أنطونيو (٢٩ مارس ١٥٨٨) .
British Museum. Burney Mss. 367. ff. 198—199
 - ب — خطاب مولاي المنصور إلى الملكة اليزابيث (إبريل ١٥٨٨) .
Public Record office—State papers—Foreign Royal letters Vol.
11. No. 16.
 - ج — خطاب مولاي المنصور إلى الملكة اليزابيث (٢ فبراير ١٥٨٩) .
Public Record office—State papers—Foreign Portugal Vol. 11
 - د — خطاب المنصور إلى الملكة اليزابيث (٢٣ يونيو ١٥٩٠) .
Public Record Office—State papers—Royal Letters Vol. 11
No. 21.
 - هـ — خطاب مولاي المنصور إلى الملكة اليزابيث (٢٠ أغسطس ١٥٩٠) :
Public Record office—State Papers—Letters Vol. 11 No. 18.
- والدولف بحث كامل عن العلاقات الإنجليزية المغربية في القرنين السادس عشر والسابع
عشر تناول فيه هذا الموضوع بالتفصيل .
أنظر : مجلة المناهل المغربية العدد الثالث (يونيو ١٩٧٥) .

جديدة من العلاقات بين المغرب وأوروبا ، بل بين العالم المسيحي
والعالم الإسلامى^(١) .

العلاقات المغربية العثمانية فى عصر المنصور :

كان الجو بين المغرب وتركيا قد تحسن ، إذ أن السلطان أحمد المنصور لم
يفس للسultan مراد العثمانى مجده له ولاخيه أبى مروان عبد الملك ضد
المتوكل على الله .

ولذا فلم يفس المنصور لثرى بيعته بوادى المخازن أن يكتب للسultan للعثمانى
بما أحرزه من نصر على جيوش البرتغال ، وقد وفدت له رسل السلطان مراد
العثمانى ومعهم الهدايا للتهنئة كما ذكرنا .

لكن لم يلبث أن توترت العلاقات بين الدولتين . ويورد صاحب
الاستقصا قصة يرجع إليها سبب هذا التوتر^(٢) فيذكر أنه حين ورد الوفد العثمانى
بالهدية إلى السلطان المنصور استقبلها وأنف منها — فتشاغل عن الوفد
وتركهم مهملين بحضرته وتأخر عن جواب السلطان مراد — فكان ذلك
سبباً للتوتر .

ووجد بعض المغرضين من أصحاب المصالح الخاصة فى ذلك فرصة لإيقار
قلب السلطان مراد العثمانى فزينوا له فتح المغرب ومنازلة السلطان أحمد المنصور
وقالوا له : قد ضاع صنيعك فى هذا الغادر وضيع والدك من قبلك ، وكان فى
مقدمة هؤلاء المتآمريين وزير البحر (علوج) فساعد السلطان مراد فى إعداد
الأسطول التركى ليبحر إلى الجزائر ومنها يمكن الهجوم على المغرب .

(١) أنظر البحث الذى نشره المؤلف عن « العلاقات الانجليزية المغربية فى النصف
الثانى من القرن السادس عشر والأول من القرن السابع عشر فى مجلة المناهل المغربية العدد
الثالث يونيه ١٩٧٥ . السابق الإشارة إليه .

(٢) الاستقصاء — طبعة دار الكتاب (الدار البيضاء ١٩٥٥) — ص ٩٥ وما بعدها .

وحين وصل الخبر إلى المنصور شحن الثغور وجهز الموانئ للدفاع، وحصن الحدود بين المغرب والجزائر وأعد للدفاع عدته . وإلى جانب هذا التدبير العسكري في الثغور لجأ المنصور للمصالحة فبعث وفداً مؤلفاً من القائد (أحمد بن وده العمراني) والسكراتب (أبي العباس أحمد بن يحيى الهوزاني) ومعهما هديه عظيمة للسلطان مراد العثماني ، وقد التقى الوفد بالوزير (علوج) الذي حاول أن يعترضهم ويقنعهم بالرجوع — لكن رفض السكراتب (أحمد بن يحيى الهوزاني) العودة ، وتابع السير إلى القسطنطينية ، وبعد محادثات طويلة أظهر فيها الهوزاني من المهارة والدهاء ما أزال كل مادسه الدسائس — صفاء الحو بين الدولتين وعاد الهوزاني مصحوباً بوفد السلطان مراد العثماني إلى السلطان أحمد المنصور ، فقابلهم المنصور بالإكرام ورجعوا لبلادهم مصحوبين أيضاً بوفد من المغرب . . . ومن ثم صارت العلاقات بين الدولتين على أتم ما يكون من الصفاء والود — حتى أن السلطان مراد بن سليم كتب إلى المنصور بقوله له :

« لك على العهد أن لا أمد يدي إليك إلا للصافحة ، وأن خاطري لا ينوي لك إلا الخير والمساحة ، » (١) .

استيلاء المنصور على بلاد السودان (تيكوارين ، وبرنو ، وملكة كاغو) :

بعد أن أمن المنصور من ناحية الترك وجه أنظاره نحو بلاد السودان فبعث إليهم القائد (أبا عبد الله محمد بركه) والقائد (أبا العباس أحمد بن الحداد العمري) في جيش كثيف فاستوليا على تيكوارين ، وتوات سنة ٩٩٠ هـ . وأثر ذلك أرسل صاحب مملكة (برنو) إلى السلطان المنصور هدية وطلب أن يمدّه بالمساعدة العسكرية ضد إمارة (كاغو) ، كما قبل الدخول تحت طاعته والاعتراف ببيعته — وقد ذكر كاتب الدولة في ذلك الوقت — أبو فارس عبد العزيز الفشتالي نص هذه البيعة (٢) .

(١) الاستقصاء — مرجع سابق - ص ٥٠ - ٩٧ .

(٢) أنظر الفشتالي : مناهل الصفا في آثار موالينا الشرفاء (تحقيق د . عبد الكريم كرم — مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية بالرباط) ص ٦٩ .

هذا ويبدو أن المنصور حاول أن يستخدم سياسة الترغيب هذه مع كافة ملوك السودان ليدخلوا في طاعته سلماً ، فبعث رسولا إلى السلطان (اسحاق سكية بن داود) رئيس مملكة كاغو - لكن لم تلق الرسالة قبولا حسناً من صاحب مملكة كاغو - فاتجه عزم المنصور على توجيه عساكره إلى السودان^(١).

وحين عزم المنصور على غزو السودان - لم يرد أن يتحمل وحده مسؤولية مثل هذا القرار الخطير - فقد كان يقدر ماستحمله الجيش المغربي في مثل هذه البلاد التي تفصلها عن المغرب مسافات طوال وصحارى شاسعة وفيافي وقفار حيث لا ماء ولا كالأ ، لجمع (مجلسه الإستشارى) من قادة الرأى في دولته وأبلغه عزمه على غزو بلاد السودان ، وشرح لهم رأيه في ذلك - وقد دار نقاش طريل في هذا المجلس عرض فيه الحاضرون وجهات نظرهم ، وكانت تتلخص في أن الجيش المغربي سيتكبد في هذا العمل مشاقاً في الحل والترحال في هذه الصحارى الجرداء ، وأن دولة المرابطين على ضفافها ، ودولة الموحدين على عظمتها ، ودولة المرينيين على قوتها لم تطمع واحدة منها في القيام بهذا العمل لما يكتنفه من مخاطر ، لكن همة المنصور لم تفتر فدافع أمام المجلس عن وجهة نظره دفاع الواثق من نفسه المؤمن بنجاح خطته والمتأكد من النصر ، فما كان من المجلس إلا أن أقره على رأيه وقانونوا له وقد ألهمت الصواب... ولم تبق لأحد ما يقول فصدق من قال عقول الملوك ملوك العقول ،^(٢).

وإثر قرار المجلس - أمر المنصور بتجهيز الجيش وإعداد معدات الحرب

(١) أنظروا الرسالة ن : ماهر الصما - مرجع سابق ص ١٢٣ (كلف بكتابة هذه الرسالة مفتى مراکش - المولى أبى مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلسى ، لكنه تعذر في كتابة صدر الرسالة هل يمدح فيها اسحق سكية أم لا ؟ وهل يتوفى والمدح أم يتوسط - فكتب للمنصور معتذرا عن ذلك وذكر لأنه لا يأمن أن يتم في إفريط أو إفراط ولذا قد كتب صدر الرسالة كاتب الإنشاء أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالى (الذى كان في ذلك الوقت مريضاً) .

أنظر الاستقصاء ج ٥ ص ١١١ .

(٢) الاستقصاء ج ٥ ص ١١٤ .

للقيام بهذه المهمة الخطيرة . وقد استغرق إعداد هذه الحملة العظيمة ما يقرب من ثلاث سنين . وقد فرض على كل قبيلة من القبائل حصّة معينة تلتزم بتقديمها من المقاتلين والإبل والخيول والبغال . وفي اليوم السادس عشر من ذى الحجة عام ٩٩٨ هـ استعرض المنصور هذا الجيش العظيم في (واد تانسيفت) من ناحية مراکش .

وفي فاتح محرم سنة ٩٩٩ هـ تحرك الجيش المغربي بقيادة الباشا (جوذر) ومعه جماعة من أعيان الدولة - لإخضاع بلاد السودان - وبلغ هذا الجيش عشرين ألفاً بالإضافة إلى ألفين من البحرية والطبجية فيكون المجموع اثنين وعشرين ألفاً^(١) .

وكتب المنصور إلى (عمر بن محمود بن عمر) قاضي تنبكتو يأمره بحض الناس على الطاعة له^(٢) .

ووصل الجيش المغربي إلى مدينة (تنبكتو) بعد اختراق الفيافي والقفار ، وبعد أن استراح الجنود بها أيام - قصدوا دار أسحق سكيه وكان قد سمع بقدومهم فخرج من مدينة (كاغو) مع من أحشد معه من أمم السودان وقبائلها من اللثميين وغيرهم ، بل أضاف إليهم - كما يقول الفشتالي - أشياخ السحرة ، وأرباب العوائم - وكان سلاحهم الرماح والسيوف ، بينما كان الجيش المغربي يستخدم المدافع والبارود - وأتت المعركة بانهزام السودان فولوا الإِدبار ، وطلب أسحق من جوذر باشا الصلح على مال معين يدفعه فوراً على أن يؤدي ضريبة سنوية فأجابه القائد المغربي إلى ذلك ورجع الجيش المغربي إلى تنبكتو للإقامة هناك حتى يأتيه رد المنصور ، خاصة أن عساكره كانت قد أصابتها الحمى نتيجة وخامة الجو ، فلما بلغ المنصور خبر الصلح بعث مملوكه الآخر (محمود باشا) وهو أخو (جوذر) بقوة جديدة وقاده أمر العساكر كلها وكتب إلى أمراء

(١) الاستقصاء - ج ٥ ص ١٢١ .

(٢) الفشتالي - مرجع سابق ص ١٣٩ (نص رسالة المنصور إلى قاضي تنبكتو) .

عسكره يؤمنهم على عدم الإستمرار فى قتال (أسحق سكيه) . وألقت جنود محمود بجيوش أسحق سكيه وألقت بها هزيمة ساحقة ، ودخل الجيش المغربى مدينة كاغر وترك محمود أخاه ليقم فى كاغر مع عدد من عساكره - ولحق هو وبقية جنده بأسحق وبقية أتباعه وألحق بهم هزيمة أخرى وأتتهى أمر أسحق سكيه بهلاكه فى القفر ، وتتبع محمود أخا أسحق - الذى خلفه - وهزمه فتمهدت له البلاد وأستولى عليها أستلاء كلياً .

وكتب بخير الفتح والإنتصار إلى المنصور - الذى أحتفل بهذا الإنتصار العظيم فجعل (يوم النصر) عيداً من أعياد الأمة المغربية - أخرجت فيه الصدقات وأعنت الرقاب ، وأقيمت المهرجانات العظيمة وزينت الأسواق بالعاصمة المغربية وأطلقت المدافع ، وأرسل المنصور رسائل بأخبار هذا النصر إلى جميع الآفاق ، ونظم الشعراء القصائد بهذا النصر ومنها قصيدة للفشتالى نفسه جاء فيها^(١) :

جيش الصباح على الدجى متهق
فياض ذا لسواد ذاك ممحق
وكان رايات عسكرك التى طلعت
على السودان بضياً تخفق
لاحت وافتهم ليال كلها كمود
صبح فى الدجى يتألق
نشرت لتطوى منه ليلاً دامساً
أضفى بسيفك ذى القفار يمزق
أرسلتهن جوانصاً وجوارحاً
فى كل منقلبها غراب ينمق

(١) المشتال - مرجع سابق ص ١٣٩ .

وسرت وكان دليلهن إليهم
مشحوذ عزمك والسنان الأزرق
ولمى اللبالي قد جلا أحلاكها
نور البنوءة بين جبينك يشرق
ضعفت بهن وعود نارك صمقة
رجت لصيحتها العراق وجلق
سحقا لاسحق الغبي وحزبه
فلقد غدا بالسيف وهو مطوق
رام النجاة وكيف ذاك وخلفه
من جيش جؤذرك الغضنفر فيلق

وهكذا أصبحت كلمة المنصور نافذة فيما بين بلاد النوبة والبحر المحيط
وأصبح يحمل إليه من التبر ما يحبر الناظرين - ولهذا لقب (بالذهبي) لفيضان
الذهب في أيامه - كما يقول صاحب الاستقصاء (١).

الجيش في عهد المنصور :

أهتم المنصور بتنظيم الجيش المغربي وإعداده أحسن اعداد ليقوم بالمهام
الخطيرة التي كان ينتظرها منه ، وقد ألب في ذلك بين الانظمة والعوائد التي
كانت معروفة عند العرب ، وتلك التي اشتهر بها الترك والعجم .

وقد أصطفى من العجم والترك بعض الموالى رباهم وشملهم باحسانه
فأخلصوا في خدمته، اشتهر منهم (مصطفى باي) قائد الاصباحية وهم الذي عهد إليهم

(١) الاستقصاء : ج ٥ ص ١٢٥ .

— وتاريخ الدولة السعيدية ص ٦٤ وما بعدها

حراسة السلطان ، و (الباشا محمود) وهو صاحب خزائن الدار وكانت بيده مفاتيح بيوت الأموال ، والقائد (علوج) قائد جيش العلوج و (الباشا جوذر) فاتح السودان وهو قائد جيش الاندلس ومنهم قائد جيش السوس .

وقد كان الجيش المغربي عموماً مقسماً إلى قسمين :

١ — الحرس الملكي - ومهمته السهر على سلامة السلطان ومرافقته في حله وترحاله .

٢ — الجيش المحارب - وهو الذي يعهد إليه بمهمة القتال ^(١) .

ويلاحظ أن الدولة في عصر المنصور أصطبغت في كثير من النظم التي سادت في الجيش وفي الإدارة وغيرهما بالصبغة التركية ، فقد اقتبس المنصور الكثير من هذه النظم التي كانت سائدة في الدولة العثمانية وطبقها في دولته وأضاف إليها وعدل فيها - لكن ركز اهتمامه قبل كل شيء على سيادة النظام فقد كان صارماً في ذلك .

أعمال المنصور الإدارية والعمرانية :

تميز عصر المنصور بسيادة النظام والحزم وحسن الضبط فيما يختص بشؤون الدولة والرعية - يرجع ذلك للسياسة التي استنها في إدارة البلاد .

فقد وجه اهتمامه إلى الاطلاع على ما عليه أحوال رعيته وعماله ، وتفقد جهات مملكته من (داره) إلى أقصى المغرب ، بل وإلى أقصى السودان من مملكته كما يقول الفشتالي . وفله من رجاله على كل مرقبة رصد ، وعلى كل ثنية نقباء

(١) كان الجيش المحارب الذي أطلق عليه أسم (جيش النار) من فرق متعددة : فرقة السوس ، فرقة الشرق ، الاسباحية ، الاندلسيين - وكانت تتألف كل فرقة من هذه الفرق هي فصائل ، وكان لكل فرقة قائد ولباس خاص وشارات ، وكان السلطان يستعرض هذه الفرق في المناسبات المختلفة ويمطى الفشتالي وصفاً دقيقاً لنظام هذه الفرق .
أفضل الفشتالي : مرجع سابق ص ٢٠١ وما بعدها .

وى كل خلوة عيون ينقلون له ما يحدث من خبر أو قصة أو يدور على السنة الناس فلا يخلو له يوم من ورود وارد بخبر على بر أو بحر ، وكان عمال نفوره وولاة الاطراف من ممالكه وبلاده يجهدون أنفسهم لعلهم يحظون لديه بإنهاء الاخبار إليه وتطيرها لجنابه على أول مورد لها وانبعائها (١).

وقد اشتهر المنصور (ببحر القلوب) وجمعها مع الاخذ بالخير ومضاء العزيمة ، وقد بلغ به الحزم انه استن فى مخاطبة عماله فى الاقاليم طريقة تشبه طريقة (الشفرة) اليوم حتى إذا تلف الكتاب أو ضاع أو وقع فى يد عدو أمن غوائل الإطلاع على أسرار (٢).

وقد كان المنصور يقسم وينظم وقته تنظيمًا دقيقاً - فهناك أيام الديوان وهى التى يجلس فيها للجمهور والوفود - ليتناول أمور الدولة (خصص لذلك أيام السبت ، والاثنين ، والاربعاء) . فكان يخرج فى هذه الايام بمد الفراغ من وظيفته إلى إيوانه وقت الضحى غالباً فيؤذن للناس فى الدخول على طبقاتهم فيسمع منهم ويبدى رأى فيما يعرضون . . فإذا انصرف الناس - جلس (أهل الايوان) وأرباب المناصب وكاتب سره - فيناوله ماورد من الكتب من سائر الاقطار فتعلى الاجوبة على السكتبة ويسمع ما يرفعه أهل الديوان من مسائل ويستمر على ذلك حتى يؤم الناس فى الصلاة ، ثم يدخل إلى قصره ويتفرق الديوان .

وقد ينوب ولى عهده الامير (أبى عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله) فى بعض المهام ، أو ولده أبا فارس عند تغيب شقيقه .

وقد ساد العدل فى أيام المنصور . وقد ذكر الفشتالى إنه لم ير من ملوك العصر أعدل منه ، وما فى الأرض مملكة تسير على قوانين الشرع ومناهج السنة أحسن من مملكته ، ولا سلطان أعدل من سلطانه ، ولا وطن أكثر بأبنائه رحمة وأسلم اعتقاداً ، وأوضح مذهباً ، وامتن ديناً وأكثر لأصل الخير والصالح جمعاً ، وأبعد عن البدع والمناكر نزاهة واعتصاماً - أجمل من وطنه (٣) .

(١) الفتاوى ص ٢٠٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٨ .

(٣) نفس المرجع ص ١٩٧ .

ويدكر الفشتالى أن المنصور كان حريصاً على المحافظة على حدود الشريعة .
كان فى ذلك صلب العود ، قوى الشكيمة ، أشد الخلفاء انقياداً للشرع ،
منصفاً لصاحب الحق حتى من نفسه .

ويدكر أمثلة على ذلك تدل على حرصه الشديد على أن يأخذ العدل مجراه
بكل صرامة ودقة^(١) .

وترتب على ذلك - كما يقول صانجب كتاب تاريخ الدولة السعدية - أن
كثر البيع والشراء فى يامه - واستمرت الهدنة والعافية فى إوائه ،^(٢)

ومن أشهر مشاريع المنصور العمرانية بناء قصر البديع بمراكش وقد بدأ
فى تشيده سنة ٩٨٦ هـ واستمر العمل حتى عام ١٠٠٢ هـ أى استغرق ١٥
عاماً . ولما أراد المنصور أن يشرع فى البناء أحضر أهل العلم ومن يتسم
بالصلاح ليختاروا أنسب الأوقات للشرع فى البناء ، فكان إبتداء الشروع
فى تأسيسه فى شوال سنة ست وثمانين وتسعمائة ، وحشد له المنصور أمهر الصناع
من مختلف أنحاء العالم - فكان يجتمع كل يوم لهذا العمل من أرباب الصنائع
ومهرة الحكماء خلق عظيم حتى كان يقام لهم بيا به سوق عظيم يقصده التجار
بيضا ئعهم ، وجلب له الرخام من بلاد الروم ، فكان يشتريه منهم بالسكر الذى
أقام معاصره فى بلاد حاحه و (شوشاره) وغيرهما وزناً ، وزن ، وأما الجبس
والجير وباقى مستلزماته فإنها جمعت من كل جهات العالم ، وكان المنصور يجزل
العتاء للعاملين فى هذا المشروع ، ويقوم بمؤن أولادهم حتى تطمئن نفوسهم
وتهدأ أوسكارهم .

وقد شيد البناء على شكل مربع - وفى كل جهة منه قبة هائلة تحف بها
قباب أخرى ، وقد استخدم فيه من الرخام المخزوع ، والمرمر الأبيض والأسود
ما يحير الفكر ، ويدمى النظر ، وكل رخامة طلى رأسها بالذهب الذائب ،

(١) الفتالى ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢) تاريخ الدولة السعدية : مرجع سابق ص ٦٦ .

وفرشت أرضه بالرخام العجيب النحت الصافي البشرة ، هذا بالإضافة إلى الزليج المتفرع التلوين ، وأما سقوفه فتحسم فيها الذهب ، وطليت الجدران به مع بديع النقش ورائق الرقم بخالص الجص ، هذا وأجرى بين قبابه ماء غير أسن .

وقد نقشت على قبابه وعلى الخشب والزليج والجبس أبيات تبارى في لإنشائها مختلف الكتاب والأدباء المعاصرين من أمثال أبي فارس عبد العزيز الفشتالي وما قاله فيه :

كل قصر بعد البديع ندم
فيه طاب المعجنى وطاب المشم
منظر رائق وماء نيمر
وثرى عاطر وقصر أشم
إن مراكشاً به قد تباهت
مفخرأ فبى للعلا الدهر تسمو^(١)

ولما أكل المنصور البديع - صنع مهرجاناً عظيماً احتفالاً بإتمام هذا العمل العظيم . وقد ظل قصر البديع عامراً شامخاً مائة وسبع عشر سنة ، فقد خرب في عصر السلطان المولى اسماعيل عام ١١١٩ هـ ولم يبق - كما يقول صاحب الاستقصاء - بلد من بلاد المغرب إلا ودخله شئ ، من أنقاض البديع^(٢) على أن بقايا هذا القصر اليوم تدل على ما كان عليه من العظمة والضخامة .

ولم تقتصر جهود المنصور العمرانية على مراكش ، فقد أنشأ في عام ٥٩٩٠ هـ بفاس (برجين) كبيرين أحدهما خارج باب عجيسه والآخر قبالة باب الفتوح وهما لا يزالان إلى الآن ينطقان بعظمة المنصور ويعرفان عند العامة بإسم

(١) أنظر الفشتالي : مرجع سابق ص ٢٢٢ ، ٢٨٩ - ٣٠١ .

(٢) الاستقصاء ص ٥٠ ص ١٤٣

(المستيون) ، كذلك بنى حصنين بغير العرائش ، كما جدد بناء (سد واد فاس) الذى كان السيل قد هدمه سنة ١٠٠٩ هـ .

هذا ويصعب عصر أعماله الإصلاحية الأخرى التى قام بها فى أسفى وأزمور وأصيلا وسائر الأطراف والنفور، فقد إعتنى بتقوية وتعلية أسوارها بالإضافة إلى نظرية الحسمور - إلى غير ذلك من الأعمال العمرانية^(١) .

من أشهر المشاريع الاقتصادية فى عصر المنصور معاصر السكر التى أشرنا إلى إنشائها بمراكش ببلاد محاجة وشيشاوة وإلى وصل إنتاجها من الضخامة والشهرة - حتى أنها كانت تصدر السكر إلى إيطاليا وغيرها من البلاد الأوربية لبيادته بالرغام وغيره مما نتاجه من هذه البلاد .

هذا وقد عرف المنصور بتمجيده للفقهاء والعلماء الذين كان يحممهم فى جلسات للذاكرة بمراكش وفاس وفى بعض محركاته ، فكان الحديث يدور حول أمهات الكتب فى التفسير والنقح وعلم المنطق وغير ذلك من العلوم^(٢) .

هذا ويدكر المشتالى أن المنصور نفسه كان علماً فى سائر العلوم، وله منظومات وأشعار رائعة ويورد بعضاً من شعره الذى يذكر إنه بعد من السحر، ويقول إنه كان عالماً فى فنون الشعر المختلفة^(٣) .

هذه لمحة عن عصر المنصور وهو فى الحقيقة من أبرز عصور الدولة السعدية وأكثرها ازدهاراً - ولذا فقد كانت وفاته فى عام ١٠١٢ هـ - ١٦٠٤ م إباناً بإنهاء دور عظمة الدولة السعدية ونذيراً بظهور بوادى الإنحلال فى هذه الدولة ، وقد دفن أولاً بإزاء مقصورة الجامع الأعظم بفاس، ثم نقل إلى مدافن الأشراف السعديين بمراكش^(٤) .

(١) إلفشالى : مرجع سابق ص ٢٦٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٥ وما بعدها .

(٣) نفس المرجع ص ٢٩٤ .

(٤) الاستقصاء : ص ٥ من ١٨٦ ، ١٨٧ .

وكانت مدة حكمه سنة وعشرون سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يوماً (١).

طور الانقسام والضعف :

تمثل الفترة التي أعقبت وفاة السلطان أحمد المنصور فترة الضعف والانقسام في تاريخ الدولة السعدية بالمغرب، فقد أدى التناقص على الوصول للسلطة بين أفراد الأسرة السعدية إلى سلسلة من الحروب الدموية شملت الحكام وأضعفت الجبهة الداخلية وأضررت بإقتصاد البلاد، وشجعت الظالمين وأصحاب المصالح على الإقدام على اغتصاب المناطق والثغور الحيوية في البلاد.

فلما توفي المنصور اجتمع أهل الحل والعقد من أعيان فاس وكبرائها والجهور من جيش المنصور على بيته ولده زيدان، وكان عاملاً في إقليم (تادلا) في حياة أبيه وكتب أهل فاس لائل مراکش بمبايعتهم لزيدان. لكن أهل مراکش امتنعوا عن مبايعة زيدان، وبايعوا أخاه (أبا فارس)، على أساس أن المنصور كان قد عينه والياً على مراکش دار الملك، ولأن الخاصة من حاشية المنصور كانوا يميلون إلى أبي فارس — لأن زيدان كان بعيداً عنهم ولم يكن لهم به كبير صلة رغم مروءته وعلمه وأدبه.

ولما شق أهل مراکش عصا الطاعة على زيدان — أصدر فاضى فاس ومفتبها فتوى تتضمن التصريح بحديث (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما)، وهكذا بدأت سلسلة من الحروب والمعارك بين الأخوين (٢) خاضها معها أخوهما (المأمون) الذي كان سجيناً في مكناس، كما خاضها أيضاً ولدا المأمون (محمد

(١) تاريخ الدولة السعدية : ص ٧٨ .

(٢) من التقارير الهامة التي كتبها المعاصرون لهذه الأحداث تقرير (هنري روبرت) (Henry Robert) الذي كان قد أمضى ثلاث سنوات ونصف في المغرب كممثل للملكة اليزابت — أنظر :

— British Museum — Additional Mss 38139 f. 33

— Wilkins, George : Three Miseries of Barbary: Plague, Famine, civil wars; With a relation of the death of Mahamet the late Emperour and a brief report of the new present wars between the three brothers. (1604).

زعودة) و (عبد الله) وقد ذهبت هذه الحروب بكل ما كانت تتمتع به البلاد من نفوذ وصوله ، وفتح هذا الباب لهديد من الثورات والخلافات سواء بين أهل الدين والوطنيين الذين كانوا يرون ما عليه البلاد من فوضى فتأخذهم الغيرة ويشورون ، أو من الأدعياء والمشاعبين ، وكانت هذه الحروب بين أولاد المنصور وأحفاده حروباً طاحنة ليس فيها هوادة ، وقد دفع أهل البلاد — وخاصة أهل فاس ومراكش — هذه الخلافات فكان — كلما استولى أحدهم على إحدى المدن التي كانت بيد خصمه أعمل في رقاب أهلها السيف وتركها سلباً ونهباً ، فإذا خرج وجاء أخوه عمل مثل عمله ، وهكذا ظل الأخوة الثلاثة زيدان ، وأبو فارس والشيخ المأمون يتنازعون الملك مدة طويلة دون أن يستفسر الأمر لواحد منهم^(١).

وقد أدى هذا الصراع في النهاية إلى قتل (أبي فارس) عام ١١٠٨هـ - ١٦٠٩م على يد ابن أخيه عبد الله بن المأمون . واستقل هذا الأخير فترة بفاس ،

(١) أنظر الكتاب الذي كتبه كاتب مجهول تناول فيه فترة حكم أحد المنصور ثم الحروب التي تلت وفاته — بعنوان :

A true historicaal discourse of Muley Hamets rising

To the three kingdoms Marocos, Fes and Sus (London 1609). (British Museum; Printed Books, Press Mark 1046). P.24.

— كذلك ملاحظات وتقرير (Anthony Sherely) التي نشرت . م غيرها من الرحلات بعنوان :

The travels and adventures of sir Anthony, Sir Robert & sir. Thomas Sherely (Hakluyt : The principal Navigations. T. 111) p.p. 598—602.

كذلك تاريخ الدولة السعيدية الدرعية التاكاديرية : مرجع سابق ص ٧٨ وما بعدها وقد تناول الكاتب بتفصيل الأحداث التي تنامت والحروب المتتالية التي أعقبت وفاة السلطان أحمد المنصور الذهبي ، وما عاناه المواطنون خاصة في فاس ، ومراكش من جراء ذلك ، وما تبع ذلك من فوضى حتى أن الفلاحين كانوا يطالبون بالاعشار ويهددهم يطالبون بها مرة أخرى وهكذا حتى ترك الفلاحون الحراثه . . المرجع المذكور ص ٨٥ .

وكانت بينه وبين ابنه معارك حتى قتل الأب في عام ١٠٢٢هـ - ١٦١٣ م واستطاع زيدان أن يصبح صاحب الأمر في مراکش حتى مات عام ١٠٣٧هـ - ١٦٢٧ م وخلفه ابنه عبد الملك بن مروان إلى أن قتل في عام ١٠٤٠هـ - ١٦٣١ م ثم الوليد بن زيدان الذي قتل عام ١٠٤٥هـ / ١٦٣٦ م ، ثم محمد الشيخ بن زيدان إلى أن قتل عام ١٠٦٣هـ / ١٦٥٣ م ، ثم ابنه العباس أحد الذين قتل عام ١٠٦٩هـ / ١٦٥٨ . فأقرض بذلك أمر السعديين بالمغرب - واستبد عرب الشبان بالامر في مراکش إلى أن أنزع الامر من يدهم السلطان الرشيد العلوى عام ١٠٧٩هـ / ١٦٦٨ م .^(١)

وفي أثناء الخلافات التي حدثت بين أبناء المنصور فر الشيخ المأمون إلى العرائش واستطاع أن يمسك بدفة الأمور بها ، ومنها ركب البحر إلى إسبانيا واتفق مع الأسبان على أن يترك لهم العرائش في مقابل نصرته على أخوته ، ويسر للأسبان بذلك الاستيلاء على العرائش في عام ١٠١٩هـ - ١١٦١ م .^(٢)

وفد كان لسقوط العرائش في يد الأسبان رفة فرح كبيرة في إسبانيا فأقيمت الزينات وأضيئت الأنوار في السكك والمنازل والطرق^(٣) .

(١) أنظر تقرير (Antonio Perciro) الذي أصبح حاكما لطنجة عن هذه الأحداث

إلى وليب الثالث ملك أسبانيا (1598-1621) في :

British Museum—Additional Mss. 28425 FF. 206—207

وهو يوضح على الخصوص انعكاس هذه الأحداث على الاطماع الأجنبية في المغرب

ونفوره .

(٢) تاريخ الدولة السعدية : مؤلف مجهول ص ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦ .

(٣) أنظر تقرير (Coltington) الذي كان سفيراً لإنجلترا في أسبانيا إلى ساليوري

يتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٦١٠ .

Public Record Office—State Papers—foreign Spain Vol. XV11.
f.f. 217—218.

وكذلك تقريره في ٢ ديسمبر ١٦١٠ .

Public Record Office—State papers Foreign Spain Vol. XV11.
F. 234.

— وأنظر الاستقصاء ص ٦٠ ، ٢٠ ، ٢١ عن الأعذار التي تعلق بها (الشيخ المأمون)

لتبوير تبسره استيلاء الأسبان على العرائش .

على أن أستتلاء الأسبان على العرائش في هذه الظروف كانت له آثار عميقة في المغرب ذاته وفي العالم الإسلامي قاطنة . وأنتهى الأمر بقتل الشيخ المأمون في فاس في رجب سنة ١٠٢٢ هـ ، كما شجع هذا العمل الدولة العثمانية لتحقيق أطماعها في مد نفوذها في الشمال الأفريقي . وقد تبادت أسبانيا في إعتدائها على الثغور المغربية من نفوذ الممثلة التي عبر بها المغرب فبطلت نفوذها في عام ١٦١٤ إلى المعصورة (المهديه) . فأصبحت بذلك تبسط نفوذها على المسورة ، والعرائش ، وطنجة ، وسبتة ، ومليلة . كما شجع هذا الوضع الانهيار على الخروج من عزلتهم بالجديدة .

ورفتح هذا الصراع المريرين أرلاد المنصور وأحماده الباب ، أمام الاطماع الخارجيه بالإضافة إلى الثورات الداخلية .

ومن الأحداث الداخلة الهامة التي ظهرت على المسرح بالمغرب في هذه الفترة ظهور (الدلائيين) . وقد ظهرت الزاوية الدلائية في المدا كركو ديفي وعلى يرايط فيه أصحابها للتبادة والتفقه في أمور الدين ثم لإيواء الواردين المحتاجين وإطعامهم ، ثم لقتال الكفار . وقد أخذ أمر هذه الزوايا في المغرب يتطور خلال القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) حين تغلب المسيحيون على المسلمين في الأندلس وساموهم سوء العذاب . ويرجع تأسيس الزاوية الدلائية إلى (أبي بكر بن محمد) ، وبعد وفاته في شعبان (١٠٢١ هـ سبتمبر ١٦١٢ م) خلقه ابنه (محمد بن أبي بكر) الذي أستمر يسوس أمر الزاوية الدلائية حتى وفاته في عام ١٠٤٦ هـ / ١٦٣٦ م خلفه ابنه (محمد الحاج) .

على أن الدلائيين لم يهتموا في بادئ الأمر إلا بالناحيتين الدينية والعلمية وظلوا يعترفون بسلطة السعديين ملوك مراکش - حتى بعد أن مزقت الحوادث شملهم وبدا عجزهم وقلة كفايتهم . لكن في ظروف الفوضى هذه التي لم يبق فيها لسلطة السعديين خاصة في جبال الأطلس ، وبلاد تادلا إلا الاسم - كان لابد من وجود قوة محلية تعمل لحفظ النظام وتأمين السبل وحماية القوافل ، فتكون في الدلاء جيش قوى من الفرسان بقيادة أبناء الشيخ محمد بن أبي بكر .

وأدت الأحداث بعد ذلك إلى تدخل الدلائين وتورطهم في الشؤون السياسية والثورات الداخلية ، وتطور الأمر إلى أن أصبحت لهم علاقات ومعاملات مع الدول الأجنبية التي سعت للإرتباط بهم بعد أن استنفوذهم ، وسفشير فيما بعد للدور السياسي الهام الذي لعبوه في الأحداث . وقد ظل أمر الدلائين قائماً حتى قضى السلطان الرشيد بن الشريف العلوي على كل همودهم وضرب زوايتهم بعد معركة حاسمة في سهل (بطن الرمان) سنة ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨ م^(١)

ومن الأحداث الداخلية الهامة التي عاصرت فترة الاضطرابات هذه في المغرب حركة (أبي العباس أحمد بن عبد الله السجلماي) الذي عرف بلقب (أبو علي) وقد زعم أنه من نسل العباسيين وسلك طريق التصوف ، ولما سلم الشيخ المأمون السعدي العرائش إلى الأسبانيين دعا للجهاد وتقدم إلى (سجلماي) فلما سلمها ، ثم

(١) للدراسة التفصيلية للراوية الدلائية ودورها السياسي انظر :
الحوات ، أبو الربيع سليمان : الدور الضاوية في المغرب بالسادات أهل الزاوية الدلائية (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ٦١ / د) .
الرباني ، عبد العزيز بن الحسن مؤيد : الحواش المختارة فيما وفقت عليه من التنازل بيجال غماره (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ٦٦ / ج) .
— البفرازي ، محمد الصغير ، الراكي : فقه الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي وصفرة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر (١٨٨٨ م) .
نسخة خطية في وثائق الرباط تحت أرقام ٤٤ ، ١١٧ ، ١٧٠ د وهناك نسخة على المطبعة الحيرية — وأخرى مترجمة بالفرنسية .
وهو يشمل تاريخ العرب خلال القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) .
والمؤلف عالم من أسرة معروفة سراكش ، ولد حوالي ١٠٣٠ هـ وانتحل امام حيث أخذ العلم على كثير من علماءها ، وله عدة كتب في التفسير . وقد تناول في كتابه هذا تاريخ فترة هامة من حكم السعديين والنسخة الفرنسية نشرها (هوارس) مع فهرس الاعلام وفهرس عام تحت عنوان :

Nozhet el Hadi. Histoire de la Dynastie Saadienne au Maroc—
Paris 1889.

— حجي ، محمد : الراوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي (الرباط ١٩٦٣) .

استولى على (درعه) ، وقصد مراکش ففتحها وطرد منها زيدان بن المنصور ،
لكن انتهى الأمر بقتله وأنتهاء حركته في عام ١٠٢٢ هـ - ١٦١٤ م.^(١)
ومن الشخصيات الوطنية التي برزت في هذه الفترة في تاريخ المغرب - الفقيه
العالم أبو عبد الله محمد بن أبي العباس أحمد الزياني - وقد أشتهر بلقب
(العياشي)^(٢) .

وكان ظهور العياشي في أواخر الدولة السعدية - فنهض للدفاع المستعمرين
الظالمين في المغرب وثغوره في وقت كانت فيه السلطات الحاكمة في المغرب -
كما رأينا - من الضعف والانقسام بحيث أصبحت عاجزة من أن تتفرغ
للجهاد الخارجي . ولعل أحسن تشبيه للأوضاع في المغرب في ذلك الوقت إنها
كانت أقرب ما تكون للوضع في الأندلس أيام ملوك الطوائف . هذا في
الوقت الذي كانت فيه ثلاث قوات رئيسية متنازعة هم الأتراك العثمانيون ،
والإسبان ، والإنجليز - تطمع في بسط نفوذها على الثغور المهمة في المغرب .

ويبدأ العياشي صفحة جهاده برحله إلى (أزموور) حسب أمر شيخه
(الشيخ ابن محمد عبد الله بن حسون السلاسي) وكان ذلك حوالي عام ١٦٠٤ م
حيث أخذ يضيّق على المستعمرين^(٣) . ولما بلغ خبر تضيقه على المستعمرين وانتصاراته
على جيوشهم إلى بلاط السعديين بمراكش عينوه في عام ١٠٢٠ هـ - ١٦١١ م

(١) تاريخ الدولة السعدية - مؤلف مجهول س ١٠١ - ١٠٢

والاستقصا ح ٦ ص ٢٦ - ٣٤ .

وانظر تقارير المراسلين البريطانيين عن هذه الثورة .

وكذلك خطاب مولاي زيدان إلى حيمس الأول المؤرخ في ٢ ديسمبر ١٦١٤ عن انتهاء
هذه الفتنة التي اجتاحت البلاد .

(٢) انظر :

الامرائي المراكشي ، مرجع سابق (نسخة خطية ووثائق الرباط تحت رقم د/٤) ص ١٠٤ .

(٣) انظر - شؤون الجبل : محمد العياشي وجهاده ضد الأسبان والبرتغال - صفحة من
صفحات الكفاح الوطني ضد المستعمرين في الوطن العربي (مجلة الجمعية المصرية للدراسات
التاريخية ١٩٧٦) .

على عمالة (أزمو) ليظل شوكة في جنب البرتغاليين الموجودين في (الجديده)
يقض مضاجعهم ويبعث في قلوبهم الرعب والهلع (١).

فنهض العياشي بأعباء ما حمل به على خير وجه ، وكان يبعث للسلطان زيدان
بمراكش بخمس الغنائم التي يغنمها ، وكذا الأسرى من الأعداء فزادت شهرته
وذاع صيته .

وحين عجز البرتغاليون عن أن يوقعوا به في ميدان الحرب عمدوا إلى
الخدعة فاشترتوا ضماير حاشية السلطان زيدان بالهدايا والتحف الثمينة ليتخلصوا
من هذه الشخصية القوية . ونجحت المؤامرة فقد أغروا السلطان عليه وأدخلوا
في روعه إنه لو ترك وشأنه في هذه المنطقة فإنه سيكون كغيره ممن خرجوا
على سلطانه . وكان السلطان زيدان قد أمضى خمسا وعشرين سنة حاكما لم تخل
سنة منها من حرب مع خارج على حكمه - فجهر السلطان السعدي سرية قوية
من أربع مائة فارس وجهها إلى مدينة (أزمو) للقبض على العامل وقتله -
لكن قائد السرية (محمد السنوسي) علم بجملة الأمر - فبعث إلى المجاهد العياشي
خفية لينجو بنفسه ، وأفسح له المجال للخروج إلى (سلا) مسقط رأسه ، وكان
ذلك في عام ١٠٢٣ هـ - ١٦١٤ م أي أنه ظل عاملا على أزمو من قبل
السلطان زيدان بن أحمد المنصور حوالي ثلاث سنوات (٢) .

وصادف عودة العياشي إلى سلا - اضطراب الأمور بها بل وفي المغرب
كله ، فقد كان المستعمرون الأسبان قد احتلوا ثغر المعمورة (٣) . ولم يحرك

(١) نزهة الحادي : مرجع سابق - النسخة المطبوعة ص ١٠٥ والنسخة الحجرية

ص ٢٢٥ .

(٢) انظر ما ذكره صاحب نزهة الحادي عن هذه الحادثة - النسخة المطبوعة ص ١٠٥ .

(٣) يقع هذا الثغر شمال مدينة (سلا) على مصب نهر سبو : ويطلق عليه أيضاً

اسم (المهدية) .

السعديون ساكناً لوضع حد لهذا العبث الإستعماري - حتى أن الأمازيغ خشوا أن تتكرر مأساة المراثش كما يقول صاحب تاريخ الدولة السعدية (١) .

فلجأ الأمازيغ إلى العياشي مستجربين به بعد أن عاد إلى سلا وقد ذاع صيته عند الناس، لما قام به ضد الأعداء أثناء إقامته في أزموور - فطلب منهم أن يعدوا المدة الجهاد .

وما جمع العياشي ومن نجم معه من المجاهدين المقاتلة المستعمرين، في المعصورة وغيرها وأغرزوا عليهم إنتصارات باهرة (٢) .

على أن هذه الإنتصارات وإلتفاف الناس حول العياشي وزيادة أتباعه يوماً بعد يوم - أزعج السلطان زبدان مراکش فبعث إلى قائد قسبة سلا وكان بدش (الوعروري) يأمره بالقبض على العياشي أو اغتياله ، لكن الموريسكيين الذين كانوا تحت إمرة هذا القائد رفضوا الخضوع له ووشوا به لدى السلطان فمؤله ، وأرسل مكانه مملوكاً من مماليكته يدعى (عجيبا) ، ولكن ثار الموريسكيون على هذا القائد أيضاً ، وأدى هذا لزيادة عوامل الفوضى في (سلا) فكثرت النهب والفساد وقطع الطرقات فهرع الناس إلى العياشي طالبين منه أن يمسك بدفة الأمور فقد كان هو الشخصية الوحيدة التي تستطيع أن تقوم بهذا الأمر في ذلك الوقت - فبايعه الناس وتعهدوا إطاعته . وقد لجأ البلاط السعدي بمراكش للتشكيك في تصرفات العياشي ، فأوصى بعض الفقهاء لينشروا

(١) مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية (نشر جورج كولان) ص ١٠٣ .

(٢) إملاق ، عبد القاهر بن محمد بن أحمد بن الحسن أبو إملاق : الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد .

— أخذ الكاتب الكثير عن نزعة الحادي ، وكذلك عن الدور الضاربة مع بعض الإصافة . وقد مات المؤلف في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري ورقم النسخة في وثائق الرباط ٩١ / د . وقد وجدت نسخة أخرى خطية أيضاً في فاس انتهى منها كاتبها في ٥ صفر ١٣٠٦ هـ (١١ أكتوبر ١٨٣٣) .

بين الناس أن جهادهم مع العياشي باطل ، فالجهاد لا يحوز إلا مع الإمام وياذر منه . واحتضن البلاط السعدي لهذا الغرض بعض المثقفين مثل (أبو مهدي عيسى الكتاني) قاضى الجماعة بمراكش وغيره — بينما انبرى عدد آخر من العلماء يؤيدون العياشي ويردون على هؤلاء مؤكدين أن قتال العدو لا يتوقف على وجود الإمام ^(١) .

وحين تولى الأمر الوليد بن زيدان (١٠٤٠ هـ - ١٠٤٥ هـ) بموت أخيه أبي مروان عبد الملك — حاول أن يستميل العياشي إلى جانبه فأرسل له يستوضحه أحوال المسلمين وأحوال العدو في الثغور والمناطق التي يتصل بها وله فيها أعوان — وقد رد عليه العياشي موضحاً الموقف ، وأوضح كيف نزل الأجانب في الثغور وأمدت أيديهم — كما يقول — إلى أواسط المعمور ولذا فالجهاد واجب على المسلمين ، وتمثل بحمل من خطاب لعمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص ^(٢) .

على أن العياشي استمر في جهاده ضد الأسبان والبرتغال كما استمر في حض المواطنين للإستعداد للجهاد ونبذ الخلافات الجانبية والعادات غير المرضية (كاستعمال بعض الأعشاب المخدرة) وذلك ليفرغوا لطردهم من بلادهم ^(٣) .

هذا وقد تعددت الاشتباكات بين العياشي وأتباعه من جهة وبين الأسبان والبرتغال من جهة أخرى . في (البريجة) وقرب (المعمورة) ، و (حاق وادي سيوا) ، وبالموضع المسمى (عياشه) قرب جبل الحبيب (الحرائش) ، وفي غيرها من المناطق التي تركز فيها المستعمرون في الثغور المغربية — وكانت خسائر العدو

(١) الحواهر المختارة — النسخة المطوية ورقة ١٢٢ ، ١٢٦ وقد ذكر ابن بعض الفتاوى التي صدرت في ذلك الوقت .
(٢) إملاق — ص ٢٢ - ٢٦ .
(٣) ذكر إملاق الكثير من رسائل العياشي الرسالة لمختلف الجهات (أهل فاس ، وأهل مكناس ، تطوان في هذا الشأن) .
انظر : إملاق ص ٢٦ - ٣٣ .

في الأرواح والسلاح في هذه المواقع فادحة - فقد اتبع العياشي في حربه هذه نظام العصبات ، فهو يتنقل في حركاته الجهادية هذه بين المناطق المختلفة يترصد بالعدو ، وياخذه ، على غرة أو يرسل الخواسيس ممن هم موضع ثقة المستعمرين فيقربوهم . . . وتعطينا المصادر المعاصرة صورة لبعض الأحداث المرتبطة بهذه المواقع ^(١) .

وكان العياشي يتلقى إثر هذه المعارك رسائل التهنية بالنصر من مختلف جهات المغرب وهيئاته ^(٢) .

وكان العياشي يخرج من معركة ضد المستعمرين ليعده لمرحلة جديدة ، فقد كان يعتبر الجهاد ضد العدو - كما ذكر في خطابه لسلطان مراکش - واجباً طالما العدو ويحتل شبراً من أرض الوطن .

وكانت آخر غزواته ضد الأعداء بطليجة سنة ١٠٥١ هـ - ١٦٤١ م . ولا شك و أن ما يمكنه من الإستمرار في الجهاد حتى نهاية حياته هو ما تميز به من قدرة على إلهاب حماس المواطنين ، وإثارة حميتهم ضد المستعمر الغاصب ، وأن ينظم صفوفهم في حرب مقدسة حتى أصبحت المنطقة من (الجديدة) الى (طنججة) مسرحاً لعملياته ، وأصبح نفوذه في هذه المناطق قوياً ومعترفاً به من القبائل العربية - بل كان أقوى من نفوذ السلطات الرسمية في (مراکش) ، وأصبح العدو يقبع داخل حصونه يخشى أن يخرج منها بعد أن كان يعربد في المنطقة كيفما شاء - بل إن الدول الأجنبية الكبرى كما إنجلترا حاولت أن تخطب وده لتأمين مصالحها الاقتصادية والسياسية وسلامة رعاياها في هذه المناطق .

(١) انظر لإملاق ص ٣ .

ونزهة الحادي - (النسخة الخطية) ص ١٠٨ .

(٢) أنظر رسالة محمد بن أبي بكر الدلائي في هذا الشأن في :

سليمان بن محمد بن عبد الله بن محمد علي الجوات الحسيني : الدور الصاوي والتعريف بالسادات أهل الراوية الدلائية - نسخة خطية يوثائق الرباط برقم ٢٦١ / د .

وقد كانت المنافسة التجارية بين إنجلترا وأسبانيا في هذه الفترة قوية ، وتطورت هذه المنافسة في عهد الملكة اليزابيث (١٥٥٣-١٦٠٢ م) فأصبحت حرباً صاعقة . ورغم تلونها منذ البداية بشيء من صفة العداء الديني المذهبي - فإنها كانت في جوهرها منافسة إقتصادية إذ أن حب المغامرة والمال والتجارة أغرى الشباب الإنجليزي الذي اعتاد ركوب البحار على أن يتحدى الاحتكار التجاري الذي فرضته أسبانيا - خاصة أن إنجلترا نظرت بعدم الرضى للوضع الذي آلت اليه الأمور بعد أن انتقلت الى فيليب الثاني (Philippell) الأملاك البرتغالية الغنية والقواعد العسكرية في جزائر البهار ، وجزائر الأور ، وجزائر الهند الشرقية بعد موت (دون سبستيان) . ولقد أتمى هذا الدور من المنافسة بين الأسبان والانجليز بتحطيم قوة أسبانيا البحرية (الارمادا) عام ١٥٣٨ ، لكن هذه الهزيمة لم تكن الفصل الأخير في الحرب الطويلة بين البلدين - فقد استمرت هذه الحرب بعد وفاة فيليب الثاني واليزابيث .

وقد اضطرت الحكومة الانجليزية تحت ضغط من المغامرين الإنجليز إلى الإسهام بقوة في النشاط البحري والاستعماري ، وأن تعمل كل ما في وسعها لتكفل الحماية للرعايا البريطانيين وهم يراولون نشاطهم في ثغور المغرب (كتطوان) و (الرباط) . وبعض الوثائق والكتيب التي نشرت عن رحلات السفن الإنجليزية والبحارة والمغامرين البريطانيين بهذه الثغور تكشف لنا عن بعض الجوانب من العلاقات الانجليزية المغربية في هذه الفترة (١) .

(١) أنظر :

Memoire De S. Scot sur la commerce Marocain (1638).

Pere Dan : l'Histoire de Barbarie et ses crossaires (1644).

ولم يريد التوسع في دراسة هذه العلاقات الإنجليزية المغربية وتطورها وخلال القرنين

١٦ و ١٧ ، أنظر :

شوقي الجمل : العلاقات الانجليزية المغربية خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر

والأول من القرن السابع عشر (مجلة للناهل المغربية العدد الثالث - سنة ١٩٧٥) .

وفيما يتعلق بالعباشي فقد تطورت العلاقات بينه وبين الدلائين ، فلم تستمر العلاقات الطيبة التي كانت بينه وبين وصيقه محمد بن أبي بكر الدلائي والتي وصلت إلى أن العياشي كان ينسب صديقه بما يعتزم القيام به من حركات الجهاد بل ويطلعه على خططه الخيرية (١) .

بل وكان يهدى للدلائي بعد انتصاره في كل معركة من معاركه جزء من الغنائم يستعين به هو وأنصاره على أداء رسالتهم . فبعد وفاة محمد بن أبي بكر في عام ١٠٤٦ هـ - ١٦٣٦ م وتولى ابنه الأكبر محمد الحاج الأمر بعده - انقلب الصداقة إلى عداوة وانتهت بحرب طاحنة بين الطرفين (٢) .

ففي أوائل عام (١٠٥٠ هـ - ١٦٤٠ م) زحف محمد الحاج الدلائي بأعداد كبيرة من أنصاره من عرب وبربر على مدينة مكناص ، ثم انجى إلى فاس وحاصرها وهب العياشي لمواجهته ، واستطاع الدلائون أن يوقعوا الفروقة بين أنصار العياشي من قبائل السكوارده والتاغى والدخيس والخلط ، وانتهزوا فرصة انشغال العياشي بقتال الأسبان في طنجة فجمعوا حشوداً كبيرة شمال نهر سبو - لتعترض طريقه أثناء عودته من القتال . وسار العياشي تجنبهم خاصة أنه كان عائداً منهكاً من معاركه مع الأسبان - لكن أتباعه أبوا إلا أن يتصدوا لقتال أعدائهم - ف وقعت معركة حامية الوطيس بين الطرفين في ضواحي سوق أربعاء الغرب في أواخر ذى القعدة عام ١٠٥٠ هـ - ١٦٤١ م ولجأ العياشي إلى قبيلة الخلط ولم يكن يعلم أنهم انحازوا إلى أعدائه فاغتالوه في عين القصب التي تقع على بعد ٢٠ كيلو متراً غرب سوق أربعاء الغرب وكان ذلك في ١٩ محرم ١٠٥١ هـ - ٢١

(١) لملاق : مرجع سابق ص ١٠ ، ونزهة العادي - ص ١٠٥ .

(٢) للدراسة المستفيضة لمراحل جهاد العياشي ضد المستعمرين انظر :

شوقي الجمل : عمد العياشي وجهاده ضد الأسبان والبرتغال (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عدد عام ١٩٧٦) .

أبريل ١٦٤١ م — وبموت العياشي تفرق أنصاره وخلا الجو للدلائين فاستولوا على فاس وسلا وتطوان وأصبح لهم النفوذ في باقي بلاد المغرب التي كانت تدبى بالولاء للعياشي (١) .

نهاية الدولة السعدية :

نعتبر الدولة السعدية في الحقيقة دولة حربية — فاصت للجهاد ضد أعداء البلاد والطامعين في تغورها في وقت كانت فيه الحاجة ماسة لمن يتحدى لهؤلاء الغزاة ويوقف تيارهم ويستخلص من براثنهم ما استولوا عليه من الثغور المغربية .

ولقد استطاعت هذه الدولة وهي في غوتها أن تؤدي واجبها هذا على خير وجه . وكانت موقعة وادي المخازن الحاسمة في جمادى الثانية سنة ٩٨٦ هـ / ٤ أغسطس ١٥٧٨ م أروع صفحة في هذا الكفاح المجيد ، بما كان عصر السلطان أحمد المصور أزهى عصور هذه الدولة .

لكن الانقسام الذي نشب بعده والتنازع بين أفراد الأسرة السعدية ذاتها أدى إلى تدهور أحوال البلاد ونشوب عدة ثورات ، وتجرؤ الأجانب .

ولقد بدأت العناية الآلهية للشعب المغربي في هذه الفترة الحرجة من تاريخه من ينقذه ويأخذ بيده — ففي سجناسه كانت الدولة العلوية الشريفة قد أخذت تعمل لتمسك بدقة الأمور لتسير سفينة المغرب في فترة هامة من تاريخه .

(١) من يريد التوسع في دراسة الدور الذي لعبته الزاوية الدلائية في تاريخ المغرب

انظر :

١ - الحوات ، أبو الربيع سليمان بن محمد العلمي مرجع سابق .

ب - حجي ، محمد : الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي السياسي (الرباط ١٩٦٣)

الفصل السابع

الدولة العلوية

(١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠ م)

تأسيس الدولة العلوية الشريفة :

يرجع نسب الأسرة العلوية إلى علي بن أبي طالب ، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأول من جاء من هذه الأسرة إلى المغرب هو المولى حسن بن قاسم ، وكان ذلك في القرن السابع الهجري ، فاستوطن (سجلماسة) ^(١).

وكانت للمولى (علي الشريف) - جد الأسرة العلوية الشريفة - مواقف مشرفة في الجهاد بالسودان ، وكانت له في النفوس منزلة ، فقد كان أهل سجلماسه وسائر المغرب يقصدونه في المهمات ويستشفعون به في الأزمات ويهرعون إليه فيما جل وقل ^(٢).

(١) يورد الاستقصا أقوال العلامة (أبو سالم العياشي) في رحلته ، وكذلك ما جاء بكتاب (الأنوار السنية فيما بسجلماسه من النسبة الحسينية) ، وما ذكره صاحب الأرجوزة - وعدهم عن سيب عمى جد الأسرة للمولى حسن بن قاسم إلى المغرب الاستقصا (طبعة الدار البيضاء ١٩٥٦) - ص ٧ ، ٣ ، ٤ ، ٥

ملاحظة : سجلماسه - مدينة عتيقة أسسها أبو مدرار في القرن الثاني للهجرة ، وكانت عاصمة لإقليم « تافيلالت » إلى ما بعد القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) . وما زالت أطلالها ماثلة للعيان حتى اليوم .

انظر حجي ، محمد : الرواية الدلائلية (١٩٦٤) ص ١٥٨ .

(٢) اليفراني : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي (المطبعة الحجازية

بفاس) ص ٢٥٦ .

(م ١٤ — المغرب)

ولم تقتصر مكانة (المولى على الشريف) على المغرب ، فقد وصل صيته وسمعته إلى الأندلس ، فكتب إليه علماء (غرناطة) يستغيثون به ويطلبون منه العون إليهم ، حتى أنهم أرسلوا إليه - حين علموا بهزمه على التوجه لآداء فريضة الحج بفتوى صادرة من بعض الأئمة - بأن العبور للجهاد - أفضل من الحج ،^(١).

على أن إزدياد نفوذ المولى على أوغر صدر أبا حنون السملال المعروف بأبي دميعة ، وكان قد استولى على القطر السوسى ، ودرعه ، وسجله ، فأوجس خيفة من المولى على الشريف فألقى عليه القبض وأعتقه بسوس^(٢).

وكان أصحاب أبي حنون قد أساءوا السيرة بسجله ، وضيقوا على الناس حتى إزدرتهم العيون وملتهم النفوس ، فأجمع أهل سجله على بيعه (المولى محمد بن الشريف) ، فبايعوه سنة ١٠٥٠ هـ ، ووافق على بيعته أهل الحل والعقد بسجله ، وكان ذلك مبدأ تأسيس الدولة العلوية .

ووقعت بين المولى محمد وأبي حنون حروب انتهت بإستيلاء المولى محمد على (درعة) وأعمالها ، وأدت هذه الانتصارات إلى إزدياد إلتفاف الناس حوله ، وذاع في بلاد المغرب كله صيته فعمل على بسط نفوذه على باقى أجزاء المغرب حتى تتوحد السلطة كلها فى يد حاكم واحد .

وأدى هذا لإصطدامه (بأبي عبد الله محمد الحاج الدلائى) زعيم الدلائيين ، وكان نفوذهم فى ذلك الوقت قد امتد إلى فاس ، ومكناسه وأعمالها ، وسلا . وزحف محمد الحاج الدلائى إلى (تافيلالت) على رأس جيش جرار من البربر فى أوائل عام ١٠٥٦ هـ / ١٦٤٦ م ليقتضى على منافسه محمد بن الشريف ، وكانت بينهما (وقعة القاعة) المشهورة التى أسفرت عن انتصار الدلائيين ودخول محمد

(١) انظر بعض أقوالهم فى هذا السبيل ، وبعض قصائد شعرائهم فى :

الاستقصا ص ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ .

(٢) بعد ذلك نجح ولده (المولى محمد) فى مك أسره ، وقضى بقية عمره فى سجله

حتى توفى فى ثلاث عشر رمضان سنة ١٠٦٩ هـ .

الحاج مدينة سجلماسة وأباح للبربر أن يفعلوا فيها ما يشاءون - لكن تم الصلح بين الطرفين على اقتسام مناطق النفوذ فجعلوا مادون جبل العياشي للمولى محمد، وما فوق ذلك من البلاد خاضعاً للدلائين . لكن لم يلبث أن تطورت العلاقات بين الطرفين تطوراً سيئاً انتهى أخيراً بالقضاء على الزاوية الدلائية كما سنوضح فيما بعد^(١)

وانتهجت أنظار المولى محمد أيضاً إلى الأقاليم الشرقية من المغرب فاستولى على وجده ، كما شن الغارات على (تلسان) ، وكانت في ذلك الوقت تحت سيطرة الأتراك الذين كانت لهم السيادة الرسمية في الجزائر .

على أن المولى الرشيد بن الشريف على لم يلبث — بعد وفاة والده — أن خرج على بيعة أخيه المولى محمد ونزل (وجده) ودعا لنفسه بشرق المغرب وأنهى الأمر بين الشقيقين بالقتال الذي ذهب ضحيته المولى محمد في محرم عام ١٠٧٥ هـ (أغسطس ١٦٦٤ م) .

المولى الرشيد (١٠٧٥ - ١٠٨٢ هـ / ١٦٦٤ - ١٦٧١ م) :

بعد وفاة المولى محمد بن الشريف بويع المولى الرشيد وانضم إليه جند أخيه المتوفى فتقوى أمره وتقدم إلى (تازا) فلحقها وخضع لسلطان المغرب الشرقي كله ، وقصد (سجلماسة) ، وكان قد تزعم أمرها ابن أخيه محمد الصغير فحاصرها حتى سقطت في يديه ، ووقف أهل (فاس) في المبدأ في وجهه وقضى الرشيد عام ١٠٧٦ هـ / ١٦٦٥ م كله في حصار فاس دون جدوى ، ولم يستطع دخولها إلا بعد أن عقد اتفاقاً سرياً مع بعض أعيانها الذين مهدوا له السبل لذلك - وكان دخوله فاس في أوائل ذي الحجة سنة ١٠٧٦ هـ ، فلما تمت له البيعة

(١) حجي ، محمد : مرجع سابق ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

فيها - أفاض المال على عداتها وغمرهم بجزيل العطاء فتمكنت محبته من قلوب الخاصة والعامة (١) .

ثم غزا المولى الرشيد أحواز مكناسه . وكان على الرشيد بعد ذلك أن يواجه الدلائيين ، وكانوا قد وصلوا إلى درجة كبيرة من الضعف ، وكان زعيمهم (محمد الحاج الدلائي) قد بلغ الثمانين من عمره ولم يكن حياً من أبنائه في ذلك الوقت إلا ابنه (عبد الله) .

ودارت المعركة الفاصلة بين السلطان الرشيد وبين الدلائيين في سهل (بطن الرمان) في الأيام الأولى من عام ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨ م حيث هزمهم الرشيد وتبعهم إلى أبواب مدينة الدلاء ذاتها ودخلها وبقي فيها شهراً ونصف ، واستولى على ما كان فيها من مال وذخيرة وخيل وسلاح ، وأخذ ما كان في خزائنها من وثائق ، وألزم من بقي حياً من الدلائيين بالرحيل إلى فاس ، وأمر بهدم المدينة (٢) .

ولما فرغ المولى الرشيد من أمر الدلائيين توجه إلى (مراکش) فاستولى عليها في سنة ١٠٨١ هـ بعد أن هزم حاكمها (أبا بكر الشبانى) (٣) .

(١) انظر الأخبار المفصلة عن هذه الأحداث في :

— القادري ، أبو محمد عبد السلام بن عبد الله بن الحياط : العجفة القادرية في التبريد بشرط أهل وزان (جزآن ، مخطوط بالخط الزاوية العامة بالرباط برقم ٢٣٢١ / ك) ص ٢٠٠ وما بعدها .

— اليعربى : النزعة - طبعه فاس ص ٢٧٠ .

— الريانى ، أبو القاسم : البيتان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف (مخطوط بالوثائق بالرباط تحت رقم ١٥٧٧ / د) ص ٢٤ .

(٢) المرجح أن سهل (بطن الرومان) المقصود ، يقع بطريق (حبيهرة) شمال الراوية الدلائية ، أما عن موقع الزاوية الدلائية ذاتها فقد تعرض لهذا الموضوع بالتفصيل : حجي ، محمد : مرجع سابق ص ٣٤ وما بعدها .

— وانظر البوسى ، أبو علي الحسن بن مسعود : الحامرات (المطبعة الحجازية بمكة ١٣١٧ هـ) ص ٨٦ ، ٨٧ .

ملاحظة : عفا فيما بعد عن أهل الدلاء وترك لهم حرية الرجوع لبلادهم

(٣) من يريد التوسع في تفاصيل فتح مراکش وفتح الأمير (أبي بكر الشبانى) وشقيقه يرحم إلى — اليعربى : النزعة (مرجع سابق) ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

كذلك غزا المولى الرشيد بلاد السوس وقضى على بقية نفوذ آل أبي حسون السملالي، وهكذا يمح في أن يقضى على كل الأفراد الصغار الذين كانوا منتشرين في بلاد المغرب، وبذا حقق وحدة المغرب السياسية^(١).

ومن الأعمال الهامة التي تمت في عهد المولى الرشيد تنظيم الجيش، فكان يتألف من مرق أهمها فرقة (شراقة) التي ألقها من شباب القبائل التي وفدت عليه من العرب ومن البربر من باديه تلمسان وغيرها من جهة الشرق عن المغرب، وبني لهم قصبة خاصة في المنطقة الواقعة بين نهري سبو، ورغة^(٢).

على أن أعمال المولى الرشيد لم تقف عند حد نشاطه الحربي فقد تمت في عهده عدة منجزات عمرانية، كما ساد الرخاء البلاد بعد أن استقرت أمورها في يد حاكم واحد، وقد ضرب المولى الرشيد نقوداً مستديرة من النحاس (الأشقوية) وكانت من قبل مربعة .

وأستأنفت الحركة العلمية والأدبية في عهده سيرها، وقد كان له اهتمام بالعلم، يعرف له حق قدره ويشجع أربابه ويجزل لهم العطايا، وكان يحضر بنفسه مجالس العلم بالقرويين^(٣)، بل ويزور العلماء شخصياً في دورهم. وقد أمر ببناء مدرسة في مراکش بإزاء مسجد (الشيخ أبي عبد الله محمد بن صالح) وأخرى شرع في بنائها بفاس في عام ١٠٨١ هـ.

ومن أهم الأعمال العمرانية في عهده بناء قنطرة نهر سبو ذات الأقواس الأربعة خارج فاس، وتجديد قنطرة (واد الرصيف) بفاس.

(١) حقي، إحسان : المغرب العربي (٥ د) ص ٢٠ .

(٢) لعل هذا الموقع في جهة الشرق عن المغرب الأقصى هو السب في هذه التسمية (شراقة) .

الاستقصا - ٧ ص ٤١ .

(٣) ذكر القادري، محمد بن الطيب : نشر المثنى لأهل القرن الحادي عشر والثاني (مخطوط بالوثائق ، الرباط بـ ٢٢٥٣ / ٥) — أن المولى الرشيد كان يحضر مجلس الشيخ اليوسى بالقرويين .

وتوفي المولى الرشيد بمراكش في عام ١٠٨٢ هـ ، ودفن بالقصبة بها — لكنه نقل بعد ذلك إلى ضريح الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم بقاس .

المولى اسماعيل (١٠٨٢ - ١١٣٩ هـ / ١٦٧١ - ١٧٢٦ م) :

لما توفي المولى الرشيد كان أخوه المولى اسماعيل بمكناسه الزيتون خليفة عن أخيه على بلاد الغرب . واجتمع الناس هناك وانفقوا على أنه الأهل للبيعة فبايعوه سنة ١٠٨٢ هـ ، وقدم عليه جل أعيان المغرب وعلمائه وبايعين وكان سنة يومئذ ٢٦ سنة (١) .

ومع ذلك فقد واجه في بداية عهده عدة ثورات وتقسام الثوار البلاد وصاروا كلوك الطوائف بالاندلس ، وثار عليه ابن أخيه (أبي العباس أحمد ابن محرز) ، وسار إلى مراكش داعياً لنفسه ، فالتقت حوله بعض القبائل النازحة إليها ، فأضطر المولى اسماعيل للوحد على مراكش ودخلها يوم الجمعة سابع صفر سنة ١٠٨٣ هـ ، وفر أحمد بن محرز ودخل الصحراء .

هذا وقد عاد هذا التأثير إلى مراكش مرة أخرى متمزاً فرصة لإشغال المولى اسماعيل بإقرار الأمن في أماكن أخرى من مملكته - واضطر السلطان لمحاصرة مراكش من جديد ودخلها عنوة ثمانية سنة ١٠٨٨ هـ وفر أحمد بن محرز من مراكش إلى إقليم السوس مع قلة من جموعه (٢) .

وقد تجددت المعارك ثمانية بالسوس بين ابن محرز والمولى اسماعيل ، فقد دخل ابن محرز (تارودانت) وتحصن بها وطال حصار السلطان المولى اسماعيل لابن أخيه وأنهى الأمر بتوقيع صلح بينهما في عام ١٠٩٤ هـ .

(١) انظر ما ذكره عن بيئته :

اليفرنى ، أبو عبد الله عميد الصغير : روضة التعريف بيفرنى مولانا اسماعيل بن الشريف (الطبعة المملوكة ، الرابط ١٣١٢ هـ / ١٩٦٢ م) ص ٤٧ .
القادري : نشر الثاني - مرجع سابق ص ٢٧١ .

كما راجه المولى اسماعيل ثورة جديدة قامت في (فاس) فقد قتل أهلها قائد الجيش المعسكر بمنطقتهم (زيدان بن عبيد العامري) — فقاتلهم المولى اسماعيل إلى أن أذعنوا من جديد إلى طاعته فعفا عنهم .

كذلك خرج بعض شيعة الدلائين من البربر والتفوا حول أحمد بن عبد الله الدلائني فأرسل إليهم المولى اسماعيل قواته فهزمتهم هزيمة شتاء وقتل رؤساء هذه الفتنة وأوقع بهم عقوبات رادعة ليكفوا عن عثرة لغيرهم^(١)

كما اضطر المولى اسماعيل لمواجهة أخواته الثلاث من أولاد المولى الشريف ابن علي حين خرجوا عليه وأعلنوا الثورة (بآيت عطاء) واعتصموا بجبل (سرغو) فطاردهم حتى أرغمهم على الفرار وأذن له من كان معهم — كما كانت له معارك حامية الوطيس مع البربر في جبال (فزاز) ، وبعد أن أنتصر عليهم أمرهم على أن يركنوا للهدوء ويستغلوا بالرعي والحرث ، وأعطاهم ٢٠.٠٠٠ رأس من الغنم لتربيتهما على أن يدفعوا كل عام صوفها وسمنها .

وقد اتخذ المولى اسماعيل مكناسة الزيتون^(٢) عاصمة لما ملكه فهدم القصور القديمة بها وجدد بناءها وبني بها قصبة عظيمة ، وسوراً للمدينة ، وجلب لذلك الصناعات من جميع حواضر المغرب ، وفرض العمل بها متناوبة على القبائل ، واستمر البناء والتشييد والفرس بمكناسة سنين ، وأسس (الجامع الأخضر) بها ، أما قصبتها فجعل لها عشرين باباً ، فوق كل منها برج تنظيم عليه المدافع النحاسية ، وجعل بها بركة تسير فيها الزوارق وغزناً عظيماً لإختران الغلال ، وكذلك لإصطبل الربط الخيل ، ويقال إنه كان يتسع لإثني عشر ألف فرس ،

(١) انظر تامل هذه المارك في : نشر اللثاني للقادري ، المخطوط السابق ذكره .
(٢) مدينة (مكناسة الزيتون) من الأمصار القديمة بأرض المغرب ، بناها البربر قبل الإسلام ، وخربت أثناء حصار الموحدين لها ، فنوا مكناسة الجديدة للسماح (تكرارت) ، واعتنى بها بنو مرين من بعدهم فبنوا قصبتها وشيدوا بها المساجد والمدارس والزوايا واتخذوها كرسى الوزارة بنا كانت فاس الجديدة كرسى الإمارة .

وأما كن لوضع سلاح الفرسان ، كذلك بستان غرست به أشجار الزيتون وأنواع الفواكه المختلفة ، وكانت داخل هذه القصبه القصور تتخللها الشوارع المتسعة المستطيلة (١) .

وقد كان يشغل في عمليات البناء والتشييد هذه الأسرى ، وقد قدر عددهم في سجنه بخمسة وعشرين ألفاً ونيفاً - كانوا يعملون في بناء قصوره ، منهم الرخامون والنقاشون والتجارون والحدادون والمهندسون والأطباء ، كذلك كان يعمل معهم المسجونون من أهل الجرائم كالقاتل والسارق وكان عددهم يبلغ الثلاثين ألفاً (٢) .

وقد اهتم المولى اسماعيل بعد أن استقر له الأمر بإقرار الأمن الداخلي بالإضافة إلى تأمين حدود المغرب وتطهير الشواطئ والتغور المغربية من المستعمرين الأجانب .

ولتحقيق هذه الأهداف لجأ إلى نزع السلاح من الأفراد والقبائل مع إقامة مراكز حصينة وقلاعاً في جميع المراكز في جبال الأطلس ، وسهول ملوية ، وفي المدن الهامة لضمان سلامة الطرق . وقدر عدد القلاع التي أقيمت بمختلف ربوع المغرب بست وسبعين قلعة وحصن ، جعل لكل منها حامية مسلحة يتراوح عدد أفرادها من ١٠٠ إلى ٥٠٠ شخص حدد لهم مراتب خاصة وحملهم مسئولية حفظ الأمن ، كما بنى إلى جانب كل قلعة نزلا لمبيت القوافل وأبناء السبيل .

(١) وصفها الرياني ، أبو القاسم : البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٥٧٧/د) .

قال . « لقد شاهدنا آثار الأقدمين بالمشرق والمغرب وبلاد الترك والروم فأرأينا مثل ذلك في دولهم ، ولاشاهدناه في آثارهم ، بل لواجتمعت آثار دول ملوك الإسلام لرجع بها ما بناه السلطان الأعظم المولى اسماعيل رحمه الله في قلعة مكناسة دار ملكة . . ومن يوم مات المولى اسماعيل - والملوك من بنيته وحمدته يحربون تلك القصور قدر وسعهم وبحسب طاقتهم يبنون بانقاضها من خشب وزليج ورحام واين وقرمود ومعدن إلى وقتنا هذا ، بنيت من أنقاضها مساحد ومدارس ورباطات . . وما أتوا على نصعها هذه مدة من مائة سنة »

(٢) البستان الطريف - المخطوط السابق ، ص ٣١ .

— الحسن بن محمد الحسبي الادريسي المنوفي : النزع الطريف في التلميح بغناخر مولاي اسماعيل بن الشريف (مخطوط رقم ٥٩٥ ج بوناتي الرباط) ص ٦١ وما بعدها .

وهكذا قضى على قطاع الطرق فساد الأمن والطمانينة في أيامه^(١) . ولقى الجيش الكثير من عناية المولى إسماعيل ، فقد كان يعد العدة لتطهير شواطئ المغرب وتغوره من الإحتلال الأجنبي . فأعد الجيش المغربي لإعداداً كاملاً لهذه المهمة^(٢) . ولجأ المولى إسماعيل إلى عبيد السنغال الذين كانوا قد كثر عددهم من أيام استيلاء المنصور السعدي على السنغال ، فقسروا إلى المغرب إما بطريق الشراء أو المهاجرة وتناسلوا وكونوا عنصراً قوياً في البلاد ، وفطن المولى إسماعيل إلى ميّزاتهم فأمر بجمعهم ، وكتب لعماله بالأمصار ليشتروا له العبيد فكون منهم جيشاً أطلق عليه اسم (جيش عبيد البخاري)^(٣) .

وهكذا أصبح الجيش المغربي مؤلفاً من :

(أ) جيش الودايا .

(ب) جيش العبيد .

وكان يأخذ أولاد العبيد وبناتهم من سن العاشرة لتربيتهم تربية خاصة ، فيوزع الأولاد على معلمى الصناعات اليدوية من بنائين ونجارين وحدادين وغيرهم ، فإذا أكملوا تدريبهم في هذه الصناعات ينقلون إلى مراكز التدريب العسكرية فيمرنون على ركوب الخيل والكر والفروا المطاعنة والرماية — بينما

(١) الاستقصا ج ٧ ص ٦١ - ٦٣ ، ٧٢ .

— وكذلك : كناش كاتب الدواوين الرشيدية والإسماعيلية — الفقيه أبو الربيع سليمان بن عبد القادر الزرهوني ، وكان عنده دفتر العسكر الموجودين في القلاع أو في المعسكرات .

— وكذلك الزباني : البستان (المخطوط السابق) ص ٣٢ و ١٠ بعدها .

(٢) النزاع اللطيف — مخطوط سابق ، ص ١٣٥ .

(٣) ترجم هذه التسمية إلى أن السلطان — ليضمن لإحلاصهم وولاءهم — أشعرهم أنهم لا يقومون بواجب القتال إلا حسب ما تقتضيه الدين ويفرسه عليهم .

وبقال لاه جمع أعيانهم وأحضر نسخة من صحيح البخاري وقال لهم « أيا وأنتم عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرعه المجموع في هذا الكتاب — فكل ما أمر به ففعله ، وكل ما نهى عنه تركه وعليه تقابل » — فهاهوه على ذلك — فكانوا يحملون نسخة من صحيح البخاري حال ركوبهم يقدمونها أمام حروبهم كتابوت بنى إسرائيل . ولذا قيل لهم عبيد البخاري .

— انظر الاستقصا ج ٧ ص ٥٨ .

يعهد بأمر البنات إلى عريفات لتربيتهن وتدريبهن على الأشغال المنزلية — وبعد ذلك يزوج كل واحد من الأولاد واحدة من البنات ثم يلحق كل مجموعة منهم بقائد من قواد جنده — وقد بلغ عدد هذا العسكر (البخاري) في عهده ما يقرب من مائة وخمسين ألفاً — عهد إلى بعضهم بحراسة الطرق وحماية الأمن عن طريق القلاع التي شادوها - بينما كوّن الباقيون جيش القتال المسمى (جيش المحلة) ، وكانت له مراكز خاصة في فاس ومكناس ومراكش وغيرها من أمهات مدن المغرب (١) .

وحين اكتملت أعداد الجيش واطمأن إليه — هاجم ثغر (المعمورة) وأسر فيه نحو الثلاثمائة من حاميته .

وكان البرتغال قد تنازلوا عن طنجة لانجلترا عام ١٠٧١ هـ / ١٦٦١ م بعد أن حكموها ما ينيف عن قرنين ، فقد احتلوها عام ٩٦٨ هـ / ١٤٦٤ م وذلك كهر قدمته (كاترين دوبراكالس) شقيقة ملك البرتغال لزوجها (شارل الثاني) ملك انجلترا — فأرسل المولى إسماعيل جيشاً على رأسه أبو الحسن علي بن عبد الله الريني ضيق الحصار على الإنجليز بها — فاضطروا في عام ١٠٩٥ هـ إلى إخلائها وتركوها بعد أن خربوا وهدموا أسوارها فدخلها جيش المولى إسماعيل ووجد بناءها من جديد (٢) .

وفي سنة ١١٠٠ هـ أرسل القائد (أبي العباس أحمد بن حدو) لحصار الأسبان في العرائش ، فضيق عليهم الخناق وظل محاصراً لهم نحو ثلاثة أشهر ونصف حتى سلبت حاميتها وأسرت كلها إلا قائدها الذي أطلق سراحه ، وغنم المسلمون

(١) يتحدث بإسهاب (صاحب البستان) عن هذا الجيش ، بل علق عليه بقوله « هذا العدد الذي جمعه أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله من العبيد ، لوخاض به البحر إلى الأندلس ، وكانت تلك القلاع سقناً ومراكب جهادية لأستولى عليها — والتوفيق من الله » .

(٢) الزباني : البستان . المخطوط السابق ص ٣٢ .

— اليعربي : روضة التعريف بمؤلف مولانا إسماعيل بن العريب ص ٥٨ .

— اليعربي : نزهة الحادي ص ٢٧٣ .

غنائم كثيرة . وقد كان لإسترجاع العرائش مدى كبير في نفوس المغاربة فتغنى الشعراء بهذا الحدث العظيم (١) .

وفي سنة ١١٠٣ هـ سقط في يد جيش المولى إسماعيل ثغر أصيلا بعد حصار دام سنة كاملة - فلم يبق بيد الأسبان إلا (سبتة) و (مليلة) . فأرسل المولى إسماعيل جيشاً كبيراً لحصار سبتة ، كما أمر كل قبيلة بأن ترسل قوة من رجالها للمساهمة في هذا الحصار حتى قيل إن عدد المرابطين عليها بلغ خمسة وعشرين ألفاً ، وكان على رأس الجيش المحاصر لها (أبو الحسن علي بن عبد الله الريني) ثم خلفه ابنه (أبو العباس أحمد بن علي) ، لكن لم يقدر له فتحها (٢) .

هذا وقد شهدت علاقات المغرب الخارجية تطوراً واضحاً في عهد المولى إسماعيل (٣) .

فمن جهة العلاقات مع الأتراك - كانت قد شهدت توتراً بسبب الخلاف على الحدود الجزائرية المغربية ، لكن تم الإتفاق بين الطرفين في عهد (المولى محمد بن الشريف) ، وجدد هذا الإتفاق في عهد المولى الرشيد - لكن حين استتبت الأمور للمولى إسماعيل فسكر في عام ١٠٨٩ هـ في مهاجمة الأتراك بالجزائر - لكنه لم يستطع أن يحقق هدفه في أن يوقع بهم هزيمة فيها ، ولذا جرت مفاوضات أتفق فيها على العمل بالإتفاقيات السابقة التي حددت فيها الحدود بين الدولتين .

ولكن الأتراك اتمزوا فرصة لإشغال المولى إسماعيل بالإضطرابات التي أثارها أخوته الثلاثة وابن أخيه أحمد بن محرز - فهاجموا الحدود الشرقية للمغرب - لكن لم يستطيعوا الإستمرار في هجومهم لتعرض مواقعهم في الجزائر نفسها لهجمات الدول البحرية الأجنبية ، وحين استقرت الأمور الداخلية بالمغرب

(١) البغرتي: روضة التعريف بمآثر مولانا إسماعيل بن الشريف ص ٥٩ و ٦٠ .
— انظر القصائد التي نطمت في هذه المناسبة .

(٢) النزاع اللطيف (مخطوط سابق) ص ١٤٨ .

(٣) تناول صاحب النزاع اللطيف بالتفصيل هذه العلاقات في الباب الثامن من مخطوطه ص ١٨٧ وما بعدها ، وكذلك الباب الخامس عشر من المخطوط ص ٢٩٤ وما بعدها .

بلغ عددهم ما يقرب من مائة وخمسين ألفاً ، وبلغوا في أيامه درجة فائقة من العز والرفاهية والتسلح والتدريب على القتال والطاعة والإضباط ، والكفاية الحربية ، ووزعهم على قلاع المغرب فكانوا عيونه الساهرة على حراسة الطرق وحماية الثغور . وكانت كل قبيلة من قبائل المغرب ملزمة بدفع أعشارها لصالح القلعة المبنية في جبهة المؤخرة جيشها ، وعلف خيلها ، واستمر ذلك إلى أن توفي المولى اسماعيل فتبدل أمرهم ، وكان مآل هذا العسكر مع أولاده - كما يقول صاحب البستان - مثل مآل الترك مع أولاد المعتمد ابن الرشيد العباسي في كونهم استبدوا بهم وصاروا يولون ويعزلون ^(١) .

فتمدخلوا في شئون الدولة وأصبح يديم الأمر المطلق في البلاد ، وصار أساس تولية الملك ليس هو العمل لصالح البلاد - لكن لإرضاء رجال الجيش وإجابة مطالبهم التي لم تكن تنقطع ، فانتشرت الفتن والقلق وعم الإضطراب والفوضى ، وتعدد تولى الملوك وعزلهم من أبناء المولى اسماعيل - فلا يكاد الواحد منهم يستقر في الحكم حتى يثور عليه هؤلاء الجنود - الذين كان السلاطين عادة - رغم ما حملوه الأهالي من أعباء - عاجزين عن إجابة طلباتهم المستمرة .

وعانت البلاد من جراء عمليات النهب والسلب والقتل والفتك ما ينحل عن الوصف دون رادع يردع المعتدين ويحمي عامة الشعب ، ووصل الأمر إلى أن ترك الجنود قلاعهم التي كانوا مقيمين بها وانتشروا في القبائل التي كانوا مجاورين لها ، وامتدت أيدي النهب والتخريب للقلاع ذاتها فاقتلعت أبوابها وأخشابها وتركزت خاوية لم يبق بها إلا الجدران القائمة . واستمرت حالة الإضطراب هذه طيلة ٣٢ سنة كان الولاة فيها تحت رحمة هذه الطبقة المسلحة حتى عام ١١٧١ هـ حين تولى المولى محمد بعد وفاة أبيه المولى عبد الله - فنجح في أن يقبض على ناصية الأمور وأن يبعد الجند عن التدخل في السياسة فردللدولة سيادتها وللملك هيئته ومكانته .

(١) البستان الظهير : مخطوط سابق ص ٤٦ .

المولى محمد بن عبد الله (١١٧١ هـ - ١٢٠٤ هـ) :

كان المولى محمد بن عبد الله نائباً عن أبيه المولى عبد الله - في مراکش ، وكانت في ذلك الوقت في حالة سيئة بسبب ما أصابها من الإهمال ، فشرع في تعمير القسبة - لكن عرب الرحامنة وقفوا في وجهه لأنهم كانوا قد ألفوا حياة الفوضى فأحبوا ألا تكون بها دولة تكبح جماحهم - فلم يقف المولى محمد في وجههم في بادئ الأمر بل انتقل من مراکش إلى آسفى حيث تسابق أهلها على إستقباله والترحيب به - ولم تلبث أن عمرت مرسى آسفى وراجت أسواقها مما أثار الغيرة في نفوس القبائل المراكشية ، فاجتمعت طائفة من أعيانهم وقدموا عليه في آسفى وقدموا له الهدايا وأقسموا ألا يبرحوا المكان إلا إذا سار معهم إلى مراکش ، فأجابهم المولى محمد إلى طلبهم ^(١) .

ومن ذلك الوقت شرع المولى محمد بن عبد الله في تعمير مراکش فأسس بها دارين : الدار الكبرى ، والقصر الأخضر . وغرس بين القصرين بستاناً ، كما أسس بها المساجد وبنى مدرستين لطلبة العلم ، وهكذا قدر للمولى محمد بن عبد الله أن يتمرس على الإدارة والسياسة في حياة أبيه ، وقد ظهر منه في هذه الأثناء حسن السياسة وجودة الرأى حتى أحبه القلوب وعلقت به الآمال .

فلما توفى والده في عام ١١٧١ هـ - أجمع الناس على مبايعته فبايعه أهل مراکش أولاً ثم وافته بيعة أهل فاس وسائر جهات المغرب بعد ذلك .

ولما كانت الإضطرابات التي عمت المغرب في الفترة السابقة قد أدت لإضطراب مالية الدولة - فقد حرص المولى محمد بن عبد الله عقب بيعته على ضبط علفات أبيه من أموال - سواء الموجود منه ببيت المال أو المتفرق عند

عمال الأقاليم وغيرهم ، وفرض المكوس على سائر أمصار المغرب بعد أن أفتى العلماء بجواز فرضها لإعداد قوة الدفاع عن البلاد ، وللصرف على المشروعات العمرانية ^(١) .

وعكف بعد ذلك على تنظيم الإدارة الحكومية فلم يعزل أحداً من قواد القبائل وعمال الخواضر الذين كانوا في دولة أبيه ، ولم ينكب أحداً إلا بعد الاختبار ، فأبقى الصالح منهم وثبته ، وتخلص من الطغاة والمستبدن والفسادين .

وبعد أن استقرت الأوضاع للمولى محمد بن عبد الله خرج للثغور المغربية ليتفقد أحوالها وتحصيناتهما فزار تطوان ، وفي طريقه لطنجة عاين تحصينات سيديته وتحقق له أنها تستلزم إستعداداً خاصاً لإستخلاصها من يد الأسبان وزار العرائش وسلا ، ومنها إلى رباط الفتح حيث أمر ببناء (برجين) بها ، وقفل عائداً إلى عاصمة الدولة مراکش .

وبعد ذلك قام بجولة داخلية بمائلة زار فيها المناطق الغربية من مملكته ، وقضى فيها على مثيري الفتن والقلق في بلاد الشاوية ، وجهمة (تادلا) ، والحسانية ، فاستتب النظام وساد الأمن .

وكان اهتمام المولى محمد بن عبد الله بالجيش والأسطول المغربي عظيماً . فقد أدرك أنه إذا كان يريد أن يؤمن سواحل المغرب وثغوره من أطماع الأجانب وأن يؤمن بلاده وعرشه من العابثين بالأمن والطامعين في الملك - لا بد أن يكون رهن إشارته جيش وأسطول على أتم الإستعداد لرد أى عدوان وقمع أى ثائر . وقد كان يباشر الحروب بنفسه ، ويعتني رجال الجيش ويجزل لهم العطاء ويعدمهم لأيام الحرب والنزال .

(١) انظر فتاوى العلماء في ذلك - الاستقصا - ٨ من ٧ - ٩ .

ولقد كان الجيش أيام المولى اسماعيل أداة قوية للدفاع والحراسة. لكن — كما رأينا — أصبح بعده مصدر شغب وإضطراب ، فلما تولى المولى محمد استطاع بالترغيب والإغداق حيناً والإرهاب والقمع حيناً آخر أن يقضى على مديري الفساد كما فعل مع فرق العييد بطنجة والعرائش — فقد وزع أفرادها على عدة قبائل فقضى على عصبيتهم واستطاع أن يكون من الموالين له والطائعين والمحترمين للنظام جيشاً عظيماً لم يدخل عليه بمال ، وقرب قواده ورجاله إليه فتفانوا في تنفيذ أوامره .

واهتم المولى محمد بن عبد الله بالثغور المغربية فقوى تحصياتها، وجدد وسائل الدفاع عنها ، وجعل في كل منها حامية خصص لها بيت مال تدفع منه مرتبات الحامية التي كانت تدفع كل ثلاثة أشهر دفعة واحدة . ويورد صاحب البستان بياناً بحامية كل ثغر من ثغور المغرب ، وقد قدر جملة عساكر الثغور بستة عشر ألفاً وخمسمائة . (١)

ويرجع الفضل للمولى محمد بن عبد الله في بناء مرسى (الصويرة) الذي جعله الميناء التجارى الأول للمغرب ، وأعفى البضائع الأوربية الواردة إليه من الجمارك ، ليشجع الأوربيين على استخدام هذا الميناء . وقد اختلفت الآراء في الدافع الذى دفع المولى محمد لبناء هذا الميناء . فقد ذهب البعض إلى أن مراسى العدوتين والعرائش لم تكن صالحة لرسو السفن إلا في فترة معينة من العام إذ أن الرمل يعلو بأفواه هذه المراسى في فترة من العام فيتعذر رسو السفن بها — ولذا بنى ثغر الصويرة ليكون صالحاً للملاحة طوال العام . (٢)

لكن ذهب آخرون إلى غير ذلك فذكروا أن حصن (أكادير) كان يتداوله دائماً الثوار من أهل السوس فلجأ المولى محمد بن عبد الله لإحداث مرسى الصويرة بالقرب منه وحصنه بالمدافع وشيد لحمايته برجاً على صخرة داخل البحر ليكون هذا الحصن في مأمن من اعتداء ثوار السوس .

(١) الزباني: البستان الطريف المخطوط السابق ذكره ، ص ١٠٢ .

(٢) ذكر هذا — أبو العباس أحمد بن المهدي الفزالي — رحلته — والبستان الطريف ،

واهتم المولى محمد بن عبد الله ببناء أسطول بحرى قوى يدافع عن الشواطىء والثغور المغربية ، فاهتم بإحياء دار صناعة السفن ، وطلب من بعض التجار الأجانب المواد اللازمة لبناء السفن بطريق الشراء فجلبوا له من ذلك الشيء الكثير . وقد أرسل السلطان مصطفى العثماني عام ١١٨١ هـ هدية للمولى محمد بن عبد الله عبارة عن مركب موسوق بالمدافع و (المهاريس) النحاسية ، والخطاطيف والقلوع والحبال وغير ذلك من آلات البحر ، وفيها ثلاثون من مهرة الصناع الذين لهم دراية بصناعة المراكب ومنهم من يجيد الرمي بالمحار ، فلما وصل السلطان إلى مكناسه وأحضروهم أمامه اتفق معهم على المقام بالمغرب ، فأرسل المختصين منهم في صناعة المراكب والشئون البحرية إلى الموانئ المغربية للعمل بها ، ويحث المعلمين في العتاد الحربي إلى فاس ، وقد اشتغل كل بجهته عملاً وتعليماً ، فاستفاد منهم كثيرون من المغاربة (١)

وقد أظهر الأسطول المغربي قدرته وكفايته حين التقى بأساطيل الدول الأوروبية التي كانت ترغب في أن يخلو لها حال العمل في البحر المتوسط والمحيط الأطلنسى .

وحدث تصادم بين الأسطول المغربي والأسطول الفرنسي ، وأسر الأسطول المغربي قطعاً من الأسطول الفرنسي ساقها للموانئ المغربية ، فثارت ثائرة الفرنسيين وردوا على ذلك بشن هجوم بحري في عام ١١٧٨ هـ على ميناء (سلا) . لكن الأسطول المغربي ردهم على أعقابهم ، ولحق أسطولهم نفس المصير حين عاودوا الكرة على ثغر العرائش في عام ١١٧٩ هـ .

وظهرت أهمية الأسطول المغربي بعد ذلك حين اتجهت أنظار المولى محمد

(١) الاستقصا - ٨ من ٣١ - ٢٣ .

- وقد عدد المراكب (القرصانية) في دولته بمشرين مركباً بالإضافة إلى ثلاثين من (الفراكت) و (الفلائط) - وبأن عسكر البحرية ألقاً من اللقارفة ، وثلاثة آلاف من اللقارفة وألقب من الطابجية .

(له ١٥ - المغرب)

للموافى المغربية التي كانت لا تزال في أيدي المستعمرين ، فضبق الأسطول
المغربي الحصار على المستعمرين في هذه الموانئ .

وفي عام ١١٨٢ هـ هاجم المولى محمد الجديدة^(١) يحش جرار وضيق الخناق
على الحامية البرتغالية بها حتى أرغمها على الاستسلام والجلء عن البلاد .^(٢)

وانتهت نية المولى محمد إلى تفتيح سبيله ومملكته من يد الأسبان فحاصر مليلة
في عام ١١٨٤ هـ ولما اضطر لذلك الحصار عنها ، ويقال إنه اضطر لذلك وفاء
بشروط معاهدة كان كاتبه النوال قد أمضاها مع الأسبان .^(٣)

هذا وقد نالت - بخلاف ذلك - علاقة المغرب مع الدول الإسلامية والدول
الأوروبية الأخرى ودية ، وتبدلت السفارات والهدايا بين المولى محمد بن
عبدالله والسلطان محمد الثاني العثماني ، واستمرت هذه العلاقات الطيبة في عهد خليفته
السلطان عبد الحميد العثماني فكانت سفارة (أبي القاسم الزياني) مصحوباً بهدية
فاخرة من السلطان المغربي . وكان ملوك الترك يخاطبون السلطان المغربي بالتبجيل
والإحترام وبمدهم هو بالأموال والهدايا حتى علا عيته عندهم وحسبوه أكثر
منهم مالا ورجالا واشتهر عنه (أنه كان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر) .

وقد صاهر بإبنته الشريف سرور سلطان مكة ، بعثها المولى محمد مع ركب
الحاج المغربي المسافر إلى الحجاز مع هدايا فاخرة بعث بها لامراء طرابلس
ومصر والشام ولأهل الحرمين الشريفين . وكان في جهاز إبنة السلطان هذه
ما يزيد على مائة ألف دينار من الحلوى والياقوت والجواهر .^(٤)

(١) كان مباء (الجديدة) مارال في يد البرتغال - بينما (سبتة) و (مليلة) في
يد الأسبان .

(٢) يذكر لويماريه (Louis Mariè) أن الذين حلوا عن هذه المدينة من البرتغال
انتقلوا إلى الرزائل وبثوا هناك مدبنة سموها (مازاكان) الثانية . على اسم الجديدة .

(٣) البستان الظريف (المخطوط السابق) ، ص ١٠٩ .

(٤) الاستقصا ص ٨ ح ص ٣٤ .

ومما يذكر للمولى محمد بن عبد الله سميه لفك أسرى المسلمين في أوروبا ، وقد كانت للأولى محمد منزلة عند ملوك أوروبا حتى أنهم كانوا جميعاً حريصين على إرسال رسلهم له بالهدايا والتحف ، كما كانوا يوسطونه للتفاهم مع الحكام العشائين بالجزائر لإلحاق سراح الأسرى من الأوروبيين في مقابل إطلاق سراح أسرى الجزائريين الذين بأيدي الأوروبيين ، حتى لم يبق أسير مسلم في أيدي أعداء المسلمين بينما قدر عدد الأسرى في سنة ١٢٠٠ هـ بثمانمائة وأربعين ألف أسير^(١) . وعقدت بين المغرب في أيامه والدول التجارية الأوروبية (فرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا) ، والولايات المتحدة الأمريكية - معاهدات للتبادل التجاري ، كما عقدت معاهدات مع الدانيمرك والسويد تهتد فيها الدولتان بدفع التزامات مالية للمغرب لحماية سفنها ورعاياها في سفلاتهم البحرية في البحر المتوسط وبين النفور المغربية .

ولم يكن المولى محمد بن عبد الله حاكماً سياسياً وقائداً حربياً فحسب ، لكنه اشتهر أيضاً بحبه للعلم ، العلماء . فقد كان يقربهم لمحلته - وطلب من بلاد الشرق الكثير من كتب الحديث التي لم تكن بالمغرب ، وكان يجلس بعد صلاة الجمعة في مقصورة الجامع بمراكش مع الفقهاء والعلماء للمذاكرة في الحديث الشريف وتفهيمه ، وفيل ، لأنه كان يحفظ الكثير من شعر العرب في الجاهلية والإسلام ، وكان يحذو حذو المنصور السعدي في تخصيص أوقات مضبوطة لمجالسة العلماء والمذاكرة معهم - وقد نهى عن إشتغال طلبة العلم بقراءة (المختصرات) في الفقه دون أمهات الكتب الواضحة ، وطالب بأن يرجع في الأحكام إلى الكتاب والسنة . أما أوقافه على الحرمين وعلى طلاب العلم وكتبه العلمية المحبسة فلا تحصى ولا تعد . وما تركه من آثار عمرانية من بناء مساجد وأضرحة ومدارس يقصر عن العدد والحصر .

ومن أشهر وزراء المولى محمد بن عبد الله - الوزير الشهير أبو عبد الله محمد العربي قادوس ، كان ركناً قوياً من أركان دولته : اشتهر بالذكاء والفطنة وأطمان إليه السلطان فعهد إليه بتنفيذ سياسته فظل كذلك حتى نهاية عهده .

المولى يزيد بن محمد (١٢٠٤ هـ - ١٢٠٦ هـ) :

كانت للمولى يزيد مكانة خاصة عند والده فكان يرشحه للخلافة ويقدمه على كبار اخوته ، كما كانت له مكانة مرموقة عند أهل المغرب الذين عرفوا فيه الكرم والشجاعة ورغبته في الجهاد - لسكن جماعة من البربر وغيرهم كانوا ملازمين له حسنوا له الخروج على والده وانتزاع الملك منه فلما وصلت هذه الاخبار للسلطان أرسل أحد قواده للقبض عليه - ففر المولى يزيد ، واتصل خبر فراره بالسلطان فعفا عنه . (١)

ولما توفي السلطان المولى محمد بن عبد الله بايعه أهل تطوان حيث كان قريباً منها ، ثم وفدت عليه وفود طنجة والعرائش وأصيلا وأعقبت ذلك بيعة أهل المغرب عامة له .

وبدأ المولى يزيد يعمل بهمة لإتمام ما بدأه أبوه من حماية الثغور والشواطئ المغربية معتمداً على القوة البحرية والبرية التي أصبحت للمغرب ، وصمم على إجلاء الأسان من باقى الثغور المغربية فحاصر سبتة مدة ، وأرسل لقبائل الحوز يستنفرها للجهاد والمرابطة والمساعدة في هذا العمل الوطنى - لكنهم تقاعدوا عنه بل خلعوا بيعته ، كما سنوضح بعد ، واضطر المولى يزيد أن يفك الحصار عن سبتة بعد أن كاد يستخلصها .

وعاد المولى يزيد لمواجهة هذه القبائل التي خرجت على بيعته وأعلنت طاعتها وبيعته لأخيه المولى هشام بن محمد ، واحتدم القتال بين الأخوين . والتقى الجمعان في مكان يقال له (تازكورت) ، وانزعم جمع المولى هشام ، وتبعهم المولى يزيد لكنه أصيب برصاصة مات بسببها في عام ١٢٠٦ هـ .

وقد أدى موت المولى يزيد الى تفريق الكلمة بالمغرب . فيما تمسك أهل الحوز وأهل مراكش ببيعة المولى هشام - بايع أهل الجبل أخاه

(١) البشتان الطريف : (المخطوط السابق) ص ١٤٢ ، ص ١٦١ .

مسلمة ، بينما بايع أهل فاس وأعمالها المولى سليمان بن محمد . وغلب نفوذ المولى سليمان ومحبة الجماهير له على أخويه فتمت له البيعة العامة .

المولى سليمان بن محمد (١٢٠٦ — ١٢٣٨ هـ) :

عرف المولى سليمان — حتى قبل توليه الملك — بالقوى واشتغاله بالعلم ، والعكوف عليه — فلم يلتفت إلى شيء مما كان يتعاطاه أخوته الكبار والصغار من أمور اللهو ، ومعاقرة التدمان — وكان يميل إلى جبر القلوب والدفاع بالتي هي أحسن . وكان هذا ما جعله أعلق بقلب أبيه من سائر أخوته . ولذا فقد بويع كما يقول صاحب الاستقصا — مطلوباً لا طالباً ، ومرغوباً لا راغباً ، ولما بويع كان ثلاثة من أخوته يزاحونه في المنصب فلم يزل أمرهم يضعف وأمره يقوى إلى أن تخلص من مزاحمة الجميع من غير ضرب ولا طعن ، ولا بارز أحداً منهم قط ولا واجهه بسوء ، (١) .

ولما تولى الأمر أحبته قلوب الرعية أكثر ، ولهجت به الالسة — وكانت أيام حكمه — في غالبيتها — أيام سعادته وأمن ورخاء في الأسعار فأثنى عليها الجمل الخفير بمن أدرك أواسط دولته وذهبوا في إطرائها كل مذهب ، لولا ما كدر آخرها من فتنة البربر التي جرت منها فتناً أخرى .

وبعد ما بويع المولى سليمان — أصدر أوامره بإسقاط المكوس التي كانت مفروضة في حواضر المغرب على الأبواب والأسواق وعلى السلع والغلال ، وكان ما يجمع من هذه يكفي مؤونة العسكر ومصاريف دور السلطان وسائر تعلقاته — لكن السلطان زهد في هذا المال واكتفى بدخل المراسم والأعشار من القبائل . ولقد كان الحلم من أبرز صفات المولى سليمان حتى وصفه البعض بالضعف والتساهل في معاملة المجرمين والخارجين على سلطانه ، فقد كان مذهبه درء الحدود بالشبهات ، والتماس وقبول العذر . والأمثلة على ذلك كثيرة —

(١) الاستقصا ج ٨ — ص ٨٦ ، ١١٢ —

— والبستان الطريف (المخطوط السابق) — ص ١٦٢ .

فقليل لأنه لما قامت الفتنة في فاس وأرسل جيشه لقمعها ووصل فاس وظفر
برؤوس الفتنة عما عنهم وقال لهم : « لا تريب عليكم اليوم - يفر الله لكم
وهو أرسم الراحين » وتمجلى الخروج من فاس مخافة أن يفر به بعض بطانته
بأحد منهم .

ويذكر صاحب البستان أنه لو تحدثنا بما شاهدناه من عدله ونديد وتقواه
لكان عجباً . فقد كان يمين ليالى رمضان .. ويتنقى لذلك مشايخ القراء ،
وأعيان العلماء لسرد الحديث ونفهمه والمذاكرة فيه على مر الليال والأيام ،
يشاركهم بغزارة علمه . ويواظب على صيام الأيام المستحبة من كل شهر ،
ويعظم العلماء ، ويرفع مقامهم ويمجى علمهم الأرزاق - حتى لو تناقص الناس
في أيامه على إقتناء العلم لإعتزاز العلم وأدله وسعة أرزاقهم (١) .

ويذكر النىء السكثير عن تقشفه في ملبسه وما كله حتى أنه في سفراته لم
يكن يـطـحـب معه إلا طعاماً يسيراً يكفيه ومن دمه دون إسرائ ، ويعقب
صاحب البستان على ذلك بقوله : « إن أهل المغرب لن يدركوا عظمة هذا
السلطان و عدله إلا بعد تغيبه وفقد ، ويستشهد بقول الشاعر :

المرء ما دام حياً يستهان به ويعظم الروء فيه حين يفتقد

وقد ذكر إن المولى سليمان كان زاهداً في الحكم وأنه صرح بأن نفسه
تحدثه مراراً بأن يترك هذا الأمر (أى الحكم) ويتجرد لعبادة ربه حتى
يموت (٢) .

أما أعماله العمرانية فهي عديدة ، ففي فاس بنى المسجد الأعظم بالرصيف ،
ووسع مسجد الديوان ومسجد الشرايليين ، كما جدد بناء مدرسة الوادى

(١) الزينى . البستان الطريف (المخطوط السابق الإشارة إليه) . ص ١٨٤ .

(٢) المرجع نفسه ونفس الصفحة .

ومدرسة العنانية ، وبني باب الفتوح ، وباب بني مسافر ، وبني قنطرة الوادي بينهما ، وقنطرة وادي الرصيف ، وقنطرة وادي سبو . هذا بالإضافة إلى عدة مساجد وقناطر في مختلف مدن المغرب حتى لا تسكاد تخلو مدينة من أُر مز آثاره العمرانية .

وكانت سياسة المولى سليمان الخارجية مع الدول الأخرى نابعة من طبيعته في الجنوح إلى السلم ومحاولة فسر المشكلات ، بالتهاهم ، فلما أستول الأتراك العثمانيون على مدينة (وجده) كتب إلى الباي محمد باشا باي الجزائر يطلب منه أن يتجلى عن وجده وقائلها حقناً للدماء بين الطرفين . فامثل الباي محمد لذلك وكتب إلى نائبه بها أن يتركها لأربابها ، ودخل جيش السلطان وجده في عام ١٢١١ هـ واستخلف نائبه بها .

وكاد يحدث اصطدام جديد مع الأتراك . ففي عام ١٢٢٠ هـ ثار أهل تلمسان واخلعوا طاعة الترك وأعلنوا مبايعتهم للسلطان المولى سليمان وخطبوا له على منابرهم وجاءت وفودهم تعلن للمولى سليمان أنهم يرومون الاستقلال بظل عدله . لكن المولى سليمان لم يشأ أن ينتهي هذه الفرصة ليعلن ضم تلمسان للمغرب ، بل أرسل قائده أبا السرور عياد بن أبي شفرة الوديني - ليصلح بين الأتراك وأهل تلمسان ، ونجح القائد في ذلك . ولما جلا كثيرون من أهل تلمسان عنها إلى بلاد المغرب هربا من القحط الذي كان قد عم البلاد حتى غدت الآفوات - أضطر المولى اسماعيل أن يعينهم بالعطاء والصدقات المرة بعد المرة حتى كان عطاؤه إياهم كالراتب المفروض (١) .

وكانت علاقات المغرب وتونس أيضاً ودية - فقد أرسل والي تونس حمودة باشا يستنجد بالمولى سليمان ويطلب الإمداد بالميرة لحدوث المشقة بالبلاد التونسية فأمدّه بما طلبه .

ولما استولى عبد الله بن مسعود الوهابي على الحرمين الشريفين بعث كتبه إلى

(١) الاستقصا - ٥ ص ١٠٩ - ١١١ .

الآفاق كالعراق والشام ومصر والمغرب يدعو إلى مذهبه ، فأرسل المولى سليمان رده على الرسالة مع ولده المولى إبراهيم بن سليمان حين سافر للحج - وكان المولى سليمان متفقاً في الرأي مع وجهة نظر هذه الحركة الإصلاحية .

وقد كانت سياسته تجاه أوروبا تنقسم بطابع الحذر والخوف والرغبة في أن تكون علاقاته بالأوروبيين في أضيق نطاق ممكن . ولذا فقد ألزم الأوروبيين بعدم تجاوز الموانئ المغربية إلى الداخل ، وحدد إقامة قناصل الدول الأجنبية في (طنجة) — بل وصل الأمر في عام ١٢٢٣ هـ أن حد من تحركات الأسطول المغربي في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي حتى لا يحدث أى اصطدام بأساطيل الدول الأوروبية .

هذا وقد كانت الفترة التي قامت في عام ١٢٢٦ هـ بين قبائل البربر - بداية الإضطرابات التي انتشرت بعد ذلك في المغرب في الفترة الأخيرة من حكم المولى سليمان ، خاصة بعد أن توالى هزائم جيش السلطان على يد البربر فساروا ينيهون أموال الناس ومتاعهم . فانتشرت روح العصيان والعوضى بين القبائل فصارت تغلب القوية على الضعيفة ويتحالف الأقرباء على الأبعد ويضايق أهل البوادي سكان المدن ، فعمت القلاقل المغرب كله ، وكانت نار الفتنة لا تسكد تنجو في منطقة حتى تظهر ونشتد في منطقة أخرى .

ولما اشتد المرض على المولى سليمان عهد بالخلافة لابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام رغم كثرة أولاده ووجود بعض إخوته . وذلك لما اشتهر به المولى عبد الرحمن من العدل والأمانة ، وكما يقول صاحب البستان ، إن هذا العهد لمنقبة جليلة للعاهد والمعهود إليه ،^(١) . وتوفي المولى سليمان في ثالث عشر ربيع الأول عام ١٢٣٧ هـ .

(١) الزباني : المخطوط السابق الإشارة إليه .

المولى عبد الرحمن بن هشام (١٢٣٨ - ١٢٧٦ هـ) :

عرف المولى عبد الرحمن بن هشام - منذ نعومة أظفاره بالتقوى والورع والعفاف مع الحزم ووضع الأمور في نصابها . وقد عرف له عمه المولى سليمان هذه الصفات فولاه ثغر (الصويرة) وأعمالها ، واستخلفه في آخر عمره على حاضرة المغرب فاس وعهد إليه - كما رأينا - بالأمر بعده دون سائر أولاده وإخوته .

فلما وصل إلى فاس خبر وفاة السلطان المولى سليمان - في ربيع الأول سنة ١٢٣٨ هـ بايع سائر أعيان فاس المولى عبد الرحمن بن هشام ، ثم وفدت بعد ذلك بيعات الأمصار المختلفة بالمغرب - حتى البربر الذين كانوا قد أثاروا الإضطرابات في نهاية حكم المولى سليمان جاءوا مبايعين . وقد استوزر السلطان الجديد الفقيه أبا عبد الله محمد بن إدريس الفاسي .

ولما فرغ السلطان المولى عبد الرحمن من أمر الوفود التي أتت للبيعة والتهاني بفاس - نهض من فاس متجولا لتمعّد أحوال الرعية والمملكة ، فزار رباط الفتح ومكناسه ومراكش وغيرها من البلاد المغربية .

وكان في جولاته هذه يسوس أمر القبائل ويحل المشكلات الهامة التي كانت تتعلق بأمن الدولة وسيادتها ، وكانت سياسته تتأرجح بين اللين والتغاضى عن الأخطاء السابقة - يظهر ذلك في صفحته عن زعيم البربر محمد بن الغازى الزمورى - وبين الشدة التي تتمثل في توليته ابن عمه أبى محمد بن الطيب أمر مدينة فاس ، ثم على قبائل تامسنا ودكالة ثم جعله والياً على وجدة وقبائل الشرق - فأخضع كل هذه الأقاليم للسلطان المولى عبد الرحمن - بما اتصف به هذا الوالى من شدة الشكيمة والبطش بالعصاة (١) .

وقد تمت في عهد المولى عبد الرحمن عدة مشروعات عمرانية نذكر منها :

(١) الاستقصا - ٩ ص ١٢ .

إعادة بناء مرسى طنجة بعد أن كان قد تهمد وأصابه الدمار ، وتجديد الحرم الإدريسي بفاس ، وبناء مسجده ونوسيمه ، وبناء البرجين العظيمين بمدينتي (سلا) و (أشبار الكبير) ، والمارستات ، طريف الشيخ ابن عاشر ، وبناء فصيدة الصحيرات ، وبوزيقتة بين الرباط والدار البيضاء ، وتجديد أبراج الصويرة . ومن آثاره بما كشف أجدال الذهب ، وتجديد جامع المنصور بالقصبة ، وجامع الكتبيين ، وتجديد بمقتان آمنة المريمية بهاس ، وكثير غير ذلك من المساجد والمباني التي أقيمت أو جددت .

أما عن علاقات المغرب الخارجية وسياسة في عهد المولى عبد الرحمن ، فقد عاصرت فترة حكمه أحداً كان لما أثر خطير على تاريخ المغرب العربي كله — فقد استولت فرنسا على الجزائر في عام (١٢٤١ هـ / ١٨٣٠ م)^(١) وكان هذا بمثابة تهديد موجه لكل المغرب العربي .

وقد أراد السلطان المولى عبد الرحمن في عام ١٢٤٣ هـ أن يعيد للأسطول المغربي مجده بعد فترة الركود التي شهدتها في عهد المولى سليمان — فبدأت حركته لإحياء الأسطول المغربي ليسترجع نشاطه في البحر وليفرض سلطته في المياه والغور المغربية .

وترتب على هذا إحتكاك مع أساطيل بعض الدول البحرية التي اعتادت دخول المياه الإقليمية المغربية دون ترخيص وإذن سابق . ومن ذلك ما حدث حين اعترض الأسطول المغربي بعض القاطع البحرية لمملكة (نابولي) الإيطالية وأدى هذا في عام ١٢٤٥ هـ إلى هجوم القاطع البحرية التابعة لنابولي على ثغر العرائش ، ودارت معركة بحرية ونجح الأسطول المغربي في رد المهاجمين بعد أن قتل عدد منهم وأسر عدداً آخر .

(١) سستاول — بالطبع — هذه الأحداث بالتفصيل في الفصل الثامن من هذا الكتاب .

لكن للأسف لم تستمر الجهود المبذولة لتقوية الأسطول المغربي وتطويره ليسار التطورات السريعة في أساطيل دول أوروبا البحرية ، ولتطبيق القوانين البحرية التي بدأ العمل بها ، فلما وضع السلطان عبد الرحمن حداً لفرص الإحتكاك مع أساطيل الدول الأوروبية — بعد نشاط الأسطول المورى فساد لما كان عليه قبل عهده .

لكن استيلاء الفرنسيين على الجزائر في عام ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م فتح الباب على مصراعيه لإحتكاك جديد بين المغرب والدول الأوروبية التي أصبحت أنظارها موكزة أكثر على المغرب بمرقعه الفريد ، وثغوره المدنازة على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي .

ولما استولى الفرنسيون على ميناء الجزائر — إلتجأ أهل تلمسان إلى السلطان عبد الرحمن طالبين الإنضواء تحت لوائه ، وطلبوا من عامله بمدينة رجدة النائب (أبي العلاء ادريس الجوارى) أن يتوسط لهم عند السلطان في قبول بيعتهم ، والظر لهم بما يصلح شأنهم ويجمعهم من الهدو الأجنبي ، كما عينوا جماعة منهم للسفر إلى مكناسه لئلا كبّد هذا الطلب . وقد تردد السلطان في هذا الطلب إذ خشى أن يسبب له مشكلات مع الدولة العثمانية ، فقد كانت تلمسان في ذلك الوقت تتبع الجزائر العثمانية . وإذا استلقى السلطان علماء فاس فأفتى بعضهم بعدم قبول إنضمام أهل تلمسان ، بينما أفتى البعض بعكس ذلك . لكن رد علماء تلمسان على أصحاب الرأي الأول بأن فتوهم قائمة على غير أساس فهم ليست في أعناقهم بيعه للسلطان العثماني ، وعامل الجزائر — كما يقولون — كان خاضعاً إسمياً فقط للسلطان العثماني لكنه لم يكن يمثل حقيقة لأوامره .

فأعلن المولى عبد الرحمن قبول إنضمام أهل تلمسان للمغرب وإعتبار بلادهم جزء منها وقبل بيعتهم وعين ابن عمه (المولى علي بن سليمان) والياً عليهم وأرسله مع كتبية من جنود الودايا والعبيد والطبجية لحفظ النظام والأمن بهذه البلاد ، وزود السلطان واليه ومن معه بالنصائح للعمل لما فيه خير أهل تلمسان ، وأمرهم

بالوهد فيما في أيدي الناس ، وأن كل ما يحتاجون إليه بما لا بد منه يخبرونه عنه ليصلهم فوراً .^(١)

ولما استقر المولى علي في تلمسان قدمت عليه الوفود وأخذ عليهم البيعة للسلطان . لكن لم يلبث أن تمرد عليه بقايا الأتراك من (الكارغلية) بالإضافة إلى بعض القبائل . وزادت الاضطرابات بعد دخول الفرنسيين مدينة (وهران) ، وصرت الفوضى إلى جيش السلطان نفسه المرابط في تلمسان . فلم يسع المولى عبد الرحمن إلا استرجاع تلك الجيوش للمغرب والحلاء عن تلمسان .

وقعة اسلي :

كانت العلاقات بين فرنسا والمغرب قد تحسنت بعد أن عقدت معاهدة في عهد السلطان محمد بن عبد الله ، فتحت عهداً اقتصادياً جديداً بين الدولتين أسوة بسياسة السلطان المغربي مع الدول الأوروبية الأخرى .

لكن حدث في عام ١٢٦٠ هـ / ١٨٤٤ أن ازداد ضغط الفرنسيين على الأمير عبد القادر الجزائري ، وكان يجمد - كلما ضيق عليه الفرنسيون الخناق - في المغرب منجى ومتساعاً وسنداً يتنقل في أطرافه ، فتارة بالصحراء ، وتارة بين يزناس وتارة بوجدة والريف وغير ذلك - حتى يستجمع قواه ويستأنف كفاحه . فلم يرق ذلك للفرنسيين ، واتخذ الجنرال بيجو (Bugeaud) منه مبرراً لمهاجمة المغرب . فشن الغارة على وجدة وأعمالها المرة بعد المرة وتعرضت الدولة المغربية على الحدود الشرقية بين المغرب والجزائر لمهاجمة الجنود الفرنسيين وعيبتهم .

وكتب الجنرال بيجو إلى حاكم وجدة المغربي يبرر هذا العمل ويحدد مطالب

(١) أنظر نص خطاب السلطان لواليه ونصائحه له (مؤرخ الثالث عشر ربيع الثاني عام سنة وأربعين ومائتين وألف) .
الاستقصا - ٩ من ٢٩ ، ٣٠

الفرنسيين في طرد الأمير عبد القادر من البلاد المغربية حينما يلتجئ إليها ، وألا يقبل المغرب من يقتل إليه من رعايا الأمير ، وأن تشرح الجيوش المغربية المرابطة على الحدود والتي تقدم العون للأمير عبد القادر .^(١)

ولم يتح الفرنسيون فرصة للتفاوض في هذه المطالب فقد إقتحموا وجدة واستولوا عليها بدعوى أن فرقه إستطلاعية فرنسية تعرضت في ٣٠ مايو ١٨٤٤ لهجوم غادر من الجيش المغربي في وجده .

وأعقب الفرنسيون ذلك بإرسال أسطولهم بقيادة الأمير جوفانيل (Joinville) فقام في ٦ أغسطس ١٨٤٤ بإلقاء حممه على ميناء طنجة المغربي ثم أنزل جنوده فيه^(٢) .

قلم يكن أمام السلطان المولى عبد الرحمن إلا أن يستنفر القبائل للدفاع عن الوطن ، فأعد جيشاً كبيراً تحت قيادة ولده وخليفته المولى محمد ، وسار حتى نزل بوادي إسلي من أعمال وجده^(٣) حيث دارت معركة حامية الوطيس انهزم فيها الجيش المغربي .

وفي نفس الوقت هاجم الأسطول الفرنسي ميناء الصويرة المغربي ، وأنزل جنوده به ويقول أندريه جوليان إن الفرنسيين كانوا في ذلك الوقت يهدفون للوحف إلى فاس - لكن تدخل أنجليترا ، عدم رغبة فرنسا في فتح باب آخر للخلاف معها وقف حائلاً دون تحقيق ذلك .^(٤)

(١) محمد بن الأمير عبد القادر الحسي : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر (الاسكندرية ١٩٠٣) ص ١ من ٢٩٠ - ٢٩١ .

Julien, André : Histoire de L, Afrique du Nord (Paris 1931) p. 604

(٣) ، نعم (إسلي) على بعد ٣ كيلو مترات شمال غرب وجده .

تعاويل المعركة أنظرها في الإستقصا ص ٩ من ٤٩ - ٥٣

ويقدر صاحب كتاب تحفة الزائر عدد الجيش المغربي بعشرين ألف مقاتل ، ويدكر أنه لأهمية الموقعة في نظر الفرنسيين لقبوا الجنرال بيجو بعدها بدوق إسلي .

Julien, Andre : op. cit. p. 605

انظر تحفة الزائر ص ١ من ٢٩١

فقد كان إستيلاء فرنسا على ميناء طنجة الهام في المدخل الغربى للبحر المتوسط يعنى تهديداً للسيادة البحرية التى كانت تحرص إنجلترا على أن تحتفظ بها .

ولذا جرت بين المغرب وفرنسا مفاوضات انتهت فى ١٠ سبتمبر ١٨٤٤ بالتوقيع على معاهدة طنجة — وقد قضت هذه المعاهدة :

١ — بإستحاب العساكر المغاربة من وجده وما إليها فى الحدود الشرقية .

٢ — تنهيد الحكومة المغربية بإزالة العقاب من يتعدى الحدود المغربية الجزائية .

٣ - إخراج الأمير عبد القادر من البلاد المغرب إذا ما التجأ إليها ، وإن بقي فيها فلا يحصل على أية معونة من حكومة المغرب ، وتحدد إقامته فى بلدة ما فى غرب البلاد .

٤ — عينت الحدود الفاصلة بين البلدين .

وفد حدث صدام آخر بين الفرنسيين والمغاربة فى عام ١٢٦٨ هـ — ١٨٥١ م ، حين رست بمرافأ سلا المغربى سفينة فرنسية تحمل قمحاً ، وكانت البلاد تعاني قحطاً فنهب العامة السفينة ، فأرسلت فرنسا أسطولاً هاجم البلد ، واستندوا على ذلك فى إلزام السلطان بالتوقيع على وثيقة بتصفيصة بعض الأمور التى كانت معلقة بين البلدين ^(١) .

نتائج موقعة أسلى :

١ — أثرت هذه الأحداث فى مركز المغرب السياسى والدولى — فلم يقتصر

(١) حقى ، إحسان : المغرب العربى (بيروت ، د . ت) ص ١٣٣ .
ملاحظة : تولى بيجو فى مايو عام ١٨٤٩ م عن ٦٥ عاماً .

الأثر على ما قالته فرنسا من امتيازات بموجب المعاهدة التي عقدتها مع المغرب فقد حصلت لإنجلترا هي الأخرى على تسهيلات إقتصادية - كما أسلفنا عن الدنيارك والسويد ما كانا يلتزمان به للمغرب سنوياً في مقابل حمايتهم البحرية (١)

٢ - تأثرت الأحوال الإقتصادية بالمغرب بهذه الأحداث - فارتفعت أسعار السلع وعم البلاد النحس بشكائهم أروهم كابل العامة .

٣ - أظهرت موقعة إسلى حاجة المغرب للمادة الخشبية فمدرت على الإصاليب البحرية الجديدة ، وقد كشفت هذه المعركة نواحي الضعف والخلل في الجيش المغرب آنذاك (٢)

٤ - بدأت بعض الدول اللامعة في المغرب وتغوره - كاسبانيا مثلاً - تخرج من عزلتها وتحاول تحقيق أطماعها . وأدى هذا - كما سهرى - إلى احتكاك جديد بينها وبين المغرب .

٥ - أما عن موقف الأديب عبد القادر بعد هذه المعركة - فقد أصبح شيئاً ، إذ أدرك أنه لا يمكنه أن يعتمد بعد الآن على المغرب ولا يستطيع ممارسة نشاطه داخل أراضيه فكانت هذه المعركة حاسمة بالنسبة لودعه .

وتوفي المولى عبد الرحمن في ٢٩ محرم سنة ١٢٧٦ هـ .

المولى محمد بن عبد الرحمن (١٢٧٦ هـ - ١٢٩٠ هـ / ١٨٥٩ - ١٨٧٣ م) :

تولى المولى محمد بن عبد الرحمن الكثير من المهام المدنية والعسكرية في حياة أبيه ، وأظهر فيها كفاءة وقدرة . وكانت العادة أنه إذا كان السلطان المولى عبد الرحمن يبرأ كش كان لابنه المولى محمد بقاس أو مكناسه وبالعكس . وكان يتصرف في الناحية المقيم فيها بحرية كأنه ملك مستقل . فلما توفي والده أجمع

(١) الاستقصا - ٩ ص ٥٣ .

(٢) أنظر ما ذكره صاحب الاستقصا عن ذلك وقد كان معاصراً لهذه الأحداث ، وقد أجرى مقارنة طويلة بين الجيوش الأوروبية (الفرنسية والأسبانية) النظامية بنظامها العسكري وانضباطها وبين النظام القديم العشوائي الذي كان مازال يسر عليه الجيش المغربي الاستقصا : ٩٥ - ٩٧ .

الكل على ميايمته عن يقين بقدرته على قيادة دولة في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ المغرب حيث كانت أنظار الدول الأجنبية وأطباعهم تتجه من جديد للمغرب وثغوره الهامة .

وقد اشتهر المولى محمد بن عبد الرحمن بالتقوى ، ومراعاة الشرع في كل تصرف من تصرفاته ، فكان يتصف للناس حتى من نفسه ، وقد روى صاحب الاستقصا إنه لما عزم على بناء داره برباط الفتح حدث خلاف على أرض البناء مع جماعة من أهل البلد فاختلفهم هو وهم لدى القاضي الفقيه أبي عبد الله محمد العربي فانصفهم (١) . واشتهر المولى محمد أيضا بأنه كان بعيد الغضب ، صريح الرضى . وقد استتب الأمن في عهده ، وبعد أن استقرت الأمور التي اضطربت لفترة — بسبب الاطماع الأجنبية في ثغور المغرب وما أعقب ذلك من جهة الغلاء ومن إنتشار بعض الأمراض — ازدهرت الحياة الاقتصادية ورخصت الأسعار ، ولاحت على الناس سمة الرخاء واليسر بل أخذ البعض بمظاهر الحضارة الأجنبية لكثرة تردد الأجانب على المغرب .

وكان للسلطان في كل بلد عيون يكتبون له بما يقع من الولاية ومن دونهم — فسكانت الرعية — كما يقول صاحب الاستقصا — كأنها في كف يده (٢) .

ومن الأعمال العمرانية البارزة التي يذكرها له صاحب الاستقصا — نقلا عما قاله اكنسوس (٣) — ما يتعلق منها بالرى ، فقد أجرى كثيرا من الأنهار وفجر العيون وغرس الحدائق (أجدال مثلا بمراكش) كما اهتم ببناء وتعمير العديد من المساجد (جامع السنة ، وجامع أهل فاس بالرباط ، المسجد الجامع بالسوق بالدار البيضاء) .

(١) الاستقصاء - ٩ ص ١٢٠ .

(٢) نفس المرجع - ٩ ص ١٢٤ .

(٣) أبو عبد الله اكنسوس من الأدباء المعاصرين لهذه الفترة ، وقد سام بمعه و الكتير من أحداثها . انظر مثلا لصيدته و تهنئة المولى محمد بن عبد الرحمن بالملك و (الاستقصا - ٩ ص ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣) ويقل عنه صاحب الاستقصا الكثير عن أحداثها شاهدا وشارك فيها بنفسه .

وأنشأ بمراكش معبلاً للسكر - واهتم بإصلاح الموانئ والثغور وتمقيد
حوالها وبنى قرب ميناء (طنجة) مناراً كان يرى نوره من مسافة كبيرة
تهتدى به السفن .

ومن أعماله أيضاً محاولة ضبط السكة على أساس الدرهم الشرعى فقد أصدر
عام ١٢٨٥ هـ أمراً بالآلا يستخدم الناس فى معاملاتهم إلا الدرهم الشرعى ، وشدد
فى ذلك وكتب لولاة الأمصار بضبط مصالح الرعية ومعاملاتهم على هذا الأساس
على أن يكون المئقال مساوياً لعشر دراهم .

أظهرت وقعة اسلى أن المغرب كان بحاجة ماسة إلى جيش مدرب
على أساليب الحرب الحديثة ونظمها فلم يكن المغاربة يقاتلون بترتيب
مخصوص وهيئة منضبطة ، إنما كانوا يقاتلون وهم متفرقون - فإذا جاء المساء
تفرقوا إلى عائلهم فى غير وقت معلوم وعلى غير تعبئة - ولعل ذلك يذكرنا بما
أورده ابن خلدون عن قتال أهل المغرب الذى هو المطاردة بالكر والفر ،
وعاب عليهم ذلك إذ أنه لا يحمى أمام الجيوش النظامية الحديثة .

وقد أدرك المولى محمد بن عبد الرحمن هذا الأمر بعد معركة إسلى أثناء حكم
أبيه - فصمم على إعداد جيش نظامى قوى . ولما آل إليه الأمر سار فى هذا
الأمر خطوات أوسع . ولما كان إعداد جيش بهذا الشكل يحتاج لتدعيم مالى
قوى - فقد رتب المكوس على الأبواب والمبيعات وكتب فى ذلك لأمناء المراسم
وغيرهم ليوضحوا للتجار وغيرهم أهمية وجود جيش قوى نظامى يحمى
أموالهم وتجارهم وأرواحهم^(١) .

الهجوم الاسباني على تطوان :

تعرض المغرب فى عهد المولى محمد بن عبد الرحمن من جديد لمسكيد

(١) انظر خطابه إلى أمناء مرسى الدار البيضاء فى ذلك - الاستقصا - ٩ ص -

ومحاولات الطامعين في ثغوره ومدنه الهامة - فعندما لمس الأسبان ضعف الجيش المغربي كما بدا في وقعة إسلى - تآقت نفوسهم لتوسيع مناطق نفوذهم في (سبتة) فاصطدموا في بداية الأمر بقبيلة (اللانجرة) من المسلمين ولجأ الأسبان إلى نائب السلطان في طنجة طالين تسليم إثنى عشر رجلاً من زعماء (اللانجرة) لمحاسبتهم عما بدر من قبيلتهم وقد رأى المولى محمد بن عبد الرحمن في ذلك إهداراً لكرامة المغرب ، فرفض إجابة الأسبان إلى طلبهم فتوترت العلاقات بين البلدين ، وكتب السلطان للثغور المغربية يخبرها بأن تكون على حذر وأن تأخذ أهبتها للجهاد .

وفي أواسط ربيع الأول سنة ١٢٧٦ هـ خرج جيش أسباني قوى من منطقة (سبتة) المحتلة وبدأ زحفه على المناطق المجاورة . وأرسل السلطان أخاه (المولى العباس) في كتيبه من الفرسان لحماية تطوان وطنجة . وتحرك الأسبان من سبتة بقيادة قائدهم أردنيل Ardnell قاصدين تطوان يحميهم الأسطول الذي كان يتابع في البحر حركات الجيش البري - واستطاع المغاربة أن يصمدوا في وجه العدو الغازي نحو الشهر - لكنهم اضطروا بعد ذلك للتقهقر . فاستولى الأسبان على تطوان في الثالث عشر من رجب سنة ١٢٧٦ هـ (٦ فبراير ١٨٦٠ م) فاحتلوا مساكنها وهدموا سورها وغربوا معالمها .

ورغم ذلك فقد ظل المغاربة يتابعون الخيوس المحتلة كل - أ أمكنهم ذلك ويكبدونها خسائر فادحة في الرجال والعتاد .

وتدخلت بريطانيا للوصول لإتفاق بين البلدين ، وأخيراً اتفق الطرفان في أواخر شعبان سنة ١٢٧٦ هـ (٢٦ أبريل ١٨٦٠ م) على شروط الصلح - وأهم ما تضمنته الإتفاق :

١ - يحلو الأسبان عن تطوان وعن المناطق الجديدة التي احتلوها من سبتة عدا أجزاء بسيطة بمحدود (سبتة) و (مليلة) تبقى في أيديهم لأنها تلزم للدفاع عن مواقعهم بها .

- ٢ — يدفع المغرب مائة مليون بيزيته^(١) (عشرين مليون ريال) كغرامة حرية - وتبقى الجيوش الأسبانية في تطوان إلى أن يتم سداد هذا المبلغ .
- ٣ — تعود القنصلية الأسبانية في فاس إلى مواولة نشاطها الدبلوماسي .
- ٤ — تتفاوض الدولتان لعقد معاهدة تجارية يتمتع بمقتضاها الرعايا الأسبان بإميازات مماثلة لما يتمتع به الفرنسيون - وقد عقدت هذه المعاهدة الأخيرة فعلا في نوفمبر عام ١٨٦١ م
- واضطرت الحكومة المغربية إلى عقد قرض مع الحكومة الانجليزية بمائة ٥ ٪ بضمان دخل جمارك الموانئ المغربية لدفع الغرامة المفروضة ، وكان هذا بمثابة فرض رقابة أجنبية على هذا المرفق الهام .
- وفي ذى القعدة سنة ١٢٧٨ هـ (مايو ١٧٦٠ م) أخلى الأسبان تطوان بعد أن مكثوا بها سنتين وثلاثة أشهر ونصف .
- وقد مهدت هذه الأحداث الطريق أمام الدول الأوروبية المختلفة صاحبة المطامع والمصالح في المغرب للعمل لزيادة نفودها فيه . ففي ١٩ أبريل ١٨٦٣ م نجحت فرنسا في عقد معاهدة مع المغرب جدد فيها الاعتراف بالإميازات التي كانت الرعايا الفرنسيين من قبل والتي كانوا لا يستطيعون التمتع بها في فترات قوة المغرب ، بل إن ممثل فرنسا في المغرب أخذوا يتجاوزون الحدود المرسومة في هذه الإتفاقات — مما اضطر المولى محمد بن عبد الرحمن أن يرسل في عام ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م إلى الإمبراطور نابليون الثالث^(٢) بعثة مكونة من قائد جيشه أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم الشري - وعامل سلا أبا عبد الله محمد ابن سعيد السلاوي - راجياً أن يحسن لاختيار ممثليه في المغرب ، وأن ينفذ عليهم بعدم تجاوزة الحدود المتفق عليها في الإتفاقات والإلتزامات المبرمة بين الدولتين^(٣) .

(١) عملة أسبانية .

(٢) فترة حكمه كإمبراطور (٢ ديسمبر ١٨٥٢ م - ٤ سبتمبر ١٨٧٠ م)

(٣) أنظر نص الخطاب الذي وجهه السلطان للإمبراطور نابليون الثالث — وكذلك وصف أبو عبد الله محمد بن سعيد السلاوي لأمهاتهم في باريس خلال الشهر الذي قضاه وزميلة هناك .

هذا وقد اشترك المغرب في المعرض الدولي الذي عقد بباريس عام ١٨٦٧م والحقيقة إن هذه العلاقات فتحت أبواب المغرب لمسيرة التقدم في الأمم الحديثة - لكنها في نفس الوقت أسالت لعاب الإستعماريين الأوروبيين الطامعين في الحصول على إمتيازات إقتصادية وسياسية في المغرب وثغوره الهامة .

المولى حسن بن محمد (١٢٩٠ هـ - ١٣١١ هـ) (١٧٧٣ م - ١٨٩٤ م) :

بويح المولى أبي علي حسن بن محمد بعد وفاة أبيه المولى محمد بن عبد الرحمن في عام ١٢٩٠ هـ وكان والده قد استخلمه في حياته ، وعهد إليه في الفترة الأخيرة من حياته بجميع مهماته .

وكان المغرب وقت توليه الحكم في مرحلة دقيقة ، فقد كانت الأحوال الداخلية والخارجية غير مستقرة ، وكان الجيش المغربي - الذي بدأ تنظيمه على أسس جديدة - لم يتم إعداده للقيام بمهمته الخطيرة في إقرار الأمن الداخلي ومواجهة الأطماع الخارجية ، وكان المغرب في هذه الفترة في متفرق الطرق تنجاذ به التيارات القديمة والجديدة . أدرك المولى الحسن بن محمد كل هذا ، وكان يعلم ما يتطلبه الموقف من الربان الذي يقود السفينة في وسط هذه الأمواج .

وكان المولى الحسن كثير الحركة دائم التنقل بين أجزاء مملكته يستطلع بنفسه أحوال الرعية ويدرس المشاكل ويعاين مناطق الضعف ويضع الحلول السريعة — ولذا تعددت (الرحلات الحسفية) لآمحاء المغرب المختلفة شماله وجنوبه ، شواطئه وثغوره . وكان عقب كل رحلة يصدر تقريراً يتضمن مشاهداته وتعليقاته وتوجيهاته وأوامره التي أصدرها أثناء الرحلة ، وذلك ليبصر المعنيين بالامر ، ويقضى على الإشاعات المغرضة .

ولعل أهم رحلاته الرحلة التي قام بها عام ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٦ م وزار فيها شواطئ المغرب وثغوره (الجديدة — أزموور — الدار البيضاء — الرباط — سلا) ، وعان التحصينات الدفاعية بهذه الثغور من أبراج وأسوار وغيرها

وأمر بتلافي النقص فيها - كما زار الحدود المغربية الجزائرية التي اكتسبت أهمية خاصة في ذلك الوقت بسبب نشاط الفرنسيين فيها بعد استقرار الأوضاع لهم بالجزائر . (١)

وحين أخذت أسبانيا في تجديد نشاطها في المناطق الساحلية من المغرب المواجهة لجزر كناريا (٢) قام المولى الحسن برحلة بدأها عام ١٢٩٩ / ١٨٨١م لتفقد المناطق الجنوبية من بلاده طاف فيها ببلاد السوس والمناطق المجاورة لها . وقد عمدت أسبانيا إلى تقوية نفوذها في المناطق الساحلية المواجهة لهذه الجزر (جزر كناريا) ورفعت عليها عليها سنة ١٨٨٥ م في الفترة التي وصل فيها التنافس الإستعماري الأوروبي ذروته عقب مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤ / ١٨٨٥ ، واتخذت الحكومة الأسبانية من هذه المنطقة نقطة ارتكاز للتوسع في الداخل وأطلقت على هذه المنطقة اسم ريودي أورو (Rio d'Oro) أى نهر الذهب . وقد أحتج المولى الحسن على هذه الإجراءات بشدة وعمد إلى تحصين الثغور المغربية في المناطق المجاورة - واختار أحد قواد جيشه وأقامه بقصبة (توينيت) لمراقبة سائر جهات القطر السوسى .

مؤتمر مدريد ١٨٨٥ :

شهدت فترة حكم المولى الحسن تنافساً دولياً شديداً بين الدول الأجنبية حول النفوذ في المغرب والحصول على قدر أكبر من الإمتيازات الاقتصادية ، وكانت

(١) أعطى صاحب الاستقصا توصيلات وافية عن هذه الزيارات ، وما تم فيها من اصلاحات أو احصاء لقبائل أو ثورات - عالجها بطريقة الخاصة التي سار عليها في كتبه وهي تشبه طريقة الحوليات التي اشتهر بها الطبرى وغيره من مؤرخى القرن الثالث الهجرى فهو يسجل الأحداث سنة . سنة وأهمية ماسيجله من أحداث هذه الفترة أنه كان معاصراً لها . انظر - ٩ ص ١٤٩ وما بعدها .

(٢) وقعت جزر كناريا في أيدي الأسبان في وقت مبكر مند منتصف القرن الخامس عشر . وقد أدت هذه الجزر للأسبان خدمات جليلة فقد كثر عدد المهاجرين الأسبان إلى هذه الجزر واختلطوا بالسكان ومنذ ١٨٢١ م أقام الأسبان بهذه الجزر حكومة شبه مستقلة مع اعتبارها جزءاً من أسبانيا .

أنظر Johnston. H. : A History of the Colonization of Africa
by Alien Races (Cambridge 1913) p. 116

كل دولة تسمى للحصول لرعاياها من الامتيازات أكثر مما حصل عليه رعايا الدول الأخرى . وأدى هذا التنافس إلى العديد من المشاكل بين رعايا الدول الأجنبية وبين الحكومة المغربية .

وكانت الدول الأوروبية (بلجيكا ، إيطاليا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، بريطانيا ، السويد ، فرنسا) قد فرضت على المغرب في عام ١٨٦٢ م معاهدة تنص على :

١ — يكون جميع المغاربة الذين يعملون في المفوضيات أو القنصليات الأجنبية في حماية هذه الدول ، وكذلك المغاربة الذين ترتبط مصالحهم المادية أو المعنوية بالأجانب .

٢ — تفرض هذه الحماية أيضاً على الوسطاء المغاربة الذين يعملون لدى التجار الأجانب على ألا يزيد عددهم عن شخصين لكل محل تجارى .

٣ — لا يدفع المحمي ضريبة للمغرب ولا يخضع للمحاكم الوطنية .^(١)

واتخذت القنصليات الأجنبية من هذه المعاهدة سنداً للإنتقاص من هبة السلطات المغربية المحلية — ولذا طالب السلطان مولاي الحسن بإلغاء هذه الإمتيازات التي لا مبرر لها .

ولوضع حد لهذه الاوضاع عقد بمديرد في ٢٥ رجب ١٢٩٧ هـ (٣ يوليو ١٨٨٠ م) مؤتمر دولي حضره مندوبون عن فرنسا ، وأسبانيا ، وانجلترا ، وألمانيا ، وبلجيكا ، والباينمارك ، والنمسا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وإيطاليا ، وهولندا ، والبرتغال — بالإضافة لمندوب المغرب .

وخرج المؤتمر بعدة قرارات أهمها :

١ — أقر المؤتمر نظام المحاكم القنصلية .

٢ — أقر حق الملكية في المغرب — للأجانب — بترخيص خاص من المخون .

٣ — حرم على المغاربة التجنس بجنسية أجنبية .

(١) حقى ، احسان : المغرب العربي — مرجع سابق ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .

٤ — فى حالة مزاولة أجنبي لحرفة الزراعة فى المغرب ، وفى حالة المغاربة متعين بحماية الأجانب فإنهم يؤدون الضريبة الزراعية إلى قناصل الدول الأجنبية ويقوم القنصل بدفعها للحكومة المغربية .

٥ — يقدم القناصل للحكومة سنوياً لوائح بأسماء رعايا بلادهم فى المغرب سواء المحميين منهم .

وقد حرص المولى الحسن على أن تكون معاملة جميع الدول الأجنبية على المساواة فى الحقوق والإمتيازات التى منحت لرعاياها وحاول أن يستفيد كل دولة منها لمحاولة تحقيق السياسة التقدمية التى رسمها للمغرب .

ورغم الضغوط العجيبة التى تعرض لها المغرب فى أيامه فقد ظل محتفظاً باستقلاله بفضل شخصية المولى الحسن وسياسته الحكيمة ولشأطه المستمر سرعته فى حسم المشكلات مع الدول الأجنبية .

فلما أخذ الإنجليز يتسللون إلى ساحل (طرفاية) بدعوى الإتجار مع القبائل ناك — قام السلطان بجولة إلى بلاد السوس لتفقد أحوالها وأمر ببناء مرسى آساكا) فى هذه الجهات ورثب حماية لها .

وحين ألح ممثلوا الدول الأجنبية فى (طنجة) على ضرورة إطلاق الحرية للأجانب فى المعاملات التجارية فى مختلف الموانئ المغربية وفى كافة البضائع — عاد المولى الحسن إلى العلماء وأصحاب رأى من رجال دولته يستفتيهم فى ذلك ويستترشد برأىهم فى هل يسمح لهم أم لا ؟

وكان رأى الغالبية منهم أن المنع والخلع يجب أن يكون فى حالة ما إذا كان يخشى من أن يؤدى ذلك إلى تدعيم قوتهم العسكرية — وهو لا مجال للبحث فيه الآن بعد أن وصلوا إلى درجة رهبة من القوة العسكرية ، وأصبح لا مجال للمقارنة بين الآلات الحربية عندهم والآلات التى يستخدمها الجيش المغربى ، أو كما قال صاحب الاستقصاء صارت آلاتنا عندهم هى والخطب سواء . ولذا فالمتاجرة ينشأ عنها فى الغالب الإمتزاج والاخذ والعطاء — أضرارها أقل من أضرار الخاصمة

التي تدفع للحرب فليس من الرأى أن يدعوك خصمك القوى إلى السلم فتدعوه إلى الحرب . (١)

لكن كان هناك شبه إجماع على ضرورة تنفيذ الشروط المنصوص عليها في الاتفاقات التجارية المختلفة بين المغرب والدول الأجنبية فيما يخص بحظر بيع الخمر والأعشاب المخدرة إلا فيما بينهم — كذلك كان من رأى فقهاء فاس بالذات وجوب تخلي (المخزن) عن بيع تلك الأعشاب وأمثالها فالقول بأن احتسار المخزن لبيعها فيه تضيق على مستعمليها حتى لا يتبادلها إلا الميسر القادر — مردود عليه ولا يجب الأخذ به .

وفي السنة الأخيرة من حكم المولى الحسن (١٣١٢ هـ / ١٨٨٤ م) حدث خلاف بين قبائل زناته وبين الأسبان في (مليله) . وسبب الخلاف يرجع إلى أن الأسبان طلبوا من السلطان المولى الحسن أن يؤيدهم في مساحة أرض مليله التي تحت نفوذهم فزادهم من أرض زناته - نحو الغلوة - وأصبحت حدودهم قريبة من مقبرة أحد الأولياء هو (سيدى وارياش) وهو عند أهل تلك البلاد عظيم القدر فلما قام الأسبان ببناء مخافر لهم بمحل يشرف على مقبرة المولى المذكور أدى ذلك للإضطدام وقتل بعض الأسبان فحضر وفد منهم إلى مراکش يطلبون الإنصاف من القبائل التي عادتهم وأنزلت بهم الخسائر ، وقبل السلطان دفع عشرين مليون بزيته حسماً لهذا الخلاف (٢) .

ويذكر صاحب الإستقصا : إنهم كانوا يستخدمون الحمام لإخطار حكومتهم بمريد بنتائج هذه المفاوضات بينهم وبين السلطان ، . (٣)

وفي آخر عام ١٣١٢ هـ - ١٨٨٤ م توفي السلطان الحسن وكانت مدة حكمه لأحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر .

(١) انظر خطابه لهم في هذا الشأن ومختلف الآراء التي اثبتت حول هذا الموضوع في ادستقصا ج ٩ ص ١٨٢ وما بعدها .

(٢) حقي ، احسان : مرجع سابق ص ١٣٤ .

(٣) الاستقصا ج ٩ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦

وبعد وفاة المولى الحسن بويغ ابنه المولى عبدالعزيز ولم يكن يتجاوز سنه
إذ ذاك ١٣ سنة . وكانت توليته الحكم في فترة حرجة من تاريخ المغرب وصل
الضغط الخارجى فيها إلى ذروته كما سنوضح بعد .

وقبل أن نستمر في دراسة هذه الفترة من تاريخ المغرب الأقصى نقف بعض
الوقت لندرس الأوضاع في باقي بلاد المغرب (الجزائر ، تونس) فلا شك في
أن أحداث المغرب الأقصى في هذه الفترة كانت وثيقة الصلة بما آلت إليه الأمور
في هذين القطرين المحاورين . وقد إرتبط تاريخهما بتاريخ المغرب الأقصى إرتباطاً
وثيقاً منذ أبعاد العصور .

الباب الثالث

فرنسا في المغرب العربي

الفصل الثامن : الإحتلال الفرنسي للجوآر

الفصل التاسع : فرض الحماية الفرنسية على تونس .

الفصل العاشر : الحماية الفرنسية على المغرب الأقصى .

الفصل الثامن

الإحتلال الفرنسي للجزائر

دوافع الإحتلال الفرنسي للجزائر :

تتصل ظروف ودوافع الإحتلال الفرنسي للجزائر — ذلك الإحتلال الذى استمر مائة وثلاثين عاماً تقريباً — بعوامل متعددة تتعلق بظروف فرنسا الداخلية وبملاقاتها الدولية ، وبالتنافس الدولى على البحر المتوسط ذلك الشريان الحيوى للملاحة الذى شهدت شواطئه وموانئه صراعات مريرة فى عصور التاريخ المختلفة قديماً ووسيطها وحديثها.

ولذا فعلى الباحث عن الدوافع الحقيقية وراء هذه الحملة الفرنسية أن يبحث عنها فى صفحات العلاقات بين الدول الكبرى المتصلة بهذه المنطقة الحيوية — منطقة البحر المتوسط — والظروف التى كانت تحيط بهذه الدول وفى مقدمتها إنجلترا، وفرنسا، وروسيا، والنمسا، وهولنده، والدولة العثمانية، وأسبانيا — بالإضافة إلى البابوية التى كانت تزج بنفسها فى كل نزاع بين دولة مسيحية (كاثوليكية بالذات) ودولة إسلامية .

أما القول بأر الدافع لهذه الحملة هو الإهانة التى لحقت فى ٢٩ أبريل ١٨٢٧ بقنصل فرنسا فى الجزائر بيير ديفال Pierre Deval فهو قول لا يمس جوهر الحقيقة ، فليس من المعقول كما يذكر زعيم النمسا مترنيخ Metternich أن تحرك فرنسا مثل هذا الجيش الجرار (٤٠.٠٠٠ جندي) ، وأن تصرف من خزائنها هذه المبالغ الطائلة (١٥٠ مليون فرنك) من أجل ضربة مروحة كما يقال (١).

أما عن الجزائر ذاتها - فقد كانت في ذلك الوقت رسمياً ولاية عثمانية . فسكنا ذكرنا سابقاً - استطاع الأتراك العثمانيون في النصف الأول من القرن السادس عشر أن يسيطروا سلطانهم على طرابلس ، والجزائر ، وتونس - ولما أصاب الدولة العثمانية الضعف في القرن السابع عشر ، وانشغلت بالدفاع عن كيائها - ضعفت سلطتها في بلاد المغرب ، وصارت السلطة الحقيقية في أيدي رؤساء القرصان والقوات غير النظامية ، الإغوات ، ، وبقيت للدولة العثمانية السيادة الإسمية بحسب . ومنذ ١٦٧١ م أصبحت مقاليد الأمور في الجزائر في يد الحاكم الملقب بلقب « داي » ، بينما أطلق على الحاكم في تونس منذ ١٧٥٠ لقب « الباي » .

وكان الداي في الجزائر في البدء يصل لمنصبه عن طريق الانتخاب ، لكن أصبح الأمر بعد ذلك في يد رؤساء طوائف القرصان وأصحاب القوة من قادة الفرق العسكرية . ولم تكن الجزائر كلها في الحقيقة خاضعة تماماً لسلطان الداي فقد كانت قبائل البربر في الجبال ، والقبائل المتوغلة في الصحراء شبه مستقلة تخضع لسيطرة رؤسائها هي فقط .

وكانت القرصنة منتشرة في السواحل وفي حوض البحر المتوسط . والحقيقة إن القرصنة البحرية كانت عامة في ذلك الوقت يقبل عليها المسيحيون والمسلمون على السواء دون تمييز أو إستحياء وكأنها نوع من الجهاد والحرب ضد الأعداء ، فأصبحت مورداً هاماً من أهم موارد خزينة الداي - فقد كانت تفرض على القرصنة نسبة معينة مما يستولون عليه أثناء مهاجمتهم للسفن ، مما جعل الدول الأوروبية تضج بالشكوى من هذه الحالة مطالبة بضرورة تأمين المواصلات البحرية والتجارة في البحر المتوسط . وكانت هذه المسألة من المسائل التي ناقشها مؤتمر فيينا الذي عقد في سنة ١٨١٥ م لتسوية الأوضاع بعد الحروب النابليونية .

فقد قدم الأميرال سيدني سميث Sidney Smith قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسط مذكرة للمؤتمر يطالب فيها الدول الأوروبية بإتخاذ

إجراءات حازمة ضد أعمال القرصنة التي تقوم بها الدول الإسلامية في شمال أفريقيا ، وكون سيدنى سميث (جمعية محاربة القراصنة) ، ثم (جمعية الفرسان محررى الرقيق الأبيض في أفريقيا) أسوة بجمعيات محاربة الرق في أفريقيا .

وكانت مسألة محاربة القرصنة البحرية هذه من المسائل التي شغلت المؤتمرات الأوروبية التي عقدت منذ ذلك الوقت . فقد بحثها مؤتمر لندن عام ١٨١٦ م ومؤتمر اكس لا شابل Aix La Chapelle سنة ١٨١٨ م - وأرسلت بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية أساطيلها في محاولة لإرهاب السلطات الحاكمة بالجزائر بالذات لتضع حداً لأعمال القرصنة بسواحلها^(١) .

والمهم في موضوع حديثنا - أن فرنسا تدرعت بهذه المسألة ، مسألة محاربة القرصنة ، ضمن ما تدرعت به ، ووجدت في مظهرها الإنسانى ما يجعلها وسيلة صالحة للإستناد عليها - لتحقيق أطامعها في الجزائر .

أما المسألة الأخرى التي تدرعت بها فرنسا وهي مسألة إهانة فصلها في الجزائر - فترجع جذورها إلى زمن سابق حين كانت فرنسا أثناء الثورة الفرنسية في شديد الحاجة إلى القمح ، وقد كان موقف الجزائر من هذه الحنة الفرنسية موقفاً كريماً ، فألقت العمود المفروضة على تصدير الحبوب لفرنسا - وظهر في هذا الميدان وسيطان هوديان هما بوشاخ Bushnach وبكرى Bacri فقد قاما ببيع حصة كبيرة من القمح الجزائري لفرنسا - لكن فرنسا ماطلت في دفع ثمن هذه الحصة من القمح بسبب ما كانت تعاني منه الخزانة الفرنسية من ضيق مالى ، وتعللت فرنسا بأن الأمر يرجع إلى ضيقها من الوسيطيين لتعاملهما مع انجلترا عدوة فرنسا في ذلك الوقت . وعبثاً حاول الداي أن يحصل على حقه من فرنسا حتى بعد عودة الملكية إليها في عام ١٨١٥ م ، وكان ينتظر أن تعمل الملكية العائدة على إسترجاع العلاقات الطيبة مع الجزائر .

وحين أمسك الداي حسن بدقة الأمور في الجزائر في عام ١٨١٨ م طالب الحكومة الفرنسية بتسديد المبالغ المستحقة له دون جدوى. وفي عام ١٨٢٦ م جدد المطالبة بخطاب أرسله إلى وزير خارجية فرنسا يلح فيه على إرسال المبالغ المستحقة على فرنسا أو بيان أسباب إمتناعها عن ذلك، لكن لم يتوصل الداي برد مقنع. ولما أعاد الكرة وطالب فرنسا أيضاً بإستدعاء ديفال، وإرسال قنصل آخر غيره يكون موضع ثقة الداي — دافع وزير الخارجية الفرنسي عن ديفال وطالب الداي بمعاملة القنصل الفرنسي باحترام، بل وطالب بالتعويض عن الأضرار التي لحقت ببعض السفن الفرنسية والبابوية التي اشتبكت مع بعض السفن الجزائرية.

وزاد من حدة التوتر التصرف الغريب الذي قام به نائب القنصل الفرنسي في عنايه، السكسندر ديفال Alexander Deval وهو ابن شقيق القنصل ديفال، فقد أقام منشآت تمهيداً لتدعيمها بالعسكريين والمدافع، ولما وصل ذلك إلى علم الداي أرسل قواته لتدمير هذه التحصينات.

وفي ٢٩ أبريل ١٨٢٧ م — في مناسبة عيد الأضحى حدث الحوار المثير بين الداي والقنصل الفرنسي ديفال — فقد استنسر الداي من القنصل عن سبب تجاهل الحكومة الفرنسية لرسائله المتعددة، ويبدو أن رد القنصل أثار الداي. فوجه إليه ثلاث ضربات من « المروحة » التي كانت بيده وأمره بالإسحاب. وكتب القنصل الفرنسي تقريراً عن الحادث لحكومته طالباً إتخاذ الوسائل المعالة للمحافظة على كرامة فرنسا^(١).

وكان رد الفعل من الجهات الرسمية الفرنسية متبايناً — فقد رأى بعض أعضاء الحكومة الفرنسية أن توجه الحكومة قوة بحرية تقوم بفرض حصار على الجواثر حتى يلزم الداي بتقديم ترضية كافية عن هذه الإهانة، بينما

ذهب المتطرفون إلى المناداة بإرسال حملة كاملة تقوم بإحتلال الجزائر ، وعدد هذا الفريق العوائد التي ستحقق من جراء حملة الغزو ، فأسرة البربون العائدة للحكم في حاجة إلى مغامرة عسكرية كهذه تدعم مركزها وتجعلها تبدو وكأنها تبنى عظمة فرنسا من جديد ، خاصة أنها قد عادت إلى الحكم على أكتاف الأجانب — وقد صرح الملك شارل العاشر (Charles x) بإعتزامه إنشاء مستعمرة هامة في شمال أفريقيا حيث يستطيع الاسطول الفرنسي أن يحدد بعض القواعد على الساحل الإفريقي المقابل تكمل له حرية التنقل في البحر المتوسط ، كما أن حملة الجزائر ستظهر فرنسا بالحامية الكبرى للبابوية والمدافعة عن مصالحها ، وتعتبر هذه الحملة أيضاً تحطيماً للقيود التي فرضها مؤتمر فيينا على فرنسا الذي قرر ألا تقوم فرنسا بإجراء أية تغييرات إقليمية دون موافقة الدول العظمى الأربع .

ومن جهة أخرى فإن هذه الحملة ستجعل أنظار الفرنسيين تتجه إلى الخارج بدلاً من تركيز إهتمامهم على المشاكل الداخلية .

ومن الناحية الاقتصادية فإن امتلاك هذا الإقليم الغني الذي كان في فترة من الفترات يمول الإمبراطورية الرومانية بحاجتها من الغلال سيوفر ما يصرف على عمليات الغزو من مال وجهد .

ولعل تصريح رئيس الوزراء الفرنسي بوليناك (Polignac) في مجلس الوزراء الفرنسي عندما تقرر في عام ١٨٣٠ م إرسال حملة لغزو الجزائر يعبر عن كل هذه الافكار فقد ذكر : « إن مثل هذه الحملة ستجعل أنظار الشعب الفرنسي متجهة إلى الخارج ، وأن النصر الخارجي سيساعد على الوصول إلى نتائج مؤاتية ومؤثرة على جموع الناخبين ، وسيساعد في تقوية الملكية ، وسيجمع حولها كل هؤلاء الذين اهتموها منذ ١٨١٥ م بإتباع سياسة سلبية في العالم^(١) .

(١) يحيى ، جلال : السياسة الفرنسية في الجزائر (١٩٥٩) ص ٦٤٠ .

(م ١٧ - المغرب)

على أن الظروف الدولية بالإضافة إلى ظروف فرنسا الداخلية — كانت تفرض عدم الإقذاف في عمل حربي غير مأمون العواقب .

ولذا وجهت فرنسا في ١٦ يونيو ١٨٢٧ م أربع سفن حربية على رأسها السكايتن كواليه (Collet) بحمل إنذاراً للداى ويطلب ترضية كاملة عما لحق فرنسا من إهانة وكانت المطالب الفرنسية تتلخص فيما يلي^(١) :

- ١ — تقديم اعتذار رسمي من الداى عن الإهانة التي لحقت بفرنسا .
 - ٢ — دفع تعويض عن الأضرار التي لحقت بالسفن الفرنسية والبابوية من الجزائريين .
 - ٣ — تقديم ضمانات خاصة بالمستقبل تحول دون تعرض السفن الفرنسية لآية إجراءات تفتيشية أو غيرها من السفن الجزائرية .
 - ٤ — تمنح فرنسا حق تسليح كافة مؤسساتها في الجزائر دون أى إعتراض من الداى وحكومته .
 - ٥ — تتمتع فرنسا في الجزائر بحق الأمة الأكثر رعاية .
 - ٦ — يعلن الداى أن الحكومة الفرنسية قد وفّت بالتزاماتها المالية للجزائر وأنه ليس له أى حق قبلها .
- وقد رفض الداى هذه المطالب المجحفة .

وظلت فرنسا مترددة بين الإستمرار في الحصار على أمل الوصول إلى حل سلمى أو إرسال حملة حربية لإملاك الجزائر وإخضاعها لفرنسا . وبقى الحصار الفرنسى لاسواحل الجزائرية مدة ثلاث سنوات (من ١٦/٦/١٨٢٧

(١) فارس ، محمد خير : تاريخ الجزائر الحديث (١٩٦٩) ص ١٥٨ .

ملاحظة : وصل بوليناك إلى رئاسة الوزارة الفرنسية و ٨ أغسطس ١٨٢٩ م

إلى ١٣/٦/١٨٣٠ م) تعاقبت في أثنائها على الحكم في فرنسا ثلاث وزارات دون أن يتخذ عمل حاسم — فقد كانت الظروف الداخلية في فرنسا غير مستقرة بعد عودة ملكية البوربون إليها ، وكانت الظروف الخارجية غير ملائمة ، فقد كانت فرنسا حريصة على أن يكون لها دور مع إنجلترا وروسيا في الأحداث الأوروبية وغيرها ، كما كان أسطولها مشغولاً في المياه اليونانية وفي المحيط الأطلسي — لذلك رجحت في ذلك الوقت كفة الداعين للضغط على الداي ليقدم اعتذاراً وترضية كافية على الذين كانوا ينادون بعمل برى وبحرى حاسم.

وحين جاءت الوزارة (وزارة بوليناك) إلى الحكم في فرنسا في أغسطس ١٨٢٩ م كان الرأي العام الفرنسي قد ضج من هذا الوضع الغريب فكان استمرار الأوضاع على ما هي عليه — أمراً غير معقول . . وثار فكرة محاولة الإلتجاء للسلطان العثماني للضغط على الداي ليقبل مطالب فرنسا — لكن السلطان في الحقيقة لم يكن في ذلك الوقت يملك قوة الضغط — فقد كان نفوذه في الجزائر لا يتعدى النفوذ الإسمي .

وقفزت فكرة قيام محمد علي بحملة على الجزائر تسانده فرنسا وبذلك تتحقق عن هذا الطريق غير المباشر مصلحة فرنسا في تحطيم حكومة الداي .

وكان من وراء هذا المشروع دروفتي Drovetti قنصل فرنسا في مصر والصدى الجسيم لمحمد علي ، وقد كان متحمساً لفكرة قيام محمد علي بهذا العمل حتى أنه كتب تقريراً وافياً لبولينياك عدد فيه المزايا التي ستتحقق من قيام محمد علي — بدل فرنسا نفسها بأعباء هذه الحملة^(١) ، وفوتج محمد علي في المشروع ووافق عليه على شرط أن تقدم له فرنسا قرضاً مالياً ، ودعمًا بحرياً^(٢)

Jalin : Op. cit. p. 34

(١)

(٢) لمعرفة الشروط الكاملة التي عرضت على محمد علي للقيام بهذا المشروع المرمي —

انظر المرجع السابق p. 35 xx

ملحوظة : استعملت بخريطة فرنسا في شمال أفريقيا ملحق الكتاب .

كما فاتحت فرنسا السلطان العثماني لآخذ موافقته على قيام محمد علي بهذا العمل — لكن لمجئنا إلى تسربت إليها أخبار هذا المشروع عمدت لتحريض السلطان على رفضه كما حذرت محمد علي من الإقدام على هذا العمل ، وبصرت طرابلس ، وتونس ، والجزائر بالمشروع الذي يحاك ضدها . كما أثار الدول الأوروبية الأخرى — غير فرنسا — على هذا الاتجاه الفرنسي . ولإزاء كل هذا عدل بوليناك عن هذا المشروع وظل يتحين الفرص لقيام فرنسا بنفسها بحملة ضد الجزائر .

الحملة :

اختير الجبرال بورمونت (Bourmont) لقيادة هذه الحملة ، بينما اختير الاميرال دوبري (Duperé) لقيادة الاسطول البحري . وأعلنت فرنسا أن هدفها من الحملة هو الانتقام لشرفها ، ثم وضع حد لعمليات القرصنة والإسترقاق التي تراوحتها الجزائر وأتباعها .

وأبدت إنجلترا قلقها من هذه الخطوة وحاولت أن تحصل من فرنسا على تعهد كتابي بأنها لا تنوى إحتلال الجزائر إحتلالاً عسكرياً — دون جدوى . أما الدول الكبرى الأخرى (روسيا — وبروسيا — والنمسا) فلم تعارض هذا الاتجاه الفرنسي .

أقلع الاسطول الفرنسي من ميناء طولون في مايو ١٨٣٠ م ، وأضطر — بسبب الأحوال الجوية — للبقاء بمض الوقت في جزر البليار . وفي ١٤ يونيو بدأ إنزال الجنود في (سيدى فرج) على مسافة ٢٥ كيلو متراً غرب مدينة الجزائر .

وقد عهد الداي إلى صهره (إبراهيم أغا) بقيادة القوات المدافعة . ويتخذ على الداي عدم مبادرته بإقامة التحصينات وإتخاذ العدة للدفاع عنها — رغم علمه مسبقاً بأخبار الحملة وبخطة الفرنسيين .

ونجح الفرنسيون في إحتلال (سيدى فرج) ، كما نجحوا في الإستيلاء على المعسكر الجزائري في اسطا والى (مصطفى والى) . وأصبح الطريق إلى مدينة الجزائر ذاتها مفتوحا ، وكانت تحميها قلعة السلطان و حصن القصبة .

ورغم المقاومة الباسلة من حامية القلعة - فقد استطاعت مدافع الفرنسيين أن تنسف جزءا كبيرا من قلعة السلطان ، وأن تشعل النار في مخازن الذخيرة فيها . وأرسل الداى أحد رجاله « الباشكاتب مصطفى » إلى بورمونت بالمقترحات للصلح ، كما وسط قنصل انجلترا سانت جون في ذلك - لكن القائد الفرنسى أملت شروطه التى أضطر الداى في ٥ يوليو إلى قبولها وهى تقضى بما يلى :

١ — تسليم حصن « القصبة » وجميع حصون مدينة الجزائر وأبوابها للفرنسيين .

٢ — يضمن القائد الفرنسى حرية الداى وكل ممتلكاته الشخصية .

٣ — تترك الحرية للداى في الإقامة أو الرحيل الى أى مكان يريد ، ويعتمد القائد الفرنسى بحمايته هو وأسرته في حالة تفضيله البقاء .

٤ — عدم اتخاذ أية إجراءات انتقامية ضد الجنود الجزائريين .

٥ — كماله حرية الشعب الجزائري في إقامة شعائر الدين الإسلامى وصيانة أملاك الأهالى وتجارهم وصناعاتهم .

هكذا دخل الجنود الفرنسيون مدينة الجزائر وغادروها الداى حسن وأسرته إلى نابلى وقام الفرنسيون بنزع سلاح الجنود الإنكشارية وأبعدهم إلى أزمير وقضوا بذلك على آخر مظهر من مظاهر التبعية للحكم العثمانى ، وتمرضت مدينة الجزائر للنهب والسلب بشكل رهيب ^(١) .

وقد وصلت أنباء الاستيلاء على مدينة الجزائر إلى فرنسا في أواخر أيام

(١) ادخل الداى بعد ذلك إلى الإسكندرية وتولى بها عام ١٨٣٨ م .

ملكىة شارل العاشر Charles x الذى أطاحت به ثورة يوليو ١٨٣٠ م .
وخلفه لويس فيليب Louis Philippe .

وأرسل القائد الفرنسى قوة احتلت بعض موانى الجزائر د المرسى الكبير ،
وهران ، وعنابه . لكن عندما حاولت القوات الفرنسيه التوغل فى الداخل
قوبلت بمقاومة عنيفة اضطرتها للتراجع ، بل اضطرتها لإخلاء د عنابه ، وهران .
وقد كشفت الحملة التى أرسلها الفرنسيون إلى بلدة د البليدة ، التى تقع عند سفوح
جبال أطلس على بعد ٤٨ كيلو متراً جنوبى الجزائر - مدى ما ينتظر للمستعمرين
من مقاومة إذا حاولوا التوغل للداخل . والحقيقة إن نفوذ الفرنسيين فى هذه
الفترة لم يتعد أسوار مدينة الجزائر نفسها .

ولم يؤد تغير الأوضاع فى فرنسا ذاتها الى تغير فى سياستها تجاه الجزائر .
فرغم التغير المستمر فى القواد الفرنسيين فى الجزائر - فقد كان الإتجاه العام
للحكومة الفرنسية هو الإحتفاظ بالجزائر (١) .

ولا شك فى أن كثرة تغير القواد دليل على عجز الفرنسيين وحيرتهم ، وقد
حاول بعض هؤلاء القواد العسكريين بعد أن أدركوا عجزهم عن التوغل عسكرياً
فى الداخل - أن يجربوا محاولات التوغل السلى والسيطرة غير المباشرة عن
طريق حكام غير فرنسيين لكنهم موالون لفرنسا - ومن هذا القبيل محاولة
القائد الفرنسى كلوزل Clauzel الذى خلف بورمونت Bourmont فى
القيادة - تعيين شقيق باى تونس فى منصب باى قسنطينة ، وتعيين قريب آخر
له فى وهران ، وكان باى تونس قد أبدى ترحيبه بالفرنسيين . كما حاول
الفرنسيون الاشراف على الأقاليم الداخلية فى الجزائر عن طريق شيوخ من
الاهالى موالين لهم - وبرر القادة الفرنسيون لحكومتهم هذا الإجراء بأنه يحقق
هدفين . فهو أولاً يضمن ولاء هؤلاء الشيوخ وأتباعهم للفرنسيين دون حاجة
لإستخدام القوات العسكرية لنشر سلطان الفرنسيين ، وثانياً - يوجد الفرقة بين

(١) فى الفترة بين ١٨٣٠ م ، ١٨٣٤ م تولى القيادة الفرنسية فى الجزائر ستة قواد .

الجزائريين فيصطدم هؤلاء الشيوخ - وهم يقومون بجمع الضرائب وغيرها - بالمعادين للإستعمار الفرنسي من الوطنيين الجزائريين. على أن محاولات الفرنسيين هذه للتوغل في الداخل باءت بالفشل - فقد اقتصرَت سلطتهم على احتلال النقاط الساحلية في [الجزائر ، وهران ، وعنابة ، وبجاية ، ومستغانم] بينما كان عليهم أن يواجهوا مقاومة عنيفة في غرب الجزائر وشرقها وفي الأقاليم الداخلية .

ورغم أن إنجلترا ظلت تعارض بشدة إستيلاء فرنسا على الجزائر واستمرارها فيه - فإن الظروف الدولية ألزمت إنجلترا بأن تخفف من حدة معارضتها لها ، وإن كانت لإنجلترا - على لسان المسؤولين فيها - حرصت في كل مناسبة على التصريح بحقوق الباب العالي في الجزائر وأن موقف فرنسا لا يخرج عن كونه لإحتلال عسكري يجب أن ينتهى ^(١) .

مقاومة الجزائريين للإحتلال الفرنسي :

وقع عبء مقاومة الإستعمار الفرنسي على الشعب الجزائري نفسه - فقد غادر الداي الجزائر كما رأينا ، وكان كل همه أن يأمن على نفسه وأهله وماله - وكما يذكر ابن أبي الضياف إنه لم يكن يربطه بالبلد أكثر من هذا - فقد كان غريباً عنها ، ولو كان من أبناء ترابها ماسهل عليه ذلك ولاستان بطرق الهالك ^(٢) .

كما غادر البلد الجنود الأتراك بعد أن جردوا من سلاحهم .

أما البايات ^(٣) فلعل مقاومة أحمد باي في قسنطينة هي أبرزها ، وإن كانت

(١) تصريح بالمرستون (Palmerston) في عام ١٨٢٨ م .

(٢) ابن أبي الضياف ج ٣ ص ١٦٨ .

(٣) كانت الجزائر مقسمة إلى أربع ولايات (بيليكيات) على رأس كل منها (باي) بعينه الداي وهي (أ) بيليكية (الجزائر) وتشمل الجزائر وضواحيها وسهل التيجية وهي ترتبط بالداي مباشرة (ب) بيليكية الغرب وكانت عاصمتها (معسكر) ثم نقلت إلى وهران وتمتد حتى حدود المغرب . (ج) بيليكية الشرق ومقرها قسنطينة وتمتد حتى حدود تونس (د) بيليكية قطرى (ومقرها الميديه) .

مقاومته ترجع لحرصه على السلطة أكثر من وطنيته - ويؤيد وجهة النظر هذه رفضه الانضمام إلى الأمير عبد القادر في جهاده ضد أعداء الدين .

على أن المقاومة الحقيقية للغزو الفرنسي للجزائر تتمثل في الدور الذي قام به الأمير عبد القادر .

والأمير عبد القادر هو ابن الشريف محي الدين ، شيخ الطريقة القادرية ، ويرجع نسبه إلى الهاشميين ، وكان عبد القادر قد زار مصر مع والده في طريقه إلى الحج في عام ١٨٢٧ م . وأبدى إعجابه بالدور الذي يقوم به محمد علي للنهوض بمصر في هذه الفترة .

ويحاول بعض الكتاب أن يجروا مقارنة بين دور عبد القادر الجزائري والدور الذي قامت به الزعامات المغربية كالمرابطين والواحدين وهي زعامات قامت حركتها في الجهاد أصلاً على أساس ديني - كما يحاول البعض عقد مقارنة بين دوره في الجزائر ودور محمد علي في مصر - ويرى بعض هؤلاء أن محمد علي كان يعمل في ظروف أفضل لأنه كان يعمل في بلد إعتاد الناس فيه على وجود الدولة وتدخلها في حياتهم وأنه قصر جهده على البناء المادي لهذه الدولة الحديثة التي سعى لبقيائها - بينما كان عبد القادر يعمل في بلد إعتادت منذ القدم على حياة المجموعات المستقلة ، وعلى غياب الدولة - ومن جهة أخرى كانت الظروف الخارجية والداخلية تسهل مهمة محمد علي بعكس الوضع بالنسبة لعبد القادر (١) .

ويحدثنا صاحب كتاب (تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر) عن الظروف في غرب الجزائر التي تمت فيها البيعة للأمير عبد القادر (٢) .

فقد كان الفرنسيون قد احتلوا (وهران) وحاولوا - كما ذكرنا - أن

(١) فارس ، محمد حير : تاريخ الجزائر الحديث - ص ٢٣٩ .

(٢) محمد عبد القادر الجزائري : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر

(طبعة الإسكندرية - ١٩٠٣) - ص ٩٦ .

يولوا عليها شقيق بأى تونس الموالى لهم - لكن لم يستطع الفرنسيون السيطرة على دفة الأمور ، وعاد الفرنسيون لحكم (وهران) بأنفسهم . أما (تلمسان) على حدود المغرب الأقصى فقد دخلها الجيش المغربى وعلى رأسه (على بن سليمان) الذى عينه المولى عبد الرحمن سلطان المغرب حاكماً لهذه الجهات ، لكن تحت الضغط الفرنسى أضطر السلطان المغربى لإخلاء تلمسان وسحب خليفته منها^(١) .

فى وسط هذه الظروف اجتمع أهل الحل والعقد والاشراف والعلماء والاعيان فى غربى الجزائر وقدموا فى عام ١٨٣٢ م على الشريف محيى الدين شيخ الطريقة القادر به وطلبوا منه أن يقبل يبعثهم على الإدارة لنفسه أو لولده ، ولما كان هو عاجز عن القيام بأعباء هذا الأمر لكبر سنه ورأى أن ولده قد بلغ أشده وأصبح أهلاً لهذا الأمر - فأتته فى الأسر - فقبله وكان عمره فى ذلك الوقت أربعاً وعشرين سنة فبايعته القبائل للإمارة ، واتخذ مدينة (المعسكر) حاضرة له^(٢) .

وأخذ الأمير ينظم شؤون إمارته ويخضع القبائل المناوئة له حتى يتمرغ لحاجة الفرنسيين ، وعين معينين له ومستشارين .

وكان الجنرال دى ميشيل (Desmichels) قد تولى أمر القيادة فى وهران ونجح فى الإستيلاء على (مستغانم وأرزيو) - لكن استطاع الأمير عبد القادر أن يستولى على تلمسان وأن يفرض حصاراً على الفرنسيين فى وهران ومستغانم وأرزيو فأصبحوا يعتمدون على البحر لتكوين قواتهم بها فأضطر القائد الفرنسى لمفاوضة الأمير عبد القادر لتوقيع صلح بين الطرفين^(٣) . وانتهت الإتصالات بتوقيع اتفاق وقعه مندوب عن كل من الطرفين فى ٢٨ فبراير سنة ١٨٣٤ م .

(١) راجع ما ذكرناه سابقاً عن هذه الأحداث - عند الحديث عن المغرب الأقصى فى عهد المولى عبد الرحمن المولى .

(٢) انظر نص البيعة : نعمة الجزائر - المرجع السابق ص ٩٨ وما بعدها .

(٣) انظر نص رد الأمير عبد القادر على خطاب القائد الفرنسى : نعمة الزائر -

وفي هذا الاتفاق تقرر مايلي^(١) :

- ١ - وقف الخصومة بين الطرفين .
 - ٢ - يحترم الفرنسيون الدين الإسلامي والمعتقدات الإسلامية .
 - ٣ - رد الأسرى الفرنسيين ، كما يلتزم كل طرف برد الهاربين إليه من أتباع الطرف الآخر .
 - ٤ - حرية التجارة .
 - ٥ - تكون تجارة مرسى أرزيو تحت ولاية الأمير كما كانت من قبل على أن يقتصر ما يرسل من بضائع إلى وهران ومستغانم على ما يكفي أهلها .
 - ٦ - تترك الحرية للمسلمين الراغبين في العودة إلى ديارهم في المناطق التي يسيطر عليها الفرنسيون .
 - ٧ - يمين وكلاء لكل من الطرفين لدى الطرف الآخر للإشراف على تنفيذ هذه الاتفاقية ،
- وقد عين الأمير (مردخاي بن دران الموسرى) وكيلا عنه بمدينة الجزائر و (محمد بن يخ) في وهران ، والأغا (خليفه بن محمود) في أرزيو - وعين سفير فرنسا الكومندان (عبد الله ديسون) - وكان من ممالك الأمراء المصريين لكنه دخل في خدمة الفرنسيين - وكيلا عنه في « المعسكر »

(١) يذكر صاحب تحفة الزائر أن مندوب الأمير الذي وقع هذا الاتفاق هو (ابن عراش) - وزير خارجية الأمير .
انظر : المرجع المذكور - ص ١١٥ .
ونص الاتفاق ص ١١٦ .

وكما يقول صاحب تحفة الزائر إن هذه المعاهدة كانت مجرد هدنة بين طرفين خاصة أن الحكومة الفرنسية حين أبلغها الجزال دى ميشيل خبر هذه المعاهدة لم تبد إرتياحاً لها - لكن على كل فقد أتاحت هذه المعاهدة للأمير عبد القادر فرصة مد نفوذه وتوسيع سلطانه في بلاد المغرب الاوسط ، وكانت المعاهدة بمثابة نداء للقبائل التي لم تدخل في طاعة الامير بعد للانضمام إليه بعد أن اعترفت به الدولة الفرنسية ، كما تفرغ الامير لإخضاع القبائل التي استمرت في معاداته مثل « الدوائر ، و « الزمالة ، و قبائل « شلف ، ، ونجح في أن يهزم هذه القبائل في غرب الجزائر في موقعة قرب « تلمسان ، في ١٢ يولييه ١٨٣٤ م واستطاع بذلك أن يبسط نفوذه على غرب الجزائر ، وأصبح يتطلع إلى مد نفوذه إلى الشرق وإلى المناطق المحيطة بمدينة الجزائر ذاتها .

وكان طبعياً أن يثير هذا الوضع مخاوف الفرنسيين ، ولذا اتجهت فرنسا إلى إغراء بعض الرؤساء المحليين وزعماء القبائل بالمرتبات والمنح بالإضافة إلى الحماية الفرنسية ، ليعتلوا ولاءهم للفرنسيين ، ويحولوا دون إنضمام مناطقهم وقبائلهم إلى الامير عبد القادر ، وعقدت معهم معاهدة بذلك عرفت (بمعاهدة التينة) في ١٦ يونيه ١٨٣٥ م ووضعتهم بذلك تحت حمايتها — الامر الذي اعتبره الامير خرقاً للمعاهدة المعقودة بينه وبين الفرنسيين .

وفي أول يونيه سنة ١٨٣٦ م خرج الجزال تريزيل (Trezel) الذي كان قد عين حاكماً لوهران بدلا من دى ميشيل - في قوة كبيرة من ٥٠٠٠ ره من المشاة ، وفرقة من الخيالة من وهران يريد أن يوقع بقوات الامير عبد القادر - فعبا الامير قواته والتقى بقوات تريزيل وألحق بها هزيمة مفكرة وأجبرها على التراجع صوب وهران - لكن لحقت بها قوات الامير عبد القادر عند مسجاز نهر « هبره ، في المنطقة المعروفة بـ « المقطع ، حيث أوقعت بها هزيمة منسكرة ، فقتل عدد كبير من القوات الفرنسية وغرق الكثيرون في النهر وغنم الامير الكثير من العجلات الحربية وغيرها من الذخائر والمدافع واستطاع « تريزيل ، والبعض من بقي على قيد الحياة من رجاله التسلل إلى ساحل

البحر حيث هربوا إلى « أرزيو » . وكانت لمعركة « المقطع » هذه أصداء قوية في فرنسا - فأعاد كلوزيل (Clauzel) مرة ثانية كحاكم عام للجزائر ودعمته بقوة كبيرة من الجنود والعتاد ليحاول أن يمحو آثار الهزيمة التي هزت أركان الإستعمار الفرنسي للجزائر^(١) .

ووصل كلوزيل إلى الجزائر مصحوباً بالدوق دورليان (Duc d'Orléans) وركز جهده للقضاء على كل نفوذ للأمير عبد القادر وإجباره على الإستسلام - فقاد قوة كبيرة من ١١.٠٠٠ جندي في ٢ نوفمبر سنة ١٨٣٥ م قاصداً عاصمة الأمير « المعسكر » - لكن الأمير تحاشى الإصطدام مع الفرنسيين في معركة فاصلة - فترك عاصمته بعد أن دمر مفتحاًتها ودخلها الفرنسيون ليجدوها مهجورة واضطروا بعد يومين إلى إخراجها فعاد إليها الأمير .

وأرسل كلوزيل بعد ذلك قوة احتلت تلمسان - لكنه انساق إلى رأى المملوك اليهودي « يوسف » ففرص على الأهالي غرامة حرية لاطاقة لهم بها ، واستخدمت في جمعها أساليب وحشية بما زاد من نفور الأهالي من السلطات الفرنسية الحاكمة ووصلت أخبار هذه الأعمال إلى البرلمان الفرنسي فأثارت ضجة كبيرة .

وظن كلوزيل بعد هذا النجاح الذي أحرزه أن الأمير عبد القادر أصبح عاجزاً عن القيام بأي تهديد ، ولهذا قرر توجيه جهوده نحو الشرق - نحو قسنطينة التي كانت تحت إدارة الباي أحمد . لكن كما سنرى أن الأمير عبد القادر استطاع أن ينزل الهزائم بالفرنسيين وأن يحاصر المعسكر الفرنسي في « وادي قافنا » ، كما حاصر الحامية الفرنسية بتلمسان .

وأعلن كلوزيل عزل الباي أحمد وتعيين المملوك « يوسف » باياً مكانه ، وأرسل في ١٣ نوفمبر سنة ١٨٣٦ م حملة من ٧٤٠٠ مقاتل من المشاة ،

(١) لدراسة التمهيلية لموقعة المقطع - انظر: مجلة الزائر ص ١٥١ وما بعدها .

وكذلك .

١٣٠٠ من الخيالة لاحتلال قسنطينة - وكان الفرنسيون قد استولوا على عنابة فاتخذوها قاعدة ومنطلقاً لهذا الهجوم . وعانت القوة الفرنسية الكثير في الطريق بسبب هطول الأمطار ورداءة الطرق ، وحين وصلت مدينة قسنطينة حاولت فرض حصار عليها - لكن موقع قسنطينة الفريد على قمة صخرية ، يحيط بها من الشمال والشرق والجنوب واد ضيق عميق ساعد المدافعين عنها على الصمود ومهاجمة أعدائهم ، فأضطرت القوات الفرنسية للإنسحاب بعد أن تكبدت خسائر فادحة .

ويرجع عنف المقاومة الوطنية واستبسال سكان قسنطينة في الدفاع عن بلدهم إلى اعتماد الفرنسيين على الخائن المدعو (يوسف) الذي كان قد إرتد عن الإسلام واعتنق الكاثوليكية وكان عيناً للفرنسيين في عنابه وقسنطينة .

وأمام الهزائم المتكررة اضطرت الحكومة الفرنسية لعزل كلوزيل خلفه الجنرال دامريمون (Damrémont) حاكماً عاماً للجزائر .

كما أرسل الجنرال بيجو (Bugeaud) إلى وهران لمعالجة المرقف في المناطق القريبة من الجزائر .

ونجح بيجو في فك الحصار عن « تافنا » و « تلمسان » ، كما انتصر على قوات الأمير عبد القادر في معركة نهر « سكاك » في يوليو ١٨٣٦م - لكن لم يلمح أن عاد بيجو إلى فرنسا وعادت قوات الأمير لحصار تلمسان .

(١) انظر خطوط عميد الصالح بن المعتزى : الأخبار المبينة لإستبلاء الترك على قسنطينة ص ٦٤ وما بعدها .

— وشوقي المجل . أضواء جديدة على تاريخ قسنطينة في ضوء ثلاث مخطوطات بدار الوثائق بالرباط (مجلة الدراسات الأفريقية — القاهرة ١٩٧٤ م) .

واتجه الفرنسيون بعد ذلك إلى السيطرة على قسنطينة والقضاء على سلطة الباي أحمد فيها - ولتحقيق هذا وحتى لا يحارب الفرنسيون في جبهتين قرروا السعي للإتفاق مع الأمير عبد القادر وعقد صلح معه ، وأرسل (ييجو) لهذا الهدف . وفى ٢٠ مايو ١٨٣٧ م عقد صلح تافنا (Tefna) بين الطرفين .

وبموجب هذا الصلح تقرر ^(١) :

١ — يعترف الأمير بسلطة فرنسا على الجزائر ، وعلى الساحل وأرض متيجة ووهران وأرزيو ومستغانم ومزغران .

٢ — تعترف فرنسا بسلطة الأمير عبد القادر على المناطق التى تحت سلطانه وعلى تافنا ، وتلمسان ، وتيطرى .

٣ — يمارس المسلمون فى المناطق التى يحتلها الفرنسيون شعائر دينهم بحرية تامة .

٤ — للأمير الحق فى أن يشتري من فرنسا البارود وسائر ما يحتاجه من الأسلحة .

٥ — يكون وكلاء لكل طرف من الطرفين فى المدن التى تحت إدارة الطرف الآخر لرعاية شؤون رعاياه القاطنين بمدن هذا الطرف .

وبموجب هذه الإتفاقية أصبح الأمير عبد القادر يسيطر على ما يقرب من ثلثى إقليم الجزائر ، كما أتاح له فرصة تنظيم شؤون إدارته ، وتكوين جيش نظامى .

الاستيلاء على قسنطينة :

اتجه الفرنسيون بعد ذلك للسيطرة على قسنطينة وتثبيت نفوذهم في الاقليم الشرقي من الجزائر . وكان كلوزل - كارأينا - قد فشل في عام ١٨٣٦ م في أن يقضى على نفوذ أحمد باشا حاكم المقاطعة الشرقية معتمداً على شخصية المغامر (يوسف) - فقد تعاونت الطبيعة مع قوة الدفاع عن المدينة في كسر شوكة الجيش المهاجم وتكبيدة خسائر فادحة - فقد هطلت الأمطار والثلوج وعانى الجيش الفرنسي "كثير من الأهوال قبل أن يصل إلى أبواب قسنطينة التي رد عنها ، وتعقبته قوات الباي أحمد باشا إلى أبواب (عنابة) .

وبعد أن اطمأنت فرنسا من جهة الأمير عبد القادر بتوقيعها معاهدة تافنا معه في ٢٠ مايو ١٨٣٧ م - اتجهت إلى غسل آثار الهزيمة التي منيت بها في قسنطينة ، فأعدت في أكتوبر ١٨٣٧ م حملة من ١٢٠٠٠ جندي مزودة بالمدفعية القوية ونجحت هذه القوة بقيادة الجنرال فال (Valeé) في ١٣ أكتوبر سنة ١٨٣٧ م في اقتحام أسوار المدينة بعد أن فتحت المدفعية ثغرات فيها - وبعد معارك دامية استطاعت القوات الفرنسية الاستيلاء عليها بعد أن قتل عدد كبير من قواد الفرنسيين وجنودهم .

على أن الأمر لم يستتب للفرنسيين في جنوب قسنطينة - فقد لجأ أحمد باشا إلى منطقة القبائل ، وأخذ ينظم المقاومة المسلحة وأضطر الفرنسيون في عام ١٧٤٨ بعد أن نجحوا في القضاء على مقاومة الأمير عبد القادر - أن يوجهوا حملة عسكرية إلى (منطقة الأوراس) واستسلم أحمد باشا وقبض عليه ونقل إلى الجزائر حيث سجن وبقي في سجنه حتى توفي عام ١٨٥٠ م .

وبعد أن استتب الأمر للفرنسيين بالإقليم الشرقي من الجزائر قسموه إلى إدارتين إحداهما في (عنابة) والأخرى في (قسنطينة) .

ولجأ الجزائرال فال إلى سياسة إستمالة الرؤساء الوطنيين - وتأليب أحدهم على الآخر حتى لاتتاح الفرصة للعناصر الوطنية للتشكل من جديد ضد الفرنسيين ،

ووضع سياسة لادارة هذه المنطقة الشرقية من الجزائر تكفل للفرنسيين تثبيت أقدامهم فيها دون أن تتكاف فرنسا نفقات باهظة .

النظام الإدارى فى الأقاليم التى خضعت للأمير عبد القادر :

لم يكن الأمير عبد القادر قائداً حربياً قاد الشعب الجزائرى فى مقاومته للمستعمر الفرنسى فحسب - لكن لاشك فى أن ما يستحق الدراسة أيضاً النظام الإدارى الذى وضعه للأقاليم التى خصصت له . وقد أتاحت له فترة الهدنة من ٣٠ مايو ١٨٣٧ م إلى ٢ نوفمبر ١٨٣٩ م فرصة ذهبية لتنظيم إدارته ومحاولة إعداد جيشه وتقديره .

ويعطينا صاحب تحفة الزائر - صورة عن هذا النظام الإدارى^(١) .

فقد قسم الأمير المناطق التى خضعت له إلى مقاطعات وصل عددها إلى ثمان (معسكر ، وتلمسان ، ومليانة ، تيطرى ، بجاية ، بسكرة ، برج حمزة ، الصحراء الغربية) ووضع على كل منها عامل (خليفة) ، وقسم المقاطعات إلى دوائر ووضع على كل منها (أغا) والدوائر إلى قبائل على كل منها (قائد) ، وتنقسم إلى بطون وعشائر على كل منها (شيخ) .

وكان عمال الأقاليم أو الخلفاء - يفصلون فى المسائل العادية ، أما المسائل الخطيرة فترفع إلى الأمير . وفى وقت الحرب يكون كل خليفة على رأس جماعته . وقد حرص على إختيار عمال الأقاليم من المشهود لهم بالحزم والعزم - العفة ، وكان العامل عند توليته (يقسم على صحيح البخارى) أن يسير فى إدارة إقليمه بالعدل - وكان منادى الأمير ينادى فى الأسواق أن « من له شكوى على خليفة أو أغا أو قائد أو شيخ - فليرفعها إلى الديوان الأميرى من غير وساطة ، فإن الأمير ينصفه من ظلمه ، وإن ظلم أحد ولم يرفع ظلامته إلى الأمير فلا يلومن إلا نفسه » .

(١) تحفة الزائر : مرجع سابق ص ١٩٩ وما بعدها .

وعند تعيين أمير جديد يتحرر له - مرسوم خاص بتعيينه - محرره كاتب الديوان الخاص ، ويختم بخاتم الإمارة .

ولا يغفل الأمير عبد القادر عن السؤال عن عماله بالأقاليم وتصرفاتهم مع الرعية . وإلى جانب الأمير توجد النظارات (الوزارات) المختلفة (الداخلية - الخارجية - المالية - الأوقاف - الأعشار - وصنوف الزكاة - وضرب السكة والأسلحة ومعاملها - وما يتعلق بأدوات الحرب) هذا بالإضافة إلى كتابة الديوان الأميرى .

وقد نظم الأمير الجباية بحيث لا يثقل كاهل الناس فكانت نجى الوكاة فى الربيع ، والأعشار فى الصيف ، وفرض الأمير إعانة خاصة لظروف الحرب ليقسر القيام بأمر الجهاد (١) .

وأخذ الأمير علماً - أعلاه وأسفله أخضر ووسطه أبيض منقوش عليه فى صورة دائرية تامة عبارة (نصر من الله وفتح قريب - ناصر الدين عبد القادر بن محبى الدين) وفى وسطه صورة يد مبسوطة .

وأهتم الأمير عبد القادر بتطبيق الشريعة الإسلامية إلى حد كبير ، فعين فى كل عمالة وكل دائرة قاضياً على المذهب المالكي ، وعين (قاضياً للقضاة) وقاضياً خاصاً للمعسكر ومع كل قاض كاتبين .

ولم يغفل عن شئون التعليم فقد عين فى مختلف المدن والقرى الخاضعة له علماء لتدريس فنون العلوم المختلفة ، وعين لهم مرتبات ، وكان يحترم أهل العلم والقائمين بشئونه ، فأستثناهم من جميع الضرائب - واجتهد فى جمع الكتب من كل جهة ، وشرع فى تنظيم مكتبة فى (تاكدمت) ، وقد تلفت كلها فى موقعة طاكين (Toguín) التى شنت فيها القوات الفرنسية بقيادة دوق دوماال (Duc d'Aumale) ابن ملك فرنسا فى ١٤ مايو ١٨٤٣ هجوماً على

(١) ملاحظة : لما عقد الأمير هدنة مع فرنسا امتنعت بعض القبائل عن دفعها بحجة أن الفرض ، من دفعها امتنع بمقد الهدنة .

قوات الامير واضطر بعدها الامير إلى اللجوء إلى المغرب بعد مقاومة عنيفة استمرت سبعة شهور - كما ستفصل ذلك بعد .

وأنشأ الامير المارستافات (المستشفيات) لمرضى العساكر ، وجعل بكل مستشفى منها أربعة أطباء - وكان طبيبه الخاص (أبو عبد الله المزروالي) هو الرئيس الاعلى لهم ، كما شيد في حاضرة إمارته داراً للمسافرين وللوفود أقام عليها ناظراً - كان ينزل فيها الضيوف ويقدم لهم المأكل .

وأهتم بذشر الفضائل بين الناس - فمنع استعمال الذهب والفضة للزينة ، كما منع التدخين وأمر بأن تكون الصلوات الخمس بالجوامع ، ومن وجد في حانوته وقت الصلاة يجلد .

وإنخذ داراً للشورى لإصدار الفتوى حسب الشرع ، وكان الإمبرير يرأس مجلس الشورى إذا كان الأمر يتعلق بأمر خطير هام ، وكانت نفقات هذه المجالس تصرف من بيت المال كباقي الوظائف .

وكان الأمير عبد القادر يحتفل بالمولد النبوي الشريف والعيد احتفالا عظيما يقوم فيه الجيش بالمانورات العسكرية ويشترك في هذه الإحتفالات عادة مع الأمير خاصته وأمرأه جيشه .

وسك الامير عملة خاصة لتكون أساساً للمعاملات ، كما وضع حدوداً للمكاييل والمرازين وأوجب . أن تختم آلة الوزن والكيل بختم الإمارة .

هذا وقد بعث الأمير بعدة أسئلة واستفسارات إلى العلماء والفقهاء يستوضح رأيهم في الشرع في مختلف المسائل والمشكلات الرئيسية التي عرضت له في إمارته - ولهذا الهدف أيضاً أرسل [السيد ابن عبد الله سقاط] إلى المغرب الأنصبي مع كتاب للمولى عبد الرحمن بن هشام يوضح فيه ما اجراه في إمارته من تنظيمات ويلتمس معرفة رأي علماء فاس في الأسئلة التي أرسلها صحيفة رسوله - وقد جاءت الإجابات والفتاوى عن هذه الأسئلة ، وهي تعتبر

هى الحقيقة بمثابة مواد قانونية تناولت العديد من أمور الحكم والعلاقات بين الحاكم والمحكومين وبين الناس بعضهم والبعض الآخر .

تنظيم الجيش ووسائل الدفاع :

كان الأمير عبد القادر يدرك أن الحرب لا بد أن تتجدد بينه وبين الفرنسيين وأن الهدنة أمر مؤقت استلزمته ظروف الطرفين ، لذا عكف على إعداد الجيش وتدريبه وتنظيمه على النظم والأساليب الحربية الحديثة بقدر الإمكان — فأعد الدفاتر الاميرية اقيد الراغبين فى التجنيد ، وأذاع ذلك بين القبائل ، وجعل الجيش من ثلاث فرق : فرقة مشاة ، وفرقة خيالة ، وفرقة مدفعية ، ووضع للجيش قوانين وضوابط .

وقد احتوت قوانين الجيش هذه التى أصدرها الأمير عبد القادر على مقدمة وأربعة وعشرين قانوناً ، وخاتمة (١) .

وأوضحت هذه القوانين المراحل المختلفة للجندية فى كل قسم من الأقسام السالفة الذكر فهناك (الأغا ، والسياف ، ورئيس الصف ، والجاويش) كذلك (الطوبجى ، والباش طوبجى) .

وحدد كسوة الجنود حسب رتبهم ، كما حدد ما يخص كل من مأكل (من خبز أو بقسماط وزيت وسمن ..) ووضع نظاماً لتدريب الجند فكان التغير (البورى) يجمعهم ويفرقهم ، ولهم أوقات خاصة للتدريب . وأوجد (نياشين) وشارات لمكافأة المحسن الذى يقوم بأعمال بطولية ، كما حدد نوع الجزاء لكل مخالفة يرتكبها الجندى . وقرر أن يمنح الجندى الذى يخرج فى الحرب ويصبح عاجزاً عن القتال راتبه - كما نظم رواتب لأسر المتوفين منهم .

(١) « بعض كتابات الجنود هذه القوانين فيما أطلق عليه » وشاح السكائب وزينة المسكر المحيدى الذالب . « وتوجد منها نسخة خطية بدار الوثائق بالرباط تحت رقم ١٥٤٢/د وقد قارنا ماجاء بهذه النسخة الخطية بما أورده صاحب تحفة الزائر ١ ص ١٢٥ - ١٢٢ ، فوجدنا بعض الاختلافات القليلة فقط .

وكان للجيش - كما ذكرنا - أطباؤه ومستشفياته ، كما كانت له موسيقاه العسكرية ، وكانت هناك معامل لصناعة الأسلحة بأنواعها في مدن معسكر ومليانه و الديه ، لكن الأمير كان أيضاً يشتري السلاح من تونس والمغرب وفرنسا ذاتها ، وكان هناك مختصون لإصلاح السلاح يدعون (قرداجيه) ، وكانوا يرافقون الجيش في الحل والترحال . كما كان هناك عدد من الخياطين والبرجية لإعداد وإصلاح ما يلزم إصلاحه من ملابس الجنود وسروج الخيل .

وقد وصل عدد جنود الأمير إلى ما يقرب من خمسة عشر ألفاً ، منهم إثنا عشر ألفاً مشاة ، وألفان وخمسمائة من الخيالة ، ومائتان وخمسون مدفعياً ، وخمسمائة عبد كانوا يمثلون حرس الأمير الخاص تحت رئاسة (سالم أغا) وهو فارس زنجي اشتهر بالشهامة ، وكان الحراس يتناوبون حراسة الأمير ليل نهار .

وكان للأمير عبد القادر أركان حرب وكتبة أسرار ، وحينما يستقر الأمير بمحيشه في مكان معين ينصب الخيام بنظام دقيق محدد ، وللمعسكر قوافيته وضوابطه .

وهكذا لم يكن الأمير عبد القادر مكافئاً بامتياز فحسب بل كانت له إدارة أيضاً للإمارة ، وقد حاول أن يدخل عليها عدة تجديدات ونظم - ولعل الناحية الإدارية عنده من الأمور التي لم تحظ بالدراسة الكافية كالناحية العسكرية الحربية .

وكما اهتم الأمير عبد القادر بإعداد جيشه للقتال كذلك وجه همه إلى تحصين الثغور والمدن الهامة من إمارته ، وبنى عدة حصون خاصة في الحد الفاصل بين التل والصحراء . ولعل حصن « تاكدمت » العظيم يعتبر أعظم هذه الحصون ، لموقعه الممتاز بمنطقة تتحكم في الطريق التجاري بين الصحراء والتل ، وقد أنشأ الأمير في هذا الحصن داراً للسلاح وداراً لضرب السكة .

ولاشك في أنه لو وجد الأمير عبد القادر فسحة أكبر من الوقت لكانت

إنجازاته في مختلف الميادين أوسع وأضخم - لكنه كان يعمل في ظروف غير ملائمة وكانت فرنسا تتحين الفرص لتقضى الهدنة والإنقصاص عليه .

تطور العلاقات بين فرنسا والأمير عبد القادر (١٨٣٨ - ١٨٤٧) :

بعد أن تغلب الفرنسيون على المقاومة في شرق الجزائر ، قسنطينة ، اتجهوا لمعدهم العنيد الأمير عبد القادر ، وكان في ذلك الوقت سيدياً على كل ولاية « وهران » ، وجوز كبير من ولاية « الجزائر » ، كما كان له أتباع يدينون له بالولاء في ولاية « قسنطينة » ، وبين القبائل الأخرى المنتشرة في الداخل ، وكانت نخزاته عامرة وتحت إمرته جيش نظامي من المشاة والفرسان يتألف من ٨٠٠٠ من المشاة و ٢٠٠٠ من الفرسان وقوة من المدفعية ، وكانت القبائل ترسل إليه المتطوعين والمجاهدين باستمرار وبانتظام .

واستند الفرنسيون إلى اختلاف بين النصين العربي والفرنسي في « معاهدة تافنا » التي عقدوها مع الأمير - فأخذوا يشجعون الهجرة إلى إقليم « المتيجة » المحيطة بمدينة الجزائر ، ويتزعمون الأراضي من أصحابها ليوزعها على المهاجرين الجدد الذين بلغ عددهم سنة ١٨٣٩ ، ٢٥ ألفاً ، وكان الفرنسيون يرون أن توسعهم وراءه وأدى خضرة ، ضرورياً لتأمين الاتصال بين مواقعهم في الجزائر ، وقسنطينة .

ولذا طلب المارشال « فال » ، من الأمير إعادة النظر في معاهدة « تافنا » ، لتعديل النصوص موضع الخلاف . ولما لم يصل الطرفان إلى اتفاق - قرر الأمير عبد القادر إرسال فاطمة خاتنته « أبي محمد الحاج المولود بن عراش » ، إلى باريس لمرضى موضوع الخلاف على الملك والحكومة الفرنسية . كما أرسل الأمير أخاه « السيد محمد السعيد » ، إلى سلطان المغرب الأقصى ، يخبره بتطور العلاقات مع الفرنسيين . وقد رد سلطان المغرب عليه بخطاب ينبه فيه أن يكون على حذر من مكائد العدو ، وغدره وإحتياله ويتمنى له التوفيق والسداد^(١) .

(١) أنظر نص خطاب الأمير - ورد السلطان المغربي في :

تحفة الزائر - مرجع سابق - ٢٠ ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .

وأستقبل وفد الأمير في باريس بالترحاب لكن الحكومة الفرنسية أفهمته أن أمر هذه المفاوضات من إختصاص حاكم الجزائر ، فعاد الوفد وحاول الجنرال فالى الضغط حتى يقبل الأمير التعديل الذى يطلبه الفرنسيون للمعاهدة . ولإثبات إصرارهم على مد نفوذهم للمنطقة المتنازع عليها — قام الجنرال فالى ود الدوق دورليان ، بجولة استعراضية في هذه المنطقة ، وأعتبر الأمير عبد القادر هذا بمثابة خرق صريح لمعاهدة تافنا — فهاجم بجيوشه سهل « المتيجة » وطهره من المستوطنين الفرنسيين . فأسرعت فرنسا بإرسال نجدات لقواتها في الجزائر ، كما أصدرت أوامرها للحاكم العام الفرنسى بإحتلال « مديه » ود مليانه ، ود شرشال ، وتطهير هذه المنطقة كلها المحيطه بمدينة الجزائر . ونجح القائد الفرنسى في صيف عام ١٨٤٠ م في أن يضع يديه على هذه المراكز لكن لم تلبث قوات الأمير عبد القادر أن طوقت هذه الحاميات الفرنسية ، ولم تستطع فرنسا أن ترسل المزيد من العتاد والجنود إلى الجزائر ، فقد كانت الظروف الدولية تشير إلى احتمال وقوع صدام دولى بسبب الازمة التى ترتبت على الحروب بين محمد على والسلطان العثمانى . لكن هذه الازمة انتهت بأقتاف لندن في ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ م والتسويات التى تلتها .

وقد كان عول الماريشال فالى Valeé وتعيين الجنرال بيجو Bugeaud مكانه في ٢٩ أكتوبر عام ١٨٤٠ م بداية مرحلة حاسمة في السكفاح بين الأمير عبد القادر والفرنسيين .

فقد وضع بيجو « تكتيكاً » جديداً لحربه ضد الأمير عبد القادر والقبائل الموالية له ، وأقرته الوزارة الفرنسية التى تولت الأمر في فرنسا في نفس الوقت وأمدته بما طلبه من جنود وعتاد لتنفيذ سياسته ، وظل بيجو في منصبه كحاكم عام للجزائر حتى عام ١٨٤٧ م فكنه ذلك من تنفيذ سياسته كاملة .

وكان بيجو قد شارك في حروب « بونايرت » وتدريب على حروب العصابات في أسبانيا ، فرسم خطته الجديدة على أن يجهد عدوه بالمعارك المتعددة وأن يستنزف قوته المادية والإقتصادية بشن حرب إرهابية سريعة تقوم على أساس سرعة الحركة والتنفيذ وعدم التقيد بأى مبادئ أخلاقية أو إنسانية — ولتنفيذ

ذلك حول جيشه إلى طواير صغيرة سريعة الحركة ، وتخلص من كل ما كان يعوق حركة الجندي من معدات أو ملابس ثقيلة أو مدفعية الميدان .

وتعقب بذلك طواير الامير عبد القادر ، وكانت جيوشه في تقدمها تحصد المحاصيل وتحرق الحقول وتخطف قطعان الاغنام ، ولم يتورع عن إحراق القرى بأكملها وسد المنافذ والملاجئ الجبلية التي اجأ إليها السكان وإشعال النار فيها فيةضى على من فيها جملة . لقد كانت تعليماته لجنوده تفحص بأن يدمروا ويحرقوا ويبيدوا كل شيء للعدو^(١) .

ونجح بيجو في ١٨٤١ م في الإستيلاء على مدينة « معسكر » عاصمة الامير عبد القادر القديمة ، تخربها كما خرب الجنود الفرنسيون القرى والمدن المحيطة التي مروا بها .

وفي عام ١٨٤٢ م استولى على تلمسان ، ومستغانم وعلى أهم مراكز لإقليم وهران . وفي عام ١٨٤٣ م ضيق الفرنسيون الخناق على الامير فأضطر إلى الانتقال إلى الصحراء حيث أصبح يتخذ له عاصمة متنقلة من الخيام والزمالة ، بعيدة عن متناول جنود الأعداء - لكن استطاعت قوة فرنسية بقيادة الدوق دومال « Duc d'Aumale » ، أن تهاجم الزمالة وتأسر عدداً كبيراً من رجال القبائل الموالية للامير وتضم كيات ضخمة من العتاد. وفي نفس العام ١٨٤٣ م ، سقط القائد الجزائري « مبارك » قتيلاً في معركة عند « سيدي يحيى » وكان هذا القائد من أمهر قواد الامير عبد القادر فكان مقتله ضربة قوية لحركة المقاومة .

وأضطر الامير إلى الفرار إلى المغرب حيث كان المولى عبد الرحمن سلطان المغرب يؤيد الامير عبد القادر في جهاده وييسر وصول الإمدادات إليه من المغرب .

وفتح لجوء الأمير عبد القادر إلى المغرب - صفحة جديدة في تاريخ فرنسا الإستعماري، فقد اتخذت من ذلك ذريعة لتحقيق أطماعها في المغرب الأقصى - فأصرح بيجو بالزحف بقواته غرباً فأستولى على « لالا مغنيه » « Lalla Maghnia » على بعد ٢٠ كيلو متراً شرق وجده وبدأت قواته تخترق الحدود المغربية ، كما أرسلت فرنسا قوة بحرية بقيادة الأمير « دوجوانفيل » « De Joinville » لمياه طنجة للضغط على المغرب . فأصرح المولى عبد الرحمن بإرسال قوة عسكرية إلى « وجده » . وبالرغم من أن المفاوضات كانت جارية بين الفرنسيين والسلطات المغربية في طنجة ، فقد أخذت البحرية الفرنسية في قصف «طنجة» ثم « الصويرة » ، وفي نفس الوقت كانت القوات الفرنسية تزحف على الحدود المغربية الشرقية . وفي ١٤ أغسطس التقى الجيش المغربي بقيادة المولى محمد بن السلطان المولى عبد الرحمن مع الجيش الفرنسي بقيادة بيجو عند وادي إلسي « Iely » ، وتغلب الجيش الفرنسي بأسلحته الحديثة ونظامه وخططه على القوات المغربية المدافعة عن أرضها .

وكان في ذهن بيجو أن يشن حرباً كاملة يبسط بها نفوذ فرنسا على بقية بلاد المغرب وقد عبر هو عن خصائص هذه الحرب في مجلس النواب الفرنسي بقوله « يلزم أن نقوم بحملة أكتساح كبرى في شال أفريقية تشبه حملات القوط »^(١) . ولم تستطع القوات الفرنسية التقدم في الأراضي المغربية لإزاء تحذير إنجلترا لفرنسا من عواقب التوغل في الأراضي المغربية .

وفي سبتمبر ١٨٤٤ م وقع الطرفان (فرنسا والمغرب) معاهدة طنجة وفيها تعهد السلطان المغربي بعدم تقديم أية مساعدة للأمير عبد القادر وبسجنه في إحدى الموانئ المغربية إذا ما وقع في أيدي السلطات المغربية .

أما تحديد الحدود بين الجزائر والمغرب فقد أُنفق عليه في معاهدة أخرى

(١) كلود ، هنري - واندره ، لا كوست : الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي - ترجمة محمد عناني (د . ت) ص ١٣٦ .
— وارجع لا ذكرناه عن معركة إلسي عند حديثنا عن فترة حكم (المولى عبد الرحمن بن هشام) في المغرب الأقصى .

وقعت فيما بعد في باريس في عام ١٨٤٥^(١). ويلاحظ إنه في هذه الإتفاقية الجديدة لم تحدد الحدود الفاصلة في المناطق الصحراوية بين البلدين تحديداً دقيقاً وكان هذا سبباً في المشكلات التي نشبت بين البلدين في المستقبل .

وباتفاقية طنجة أصبح الأمير عبد القادر لا يستطيع أن ينتظر أية مساعدة من المغرب في حربه ضد الفرنسيين ، بل إن الدول الإستعمارية نجحت في أن تصور الأمير على أنه يسعى لإستغلال شعبيته لبسط نفوذه على أجواء من المغرب ، وبالطبع أدت كل هذه الأحداث إلى تخلي المغرب نهائياً عن تقديم أى مساعدة منتظرة للأمير عبد القادر ، بل جعلته يقف منه موقفاً عدائياً .

وكان من الطبيعي بعد ذلك أن ينصرف عن عبد القادر الكثير من أعوانه ، فإنخفضت قواته لإنخفاضاً محسوساً ، ومع ذلك فقد ظل يكافح مع من صمد من المجاهدين الجزائريين معه ، وقد أدت إلقسوة والوحشية التي اتبعها الفرنسيون ضد الجزائريين في المناطق التي احتلوها - إلى إزدياد السخط والتأهب للمقاومة والثورة وكان من أشهر من برز من أعوان عبد القادر في هذه الآونة محمد بن عبد الله الشهير بأسم (بو معزه) .

واستطاع الأمير عبد القادر - رغم الظروف غير المواتية المحيطة به ، ورغم حصار الفرنسيين للسواحل الجزائرية بحراً وللحدود الشرقية والغربية برأ - أن يحرز في عامي ١٨٤٥ ، ١٨٤٦ م عدة انتصارات على الفرنسيين في مناطق متفرقة من الجزائر وأن ينهك قوات (بيجو) الذي نعى على حكومته عدم إمداده بالجنود والمعدات الكافية وعدم إطلاق يده حرة في الجزائر والمغرب .

وقد اضطر (بو معزه) إلى التسليم للفرنسيين بعد أن ضيقوا عليه الخناق وأصبح من المتعذر وصول أية أسلحة أو إمدادات إليه . وفي سبتمبر

Julien : Op. cit. p.p. 198—199.

(١)

— وراجع ما سبق ذكره عن معاهدة طنجة المشار إليها هنا .

عام ١٨٤٧م استقال المارشال بيجو وترك أمر الجزائر للدوق دومال نجل ملك فرنسا ، وكانت الحكومة الفرنسية تشعر أن مقاومة الأمير عبد القادر توشك أن تنتهى ، فقد كان فى ذلك الوقت محاصراً من القوات الفرنسية بحيث كان من الصعب عليه الحصول على إمدادات جديدة من السلاح ، كما كانت السلطات المغربية فى ذلك الوقت تقف منه موقف العداء وتطالبه بتسليم نفسه فى فاس للقوات المغربية - فلم يكن أمام الأمير عبد القادر مفر من التسليم لإحدى القوتين - الفرنسية أو المغربية .

وفى ديسمبر ١٨٤٧م قبل عبد القادر أن يستسلم للفرنسيين بعد جهاد مرير استمر خمسة عشر عاماً ، وكان قد اشترط السماح له بالسفر إلى الإسكندرية أو عكا ، وجاء دوق دومال بنفسه لقبول إستسلام الأمير .

على أن الحكومة الفرنسية حثت بوعدها للأمير ، فقد سجن فى حصن فرسفى فلم يسمح له بالسفر إلى دمشق إلا فى عام ١٨٥٢م فى عهد إمبراطورية نابليون الثالث^(١) .

وباستسلام الأمير عبد القادر طويت هذه الصفحة من صفحات المقاومة الجزائرية للمستعمر وتمهد الطريق لإتمام عمليات الغزو الفرنسى للجزائر ، وظل الشعب الجزائرى يتربص الفرصة المواتية للوثوب فى وجه مستعمره تشهد بذلك الثورات التى قامت فى وجه الفرنسيين فى غربى الجزائر وفى منطقة القبائل وفى قسنطينة ، وثورات عام ١٨٨١ ، ١٩١٦ ، ١٩٤٥م - كما سنوضح بالتفصيل فيما بعد^(٢) .

انتهت مرحلة من مراحل المقاومة المنظمة بتسليم الأمير عبد القادر لكن نفوذ الفرنسيين فى الجزائر لم يكن - حتى ذلك الوقت - يخرج عن حدود المدن الرئيسية التى احتلوها بينما مساحات واسعة من المناطق المحيطة بهذه المدن ، بالإضافة إلى الأقاليم الداخلية لم تكن تحت سيطرتهم .

(١) امتدت من ٢ ديسمبر ١٨٥٢ إلى ٤ سبتمبر ١٨٧٠م

(٢) كلود مع آخرين - مرجع سابق ص ١٣٦ .

وكانت الأحوال في فرنسا ذاتها غير مستقرة ، فقد نشبت ثورة ١٨٤٨ م فيها وأسفرت عن قيام الجمهورية الثانية ١٨٤٨ — ١٨٥١ م وإن كانت هذه التعبيرات في فرنسا قد صاحبتهما تغيرات في نظام الإدارة الفرنسية بالجزائر - فأنشئت لجنة خاصة لاهئون الجزائر ملاحقة بمكتب وزير الحرية ، ثم أنشئت في عام ١٨٥٨ م وزارة الجزائر - لكن النظرة كلها للجزائر كانت على أنها أرض فرنسية فكانت كل الجهود الفرنسية موجهة إلى إدماج الجزائر والجزائريين في بلادهم .

وتعاقب على الجزائر عدد من الحكام الفرنسيين وكان هدفهم الأول قمع الإضرابات وحركات المقاومة للنفوذ الفرنسي التي أخذت تبرز في مناطق متعددة في غرب الجزائر وجنوبها ، وفي منطقة القبائل ، بل وفي المدن الرئيسية مثل (الجزائر ، وهران ، وغانة ، وقسنطينة) . وقد ظهر بين صفوف المقاومة الجزائرية أبطال جدد تقدموا الصوف في الوقوف في وجه المستعمرين .

في الاقليم الشرقي تزعم بوزيان Bouzian حركة المقاومة والتفت حوله قبائل الوعاطشة Zaatcha ، وتحصنوا في قريتهم الحصينة الواقعة غرب (مسكره) ، ولم يستطع الفرنسيون إقحام الواحة إلا بعد قتال موير ، ووجدوا مقاومة في كل شارع وكل منزل من منازلها . وقد عبر الفرنسيون عن معاناتهم وحقدهم بعد أن استقرت لهم الأمور بإزالة الواحة كلها من الوجود وبإعدام الزعيم بوزيان ، وكان لهذه الأعمال الوحشية أثرها في إزدياد ثورة الجزائريين وفي الرأي العام الفرنسي نفسه ^(١) .

وفي منطقة القبائل ظهر الزعيم بوبغلة Bou Bagla والتفت حوله قبائل الزواوا Zouaoua — واستخدم الفرنسيون نفس الأساليب الوحشية لإخضاع هذه القبائل الثائرة ، لكن لم تكن تبدأ فترة إلا لتعاود الثورة بعد ذلك ^(٢) .

Julien : Op. cit. p.p. 383—384

(١)

Ibid : P. & 86

(٢)

وفي عهد حكومة الإمبراطورية الثانية في فرنسا (١٨٥٢ — ١٨٧٠ م) عمد الفرنسيون إلى تأمين وجودهم في الجزائر بالتوغل في الظهير الصحراوي الذي تتخذ القبائل والثوار الجزائريين ملجأ لها يهددون منه الوجود الفرنسي في الثغور الساحلية . وأتجهت أنظار الفرنسيين إلى مدينة (الأغواط) Laghouat التي تمثل العمق الداخلي لمدينة الجزائر ، وقد كتب الجنرال راندون Randon^(١) إلى حكومته موضحاً أهمية إستيلاء الفرنسيين على هذه المنطقة الداخلية وإقامة تحصينات فيها فهي تعتبر رأس حربة للمناطق الصحراوية الداخلية ، كما تعتبر حامية للأقاليم الساحلية^(٢) .

وكان على الفرنسيين أن يواجهوا زعيماً وطنياً آخر هو (محمد بن عبد الله)^(٣) وكانت القبائل في المناطق الصحراوية الداخلية ورجال الطرق الصوفية قد بايعوه ولم يتم للفرنسيين تثبيت أقدامهم في منطقة الأغواط الداخلية هذه إلا بعد إلتهاج سياسة — كما شهد بذلك الكولونيل تريميليه Trumelet لا تقبل وحشية عما لارتكبهه مع الزعاطشة^(٤) .

ولجأت فرنسا إلى سياسة ضرب القبائل بعضها ببعض الآخر فسكانت تقدم تأييدها لقبيلة منها وتستخدمها لضرب قبيلة أخرى ، وإذا ما أدت الدور المرسوم لها وجدت فرنسا الفرصة سانحة للإيقاع بالقبيلة الأولى .

وحاول الفرنسيون الإتفاق مع بعض شيوخ قبائل الطوارق القوية في الصحراء وذلك لضمان سلامة تنقلاتهم ورفقائهم من الساحل إلى الداخل - لكن رغم ذلك فقد ظل الفرنسيون يشعرون دائماً بالقلق وبإستعداد القبائل للإقتضاض عليهم والإيقاع بجنودهم كلما سنحت الفرصة - وكانت الأسلحة تقسرب إلى

(١) ظل حاكماً عاماً لجزائر لمدة سبع سنوات (١٨٥١ - ١٨٥٨ م) .

(٣) كان قد خدم فترة في ظل الإدارة الفرنسية وعينه بيجوخليفة في تلمسان ليضرب به ففوذ الأمير عبد القادر . لكنه بعد ذلك اتجه لقيادة الحركة الوطنية ضد المستعمرين الفرنسيين .

الجزائر عبر الحدود المغربية - رغم المعاهدة المعقودة بين الفرنسيين والمغرب -
وعبر الحدود الشرقية مع ليبيا .

وقد كانت قبيلة « أولاد سيدى الشيخ » ، فى غرب الجزائر وجنوب وهران
من أقوى القبائل التى قاومت نفوذ الفرنسيين وصمدت لملاتهم .

على أن هزيمة فرنسا فى (سيدان) فى سبتمبر ١٨٧٠ وسقوط الإمبراطورية
الثانية ، وإعلان الجمهورية الثالثة فى ٤ سبتمبر ١٨٧٠ م ورحف الجيش الألمانى
على باريس ومحاصرتها فى ٩ سبتمبر ١٨٧٠ م وإضطراب فرنسا اعقد صلح
فرانكفورت مع ألمانيا فى ١٠ مايو ١٨٧١ م بشروط مهينة للفرنسيين - كانت
لكل هذه الأحداث أصداءها فى الجزائر . فعمت الثورة فى كل مكان ، وطهر
فى هذه الثورة أيضاً زعماء منهم محمد المقرانى M. Mekrani وأخوه بومزراق
• Bou Mezrag

فأسرعت فرنسا لإرسال التعزيزات لقواتها فى الجزائر ، واستطاعت هذه
القوات أن تخمد الثورة بعد أن ظلت مندلعة أكثر من تسعة أشهر واستخدم
الفرنسيون القسوة مع الثوار . وبعد أن أخذت الثورة فرضوا على الجزائريين
غرامة فادحة وحكموا بالإعدام على قادة الثورة . وقد تركت هذه الثورة
والأسلوب الذى اتبعه الفرنسيون فى الإقتحام من الثوار فى الوقت الذى لم
يستطيعوا هم أن يدافعوا عن بلادهم فى وجه الألمان - تركت آثاراً عميقة فى نفوس
الشعب الجزائرى الذى ظل يتحين فرصة أخرى ليعبر عن حقه على المستعمر^(١) .

على أن فرنسا أخذت بعد أن أسكتت حركات المقاومة ضدها - تعمل لتوسيع
نفوذها تجاه الجنوب الغربى صوب الحدود المغربية . ولتحقيق هذا الهدف كان
لابد من إحتلال الواحات والمراكز الهامة فى هذه الجهات مثل (عين الصفراء)
و « فجيج » وما أطلق عليها اسم « كولبشار » . وعمدت إلى ربط هذه الجهات
بالساحل بحط حديدى ، وسيؤدى هذا إلى الاصطدام بالمغرب الأقصى وإلى
انجاء الفرنسيين إلى مد نفوذهم إليه . هذا فى الوقت الذى كان فيه الفرنسيون

يوسعون نفوذهم في القارة بتوغلهم في السنغال ، فقد رأى الفرنسيون في ذلك تعويضاً لخسارتهم في الألزاس واللورين بعد هزيمتهم من ألمانيا في عام ١٨٧٠م^(١). وكانت فرنسا تتطلع بالطبع - بعد أن استولت على الجزائر - أن تمد نفوذها على تونس فظلت تبحث الفرصة المناسبة لتحقيق ذلك .

أما من جهة الجنوب الشرقي فكانت أنظار الفرنسيين متجهة إلى غدامس و غات على حدود فزان - لكن إستيلاء الفرنسيين على هذين الموقعين كان يعنى اصطدامهم بالسلطات العثمانية في طرابلس في وقت كانت فرنسا فيه حريصة على تسوية مشاكلها مع الدول الأوروبية الأخرى لتؤمن توسعها الإستعماري .

وبالطبع ستكون هذه الإتفاقات بين الدول الاستعمارية الكبرى على حساب مصالح وحقوق الشعوب التي أستعمرت كما سنرى بالتفصيل فيما بعد . وفي الفصل التالي سنرى جولة أخرى من جولات فرنسا الاستعمارية في الشمال الأفريقي .

Lucas, Sir Charles : The partition and colonisation of Africa (Oxford 1932) p. & 3 (١)

الفصل التاسع

فرض الحماية الفرنسية على تونس

منذ أن فتح سنان باشا تونس ظل يتناوب على الحكم عدد من البابات حتى نهاية القرن الثامن عشر ، ولاشك في أن الاوضاع الداخلية في تونس كانت لها آثارها العميقة وارتباطاتها بعلاقات تونس بالدول الأجنبية . وتعتبر مبايعه حسن بن علي في ١٣ يولية ١٧٠٥ م فاتحة عهد جديد في تاريخ تونس . فقد نجح في جعل الولاية وراثية في بيته يتداولها الأكر فالأكبر من ذريته وهكذا قامت الدولة الحسنية الى أمدت تونس بعدد كبير من الحكام لفترة تزيد عن قرنين من الزمان (١) .

وقد درج المؤرخون الذين يتعرضون لهذه الفترة من تاريخ تونس إلى تقسيمها إلى فترتين رئيسيتين :

الفترة الأولى من ١١٧ هـ وتنتهي بعام ١٢٥٣ هـ [١٧٠٥ م - ١٨٢٧ م] بإنهاء حكم مصطفى باي .

الفترة الثانية تبرا بحكم المشير أحمد باشا عام ١٢٥٣ هـ وتنتهي في ١٢٩٩ هـ [١٨٣٧ - ١٨٨١ م] . وتعاقب على الحكم في هذه الفترة ثلاث بابات هم :

(١) احمد ابن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان (تونس ١٩٦٣) ص ٤٠ - ٢٥ .

ملحوظة : ولد أحمد بن أبي الضياف بتونس في عام ١٢١٩ هـ في بيت علم . فقد كان أبوه كاتباً للوزير التونسي يوسف صاحب الطابع ، وبعد بلوغه درجة مرموقة من الثقافة - تولى خطة العدالة ، ثم خطة الكتاية بديوان الحكومة ، وفي عهد المشير أحمد باشا قرب به إليه فاصبح مبعوثه في السفارات الهامة ، وفي عهد المشير محمد الصادق أصبح وزيراً للتعليم ومن أعضاء مجلس الشورى الخاص ، وساهم في طبع وشرح القانون الأساسي (عهد الأمان) ، وتوفي في عام ١٢٩١ هـ ، وكتابه له أهمية خاصة إذ أنه كان على علم ومعرفة وشارك في أحداث هذه الفترة الحاسمة من تاريخ تونس .

المشير أحمد باشا (١٨٣٧ — ١٨٥٥ م) ، ومحمد باى الثانى (١٨٥٥ — ١٨٥٩ م) ،
ومحمد الصادق باى (١٥٨٩ — ١٨٨١ م) .

والحقيقة إن ولاية المشير أحمد باشا ومدة حكمة التى استمرت تسعة عشر
عاماً (١٨٣٧ — ١٨٥٥ م) تعد بداية عهد جديد فى تاريخ تونس وعلاقاتها
بالدول الأجنبية .

وقد ابتدأ أحمد باشا عهده بعزيمة ثابتة على الإصلاح وهمة فائقة فى الأخذ
بوسائل التقدم ، وساعدته على ذلك تربيته العسكرية . فقد نشأ فى فترة
الإصلاحات العسكرية النظامية التى كانت قد أخذت بها تونس ، وكان قد بدأ
فى ولاية أبيه تنظيم العسكر النظامى فاعتنى هو بهم^(١) .

وأنشأ أحمد باشا مدرسة عسكرية لتخريج الضباط (مدرسة باردو العسكرية)
جاء لها أساتذة أجنب من إيطاليا وإنجلترا وفرنسا .^(٢)

وتميزت فترة أحمد باشا بالافتح على التيارات الثقافية فى أوروبا . فقد تابعت
رحلات رجال الدولة إلى فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية فشاهدوا ما كانت
عليه هذه البلاد من نهضة ، وقد سافر أحمد باشا بنفسه إلى فرنسا . ويعطينا
الوزير أحمد بن أبى الضياف صورة حية عن الانطباعات التى تركتها هذه الزيارة
وما شاهده فى باريس — فى نفسه .^(٣)

وكان لهذه الزيارة أثرها فى توطيد العلاقات التونسية الفرنسية . ومن المآثر
الثقافية المرتبطة بهذه الفترة تأسيس المكتبة (الاحمدية) ، كذلك حاول أحمد
باشا النهوض بجامع (الزيتونة) وعمر خزائنه بالعديد من الكتب .

(١) محمد بديم التونسي : سهوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأفطار (القاهرة
١٨٩٠) ص ٢٠٦

(٢) الفاضل بن عاشور : الحركة الأدبية — والفكرية فى تونس — (١٩٠٦)
ص ١٢٠ .

(٣) الإتھاف : (مرجع سابق) ص ٩٦ وما بعدها .

لكن رغم مظاهر النهضة التي تميز بها عهد المشير أحمد باشا - فإن سوء الحالة الاقتصادية في البلاد وعجز ميزانيتها عن تحمل أعباء مشروعاته الضخمة هذه - أجبر الباي على أن يضاعف الضرائب على الشعب، ثم أضطر في النهاية لأن يوقف الكثير من مشروعاته فأغلقت مدرسه باردو أبوابها .^(١)

وقد عانى الشعب التونسي في الفترة الأخيرة من حكم أحمد باشا الكثير من المظالم على يد (مصطفى خزونة دار) - وزير العمالة والداخلية - الذي ظل مسيطراً على الوزارة في تونس ما يقرب من ٣٥ سنة ، ووزيره في الشؤون المالية (محمود بن عياد) . وزاد الوضع سوءاً - أن اضطرت الدولة رغم ظروفها هذه إلى المساهمة في إعانة الدولة العثمانية في حرب القرم .

على كل رغم كل هذه الظروف فلم تقع تونس في عهد أحمد باشا في الاستدانة والإقتراض من الدول الأوروبية .

وتميز عهد المشير محمد باي الثاني الذي خلف ابن عمه أحمد باشا في ، ولاية تونس (١٨٥٥ - ١٨٥٩) بالإصلاحات الدستورية الاقتصادية التي قام بها .

ففي الناحية الاقتصادية - اتجه إلى تخفيف المصروفات الحكومية في محاولة لموازنة واردات الحكومة بمصروفاتها . وللتخفيف عن كاهل الأهالي وتنظيم جباية الضرائب - وحد الضريبة وسماها (المجبي) أو (الإعانة) وحددها بستة وثلاثين ريالاً يدفعها القادرون من الرجال ، ولجأ إلى خفض عدد الجنود تخفيفاً للمصروفات وحتى لا تضطر البلاد إلى الاستدانة ، وبذا أنقذ البلاد من الإنزلاق إلى هذه الهاوية - كما يقول ابن أبي الضياف^(٢) .

أما في المجال الدستوري فقد أصدر في ١٠ سبتمبر (١٨٥٧ م) ما عرف باسم (قانون عهد الأمان) وهو قانون مبني على إحدى عشر قاعدة أساسية^(٣) ،

(١) صفوة الاعتبار - مرجع سابق - ٢٠ ص ٦ وما بعدها .

(٢) الاتعاف - ٢٠ ص ٢٠٣ .

(٣) أورده ابن أبي صياف اسم العهد .

انظر - الاتعاف - ٢٠ ص ٢٤٠ - ٢٤٤ .

يسوى بين ساثر سكان البلاد على اختلاف مذاهبهم في الحقوق والواجبات .
وقد أشترك في صياغته الوزير الشيخ ابن أبي الضياف مستهلاً الكثير من اتجاهاته
من التنظيمات الخيرية العثمانية التي أصدرتها الدولة في عام ١٨٣٩ م^(١) .

ويحتبر الكثيرون من المؤرخين صدور عهد الأمان بما منحه الأجانب من
حقوق الملكية والتقاضى وإقامة الصناعات وغير ذلك - كالمواطنين بالضبط -
دليلاً على إزدياد ضغط الدول الأوروبية أو تدخلها في السياسة الداخلية اتونس .
فصدور هذا القانون من وجهة نظرهم جاء تحت ضغط كل من قنصل فرنسا في
تونس ليون روش (Leon Rethes) ، والقنصل الإنجليزي بها ريتشارد وود
(Richard Wood)^(٢) .

ويدل هؤلاء على مدى ما كان يتعرض له الباي من ضغوط - بمشروع
توصيل مياه (زغوان)^(٣) في قنوات حديدية إلى العاصمة ، وما تسكفه من
مصاريف باهظة في وقت كانت ميزانية البلد تن فيه من العجز . ورغم ذلك فقد
نفذ المشروع تحت ضغط القنصل الفرنسي الذي ظل يلح على الباي ليقع عقداً
بالمشروع - والذي كان تردده على الباي - كما يقول ابن أبي الضياف - تردد
السمسار الملح . . . مما يدعو للشك في الغرض الحقيقي من هذا المشروع
وهذا الإلحاح ،^(٤) .

ويذكر صاحب صفوة الاعتبار أن البعض اعتبروا هذا المشروع الذي
أضطر الباي إلى إقتراض مليون فرنك لتنفيذه - بداية المحن التي حلت بتونس^(٥)

(١) للمقارنة - أنظر فرمان التنظيمات الخيرية في .

— صفوة الاعتبار (مرجع سابق) - ص ٥٥ م ٥٥ وما بعدها .

(٢) Safwat, M. : Tunis and The Powers (Alex. 1943) (٢)
pp. 20

(٣) تقع زغوان في جنوب شرقي (تونس) العاصمة ويربطها بها حالياً خط حديدي
(أنظر الخريطة) .

(٤) الإلحاح - مرجع سابق - ص ٢٦ .

(٥) صفوة الاعتبار - مرجع سابق - ص ١٥ .

وحين تولى محمد الصادق باي (١٨٥٩ - ١٨٨١ م) - كان واضحاً أن تونس تمر بمرحلة دقيقة من تاريخها وتحتاج لربان ماهر يسوس أمرها .

وقد بدأ محمد الصادق عهده بإتخاذ الإجراءات لوضع الاسس التي قام عليها (عهد الامان) موضع التنفيذ . فأنشئت في عام ١٨٦١ م المجالس الاهلية للفصل في القضايا بتقضى القوانين التي أعلنت للسكان ، كما ألتخب (مجلس أعلى) من ستين عضواً للنظر في مصالح البلاد ولإبداء الرأي في المسائل السياسية والاقتصادية .

والحقيقة إن هذا التطور يعتبر طفرة في الإصلاح الدستوري أكثر تقدماً من (عهد الامان) الذي يمكن أن نعتبره مجرد إعلان عن النوايا الطيبة ، بينما تعتبر المرحلة الجديدة - مرحلة التطبيق الفعلي .

والعجيب أن هذه الخطوة الدستورية التي منحت الاجانب حقوقاً مساوية لحقوق المواطنين - لم تقابل بما تستحقه من الترحيب من بعض قناصل الدول وخاصة فرنسا .

فقد أعترض هؤلاء على مثول رعاياهم أمام المحاكم الوطنية للفصل في منازعاتهم مع أهل البلاد ، وطالبوا بأن يكون الفصل في القضايا التي يكون أحد الاطراف فيها من الاجانب من إختصاص قنصلية .

وقد تدفق على تونس عدد كبير من الاجانب لممارسة نشاطهم في ظل ما كفاه القانون الجديد لهم من حقوق ، ومع ذلك رفض هؤلاء دفع الضرائب أسوة بالمواطنين العاديين .

وفي الوقت الذي مارست فيه فرنسا وإنجلترا ضغطاً عنيفاً على تونس وأخذت تتدخل في الشؤون الداخلية لها - أسهم الرعايا الاجانب في تدهور إقتصاد تونس بعد أن أستفادوا من ثروتها واستنزفوا أموالها .

الظروف الداخلية في عهد محمد الصادق بأى تمهد للتدخل الأجنبي :

١ — الثورة الشعبية برعاية على بن غداهم :

كان من سوء حظ تونس أن وجد إلى جانب الحاكم محمد الصادق بأى شخصية قوية طغت على شخصية الباي — هى شخصية (مصطفى خونة دار) الوزير الأكبر الذى أصبح كما يقل صاحب صفوة الاعتبار — كانه هو الوالى أو الحاكم الحقيقى للبلاد .^(١)

وكان هذا الوزير جشعاً — لم يكن يمه إلا جمع المال بأية وسيلة ، ويصفه صاحب صفوة الاعتبار بأنه (استأصل الاموال من أربابها ورماهم بالنذل والإفلاس)^(٢) .

وقد استطاع هذا الوزير أن ينفرد بالامر بعد أن نجح فى إخضاع خصمه مثل (خير الدين بنشا) .

ويعطى ابن أبى الضياف صورة حية لما آلت إليه الأوضاع الإقتصادية فى تونس فى ذلك الوقت ، وما آلت إليه حال الصناع والتجار والزراع وغيرهم من طوائف الشعب الذين أثقل كاهلهم بالضرائب .

فقد ضعف الإنتاج الزراعى وأصبحت الصناعات التقليدية تمانى من المواجهة الأوروبية ، وتدهورت التجارة الخارجية ، وأصبح الفلاحون مرغمين على بيع مواشيهم حتى يمكنهم دفع الاداء — وأرتفعت أثمان الحبوب والمحاصيل الغذائية حتى أصبح من المألوف أن يساق المئات من المدنيين المغلسين إلى السجن كل يوم .^(٣)

(١) صفوة الاعتبار ٢٠ ص ١٨

— واطر الأمثلة التى يضر بها الدلالة على مدى ما وصل إليه نفوذه

(٢) صفوة الاعتبار ٢٠ ص ٢٣ .

(٣) الإنحاف ٢٠ ص ١٢٤ .

ووصل الامر إلى أن نهبت الحكومة دخول الاوقاف وتضاعف الدين العمومي ، وكان أرباب الاموال من الاوريين يشجعون الحكومة على إبرام القروض من بنوك لندن وباريس ، ونجح « مصطفى خزنة دار » ، في عام ١٨٦٤ م في أن يجر الباي إلى عقد قرض جديد بفائدة ٧ ٪ بحجة إستهلاك القرض المحلي الذي تبلغ فائدته ١٢ ٪ . بهذا القرض الجديد .

وتم عقد الإتفاق المنحوس كما يسميه ابن أبي الضياف - في ٧ مايو ١٨٦٤م ، ولم يدخل خزانة الحكومة منه إلا النذر اليسير . (١) وتكررت بعد ذلك صفقات عقد القروض ، وفي كل مرة يحتال الوزير الأكبر فيختلس لنفسه بطرق ملتوية مبالغ يضمها لثروته الخاصة = وهكذا اضطربت الأحوال المالية في تونس ولجأت الدولة إلى آخر سهم في جمعيتها ، فعمدت في ١١ ديسمبر ١٨٦٣م إلى مضاعفة مال الإعانة (المجبي) ورفعت مقداره من ٣٦ إلى ٦٢ ريال وفرضته على كافة الرعية (٢) .

وكانت عوامل السخط على الأوضاع التي آلت إليها البلاد قد تجمعت ، فقد كان الناس يعانون من تعسف رجال الحكومة ، ومن بطء سير العدالة بالإضافة الى العسر الشديد في الحالة الإقتصادية وتأخر دفع مرتبات الموظفين والجنود ، هذا في الوقت الذي كانت مظاهر الثراء الفاحش لبعض العناصر المتمسكة بدفة الامور واضحة للعيان فبجاء خبر ارتفاع الضريبة بمثابة الشرارة التي ألهبت النار في الهشيم — فجاءه العامة بالعصيان ، وتحركت كافة القبائل تعلن نقيمتها على الدولة — وتزعم الحركة (علي بن غدام) من قبيلة ماجر .

(١) الانخاب ح ٥ ص ٩٦ .

(٢) من الذين اعترضوا على زيادة مال (الإعانة) — خير الدين — الذي سيجسك بمنصب رئاسة الوزراء فيما بعد . وقد كان رأيه « إن هذه الريادة في مال الإعانة ستؤدي إلى زوالها بالرة ، أو تلجئ إلى مال أكثر ، نها لتجهز الميوش واجهة غضب الناس . ولا نجد في السنة التي بعدها ما يقارب الإعانة الأولى . هذا باعتبار القدرة على مواجهة الغضب » لكن لم يؤخذ بنصيحة . وعلق ابن أبي الضياف على رأي خير الدين هذا بقوله « لعمري إنها مقالة دين واضح يجد نوابها يوم تجد كل نفس اعدت من خير حاضر » .

— انظر الانخاب ح ٥ ص ١١٤ .

وقد عبر (علي بن غدام) عن دوافع الثورة في رسائله التي أرسلها للبائى يقول فيها : إن الناس يطالبون برفع المظالم ونهى البغاة والعمال الذين - طالت أيديهم . ولأنه سوف يستمر إلى أن تخفف الدولة من الضرائب التي أثقلت كواهلهم ، (١) .

وتلخص الرسالة التي بعث بها كمينون (Campenon) — مدير مدرسة باردو الحرية — إلى وزير الحربية الفرنسي في ١٨٦٢ م مطالب الجماهير الثائرة — فقد ذكر : « إن الإعرابي يطلب من سادته ألا يقتلوا كاهله بفادح الضرائب ، وأن يسوسه أقل عدد ممكن من المأمورين ، وأن تكون العدالة التي تطبق على مقربة منه ، وذات إجراءات سريعة وخالية من التشعب ، (٢) :

وقد تحولت الثورة إلى ثورة مسلحة حين استطاع الثوار في القرى والمدن الساحلية وغيرها شراء السلاح والتدريب عليه والاستعداد للمعركة المرتقبة .

وإن كانت الحكومة قد اضطرت لإرجاع المجبي إلى أصلها الأول واستطاعت أن تبث الفارقة بين صفوف الثوار ، وأن توقع بهم الهزيمة ، وتضطر زعيمهم (علي بن غدام) إلى الاستسلام ، وزجت به في السجن رغم منحه الأمان ، وبقي به إلى أن وافاه أجله في زنوانته بحلق الوادى في ١١ أكتوبر ١٨٦٧ م — فإن هذه الثورة تركت أثاراً عميقة في تاريخ تونس .

فمن جهة فتحت الثورة الباب لكل من الدولة العثمانية ، وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا — للتدخل في شؤون تونس ولتلمع كل منها دوراً يتناسب مع مصالحها واتجاهاتها .

{ ٢٩٤ }

(١) انظر رسائله المؤرخة ١٧ صفر ١٢٨١ هـ (٢٢ يوليو ١٨٦٤ م) ، والرسالة المؤرخة أول ديسمبر ١٨٦٥ م .

— سلامة ، ب : ثورة علي بن غدام — ١٨٦٤ (تونس ١٩٦٧) ص ٨٣ .

وكذلك عبد الجليل التميمي : بحوث ووثائق في التاريخ المربى (١٨٢٦ - ١٨٧١ م) (تونس ١٩٧٢) ص ٨١ - ٨٢ .

(٢) جانباچ ، حان : أصول الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية — ثورة ١٨٦٤ (تونس ١٩٦٥ م) ص ١٣ - ١٤ .

فمن جهة الدولة العثمانية فقد أهتمت بإقرار تبعية تونس للباب العالي ، ولتحقيق ذلك أرسلت مبعوثاً تركيا (حيدر أفندى) للرقابة وللتصرف في حدود سلطة الباب العالي .

ومن جهة فرنسا وجد اتصالها دي بوفال De Beauval في الثورة ذريعة للتدخل ، فضغط على الباي طالباً لإبعاد خصوم النفوذ الفرنسي — في تقديره — عن الحكم ، بل طالب بإلغاء بعض المجالس ، وكان يؤيد انموذجاً على إعتبار أن إضعاف السلطة الحاكمة في هذا القطر الملاصق لوجود الفرنسي في الجزائر من شأنه أن يفتح الباب للتدخل الفرنسي وتحقيق أطماع فرنسا^(١) .

هذا بينما على النقيض من ذلك كان موقف إنجلترا وقنصلها ريتشارد ورد (Richard Wood) ، فقد كانت في ذلك الوقت قائمة على الحفاظ بقدر الإمكان على الأوضاع كما هي في هذه الولاية العثمانية^(٢) .

أما موقف إيطاليا فقد كان نابهاً من أطباعها في تونس فقد كانت إيطاليا لها جالية كبيرة في تونس ، وكان لهم بها العديد من المدارس والمؤسسات المختلفة وكانت اغتهم أكثر اللغات الأجنبية إستخداماً — ولذا كانوا يخشون أن تمد فرنسا نفوذها إلى تونس كما فعلت في الجزائر فوقفوا لها بالمرصاد .

هذا على أن الثورة أثارت الشعور الشعبي وجمعت المواطنين التونسيين حول غرض واحد لتخليص البلاد من طغيان الولاة — وكذلك من التدخل الأجنبي الذي يجر البلاد للإنزلاق في مهاوى الإستبدانة ، والذي حاول الإستفادة من الإنتفاضة الوطنية للتدخل في الشؤون الداخلية للبلاد .

فهذه الثورة في الحقيقة رغم أنها لم تنجح لأنها كانت تفتقر للتنظيم — فإنها دلت على النضج الإجتماعي للجماهير الشعبية التونسية ، وعلى حيوية هذا الشعب

(١) وثائق تونسية — ثورة علي بن غداهم (تونس ١٩٦٧) ص ٢٠ . وثيقة رقم ٣٢٥ .

(٢) الانتفاص ص ٥٠ ، ص ١٧٠ .

وعمق إحساسه الوطنى . ولا شك فى أنه كانت لها انعكاساتها فيما بعد فى مواجهة الإحتلال والحماية الفرنسية للبلاد^(١).

٢ — السيطرة المالية الأوروبية :

دهمت تونس — بعد أن نحدث الثورة الداخلية — مصائب متعاقبة ساهمت فى إفلاس الخزنة واضطراب الأحوال الاقتصادية — فقد انتشر مرض الهواء الأصفر (الكوليرا) فى البلاد ، ومات بسببه عدد كبير من السكان ، ثم تلاء وباء التيفرس — واندثرت أثر ذلك المجاعات والقحط ، وهكذا تكاثفت على البلاد عدة مصائب فى وقت واحد^(٢).

وترتب على هذه الأحداث أن أصابت حاصلات البلاد نكسة ، وأصبح الإيراد السنوى لتونس لا يكفى لسد حاجة الإدارة ودفع فوائد الديون . فأضطرت الحكومة إلى الإستدانة مراراً ، واضطرت فى النهاية إلى إعلان عجزها عن دفع فوائد القروض — وكان هذا دافعاً لتحرك الدائنين وحكوماتهم للمطالبة بوضع حل يحفظ حقوق الدائنين ، وانتهت المفاوضات التى جرت فى باريس لهذا الغرض إلى الإتفاق فى عام (١٢٨٦ هـ — ١٨٦٩ م) على إنشاء (لجنة مالية مشتركة) تقوم بإستلام نصف إيرادات لإيالة لدفع فوائد القروض المستحقة كل عام ، بينما يخصص النصف الثانى للخزنة ونجحت اللجنة فى توحيد الديون المتعددة فى دين واحد قدر به ١٢٥ مليون فرنك بفائدة سنوية ٥ ٪ .

وقد تطلب عمل اللجنة بهذا الوضع — التدخل فى كل فروع الإدارة بالبلاد . وكان طبيعياً أن ينظر الوطنيون إلى هذا التدخل الأجنبى فى شؤون

(١) عبد الجليل التميمى — مرجع سابق ص ٣٩ .

(٢) يعطى محمد بيرم التونسي وصفاً مؤثراً لما وصلت إليه الأحوال من سوء .
محمد بيرم التونسي : مرجع سابق ص ٢٥ وما بعدها .

بلادهم نظرة السخط والتذمر ، فقد كانت اللجنة المالية رمزاً لسيطرة الغرب ، وأداة لاستغلاله وإذلاله للشعب التونسي^(١).

وفي عام (١٢٩٠ هـ / ١٨٧٤ م) تولى خير الدين رئاسة الوزارة بعد سقوط مصطفى خزنه دار^(٢) فتصدى لإصلاح الموقف ومحاولة علاج الحالة التي وصلت إليها البلاد في مختلف المجالات الاقتصادية والإدارية والثقافية والسياسية.

ولم يكن الإصلاح الذي تصدى له خير الدين عشوائياً ، لكنه كان قائماً على الفهم والدراسة وتحديد الهدف المنشود ، ورسم السياسة للوصول إلى هذا الهدف ولعل كتابه (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) الذي وضعه في عام (١٢٨٤ هـ / ١٨٦٧ م) والذي طبع بعد ذلك في الإسكندرية عام (١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م) يعطى فكرة عن مبادئه التي كان يؤمن بها ويعتقها والتي حاول أن يطبقها مدة رئاسته القصيرة للوزارة التي لم تتعد الفترة من عام ١٨٧٤ حتى عام ١٨٧٧ حين أعفى من منصبه بسبب الوشايات لدى الباي التي أشاعها خصومه ضده والذين وقف في وجه أطاعهم وجشعهم . في وقت لم تكن تتحمل تونس وشعبها فيه أساليب النهب والتخريب بالإضافة إلى الاطماع الأجنبية

(١) يصف محمد بيرم التونسي الافراح التي عمت البلاد بعزل مصطفى خزنه دار

- محمد بيرم التونسي : مرجع سابق - ج ٢ ص ٤٤ وما بعدها .
ملاحظة : خير الدين أصله من الشراكسة ، اختطف وهو طفل ونقل إلى ألبانيا ، واختاره مبعوث من طرف باي تونس في عام ١٨٣٩ م ، فانخرط في سلك ممالك الشير أحمد باشا وترقى ، قصر (باردو) ، والتحق بحاشية الأمير - حيث بدأت تظهر نهجته ونبوغه - أنظر :

- أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث (١٩٤٨ م) ص ١٥٢ وما بعدها .

ملاحظة : لاحظ أن وجه الشبه بين هذه الأوضاع والوضع الذي آلت إليه مصر في عهد الخديو اسماعيل . وسنرى أن النتائج كانت متشابهة أيضاً في الحالتين .

والتي وجدت الجو المناسب لها بعد عزله وتعيين (مصطفى بن اسماعيل)
خلفاً له (١) .

ففى المجال الإقتصادى ، ألقى خير الدين الضرائب المرهقة التى كانت
تشغل كاهل السكان ووحدها فى ضريبة واحدة ، وحرص على أن تكون العناصر
التي يوكل إليها بمجبايتها من العناصر النظيفة ، وعمد فى نفس الوقت لتنظيم جباية
الجمارك ، وقسم الأراضى الزراعية إلى مناطق ، ونظم العلاقات بين المزارعين
والملاك وبينهم وبين الحكومة ، وأبطل الحملات العسكرية الإرهابية التى كانت
تجند لتحصيل الضرائب بالقوة (٢) .

ونظم خير الدين القضاء . والأوقاف ، كما نظم السجون والبلديات .

ولعل أبرز مجهوداته كانت فى الناحية الثقافية — فقد اهتم بوضع أسس
التعليم العصرى بهدف خلق نخبة قادرة على المساهمة فى حركة الإصلاح ،
وعلى تسيير شؤون الدولة الحديثة — ولهذا أنشأ فى يناير ١٨٧٥ م (المدرسة
السادقية) بقصد التوفيق بين العلوم العصرية والتقاليد الإسلامية ، وأختار لجنة
مع برامج الدراسة فى هذه المدرسة وأشار إلى أن الدولة سترسل الممتازين
طلبة المدرسة لإتمام دراستهم فى الجامعات الأوروبية (٣) .

وكذلك أتجه خير الدين للنهوض بجامعة الزيتونة ، وأصدر فى مايو

(١) يعقد خير الدين فى مقدمة كتابه هذا مقارنة بين ما آلت إليه أحوال الأمم الإسلامية من
، وما حققته الدول الأوروبية من تقدم — ويرجع ذلك لأخذ هذه الأخيرة بعبادىء
، والحربة والتنظيمات السياسية المتقدمة القائمة على مبدأ الشورى وتقييد سلطة الحاكم
— شؤاية الوزراء . وبعد ذلك يعرض فى كتابه صورة انطور أوروبا وتدرجها منذ العصور
الوسطى إلى فيها من مظاهر التأخر إلى عصر النهضة والحضارة معطياً أمثلة من مظاهرها فى
مختلف البلدان الأوروبية ، ويخلص من هذا أن الحرية — حرية القول وحرية النشر
(المطبعة كما يسميها) ، والعدالة هى أساس التقدم والإردهار والتقدم .

(٢) أحمد أمين عصر الترجمة السابق ص ١٦٩ .

(٣) الحبيب الجبجاني : مرجع سابق ص ١٢٨ — ١٢٩ .

١٨٧٥ م قانون تأسيس المكتبة العمومية لتشجيع الثقافة العامة ، وزودها بالمكتب وجمع بها الكثير من الكتب المبعثرة في المدارس والجوامع^(١).

وفي عام ١٨٦٠ صدرت في تونس صحيفة (الرائد) أول صحيفة عربية في ذلك القطر - وقد أسند الإشراف عليها وعلى المطبعة الرسمية إلى الشيخ (محمد يرم الخامس) وكان واسع الأفق والاطلاع - ولقيت هذه الصحيفة من خير الدين وأتباعه تشجيعاً أدبياً ومادياً .

وأثمرت هذه الجهود المبذولة في سيدان الثقافة فيما بعد حين سكبت الدولة بالمجاعة وفقدت إستقلالها ، فكان قادة الحركة القومية - من الذين تربوا في هذا الجو الثقافي العلمي المتقدم .

ومن سوء حظ تونس أن توارى خير الدين من الميدان في وقت كانت البلاد فيه في أمس الحاجة لرجل مخاض مثله على دراية وخبرة وله فلسفته الخاصة في الحكم والإدارة، فقد أضطر - كما قلنا - في عام ١٨٧٧م أن يتنزل بعد أن أحاطت به المؤامرات من كل جانب .

على أن خير الدين لعب دوراً سياسياً آخر حين اختاره السلطان العثماني عبد الحميد صديقاً عظيماً - وقد شعرت فرنسا أن هذا يعني ازدياد الاهتمام من قبل الدولة العثمانية بشؤون تونس مما يهدد الأطماع الفرنسية فيها^(٢) .

موقف الدول الأجنبية من تونس في الفترة السابقة للإحتلال الفرنسي :

لكي تكتمل الصورة - بعد أن ألمعنا بالأحوال الداخلية في تونس يجدر

(١) الحبيب الجناحي : مرجع سابق ص ١٢٢ .

(٢) من تاريخ خير الدين والدور السياسي الذي لعبه . انظر :

- الموجي الشمي : خير الدين باشا (تونس ١٩٧٢ م) .

وكذلك :

- أبو القاسم محمد كرو : خير الدين التونسي (تونس ١٩٧٣ م) .

بنا أن نلقى نظرة على علاقة تونس في هذه الفترة بالدول الأجنبية المختلفة ،
وموقف هذه الدول منها .

فمن جهة الدولة العثمانية - كانت العلاقات قد استقرت إلى حد ما منذ تولت
الأمم في تونس الدولة الحسنية . وقد سارت الدولة العثمانية على إطلاق حرية
التصرف للباي وتفويضه تفويضاً مطلقاً في الشؤون الداخلية على شرط حفظ
الحقوق المقررة للباب العالي وفي مقدمتها إعانة الدولة العثمانية في حالة الحرب
وذكر اسم السلطان في الخطبة وعلى السكة المستخدمة ، ورفع علم الدولة
العثمانية ، بالإضافة إلى ما جرت العادة على تقديمه من هدايا وبجاملات في
المناسبات المختلفة^(١) .

ويدلنا تتبعنا للعلاقات البايات بالدولة العثمانية منذ عهد أحمد باشا إلى عهد
الصادق باي - على أنه في الوقت الذي كان فيه البايات حريصين على استقلالهم
السياسي كانوا أيضاً يراعون علاقتهم بالدولة العثمانية ومظاهر التبعية التي
جرت العادة عليها .

وقد رأينا كيف أن أحمد باشا أرسل قوة حرية لإعانة الدولة العثمانية
في حرب القرم .

كما أن محمد باي الثاني حين ألحقت الدولة العثمانية على تنفيذ (التنظيمات
الخيرية) التي أصدرتها الدولة في عام ١٨٣٨ م - أصدر عهد الأمان ، وهو
يطابق إلى حد كبير في روحه ومضمونه (التنظيمات الخيرية) .

وحين قامت ثورة ١٨٦٤ م أوفد السلطان العثماني مبعوثه (حيدر أفندي)
لتونس كرمز لتبعيةها للدولة العثمانية .

(١) لمن يريد لتوسم في دراسة علاقة تونس بالدول العثمانية في ذلك العدد ، انظر -
مزالى ، محمد الصالح : الوراثة على العرش الحسني ومدى احترام نظامها (تونس ١٩٦١م)

وقد سعى محمد الصادق باي للحصول على فرمان من الباب العالي يؤكد وضع تونس بالنسبة للدولة العثمانية والإمكانيات التي حصلت عليها ، وبما حفز الباى لذلك وضوح الأطماع الإستعمارية خاصة الإيطالية والفرنسية في تونس ، فرأى الباى أن في تأكيد هذه العلاقات بالدولة العثمانية ما يوقف هذه الدول عند حدها ، وفعلا صدر فرمان في ١٨٧١ م مؤكداً هذه العلاقات^(١).

هذا وقد كانت الدولة العثمانية في هذا الوقت تهب عليها تيارات الحركة الإصلاحية التي تدعو لتوحيد الجهود لمكافحة الاستعمار . ونشأت فكرة الجامعة الإسلامية التي تدعو المسلمين للتكامل لمواجهة موجات الاستعمار الأوروبي . وكان جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ - ١٨٩٧ م) أشهر الدعاة لهذه الفكرة . ولاشك في أن الدول الاستعمارية كان عليها أن تعمل حساب هذه الحركة التي تهدد وجودها في كل العالم العربي خاصة بعد أن احتضنها السلطان عبد الحميد لأنه وجد فيها المحور الذي يمكن أن يجتمع حوله المسلمون في كافة الأقطار التابعة للسلطنة العثمانية أو التي يمكن أن يجتمع حوله المسلمون في كافة الأقطار التابعة للعثمانيين أو التي يمكن أن تدخل في ظلها .

ومن جهة إنجلترا كانت سياستها التي سهر قنصلها ريتشارد وود على تنفيذها قائمة على المحافظة على الوضع الراهن . وهو الاتجاه الذي اتسمت به السياسة الإنجليزية تجاه الدولة العثمانية وولاياتها في ذلك الوقت . وكان الانجليز لا يريدون أن يحميدوا عن هذه السياسة حتى لا يفتح المجال لغيرهم من الدول المنافسة (فرنسا) و (إيطاليا) على وجه الخصوص للحصول على أية مزايا في تونس ، كما لا يسمح لباي تونس بأن يتخطى السيادة العثمانية . وظهرت هذه السياسة الإنجليزية بأجلى مظاهرها - حين قام أحمد باى برحلته إلى لندن عام ١٨٤٦ م فقد أصرت الحكومة الانجليزية على أن تكون إستقبالات الباى الرسمية في البلاد في حضور السفير العثماني رموزاً للتبعية^(٢) .

(١) انظر نس هذا فرمان في :

مزالى ، محمد صالح : مرجع سابق ص ١٩ وما بعدها .

(٢) العقاد ، صلاح : المغرب العربي (القاهرة ١٩٦٢) ص ١٨٥ .

ومن جهة إيطاليا — فقد كانت ترى في تونس المنفذ الطبيعي لنشاط الإيطاليين والبعث للإمبراطورية الرومانية القديمة — وحتى قبل أن تتم الوحدة الإيطالية كانت أنظار الإيطاليين قد اتجهت إلى تونس ، وكانت الجالية الإيطالية بها تعتبر أكبر الجاليات الأجنبية ، وكانت اللغة الإيطالية هي اللغة الأجنبية الأولى ، وكانت هي اللغة التي يستخدمها حتى المستوطنون الإنجليز إذ كان معظمهم من المايطين ، وقد تميز لشاط التفتل الإيطالي بينا (Pina) فاستطاع أن يحصل للإيطاليين على عدة إمتيازات في تونس ، منها إمتياز استخراج الرصاص ، وكذلك اشترى من الإنجليز إمتياز مد الخط الحديدي بين تونس وحلق الوادي (١) .

وكانت هزيمة فرنسا في سيدان عام ١٨٧٠ أمام ألمانيا ، وقص أجنبياتها بعد إقتطاع إقليمي الألزاس واللورين منها وسقوط الإمبراطور العثمانية — فرصة حاولت إيطاليا انتهازها خاصة أنها كانت — بعد تحقيق وحدتها — في مركز يسمح لها بذلك (٢) .

وقد بذلت إيطاليا في عام ١٨٧١ م جهوداً مستميتة للضغط على تونس للظفر بإمتيازات خاصة للإيطاليين ، وتعطى مناقشات مجلس النواب الإيطالي في هذه الفترة صورة عن أطماع إيطاليا في تونس — لكن وقفت انجلترا وفرنسا وتركيا في وجه تحقيق إيطاليا لأطماعها في تونس في ذلك الوقت — كما لم يكن موقف البابا مشجعاً لأن تتخذ إيطاليا خطوة حاسمة (٣) .

أما من جهة فرنسا — فلا شك في أن المسألة التونسية بدأت تدخل في إطار السياسة الفرنسية منذ احتلال الفرنسيين للجزائر في عام ١٨٣٠ م ، وأخذت الأوضاع في تونس — هذا الجار الملاصق للجزائر — تثير إهتمام

(١) Ziadeh, Nicola : Origins of Tunisian Nationalism(Beirut ١٩٦٩) p. 22

(٢) ملاحظة : سقطت الإمبراطورية الشانية وأعانت الجمهورية الثالثة في فرنسا في ٤ سبتمبر ١٨٧٠ م ، وكان دخول جنود الملك (فكتور عما نوبل الثاني) روما محطاً وحدة إيطاليا في ٢٠ سبتمبر ١٨٧٠ م .

Safwat : Op. cit p. 126

(٣)

الفرنسيين - فأصبح لإبعاد أى نفوذ آخر تحاول أن تمارسه أية قوة أجنبية أخرى - من أهم أسس السياسة الفرنسية^(١) .

ورغم أن هزيمة فرنسا في ١٨٧٠ م هزت نفوذها في تونس - لكن استطاعت فرنسا أن تستعيد هذا النفوذ بفضل جهود قنصلها في تونس في عام ١٨٧٤ م روستان (Roustan) . فقد نجح في أن يحصل لشركة فرنسية على امتياز مد الخط الحديدي من تونس الى الحدود الجزائرية .

ولم تقتصر أهمية هذا الخط على الناحية الاقتصادية - لكن تنفيذه كان يخدم النواحي العسكرية فييسر نقل الجنود والمؤن الى تونس العاصمة ، بالإضافة الى ان هذا الخط الحديدي يخترق أخصب وأغنى جزء من تونس ، ويضع هذه المنطقة تحت سيطرة فرنسا .

وهكذا كان نفوذ فرنسا في تونس في عام ١٨٧٨ م في ذروته - فقد كان يمثلها مندوب قوى لشط ، وكانت الديون الفرنسية تمثل نسبة كبيرة من الدين التونسي ، وكانت فرنسا تتحكم في مالية البلاد عن طريق نائب رئيس اللجنة المالية ، هذا الى جانب احتكارها البرق ، وسيطرتها على الخطوط الحديدية وحظوة رئيس الوزراء (مصطفى بن إسماعيل) لديها^(٢) .

وكانت تونس في ذلك الوقت تمثل بالنسبة للسلطات الحاكمة الفرنسية مورداً جديداً للأثرة ولنشاط الفرنسيين ، ولتوجيه أنظار الفرنسيين بعيداً عن مشاكل بلادهم الداخلية ولتضميد جراحهم بسبب هزائهم في أوروبا - كما أن الموانئ الفرنسية يمكن أن تكفل أماكن صالحة لسفن الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط .

أما عن موقف الدول الأخرى صاحبة المصلحة في تونس من النفوذ الفرنسي

(١) Cambon, Henri : Histoire de la Regence de Tanis (Paris 1948) P(1.103.

Safwat : Op. cit p- 101

(٢)

فيها — فقد استطاعت فرنسا أن تتخلص من منافسيها الواحد تلو الآخر ، حتى أصبح الجو مهيأ لها للعمل بمفردها .

فن جهة ألمانيا — رأى بسمارك بثاقب نظره أن من مصلحة ألمانيا أن تشغل فرنسا بمحاولة تحقيق أطباعها في تونس فتعجز في ذلك ما يشغلها عن التفكير في النار الحزيمتها في سنة ١٨٧٠ م .

أما إنجلترا — فقد كان موقفها بهم فرنسا أكثر من غيرها ، فقد كانت تدرك أنها لا تستطيع إتخاذ حركة ايجابية حاسمة في تونس إلا إذا ضمنت عدم وقوف إنجلترا في طريقها — وانهزت فرنسا فرصة ضم بريطانيا لجزيرة قبرص ، وكانت هذه الجزيرة تابعة للدولة العثمانية ، وكان ضم بريطانيا لها إحلالا بالإتفاقات الدولية الخاصة بالمحافظة على سلامة الدولة العثمانية وممتلكاتها . لكن بريطانيا كانت ترى أن مصالحها البحرية في البحر المتوسط تستلزم أن تحتل (قبرص) ، ودارت المفاوضات بين الحكومة البريطانية والدولة العثمانية حول ذلك سرأ . وبحج دزرائيلي في أن يعقد في ٤ يونية (١٨٧٨ م) مع الباب العالي معاهدة سرية تقرر بموجبها أن تحتل بريطانيا (قبرص) وتقيم فيها ميناء حريباً وحامية بريطانية على أن تظل ولاية عثمانية — وتعهد بريطانيا في مقابل ذلك بضمان مصالح تركيا في آسيا . لكن أفشيت بنود هذه الإتفاقية . وفي أثناء انعقاد مؤتمر برلين — الذي لفتتح أعماله في ١٣ يونية ١٨٧٨ م برئاسة المستشار الألماني بسمارك ، بهدف بحث المسألة الشرقية عقب أن أشهرت روسيا الحرب على السلطان العثماني ودخل جيشها (أدره) وأصبح يهدد القسطنطينية ذاتها وأخطر الباب العالي لقبول الصلح وتوقيع معاهدة سان استفانو في مارس ١٨٧٨ م — نجحت فرنسا بمساندة ألمانيا في أن تصل إلى اتفاق مع بريطانيا في عدم معارضة أى تدخل فرنسي في تونس في مقابل عدم إثارة فرنسا لمشكلة قبرص والإحتلال البريطاني لها . وهكذا ضمنت فرنسا تأييد إنجلترا أو على الأقل عدم معارضتها لخطتها في تونس^(١) ،

للدراصة التفصيلية لنتائج مؤتمر برلين أنظر : صفوت ، محمد مصطفى . مؤتمر برلين (١٨٧٨) وأثره على البلاد العربية (١٩٥٧) — ص ٥٦ .

ولم تبق من عقبة في وجه فرنسا لتحقيق أطماعها في تونس سوى إيطاليا التي رفضت أن تخضع للأمر الواقع ، بل أسرعت بتدعيم تمثيلها القنصلي في تونس فعينت ما تشيو Marcio الخبير في أمور الشرق والعالم الإسلامي — قنصلا لها في تونس .

وكانت الفترة من مطلع سنة ١٨٧٩ م حتى صيف ١٧٨٠ م فترة صراع دبلوماسي بين السفيرين الإيطالي ما تشيو . - والفرنسي روستان Ronstan استخدم فيه كل منهما كافة الوسائل والحيل كالتقرب لرجال البلاط ودفع الرشاوى ، واستغلال المقربين إلى الباي ، ومحاولة اقتناص القرض التي تلوح ليظفر كل لدولته انصيب يقوى نفوذها في تونس — فثلا حين عرضت الشركة البريطانية إستعدادها لبيع حق الإمتياز الذي كانت حصلت عليه لإنشاء الخط الحديدي بين تونس وحلق الوادي — أسرع شركة روبانيو الإيطالية Rubatino في أبريل سنة ١٨٨٠ م بشرائه ودفعت فيه أربعة أضعاف ثمنه الأصلي ، لكن فرنسا استطاعت أن تحصل على امتياز إقامة ميناء (تونس) ، كما حصلت في أغسطس (١٨٨٠ م) على وعد من الباي بألا يمنح مستقبلا إمتيازاً لبناء أى سكة حديدية لآى شركة إلا بعه. عرضه على الشركات الفرنسية ورفضها القيام بهذا العمل (١) .

وفي يناير (١٨٨١ م) زار الملك أمبرتو ملك إيطاليا جزيرة صقلية . وسافر اليه هناك وفد من المستوطنين الإيطاليين في تونس على رأسه القنصل الإيطالي « ما تشيو » وصرح الملك في حديثه لاوود بإهتمام إيطاليا البالغ بالمسائل التونسية ، واتخذت هذه الزيارة فرصة لتأكيد إهتمام إيطاليا بتونس — فأشارت الصحف الإيطالية في تلك المناسبة إلى « قرطاج » الولاية الرومانية القديمة (٢) .

(١) زيادة ، نقولا : مرجع سابق ص ١٢١ — ١٢٥ .

Safwat : Op. cit. p. p. 282-294

(٢)

(٢٠ م — المغرب)

وقد حاولت فرنسا أن تحول درن معارضة إيطاليا لها في تونس — فأشارت إلى أنه في وسع إيطاليا أن تحتل طرابلس فتجد فيها خير العوص عن أطماعها في تونس ، وأن فرنسا لن تعترض عليها إذا أقدمت على هذا العمل .

والحقيقة إن موقف إيطاليا لم يكن مستقراً ، ففي الوقت الذي كانت بريطانيا فيه تعجم عود إيطاليا ، في محاولة لتنضم الدولتان في حلف يرعى مصالحهما في البحر المتوسط — لم تشأ الحكومة الإيطالية أن ترتبط مع بريطانيا بعقود قد تؤدي بها للحرب — كما أن العلاقات بين إيطاليا والنمسا في ذلك الوقت لم تكن طيبة بسبب الخلاف على الحدود الإقليمية .

وهكذا كان جو العلاقات الدولية في صالح فرنسا أكثر منه في صالح غريمها إيطاليا لتحقيق أطماعها في تونس .

الحملة الفرنسية وحرص الحماية :

مهدت فرنسا لحملتها على تونس بإثارة مشكلة القبائل على الحدود التونسية الجزائرية وتضخيم هذه المشكلة بحيث أظهرت أن أمر هذه القبائل قد أفلت من يد حكمومه الباي وأنها من زمن طويل تشق عصا الطاعة على حكومته ولا تخضع لسلطانها ، وأنها تفتن غارات باستمرار على القرى والمدن الجزائرية القريبة ثم تفر إلى أوكارها في الجبال التونسية مما يكبد الفرنسيين خسائر جسيمة .

وفي نفس الوقت أصدرت الحكومة الفرنسية الأوامر إلى حاكم عام الجزائر خث الخطأ للإنتهاء من مد الخط الحديدي الذي يصل الجزائر بتونس ليسهل نقل الجنود والمؤن .

وأخذت فرنسا تعد الرأي العام سواء في فرنسا ذاتها أو في الخارج لإستقبال ماتنوى القيام به من أعمال ضد تونس حتى لا يكون الأمر مما جاءه لأحد .

وكانت فرنسا قد عرضت في فبراير (١٨٧٩) على الباي محمد الصادق عن طريق قنصلها في تونس (روستان) مسودة لمعاهدة الحماية التي تقترح أن يوقع عليها الباي بطريقة ودية - لكن الباي رفض توقيعها مما دفع (روستان) إلى أن يطلب من حكومته إرسال بعض قطع أسطوطها إلى المياه التونسية وإتباع أسلوب التهديد لعل هذا يقتنع الباي بالعدول عن معارضته (١).

وعرضت الحكومة الفرنسية الأمر على الجمعية الوطنية وعلى مجلس الشيوخ الفرنسي وحصلت منهما على الإعتمادات اللازمة للقيام بحملة عسكرية .

وأنتهزت فرنسا حدوث بعض الحوادث العادية على الحدود الجزائرية التونسية فأستندت عليها لتنفيذ مخططها - فقد حدث أن عبرت قبيلة (بنوخمير) التونسية الحدود الفاصلة بين تونس والجزائر واقترفت بعض أعمال السرقة البسيطة المعتادة بين الرعاة - فادعت فرنسا إرسال حملة لتأديب هذه القبائل التي لا يملك الباي عليها أى سلطان . وقام (روستان) في ١٦ أبريل ١٨٨١ م بإبلاغ الباي أن الجنود الفرنسيين سيعبرون الحدود التونسية لتأديب هذه القبائل، وطلب منه أن تتعاون حكومته مع الفرنسيين في العمل على إقرار الأمن والنظام . وقد حاول الباي أن يتدخل هو بنفسه لحسم الموقف - فأرسل أخاه على رأس قوة أعدها بسرعة ووجهها إلى بلاد خمير .

وفي ٢٤ أبريل ١٨٨١ م اجتاز الجنود الفرنسيون حدود تونس واحتلوا (السكاف) و (طبرقه) بدون مقاومة ، كما أنزلت فرنسا بعض قواتها - التي أبحرت من ميناء طولون - في بنزرت Bizerta ، وبعد إحتلالهم لها تقدموا صوب العاصمة . وفي ١٢ مايو كانوا يعسكرون على مقربة من قصر (باردو) الواقع على بعد ٢٠ كيلو متراً من تونس . وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر

ذلك اليوم قدم القنصل العام الفرنسي (روستان) إل الباي نسخة من المعاهدة المطلوب التوقيع عليها والتي كان قد وضعها جول فيري (Jules Ferry) وأرسلت مع القائد الفرنسي بريار Bréart وأعطي الباي مهلة حتى الساعة التاسعة لقبول المعاهدة أو رفضها .

وأجتمع الباي بمجلس الدولة التونسي لعرض الأمر عليه ، وأرتفعت أصوات المعارضة من أعضاء المجلس وطلدوا المقاومة ودعوة الشعب للجهاد ، وهدد الفرنسيون بخلع الباي محمد الصادق عن العرش وتنصيب أخيه (الطيب باي) مكانه إذا رفض التوقيع على المعاهدة وفي الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم (١٢ مايو ١٨٨١ م) وقع محمد الصادق باي على المعاهدة وسط هذا الجو العجيب من الإرهاب^(١)

ومعاهدة (باردو)^(٢) في مظهرها لا تشعر بحقيقة الأهداف الإستعمارية التي كانت تهدف إليها فرنسا فقد صيغت موادها بطريقة توحي كأنها لاتمس صميم إستقلال تونس وحقوقها كدولة ذات سيادة - لكن التحليل الدقيق لموادها يوضح كيف أنها سلبت تونس كل مقومات الدولة المستقلة ، فهي تعطى القوات الفرنسية حق إحتلال المراكن التي تراها صالحة لإستتباب الأمن ويبقى إحتلالها سارياً إلى أن تتفق السلطات الفرنسية والتونسية معاً على ألا ضرورة لهذا الإحتلال (المادة الثانية) - وتضع الباي تحت حماية فرنسا التي تتعهد بحمايته هو وعائلته من أي خطر (المادة الثالثة) ، ويتكفل بمثل فرنسا الدبلوماسيون والقنصليون في البلاد الأجنبية برعاية مصالح إهمالك التونسية .

(١) انظر وصف روستان للعبة التوقيع :

الوثائق الدبلوماسية الفرنسية - المجلد الثالث ص ٥١١ - ٥١٢ .

وانظر موقف المعارضة من التوقيع على المعاهدة ، خاصة موقف العربي زروق الذي كان رئيساً للجنة تونس وعصواً بمجلس الشورى والذي يعتبر أول المقاومين للإحتلال الفرنسي .

محمد المرزوقي : صراع على الحماية (تونس ١٩٧٣) ص ٧٦ وما بعده .

(٢) انظر نص المعاهدة في ملحق الكتاب مقدمة ، ١٠ - واد .

وكان هذا فضل من فرنسا ، ففي مقابل ذلك نص على ألا يعقد الباي أية إتفاقية دولية مع دولة أجنبية دون علم فرنسا وبموافقتها مقدماً . وفرضت فرنسا غرامة حرية على القبائل التي وصفت بأنها (عاصية) على الحدود . والسواحل ، وجعلت مسئولية جبايتها على حكومة الباي (المادة الثامنة) . ولكي تضمن فرنسا عدم وصول الأسلحة لأيدي الوطنيين نص على منع لإرسال الأسلحة للموانئ التونسية وحمل الباي مسئولية تنفيذ ذلك (المادة التاسعة) .

هذا وقد جاءت معاهدة المرسى التي وقعها في يونيو ١٨٨٣ م على باي الذي خلف محمد الصادق بعد وفاته في أكتوبر ١٨٨٢ م - مؤكدة لسلطات فرنسا^(١) .

فقد تكفل الباي بإدخال الإصلاحات الإدارية والقضائية التي ترى الحكومة الفرنسية إدخالها (المادة الأولى) - وتعطى المادة الثانية الحكومة الفرنسية حق الاشراف على الشؤون المالية لتونس . فقد نص على أن يعقد الباي قرضاً لسداد الديون بضمان الحكومة الفرنسية التي يكون من حقها وضع الشروط المناسبة لهذا القرض ، وتحديد أوقات السداد ، كما نص على أن الباي ليس له مستقبلاً حق عقد أى قرض لحساب المملكة التونسية دون إذن من الحكومة الفرنسية - أما (المادة الثالثة) فتتضمن بتحديد ما يخص الباي وما يخص لمصاريف الحكومة من الدخل العام .

وهكذا أصبح لفرنسا الاشراف الكامل على الديون وعلى ميزانية الدولة . وقد نص في النهاية في المادة الرابعة على أن هذه المعاهدة مكملة لمعاهدة ١٢ ماي ١٨٨١ ولا تنقض أى شيء مما نصت عليه المعاهدة السالفة .

وقد وقع هذه المعاهدة عن فرنسا وزيرها المقيم بتونس بول كامبل (P.Campbell) .

(١) انظر في هذه المعاهدة في نهاية الكتاب .

ولم تكف فرنسا بما منحتها المعاهدتان المعقودتان من حقوق - فقد إستندت على تفسيرها لما تخوله مواد المعاهدتين لها من حقوق - فوسعت من اختصاص المقيم العام الفرنسي وخولته سلطات كاملة تشريعية وتنفيذية . فألغت معظم الوزارات التونسية وأخذ المقيم الفرنسي حق وضع التشريعات والمراسيم التي تخدم مصالح الاستعمار الفرنسي ، وبالتدريج نجح في القضاء حتى على الامتيازات التي كان يتمتع بها رعايا بعض الدول الأجنبية الأخرى مما أثار هذه الدول ، كما تمكن من توجيه الاقتصاد التونسي لخدمة مصالح الدولة المستعمرة .

حركات المقاومة الوطنية :

لم يرضخ الشعب التونسي بيسر لاحتلال فرنسا لبلاده وفرضها هذه القيود على سيادته وسلبها حقوقه ، وموافقة حكامه البايات على ذلك سواء أكانوا قد أرغموا عليه أو قبلوا ذلك طواعية ، وأخذت روح التمرد والثورة والدعوة للكفاح المسلح وللمقاومة الحزبية والباي تنتشر في البلاد وتحركت القبائل للدفاع عن وطنها ودينها وأظهر الشعب علانية عداوه للباي الذي استسلم لمطالب المستعمرين - وأنتشرت الإشاعات بقرب وصول نجدات تركية لطرد الفرنسيين من البلاد فوادت من حماس الأهالي - ووضحت حركة التمرد هذه على الخصوص في جنوب البلاد ثم في (صفاقس) و (القيروان) اللتين أصبحتا مركزاً للمقاومة^(١).

وقد تزعم حركة المقاومة قواد في مقدمتهم (علي بن خليفة)^(٢) الذي كان على رأس الحركة في قابس - وقد ظل يقاوم قوات الاحتلال مدة تقرب من أربع سنوات حتى أنهكت قواه واضطر للإسحاب إلى طرابلس مع عدد كبير من أتباعه ، وظل هناك حتى توفي في عام (١٨٨٥ م) .

Cambon, Henri : Op. cit. P. 155

(١)

(٢) لمعرفة تاريخ حياته كاملاً انظر :

المرروقي ، محمد : صراع ٥٠ الحماية (نوس ١٩٧٣) س ١٨٥ - ٢٠٠ .

وقد اشتدت الثورة في (صفاقس) وأصبحت ملاذاً للخارجين على سلطة الباي ، على الفرنسيين ، وأرسلت فرنسا أسطولها الذي أخذ يقذف حممه على المدينة .

واندلعت الثورة في (القيروان) واضطرت فرنسا لإرسال الجنرال سوسيه Sauvier من الجزائر لقمع هذه الحركة التي أصبحت تهدد الوجود الفرنسي كله في تونس ، فرحف على القيروان وداخلها في منتصف أكتوبر ١٨٨١ م^(١)

واضطرت قوات المقاومة للإنسحاب إلى طرابلس . ورغم عنف الثورة ووطنية الثوار فلم يستطيعوا الوقوف في وجه القوات الفرنسية .

ويرجع فشل الثورة المسلحة في مقاومة الإحتلال لأسباب يمكن أن نحللها فيما يلي :

١ — عدم وجود خطة موحدة للمقاومة نتيجة تفتيت القيادات . وقد حاول (علي بن خليفة) أن يوحد القادة في شخصه واجتمع لهذا الغرض مع مجاهدي صفاقس والقيروان لكن أي زعيم كل قبيلة إلا أن يتولى الأمر بنفسه فاستطاعت فرنسا أن توقع بهم الواحد بعد الآخر .

٢ — حاجة رجال المقاومة للسلاح — فقد كانت تعوزهم الأسلحة الحديثة ولم تستطع أسلحتهم القديمة أن تحقق النصر أمام المدفعية الفرنسية وقوة الأسلحة الحديثة ، والتخطيط والتكتيك الحربي الفرنسي المنظم .

٣ — خضوع الباي للمستعمر ووقوفه إلى جانبه ضد المقاومة الوطنية ، ومده الفرنسيين بالمعلومات والأدلاء العارفين بمخاض البلاد وطرقاتها .

٤ — عجز الأتراك عن تقديم العون للثوار الذين كانوا يتطلعون للدولة العثمانية لممارسة واجبها في هذه البلاد الإسلامية التي كانت تابعة للسلطان — لكن العثمانيين كانوا قد وصلوا إلى درجة كبيرة من الضعف ، وكانوا يواجهون ضغوطاً ومشكلات جعلتهم يتخلون عن واجبهم المقدس ويتركزون الشعب التونسي يلاقى بمفرده قوات الفرنسيين .

وهكذا انتهى هذا الدور من الكفاح ضد المستعمر الفرنسي . وظل
التونسيون يتحينون الفرص المناسبة ليستأنفوا كفاحهم .

ويحتاج هذا الكفاح البطولي لدراسة متعمقة خاصة ، فقد مر في أدوار
ومراحل عديدة أظهر فيها الشعب التونسي بطولات عدة حتى اضطرت فرنسا
في عام ١٩٥٥ م للاعتراف بالحكم الذاتي لتونس ، واستمر نضال الشعب
التونسي حتى تم الاتفاق على الاستقلال مع الحكومة الفرنسية في ٢٠ مارس
عام ١٩٥٦ .^(١)

(١) رحو - كما ذكرنا - أن تقدم دراسة حاسمة لمراحل كفاح شعوب المغرب
الكبير حتى حصلت على استقلالها ، وسارت قدماً في طريق تمويض مآلاتها فليجئة فترة
الاستعمار الطويلة .

الفصل العاشر

فرض الحماية الفرنسية على المغرب الأقصى

أصبحت لفرنسا مصالح حيوية في المغرب مرتبطة بوجودها في الجزائر ونونس ،
لذا أصبحت لها حدود مشتركة مع المغرب ، وهذا بالإضافة إلى مصالحها المتصلة
بالصراع الإستعماري بينها وبين غربيتهما في ذلك الوقت — إنجلترا .

ويعبر عن ذلك (أوجين اتين) الذي كان ينزعم — في مطلع القرن العشرين
الفريق الاستعماري الفرنسي في البرلمان الفرنسي بقوله : « إن لفرنسا في المغرب
حقوقا وواجبات تفوق ما لغيرها من الدول الأخرى — ولأن الأساس الأول
لحقوقنا هو (الجزائر) ، إن الجزائر قادتنا إلى تونس . وينبغي أن تقودنا
إلى المغرب ، (١) » .

وقد رأينا — فيما سبق — أن الصدام بين الفرنسيين والمغرب وصل إلى
درجة نشوب الحرب بينهما بسبب مساعدة المولى عبد الرحمن (١٨٢٢-١٨٥٩ م)
للأمير عبد القادر الجزائري في كعاحه ضد الفرنسيين في الجزائر — ولكن
بعد هزيمة الجيش المغربي الذي كان تحت قيادة المولى محمد ولي العهد في معركة
إيسلي (Isly) في أغسطس (١٨٤٤ م) — عقدت اتفاقية طنجة (سبتمبر
١٨٤٤ م) التي تعهد فيها السلطان المغربي بعدم تقديم أية مساعدة للأمير
عبد القادر ، وبسجنه في إحدى الموانئ المغربية إذا ما وقع في أيدي
السلطات المغربية .

ولم يمنع فرنسا — في هذا الظرف — من الاستمرار في توغلها في
الأراضي المغربية إلا تحذيرات إنجلترا لها . (٢)

(١) مارس ، محمد حيد : تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب (١٩٧٢ م) ص ٣ ، ٤ .

(٢) Cambon, Henri : Histoire du Maroc (Paris 1952)

على أن أطماع فرنسا في المغرب في ذلك الوقت تتضح من أقوال الكتاب الفرنسيين الذين كانوا يعبرون عن سياسة بلادهم — فقد كتب فيكتور بيرارد في عام ١٩٠٦ م يقول : « إن المغرب لابد وأن يصبح لنا — وإنه لابد من توحيد إمبراطوريتنا الأفريقية ، ^(١) وهو هنا يعبر عن أطماع الفرنسيين في أن تكون لهم إمبراطورية تمتد من البحر المتوسط شمالاً إلى الكونغو جنوباً ، ومن المحيط الأطلنطي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً . وقد أطلق هؤلاء الكتاب على شمال أفريقيا (تونس ، الجزائر ، المغرب) اسم فرنسا الجديدة . ^(٢)

ومع أن فرنسا اضطرت ، إزاء موقف الدول الاستعمارية الأخرى في شمال أفريقيا وفي المغرب بالذات ، حيث كانت تواجه أطماع ومصالح دول أخرى (إنجلترا — إيطاليا — أسبانيا — ألمانيا) أن تتبع مؤقتاً سياسة (الاحتفاظ بالوضع الراهن) لكن كما ذكر هاردي الذي أرخ للإستعمار والتوسع الفرنسي فإن هذه السياسة — سياسة الوضع الراهن — أصبحت منذ مطلع القرن العشرين من المتعذر تنفيذها بسبب الوضع السيء الذي آلت إليه الأمور في المغرب ذاته . ^(٣)

وقد وصلت الأحوال الداخلية في المغرب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى حالة من الضعف لم يسبق لها مثيل كما يقول (ابن جلون) فقد انتشرت المجاعات في البلاد ، وتدهورت قيمة النقد ، وعلت الأسعار وانتشرت الأوبئة تحصد السكان بالمئات ، وضربت الفوضى أطنانها في الإدارة . فكانت الوظائف تباع وتشترى بالمزايدة ، ووصلت الحالة إلى أن الموظفين حتى القضاة كانوا يعتمدون على ما يأخذونه من المتخاصمين وليس على مرتب ثابت يتقاضونه من الدولة ، وإزدادت الحالة سوءاً بسبب الخصومات القبلية والثورات الداخلية المتعددة .

(١) Berard, Victor : *Affaire du Maroc* (Paris 1906) P. 45

(٢) صبحي ، حسن : التنافس الاستعماري الأوروبي في المغرب (القاهرة ١٩٥٦) ص ٥٢ .

(٣) Hardi, G. : *Histoire des colonies Françaises et de l'ex-*

pansion de La France [dans *Le monde* (1941) p. 153

وقد كانت الآمال معقودة على السلطان مولاي الحسن (١٨٧٣ - ١٨٩٤ م) ليتدارك الحالة - لما اتصف به من صفات شخصية - فقد ذكر عنه كامبون Cambon إنه كان نموذجاً للإشراف العظام محباً للتقاليد السلطانية ، بالإضافة إلى أنه كان قائداً حرياً عظيماً وزعيماً دينياً كبيراً وهو معاد لكل تسلط أجنبي (١)

لكن وفاة السلطان المولى الحسن في (١٨٩٤ م) فتحت الباب لمشكلات داخلية جديدة في المغرب في وقت كانت فيه القوى الأجنبية تنقبض للإقتضاء عليه .

فقد سيطر الحاجب (أبو أحمد بن موسى) على الموقف - وأخذ البيعة للولي عبد العزيز الذي لم يبلغ إذ ذلك سنة الرابعة عشرة - واستولى الوزير أحمد على مقاليد الأمور وأبعد المناوئين له ، وقرب إليه أخوته ومن يناصرونه - وكان الوزير أحمد خبيراً بشئون الدولة منذ كان حاكماً لأمير المؤمنين المولى الحسن ، وكانت له عنده حظوة فقربه إليه فأصبح (حارس العرش وصاحب الأمر والنهي) .

فاستطاع بشخصيته ودرايته أن يمسك بدفة الأمور وأن يقف في وجه الاطماع الاحنبيه - بل إنه تذكر له جهوده التي بذلها لإسترجاع سلطان المغرب على أراضيهِ ومنع ما ينتقص من سيادته ، ومن ذلك محاولته استخلاص مرسى (طرفاية) من الإنجليز ، وقد أرسلت بعثة في عام (١٨٩٥ م) لانجلترا لهذا الغرض - كما أنه وقف موقفاً صلباً من فرنسا حين عازمت على مد خط حديدي بين السودان والجزائر فأضطرت فرنسا لأن تعلن رسمياً أنها لاتنوى أن تغتصب أى شئ من أرض المغرب .

ولذا فقد أتاحت وفاة الوزير أحمد في عام ١٨٩٨ الفرصة للعناصر السيئة المستغلة ، وكان المولى عبد العزيز عاجزاً عن الوقوف في وجه هذه التيارات الداخلية بالإضافة إلى القيادات الخارجية .

فقد انتهت الدول الاستعمارية حالة الإرتباك المالى الذى كانت تعاني منه البلاد فشجعت السلطان على الاستدانة بضمان إيرادات الجمارك وغيرها من المصالح الهامة فى البلاد .

والحقيقة إن فرنسا كانت تعمل فى ذلك الوقت - منتهزة ظروف المغرب الاقتصادية - على أن تحصل من المغرب على القوائد التى تريدها فى المجال السياسى مقابل ما يحصل عليه المغرب فى المجال الإقتصادى (١).

وأدى إنزلاق السلطان فى هذا (الفخ) بالإضافة إلى إضرطاره لمرص المريد من الضرائب - إلى زيادة غضب الشعب ونفوره من حكاه .

واجتاحت الثورات معظم بلاد المغرب ، ومن أهم هذه الثورات ثورة الجيلالى بن إدريس الزرهونى الذى اشتهر باسم (يوحماره) والتى استمرت سبع سنين (من ١٩٠٢ إلى ١٩٠٨) وأنهكت قوة الدولة وخربت ميزانيتها وثورة أحمد بن محمد الريسولى . (٢)

وزادت الحالة إرتباكاً - الامتيازات التى منحت للأجانب الذين أساموا إستغلالها حتى أصبحوا يستندون عليها فى تهريب المجرمين حتى من الوطنيين ، وفى النهب من دفع الضرائب بمختلف أنواعها ، وبالإجمال للتهرب من سلطة القانون (٣) .

الاتفاقات التى مهدت للحماية الفرنسية على المغرب

انجحت فرنسا لعقد سلسلة من الاتفاقات الدولية مع الدول صاحبة المصلحة

(١) انظر ما قاله فى هذا الشأن أحد رجال دى سا الذين لعبوا دوراً هاماً فى هذا المجال وهو د . سانت أولير (De Saint-Aulaire)

— فارس ، محمد خير : تنظيم الحماية الفرنسية فى المغرب من ١٢ .

(٢) انظر - لاندو ، روم : تاريخ المغرب فى القرن العشرين (ترجمة ربيعولا زيادة ، بيروت ١٩٦٣) ص ٦٣ وما بعدها .

(٣) ابن عبود ، محمد بن عبد السلام : مركز الأجانب فى مراكش ص ٥٨ وما بعدها .

المغرب قبل أن تتخذ خطوة حاسمة تحقق بها أهدافها التوسعية في هذه البلاد .

وأهم هذه الاتفاقات :

١ - الاتفاق الفرنسي الإيطالي :

كانت لاطالياا أطماع في دول المغرب الثلاث التي كانت في وقت من الأوقات جزءاً من الإمبراطورية الرومانية ، ولذا رأينا كيف وقفت إيطاليا موقف عدم الرضى لامتداد النفوذ الفرنسي إلى الجزائر وتونس - وحاولت فرنسا الاتفاق مع إيطاليا لتقلع عن سياستها في مضائق فرنسا (السياسة التي رسمها فرانسيكو كريسبي Francesco Crispi) ، وفعلاً عقدت في عام (١٩٠٢ م) اتفاقاً إيطالياً أتفق فيه على أن تترك فرنسا لاطاليا الحرية المطلقة في طرابلس مقابل أن تترك لفرنسا حرية التصرف في المغرب (١) .

٢ - الاتفاق الودي مع إنجلترا (١٩٠٤ م) : (٢)

كانت المنافسة بين إنجلترا وفرنسا شديدة ، وشهد القرن التاسع عشر صراعاً مريراً بين القوتين - لكن لم تلبث أن ظهرت (ألمانيا) كقوة بحرية خطيرة تهدد مركز إنجلترا الحربي - فبدأت إنجلترا تشعر منذ أوائل القرن الحادي بأهمية إصلاح علاقاتها مع فرنسا لتأمين مركزها في البحر المتوسط . وصر على وجه الخصوص ، فقد كانت بريطانيا تدرك أن وجودها فيها تحدياً صارخاً للاتفاقات والقوانين الدولية ، وكانت فرنسا لا تتوانى عن مضايقة بريطانيا وتذكيرها بعدم شرعية وجودها في مصر ومطالبتها بتحديد موعد انسحابها منها .

وقد ساعد على تهيئة الجو المناسب للتقارب بين إنجلترا وفرنسا أن تولى عرش إنجلترا عام ١٩٠١ م الملك إدوارد السابع Edward VII وكانت له ميول معروفة نحو فرنسا .

(١) صبحي ، حسن : المرحم السابق ص ١٠٩ .

(٢) ملاحظة : إرجع لنصوص الإنفاق بملحق الكتاب .

وهكذا تهيأت الظروف للتقارب بين الدولتين ، وقامت مفاوضات بين الأطراف المعنية في البلدين - اشترك فيها كل من اللورد كرومر Cromer وكان خير من يدرك دقة موقف بلاده في مصر، واللورد لانسدون Lansdowne وزير الخارجية البريطانية في وزارة بلفور Balfour من الجانب البريطاني ، ودلسكاسي Delcassé وزير المستعمرات الفرنسي، وبول كامبون P. Cambon السفير الفرنسي في إنجلترا - من الجانب الفرنسي .

وكان كرومر يستحث حكومته للوصول إلى اتفاق مع فرنسا بشأن مطالبها في شمال أفريقيا بعد موافقة الفرنسيين على أن تقع مصر في دائرة النفوذ البريطاني وكان يرى الذهاب إلى أبعد حد لإرضاء فرنسا - حتى إنه اقترح تغيير اسم فاشوده التي أصبحت رموزاً لإذلال فرنسا وللعداوة بين الدولتين (١) .

لكن فرنسا - رغم اهتمامها بالوصول إلى اعتراف من إنجلترا بترك حرية العمل لها في المغرب - فإنها ترددت في قبول الثمن المطلوب للوصول لذلك - فكما ذكر كامبون السفير الفرنسي في لندن ، إن إنجلترا إذا سمحت لفرنسا بحرية العمل في المغرب فهي تعطى ما لا تملك - بينما تريد إنجلترا أن تتنازل لها فرنسا عن حقوق في مصر تملكها إمتلاكاً حقيقياً ، (٢) .

والإشارة هنا إلى أن إنجلترا لم يكن لها في ذلك الوقت نفوذ حقيقي في المغرب بينما كانت لفرنسا مصالح في مصر ، وكانت لها أطماع واضحة ، وكان لها نفوذ فيها .

ولقد تعرضت المماوضات بين الدولتين أكثر من مرة ، ولكن وصل الطرفان أخيراً لاتفاق - فأبرم في ٨ أبريل عام ١٩٠٤ م بين الدولتين ماعرف بالاتفاق الودي ، وقد وقعته عن فرنسا سفيرها في لندن كامبون ، وعن إنجلترا وزير خارجيتها لانسدون .

(١) صفوت ، عمدة معطاني : الاحتلال الانجليزي لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه (١٩٥٢) ص ١٠٩ وما بعدها .

(٢) Documents Diplomatiques Francaises (1871-1914), 2 (٣)
eme Serie Tome IV. (Document No. 36)

وقد عمل الطرفان - في هذه الإتفاقية - على الحصول على تنازلات متقابلة ومتعادلة وتدرجية في كلا البلدين ، بمعنى أن وضع فرنسا في المغرب سيكون مثل وضع بريطانيا في مصر . ولما كان وجود بريطانيا في مصر وجوداً واقعياً لكنه لم يكن محددًا بشكل رسمي من أشكال السيطرة - لذا فإن هذا الاتفاق الذي وقع في سنة ١٩٠٤ م لم يحدد الشكل الذي سيأخذه عمل فرنسا ووجودها في المغرب - لكن بالرغم من غموض الفقرات الخاصة بعمل فرنسا في المغرب - فإن هذا الغموض يتكشف في ضوء الوضع القائم في مصر^(١).

وقد صيغت الإتفاقية في تسع مواد وألحق بها إتفاق سرى من خمس مواد. وفي هذه الإتفاقية - أعلنت بريطانيا أنها لن تعمل على تغيير مركز مصر السياسي ، بينما أعلنت فرنسا من جانبها أنها لن تعرقل عمل بريطانيا في مصر - فلا تطلب تحديد أجل الإحتلال الإنجليزي ، ولا تخرج لإجتراء بأية صورة أخرى (المادة الأولى) .

ونظير هذا تعان حكومة الجمهورية الفرنسية أنها لن تعمل على تغيير مركز المغرب السياسي - على أن تعترف الحكومة البريطانية بأن افرنسا مصالح في المغرب ، وأنها لن تعرقل عمل فرنسا في هذه البلاد ، وفي نفس الوقت تحافظ فرنسا على ما تتمتع به بريطانيا في المغرب من حقوق تبعاً للبعاهدات السابقة (المادة الثانية) .

وفي مقابل ذلك تهمدت لإنجلترا بدورها بإحترام الحقوق التي تتمتع بها فعلا فرنسا في مصر (المادة الثالثة) . أما (المادة الرابعة) فتتعلق بحرية التجارة في كل من القطرين ، وأن تعامل كل واحدة منها الأخرى على قدم المساواة فيما يختص بالضرائب المفروضة على التجارة وأجور النقل - وهذه المادة كما نرى فيها اعتراف من بريطانيا بسلطة فرنسا في المسائل المتعلقة بالتجارة

(١) فارس ، عماد خير : تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب (١٩٧٢ م) ص ٧

والضرائب والنقل وغيرها في المغرب ، وبالطبع وجه الغرابة في ذلك أنه في ذلك الوقت لم تكن الحماية قد فرضت على المغرب بعد .

وتتعلق المادة الخامسة برعاية حقوق الموظفين الفرنسيين والإنجليز في كل من مصر والمغرب .

دينما تتعلق المادة السادسة باحترام إنجلترا الحرية الملاحة في قناة السويس عملاً باتفاقية القسطنطينية (٢٩ أكتوبر ١٨٨٨) .

وفي المادة السابعة تتعهد فرنسا بعدم إقامة تحصينات على ساحل المغرب الشمالي المواجه لحبل طارق - وفي هذا أيضاً إقرار من بريطانيا بأن فرنسا صاحبة الأمر في المغرب .

أما المادة التاسعة والأخيرة - فتتعهد فيها كل من الحكومتين بمساندة الأخرى حتى يتم تنفيذ هذه الاتفاقية فيما يختص بمصر والمغرب .

أما الملحق السرى - فهو من خمس مواد - نصر في الأولى منها على أنه حتى في حالة اضطراب الحكومتين لتعديل سياستهما الخاصة بمصر والمغرب - فإن الدولتين تلتزمان بما جاء في المواد ٤ ، ٦ ، ٧ من الاتفاق الودى .

وتختص المادة الثانية - بنظام القضاء والامتيازات الممنوحة للأجانب في مصر فنصر على بقاء هذا النظام دون تغيير إلا إذا رأت إنجلترا ذلك وبالمثل في حالة المغرب .

أما المادة الثالثة من هذا الاتفاق السرى فتقضى بترك منطقة من أراضى المغرب المحيطة (بملله) و (سبتة) لأسبانيا . وهكذا تتصرف الدولتان في أراضى المغرب كأنهما أصحاب الأمر والنهى .

وتقضى المادة الرابعة - بسريان هذه الاتفاقية الفرنسية الانجليزية حتى في

حالة رفض أسبانيا لها (أى فى حالة ما إذا رأت أن نصيبها من الغنيمة أقل مما ترجو) .

وتتعلق المادة الخامسة - بتسديد الديون الأجنبية .

وهكذا انتهت المساومة بين إنجلترا وفرنسا على الاتفاق بشأن مصر والمغرب دون أن يكون لأصحاب السلطة الشرعية فى البلدين أو لشعبيهما رأى أو كلمة .

٣ - الاتفاق الفرنسى الأسباني (أكتوبر ١٩٠٤) :

كان على فرنسا بعد إتفاقها مع إنجلترا أن تسعى لعقد إتفاق مع أسبانيا فى ضوء الإتفاق الانجليزى - الفرنسى لتحديد وضع أسبانيا فى المغرب بصفة أدق باتفاق الدولتين^(١) وكانت قد جرت مفاوضات سابقة بين فرنسا وأسبانيا (فى عام ١٩٠٢ م) بهذا الهدف - لكن لم تنته هذه المحادثات بين الدولتين بتوقيع اتفاق بينهما ، وقد كانت الدولتان تدركان أن أى اتفاق بينهما لا يحظى برضى إنجلترا عديم الجدوى - ولذا كان الجو مهيئاً أكثر بعد الاتفاق الانجليزى الفرنسى فى أبريل ١٩٠٤م للإتفاق بين فرنسا وأسبانيا .

وأنتهت المفاوضات بين الدولتين بعقد اتفاق بينهما وقع فى باريس فى ٣ أكتوبر ١٩٠٤ . وبالرغم من أن هذا الاتفاق لم يعط أسبانيا السلطة الكاملة فى المنطقة التى حددت لها فى الشمال — فقد ألحق بهذا الاتفاق اتفاق سرى آخر حددت بموجبه منطقة نفوذ أسبانية فى شمال المغرب ، وأخرى فى الجنوب وأطلقت فرنسا بموجب هذا الاتفاق السرى يد أسبانيا للعمل فى المنطقتين بحرية .

(١) ملاحظه : الأطماع الأسبانية فى المغرب قديمة . وقد احتل الأسبان طبله عام ١٥٤٦ ، واستولوا على جزيرة باديس عام ١٥٠٨ م ، وانتزعوا سيجته من البرتغال — وهكنا كانوا قد وصعوا أقدامهم على عتبة المغرب وأصبحوا يتطلعون للدخول للداخل . وقد تناولنا ذلك بالتفصيل فى فصل سابق .

ويمكن القول بأن اتفاقي أبريل وأكتوبر (١٩٠٤ م) كانتا بمثابة إستمهلال للحماية الثنائية على السلطنة المغربية^(١) .

والحقيقة فإن الجانب السرى من الاتفاقيتين المذكورتين يفسح المجال أمام كل من فرنسا وأسبانيا لاحتتمالات تتناقض مع التأكيدات العلنية في الاتفاقيات المعقودة بين هذه الدول^(٢) .

ولم تبق من عقبة في وجه فرنسا لتحقيق أطماعها في المغرب سوى (ألمانيا) التي أثارها إتفاق (لمانجترا ، وفرنسا ، وأسبانيا) وتجاهلها هي ومصالحها في المغرب .

وقد كانت لألمانيا مصالح إقتصادية في المغرب، كما كانت تطمح في أن يكون لها مركز على المحيط الأطلسى — يخدم أغراضها التجارية والحربية — ولذا فقد رأت ألمانيا في الاتفاقات الثنائية التي عقدت بشأن المسألة المغربية تجاهلاً لمصالحها .

وتعبيراً عن موقف ألمانيا من هذه الإتفاقات — قام الإمبراطور غليوم الثانى Guillaume II بزيارة لطنجة في ٣١ مارس (١٩٠٥ م) وأعلن في خطاب ألقاه هناك بأن ألمانيا لا تسمح لأى دولة أجنبية بأن تمس سلطة الحاكم الشرعى للمغرب ، وأنه يأمل أن تفتح المغرب — في ظل السيادة الكاملة لسلطانه — للمنافسة التجارية السليمة الحرة لجميع الأمم دون إحتكار أو استثناء^(٣) .

(١) انظر نصوص الاتفاق :

Documents Diplomatiques Francais 2 eme Serie. Tome v
(Document No. 348)

— وكذلك .

Lazrak, Rachid: Le Contentieux Territorial Entre Le Maroc
et l'Espagne (Casa blanca 1974) p.p. 410—415

(٢) فارس ، محمد خير : تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب (١٩٧٢) ص ١٢

— وانظر الاتفاقيات أيضاً بملحق هذا الكتاب .

(٣) العقاد ، صلاح : المغرب العربى (القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٤٩ .

٤ - إتفاقية الجزيرة (١٩٠٦ م) :

اتهمت الحكومة المغربية فرصة مساندة ألمانيا ، وإعلانها عن أنها ستدافع عن سيادة السلطان واستقلاله وعن الحرية الاقتصادية في المغرب وستقف في وجه إستثمار أية دولة بنفوذ خاص فيها - فوجت في ٣٠ مايو ١٩٠٣ م - الدعوة للدول الموقعة على اتفاق مدريد عام (١٨٨٠ م) إلى عقد مؤتمر دولي للنظر في شئون المغرب (١) .

وقبلت ألمانيا الدعوة فوراً ، وضغطت على فرنسا لقبولها وحضور هذا المؤتمر - وقد اضطرت فرنسا لحضور المؤتمر بعد أن بذلت جهوداً لدى المؤتمرين وضمنت تأييد الأكاثرية لآرائها .

وعقد المؤتمر في ١٤ يناير ١٩٠٦ م في مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras الأسبانية - واستمرت أعماله حتى أبريل من نفس العام .

وكان طبعياً أن يحدث الصراع في المؤتمر بسبب الخلاف بين أطباع الدول المجتمعة فيه خاصة فرنسا وألمانيا ، بالإضافة إلى ما كان يأمله السلطان (سلطان المغرب عبد العزيز) من أن يتمنخض المؤتمر - بجهود ألمانيا ومساندتها للمغرب - عن إقرار سيادة المغرب واستقلاله ، وهذا لا يمنع من الاستعانة بالخبرة والمال الأجنبي - وكان المغرب في أمس الحاجة إليهما .

ولكن تمكنت الدول المشتركة في النهاية من الوصول إلى قرارات بشأن المسائل الرئيسية التي نوقشت وأهمها :

- ١ - سيادة السلطان واستقلاله ووحدة مملكته والحرية التجارية في موانئه .
- ٢ - حفظ الأمن في الموانئ والمدن المغربية ومكافحة تهريب الأسلحة للبلاد .

(١) هذه الدول هي: فرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، وروسيا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وأسبانيا ، والبرتغال ، وبلجيكا ، وهولندا ، والسويد .

٣ — المسائل المالية وبحث تأسيس مصرف دولي بالمغرب ، ومسائل الضرائب والجمارك .

٤ — المشروعات الإنشائية التي تريد الحكومة المغربية القيام بها .

وإذا كانت مقدمة القرارات التي إتخذها المؤتمر أكدت احترام الدول لسيادة السلطان واستقلاله ، ووحدة مملكته ، والحرية التجارية في موانئه دون تفرقة — فإن القرارات الأخرى التي أتخذت بدعوى حفظ الأمن وتنظيم شؤون المغرب المالية — كانت بمثابة فرض رقابة أجنبية عليه — فكانت الضمانات التي أعطيت للمغرب بموجب هذه الاتفاقية عديمة القيمة .

ولا شك في أن النتيجة التي وصل إليها المؤتمر كانت نصراً لفرنسا وحلفائها فقد جاءت قراراته مدعمة للنفوذ الفرنسي والاسباني في المغرب .

فقد تقرر أن يتولى فرنسيون الإشراف على قوات البوليس المغربي في المدن الواقعة على ساحل الأطلنطي (الرباط ، والجديدة ، وأسني ، والصويرة ، وأكادير) ويشرف الاسبان على بوليس (تطوان ، والعرائش) بينما يوضع بوليس طنجة والدار البيضاء تحت إشراف الدولتين (فرنسا ، وأسبانيا)^(١) .

أما فيما يتعلق بالمسائل الإقتصادية والمالية فقد أخذ بفكرة التدويل فتكون هناك رقابة دولية تضمن للأجانب أموالهم وممتلكاتهم ، وتقرر في الناحية الإقتصادية مبدأ تكافؤ الفرص للجميع (سياسة الباب المفتوح) مع ضمان الإمتيازات السابقة التي حصلت عليها الدول . .

وقرر المؤتمر منع دخول السلاح إلى المغرب . وكانت الحجة وراء هذا القرار هي منع القبائل من التسلح حتى لا تحدث الشغب وتعبث بالأمن في البلاد ولكن النتيجة الحقيقية لهذا المنع كانت عجز البلاد عن الدفاع عن نفسها أمام الأجانب .

(١) انظر قرارات المؤتمر (١٣٢ مادة) د :

دارس ، محمد خير : المسألة المغربية ، (القاهرة ١٩٦١) ص ٤٠١ - ٤٠٥ .
— وأنظر ملحق هذا الكتاب .

وبالطبع أخذت فرنسا من إشرافها على البوليس المغربى فى الموانى الهامة على المحيط الأطلنطى فرصة لتقوية نفوذها فى هذه الموانى فى الوقت الذى أصبحت فيه الحكومة المغربية عاجزة عن تقوية وتسليح جيشها بموجب قرار منع شراء الأسلحة إلا بموافقة الدول الموقعة على الإتفاقية .

تطور الأحداث بعد مؤتمر الجزيرة :

كانت فرنسا تترقب الفرص لتحقيق أطامها كاملة فى المغرب — وقد طبق الفرنسيون كما يقول (روبرت فورنو) الخطة المجرية منذ القدم — هذه الخطة التى بموجبها تستولى الدول الكبرى على الدول الهمجية كما يسميها — فأرسلت المستشارين من أجل تقديم المساعدة إلى السلطان فى تعضيد حكومته ، وأقرضوه مبالغ ضخمة من المال شجعوه على تبذيرها فى تراهاث تافهة — وحين أغتيل بعض رجال أعمالهم ، ولم تدفع القروض المستحقة فى مواعيدها — دخل الفرنسيون البلاد كى يعيدوا النظام ويحموا السلطان^(١) .

وقد حدث فى ٢٢ مارس (١٩٠٧) أن قتل أحد المبشرين الفرنسيين فى مراکش هو الدكتور موشان Mauchamp فأحتلت الحكومة الفرنسية وجده فى ٣١ مايو (١٩٠٧ م) ، وأعلنت الحكومة الفرنسية أن هذا الإحتلال مؤقت — وأنه سينتهى بمجرد إجابة مطالب فرنسا التى تتلخص فى عزل وسجن باشا (مراکش) لمسئوليته عن حماية أرواح الأجانب ، وللتحقيق فى حادث القتل بمعرفة القنصل الفرنسى ، وعقاب المذنبين ، ودفع تعويض مناسب الأسيرة الفقيد ، وتنظيم البوليس المغربى كما نص عليه ميثاق الجزيرة^(٢) . وبالطبع لم تكن فرنسا جادة فى إدعاء أنها ستجلو عن (وجده) .

وفى ٣٠ يوليو من نفس العام (١٩٠٧ م) وقعت إصدامات فى الدار البيضاء قتل فيها بضعة عمال من الفرنسيين والأسبان الذين كانوا يعملون فى الميناء

(١) فورنو ، روبرت : عبد الكريم أمير الريف (ترجمة د . مؤاد أيوب
د . ت) ص ٧ .

Julien, Ch. André: Histoire de L'Afrique du Nord, (٢)
p. 733

لما كان من فرنسا إلا أن أرسلت بوارجها التي ظلت تقذف الميناء طيلة يومى ٥ ، ٦ أغسطس - وأعقب ذلك إنزال الجنود إلى البر واحتلال الجيوش الفرنسية للدار البيضاء^(١) .

وقد أدت هذه الأحداث المتتالية إلى ثورته المغاربة واتهامهم للسلطان عبد العزيز بالتهاون مع الأجانب ، فنهض المولى عبد الحفيظ أخو السلطان ووالده - في ذلك الوقت على مركش - ففزع طاعة أخيه وأعلن نفسه في عام ١٩٠٧ م ، سلطاناً على المغرب وتصدى للدفاع عن البلاد . فبيع له براكش في رجب ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م ، وخرج المولى عبد العزيز من فاس قاصداً مراکش ، لكن حين بلغه أن أهل فاس أيضاً خلعوه وبايعوا أخاه المولى عبد الحفيظ لم يجد أمامه إلا الاستسلام للجيوش الفرنسية التي كانت تعسكر في الدار البيضاء فقلوه إلى طنجة حيث أقام معتولاً الحياة السياسية حتى وفاته في عام ١٩٤٣ م .

وانص في البيعة التي بويغ على أساسها المولى عبد الحفيظ على أن الشعب المغربي كان متفتحاً لمجريات الأحداث في بلاده وأنه بايعه سلطاناً للجهاد لتحرير البلاد . فقد بايع الشعب المولى عبد الحفيظ ، على أن يسعى بمجهوده في رفع ما أضر بهم من الشروط الحادثة في الجزيرة ، حيث لم توافق الأمة عليها . . وعلى أن يسعى في استرجاع الجهات المأخوذة من الحدود المغربية ، وأن يستخير الله في تطهير رعيته من دنس الحمايات ، والتنزيه من إتباع إشارة الأجانب في أمور الأمة . . وإذا عرض ما يوجب مفاوضة مع الأجانب في أمور سلمية أو تجارية فلا يبرم أمراً منها إلا بعد الرجوع به للأمة^(٢) .

وقد تسلم المولى عبد الحفيظ مقاليد الأمور في ظروف قاسية . فقد كانت الجيوش الفرنسية تحتل رقعة واسعة من البلاد في شرق المغرب وغربه ، بينما كانت الجيوش الأسبانية تحتل دمليله ، ودسبته . .

(١) Julien, Ch. André : Histoire de L'Afrique du Nord

p. 734

(٢) حرر هذه البيعة الكاتب (أبو العباس أحمد بن الموارز) .

هذا في الوقت الذي كانت فيه ميزانية الدولة ومصادر الدخل الهامة بها تحت المراقبة الأجنبية ، والديون متراكمة — بينما كانت القلاقل والثورات مندلعة في كل مكان .

وقد نجح المولى عبد الحفيظ في القضاء على الثورات الداخلية وقبض على (أبي حماره) في شعبان سنة ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م) .

وقد أتاح هذا فرصة للتفرغ لمواجهة الجيوش الأجنبية . لكن الوقت كان قد فات — إذ أن الفرنسيين كانوا قد انتهزوا فرصة الفوضى التي كانت تشكو منها البلاد فأخذوا يتسللون إلى فاس .

وفي سنة ١٩١١ م جاءت بعض القبائل إلى فاس تطلب إلى السلطان تنظيم حركة المقاومة ضد أعداء الوطن . فادعى الفرنسيون أنها جاءت للعدوان — وتحركت الجيوش الفرنسية بقيادة الجنرال مويني Moinier واحتلت فاس في ٣١ مايو ثم مكناس في ٨ يونيو والرباط في ٩ يونيو ذلك بدعوى حماية السلطان عبد الحفيظ من القبائل النائرة ضده (١) .

وفي نفس الوقت تحوكت الجيوش الأسبانية بمرأ فاحتلت العرائش في ٨ يونيو سنة ١٩١١ م ، ثم احتلت القصر .

هـ — الاتفاق الألماني الفرنسي — ٤ نوفمبر ١٩١١ م :

فوزت ألمانيا لدخول الفرنسيين فاس ، ورأوا أن هذا يعني لإنهاء المسألة المغربية لصالح فرنسا ، دون أن تنال ألمانيا ما كانت تطمع فيه . وكانت ألمانيا في ذلك الوقت لا تمنع في ترك الفرنسيين أحراراً يعملون ما يريدون في المغرب

على شرط أن نحصل هي (أى ألمانيا) على تعويض مناسب في المغرب أو خارجه .

لذلك تحركت ألمانيا ، فأوفدت في يوليو سنة ١٩١١ م طراداً إلى (أكادير) الميناء المغربي على المحيط الأطلنطي ، وذلك بحجة حماية مصالح الرعايا الألمان ، وقام السفير الألماني في باريس بإبلاغ وزير الخارجية الفرنسية بأن السفينة الحربية الألمانية ستغادر الميناء عندما تعود الحالة في المغرب إلى هدوئها السابق (١)

وبما هو جدير بالملاحظة — إنه لم يكن لألمانيا رعايا في (أكادير) أو ضواحيها ، لكن يرجع اختيار ألمانيا لها إلى أنها كانت أصلح موانئ المغرب على الأطلنطي — وكذلك لقربها من مناجم منطقة السوس التي كانت ألمانيا تطمح في وضع يدها عليها .

واستمرت المفاوضات بين فرنسا وألمانيا عدة أشهر وانتهت بتوقيع الاتفاق بينهما في ٤ نوفمبر ١٩١١ م .

وفي هذه الصفة تنازلت فرنسا عن قطعة من مستعمرتها في الكونغو الفرنسية ٣٠٠٠ كيلو متراً تقريباً ، — في مقابل أن تطلق ألمانيا يدها في المغرب ، فلا تعرقل قيام حماية فرنسية على المغرب ، ولا تعترض على ممارسة فرنسا لشؤون المغرب الخارجية (٢) .

(١) كانت ألمانيا تطمح في الحصول على ميناء (أكادير) أو (موجدور) ولسكن فرنسا رفضت ذلك وخطر ألمانيا أن من مصلحة البلدين ألا تكثر مناطق الجوار ، وإنه يمكن البحث في مكان آخر خارج المغرب كتعويض لألمانيا .

— انظر فارس ، محمد خير : تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب ص ٢٧ وما بعدها .

(٢) لاندوروم : أزمة المغرب الأقصى (ترجمة إسماعيل علي ، وحسين الحوت — القاهرة ١٩٦١ م) ص ١٧ .

وقد نص الاتفاق على ألا تعرقل ألمانيا عمل فرنسا في إدخال كل الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والمالية العسكرية والقضائية — وكل النظم التي تتطلبها ذلك مع المحافظة على المساواة الاقتصادية ، وألا تعرقل ألمانيا احتلال فرنسا لأى جزء من المغرب .
وهكذا كان هذا الاتفاق الفرنسى الألمانى أخطر إتفاق عقد فيما يتعلق بالمسألة المغربية وأكثرها تأثيراً في مصير المغرب . وفي ١٢ يناير ١٩١٢ م أقر البرلمان الفرنسى هذا الاتفاق .

وقد اعتبرت فرنسا توقيعها على هذه الاتفاقية مع ألمانيا — بمثابة تخطيها لأكبر عقبة تعترض إعلان حمايتها الصريحة على المغرب — فأصرعت لإتخاذ الخطوة التالية — رغم عدم اقرار الدول الأخرى لما جاء في هذه الاتفاقية الألمانية الفرنسية .

٦ — معاهدة^(١) الحماية الفرنسية (٣٠ مارس ١٩١٢ م) :

كانت فرنسا قد عمدت إلى لجنة شكلت من إحدى عشر عضواً بقرار من مجلس الوزراء الفرنسى برئاسة مسيو رينو Regnault بوضع صيغة معاهدة الحماية التي تعتزم فرنسا فرضها على السلطان المغربى ولإلزامه بتوقيعها^(٢) .

ولعل السؤال الذى يفرض نفسه لأول وهلة علينا هو :

لماذا اختارت فرنسا للمغرب نظام الحماية ؟

ومحاول الدكتور محمد خير فارس ، تحليل الأسباب التي دعت فرنسا لهذا الإتجاه في المغرب^(٣) فقد كانت أمام فرنسا في شمال أفريقيا تهمرتان — تجربة الإدارة المباشرة (الضم) كما تمثلت في الجزائر ، وتجربة الإدارة غير المباشرة

(١) هذه التسمية فيها تجاوز ، فالمعاهدة مفروض أنها بموافقة الطرفين .

Cambon : Op. cit. pp. 219—221

(٢)

— وانظر ملحق هذا الكتاب .

(٣) فارس ، محمد خير : تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب (١٩٧٢) — ص ٤٦

والحماية كما تمثلت في تونس - وقد خرجت فرنسا من هذه التجارب بأن نظام الحماية هو الأنسب فيما يتعلق بالمغرب لأسباب :

١ - أيقن الاستعمار أن أسلوب الضم والدمج القديم أصبح لا يجدى خاصة إذا كان يتعامل مع دول لها حضارتها وتاريخها ، كما أن الأسلوب العتيق - أسلوب الضم والدمج - مكلف وكثير النفقات .

٢ - كان للمغرب حتى عام ١٩١٢ م تاريخه وعلاقاته الدولية في المجالات السياسية والإقتصادية ، ومرت عليه - كما رأينا - فترات كانت الدول الأوروبية ذاتها تخطب وده - فلم يكن يسيراً أن يغيب بين يوم وليلة من خارطة السياسة ، كما أن فرنسا كانت تدرك أن سلطان المغرب (السلطان عبد الحفيظ) قد بويع بعد خلع أخيه السلطان عبد العزيز كسلطان للجهاد للدفاع عن حوزة الوطن واستقلاله^(١) . - وقد أظهر فعلاً منذ أمسك بدفة الأمور أنه يعمل لهذا الهدف - فلا يستبعد إذا ضمنت عليه فرنسا - أن يفضل التنازل عن العرش عن أن يبقى سلطاناً في ظل المستعمر - وهذا ما كان يحشاه الفرنسيون ، فقد كانوا يشعرون بضرورة وجود سلطان وحكومة وطنية ، فإن ذلك على الأقل يخفف من حدة الثورة الوطنية .

٣ - كان للمغرب وضعه الخاص ، وإرتباطاته مع العديد من الدول الأوروبية بموجب إتفاقات ومعاهدات دولية ، ولم يكن في وسع فرنسا تجاهل ذلك . وقد أشارت فرنسا في مرسوم تعيين أول مقيم لها في المغرب إلى ذلك وإلى احترام المعاهدات الدولية السابقة^(٢) .

٤ - ظروف فرنسا الداخلية ، وعلاقاتها الخارجية كانت تحتم عليها عدم التورط في عمليات إستعمارية كبيرة ، كما كانت تملى عليها عدم إثارة مشكلات

(١) انظر ما ذكرناه عنبيعة السلطان عبد الحفيظ .

(٢) فارس ، محمد خير : تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب ص ٤٨ .

— ونص المرسوم موجود في :

مع الدول الأوروبية الأخرى . ولا شك في أن فرنسا لو أقدمت على فرض سيطرتها الإستعمارية الكاملة على المغرب لاصطدمت بأكثر من دولة أوروبية كانت لها في المغرب رعايا وامتيازات وعلاقات .

هـ - كذلك لعل التجربة التونسية بالمقارنة بالتجربة الجزائرية جعلت فرنسا تترك أن إتباع أسلوب مع المغرب شبيه بما اتبعته في تونس أفضل بكثير من سياسة شبيهة بسياستها في الجزائر .

هذا إلى أننا نشير إلى أن هذا لايعنى أن السياسة التي أتبع في المغرب هي نفس السياسة التي أتبع سابقاً في تونس . فرغم أن تعبير (تونس المغرب) ^(١) كان يتردد في كتابات الكتاب الفرنسيين قبل أن تفرض فرنسا حمايتها على المغرب - فإن اختلاف ظروف البلدين فرضت بالطبع اختلاف نظام الحماية فيهما . فالمغرب لم يكن كتونس يدين بالتبعية - ولو الإسمية - للدولة العثمانية ، كما أنه كانت له ارتباطاته الرسمية المختلفة مع العديد من الدول الأوروبية ، وكان على فرنسا أن تحترم هذه الإرتباطات إلى حد كبير وإلا اصطدمت بالدول الأوروبية الأخرى كما سبق الإشارة .

هذا على أن مفهوم الحماية كما يقدمه الأستاذ محمد شفيق غربال يحتمل بين طرفيه السياسات المتباينة للدولة أو الدول التي تفرض حمايتها - فهو نظام مرن تتفاوت معانيه ، ففي أقصى طرفيه سيطرة قوية ، وفي طرفه الآخر لا يختلف كثيراً عن منطقة النفوذ السياسي ، ولكنه يتضمن في حالاته جميعاً - فيما بين الطرفين - الدفاع عن البلاد المحمية ، ومراقبة سياستها الخارجية ، وأما مقدار تعرضه لشئون البلاد المحمية الداخلية فأمر قابل للمد والجزر ، حسب مقتضيات الظروف وملازمات الأحوال ^(٢) .

Durand, B. : Traité de droit public au Maroc (Paris (١)
1949) P. 50

(٢) غربال ، محمد شفيق : تاريخ المعاولات المصرية البريطانية - ١ (١٩٥٢) ،
س ٣٧ .

والحماية في الواقع - كما يقول الأستاذ عياش - لا تختلف كثيراً عن الإستعمار في الهدف ، وإن اختلفت في الشكل - حتى تترك للشعب الموضوع تحت الحماية وهم الإستقلال في الوقت الذي تعمل لإستغلاله تجارياً وصناعياً . وهذه هي غاية كل نظام استعماري^(١) .

وقد فرضت فرنسا معاهدة الحماية - التي صيغت بنودها من قبل - على السلطان المغربي المولى عبد الحفيظ في ظروف تجعل الأمر لا يخرج عن إنه إنزاع لتوقيع عليها بالقوة وفي ظل التهديد والعنف .

فقد وصل رينو Regnault إلى فاس في ٤ مارس وكالت الجيوش الفرنسية قد احتلت فاس كما ذكرنا منذ ١١ مايو ١٩١١ م - وهو يحمل في جعبته مواد الإتفاقية المزمع عقدها ، ويبدو أن السلطان عبد الحفيظ أبدى منذ البداية معارضة للمعاهدة ، وأعلن أنه يفضل التنازل عن الحكم عن تخليه عن سيادة بلاده - لكن فرنسا لم تعدم الوسائل الأرمائية لإقتزاع توقيع السلطان على هذه المعاهدة - وقد تم ذلك في ٣٠ مارس ١٩١٢ م .

وكان لإعلان الحماية رد فعل بين مختلف طبقات الشعب المغربي - فلم يكذب خبر التوقيع على المعاهدة يذاع حتى اشتدت المقاومة واشتعلت نيرانها في كل مكان .

أما المولى عبد الحفيظ نفسه فلم يستطع أن يجابه الموقف - وأصر على التنازل عن العرش وغادر العاصمة فاس في ٦ يولييه سنة ١٩١٢ م متوجهاً إلى الرباط . وفي الرباط أنهى إجراءات تنازله رسمياً في ٢ أغسطس ١٩١٢ م وغادر الرباط في نفس اليوم على بارجة فرنسية متوجهاً إلى فرنسا حيث قضى بقية حياته حتى وفاته في ١٩٢٨ م .

وتولى المولى يوسف الأمر في هذه الظروف - وهكذا ظفر الفرنسيون

بتوقيع السلطان المغربي على وثيقة الحماية واستبقوه مكرهاً هذه الفترة إلى أن تهدأ النفوس بعض الشيء ويأخذ الوضع الجديد في الاستقرار .

وقد صيغت شروط هذه المعاهدة في تسع مواد^(١).

أشير في المادة الأولى منها إلى أن فرنسا والسلطان المغربي اتفقا على إجراء إصلاحات إدارية وقضائية واقتصادية ومالية وعسكرية شاملة ترى الحكومة الفرنسية من المفيد إدخالها بالقطر المغربي .

لكن التزمت فرنسا بالمحافظة على الحالة الدينية في البلاد وعلى المؤسسات الدينية وخاصة الأوقاف ، وكذلك تعهدت باحترام السلطان .

وأشير أيضاً في هذه المادة إلى أن فرنسا ستتفاوض مع أسبانيا بخصوص المصالح الأسبانية في الشاطئ المغربي المواجه لاسبانيا - كما نص على أن تحتفظ (طنجة) بوضعها الخاص .

أما المادة الثانية . فقد أقرت قيام فرنسا باحتلال الأماكن التي تراها ضرورية في المغرب للمحافظة على النظام والأمن وسلامة التجارة ، هذا بالإضافة إلى أعمال الشرطة في البر وفي المياه المغربية .

وفي المادة الثالثة تعهد فرنسا بتعزيد السلطان ومساندته ضد أي خطر يهدد شخصه أو عرشه أو بلاده ، وينسحب نفس الشيء على خلفائه .

وتختص المادة الرابعة بالتدابير والتشريعات الجديدة التي يقتضيها نظام الحماية الجديدة - فقد تقرر أن يصدر السلطان هذه التشريعات بناء على إقتراح الحكومة الفرنسية .

والمادة الخامسة -.. تتعلق بمثل فرنسا في المغرب (المقيم العام) وهو

(١) انظر نص المعاهدة في:

Lazrak, Rachid : Op. cit. p. p. 418—420

- وكذلك ملحق هذا الكتاب .

المكلف بتنفيذ هذه المعاهدة، وقد منحتة بلاده كل السلطات فيما يتعلق بالمغرب ومنها سلطة المصادقة على ما يصدره السلطان من مراسيم - كما أن المقيم العام الفرنسى سيكون الوسيط الوحيد للسلطان لدى الممثلين الاجانب .

وبمقتضى المادة السادسة يكلف موظفو فرنسا الدبلوماسيون وقناصلها بتمثيل وحماية رعايا المغرب ومصالحهم فى الخارج .

وتشير المادة السابعة إلى أن الحكومتين الفرنسية والمغربية ستتفقان على أسس تنظيم الشؤون المالية بحيث تحترم حقوق أصحاب سندات القروض ، بينما تمنع المادة الثامنة السلطان المغربى من إبرام أى فرض مستقبلا بدون إذن الحكومة الفرنسية .

أما المادة التاسعة والأخيرة فهى خاصة بتقديم هذه المعاهدة للمصادقة من طرف الحكومة الفرنسية .

وقد وقع على هذه المعاهدة فى فاس كل من المولى عبد الحفيظ - ورينو وذلك فى يوم ٣٠ مارس ١٩١٢ (١١ ربيع ١٣٣٠ هـ) .

ومن نظرة سريعة على مواد هذه المعاهدة يتضح لنا الملاحظات التالية :

١ — أن الحكومة الفرنسية قد سلّيت الحكومة المغربية كافة سلطاتها فهى التى تقترح الاصلاحات اللازمة فى المجالات الادارية والقضائية والاقتصادية والمالية والعسكرية .

٢ — وتمنح المعاهدة الحكومة الفرنسية حق إحتلال المناطق التى تراها ضرورية للمحافظة على النظام والأمن فى المغرب .

٣ — منح المقيم العام الفرنسى سلطات كاملة بحيث أصبح الوسيط الوحيد بين السلطان المغربى والممثلين الاجانب .

٤ — كما حرمت المغرب من المظهر الرسمى الاساسى للدولة المستقلة الذى

يتمثل في أن يكون لها ممثلوها الدبلوماسيون والقنصليون ، فقد تكفلت فرنسا ومثلوها عنها بهذا العمل .

هـ - ومن الناحية المالية لم تترك للسلطان حرية تصريف شؤون دولته في هذا المجال بل نص على أن الدولتين ستفقان على تنظيم مالي جديد ، كما حرم على السلطان المغربي عقد أى قرض في المستقبل دون إذن الحكومة الفرنسية .

وهكذا جردت هذه المعاهدة السلطان المغربي وحكومته من كل سلطات الدولة المستقلة - والحقيقة فهي لا تخرج عن كونها صورة من الصور التي اتبعتها الدول الإستعمارية لبسط سلطانها على الدول والشعوب التي رأت مصالحها في مد نفوذها إليها .

٧ - الاتفاق الفرنسي الأسباني (٢٧ نوفمبر ١٩١٢ م) :

كانت فرنسا تعلم أنها بموجب اتفاقاتها السابقة سواء مع بريطانيا (أبريل ١٩٠٤ م) أو مع أسبانيا ذاتها (أكتوبر ١٩٠٤ م) - أو بموجب إتفاق الجزيرة عام (١٩٠٦) ، وحتى بموجب معاهدة الحماية الفرنسية (٣٠ مارس ١٩١٢ م) يلزم أن تتفاهم مع أسبانيا قبل أن تباشر تنظيم حمايتها على المغرب .

وكانت الإتصالات بين أسبانيا وفرنسا بشأن مصالح أو بالأحرى مطامع كل من الدولتين في المغرب جارية قبل أن توقع فرنسا عقد الحماية مع المغرب .

وبالطبع شجع الإتفاق الألماني الفرنسي (٤ نوفمبر ١٩١١ م) فرنسا على أن تحاول الوصول لإتفاق مع أسبانيا يحدد بموجبه وضع كل من الدولتين في المغرب - لكن اختلاف وجهات نظر الدولتين وشعور فرنسا بأن موقفها في المغرب أصبح قوياً بعد إتفاقها مع معظم خصومها ، وبعد دخول جيشها (فاس) العاصمة المغربية - جعل شقة الخلاف بين وجهتي نظر الدولتين تزداد بعداً . ففي الوقت الذي كانت ترغب أسبانيا فيه أن يكون لها في منطقة نفوذها

في المغرب حقوق مشابهة لحقوق فرنسا - كانت فرنسا تصر على وحدة السلطنة المغربية بحيث تستمر كافة حقوق السلطان في المنطقة الاسبانية لكنه يفوض خليفه عنه في هذه البقعة في مزاولة هذه الحقوق .

وبتوسط انجلترا بين فرنسا واسبانيا وصلت الدولتان في ٢٧ نوفمبر ١٩١٢ إلى توقيع إتفاق في مدريد من ٣٠ مادة ألحق به بيروتوكول خاص بسكة حديد (فاس - طنجة) نص فيه على تسليم الخط إلى شركه موحدة تقوم بدراسة وإقامة الخط وإستغلاله ، ورأس مال هذه الشركه الموحدة يكون بسبعة ٦٠ ٪ فرنسى ، ٤٠ ٪ أسباني^(١) .

وأهم ماتضمنته بنود هذا الإتفاق :

١ — تعترف الحكومة الفرنسية بنفوذ أسبانيا في المنطقة الشمالية من المغرب التي عرفت بأسم (المنطقة الخليفية) كما تعترف بأن من شأن أسبانيا في منطقة نفوذها أن تسهر على طمأنينة البلاد وراحة سكانها . وأن تساعد الحكومة المغربية على إدخال كل الإصلاحات الضرورية في مجالات الإقتصاد والإدارة ، والمالية ، والتشريع ، والعسكرية .

٢ — تعتبر منطقة النفوذ الأسباني هذه بجميع مرافقها تحت السيادة المدنية والدينية لسلطان المغرب - لكن يتوب عنه مندوب يسمى (الخليفة) يتمتع بجميع إمتيازات السلطان ويحافظ على جميع حقوقه .

٣ — يقيم الخليفة في مدينة (تطوان) عاصمة المنطقة الاسبانية ويشكل حكومة خليفية على غرار حكومة السلطان ، كل وزرائها مغاربة إلا وزارة الخارجية فيمارس أعمالها المندوب السامي الأسباني .

٤ — تعين الحكومة الاسبانية (مندوباً سامياً) يمثلها لدى سمو الخليفة

انظر نفس الاتفاق في :

Lazrak, Rachid . Op. Cit.

- ولاحق هذا الكتاب

ويسهر على تنفيذ هذه الإتفاقية ، ويكون الواسطة بين الحكومة الخليفة والسلوك
الاجنبي ، وله الحق في مراقبة أعمال الحكومة الخليفة والمصادقة عليها .

ويلاحظ على الاتفاق الفرنسي الاسباني وعلى الاسلوب الذي اتبعته اسبانيا
في تنفيذه ما يلي :

١ — فصلت الاتفاقية بين المنطقتين الفرنسية والاسبانية من حيث الضرائب
والامور المالية ، وجعلت لاسبانيا حق تمثيل سكان المنطقة الشمالية في الخارج
هذا في الوقت الذي حرصت فيه فرنسا على وحدة السلطنة ، فنص على أن منطقة
النموذ الاسبانية تعتبر تحت السيادة المدنية والدينية لجلالة السلطان ، وينوب
عن جلالة فيها مندوب مفوض يسمى (خليفة) .

٢ — ميزت الاتفاقية من حيث الوضع القانوني بين قسمين في منطقة
النموذ الاسبانية :

(١) القسم الذي يشمل (سبتة ، ومليلة ، وإفني) وهي المناطق التي كانت
تحتلها اسبانيا من زمن طويل - وكانت تنظر إليها على أنها أرض اسبانية تتبع
حكومة مدريد مباشرة .

(ب) القسم الثاني - وهو يشمل المناطق التي تستمد اسبانيا وجودها فيها
من معاهدة الحماية بين فرنسا والسلطان - فوضعها فيها يشبه وضع (المستأجر
من الباطن) - إذ لم يعقد معاهدة بين اسبانيا والسلطان بشأنها ، وتبلغ مساحتها
عشر مساحة المغرب كله^(١) .

٣ — بموجب هذه الاتفاقيات أصبح المغرب مقسماً إلى ثلاث مناطق :

(١) منطقة الحماية الفرنسية والمنطقة السلطانية ، وتقدر مساحتها بـ ٤٤٢.٠٠٠
كيلو متراً مربعاً تقريباً .

(١) العقاد ، صلاح : المغرب العربي (القاهرة ١٩٦٦) ص ٢٩٧ -

(م ٢٢ - المغرب)

(ب) منطقة الحماية الاسبانية ، المنطقة الخليفة ، وتقدر مساحتها بـ ٢٢.٠٠٠ كيلو متراً مربعاً تقريباً .

(ج) منطقة طنجة الدولية - وتقدر مساحتها بـ ٣٥ كيلو متراً مربعاً - وكان قد نص في معاهدة الحماية على أنها ستحتفظ بصيغتها الخاصة، لكن تقرر في إتفاقيات تالية نظامها الدول مع الاعتراف بسيادة سلطان المغرب عليها ، محادثات واتفاقيات باريس ١٩٢٣ م ، ١٩٢٥ م ، ١٩٣٨ م بين إنجلترا وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا .

تطور الأحداث في المغرب بعد توقيع عقد الحماية

والاتفاق الفرنسي الاسباني

كان السلطان عبد الحفيظ - كما ذكرنا - قد تعرض لضغوط عنيفة من الفرنسيين ، وكان كلما ضاق بمطالبهم هدد بالتنازل عن عرشه - وقد عبر السلطان للمقيم الفرنسي عن ضيقه بهذه الضغوط. من فرنسا بقوله : لقد أخطأت فرنسا في تشدها في إتفاقية الحماية - فإن إنجلترا تتمتع بكل امتيازاتها في مصر ولم تنطق بهذه الكلمة ، (١) .

ولما استتب الأمر للفرنسيين وحصلوا على توقيع السلطان عبد الحفيظ وبدأت الأمور في المغرب تنتظم حسب الوضع الجديد - قبلوا إستقالة السلطان عبد الحفيظ فتولى الأمر ، المولى يوسف ، ، بينما ولى الخلافة عنه في المنطقة الخليفة المولى المهدى بن اسماعيل ،

وكان عهد المولى يوسف عهد العمل من قبل الدولتين المستعمرتين ، فرنسا وأسبانيا ، لتثبيت أركان النظام الجديد . لكن لم يتم ذلك بيسر فقد جابهت الدولتان مقاومة عنيفة من المغاربة في السهول والجبال - سواء في منطقة الحماية الفرنسية أو في منطقة الحماية الاسبانية .

وقد عينت فرنسا الجنرال ليوتي Lautey^(١) أول مقيم عام لها في المغرب - وقد أظهر كفاءة عسكرية وإدارية خاصة في معالجة الأمور في منطقة الحدود الجزائرية المغربية ، لكنه واجه موجات عنيفة من المقاومة حتى أنه وصل في بعض الأحيان لدرجة اليأس ، فكما ذكره إنه في بعض الأحيان نتيجة عنف المقاومة كاد يحرق جميع الوثائق التي يحملها معه ويدبر أمر الانسحاب مع من معه من القوات^(٢) .

فقد غشى البلاد طرفان من الإضطرابات ضد الفرنسيين والذين يتعاونون معهم ، وقد أجهد الجنود الفرنسيون إلى درجة كبيرة ، فقد كانوا يرابطون في أرض معادية . وتجددت البواعث القديمة للثورة ، فزادت الموقف اشتعالاً ، وأصبحت الوسائل السياسية عديمة الجدوى مع القبائل التي حملت لواء المقاومة ضد المحتلين وأعوانهم في البلاد^(٣) .

وقد صب الثائرون من الجنود والأهالي نار غضبهم على الضباط الفرنسيين ، بالإضافة إلى المغاربة الذين أتهموا بالتعاون مع جيوش الاحتلال ، والذين قبلوا

(١) اختير (ليوتي) كقيم عام — لأنه يتميز بأنه عسكري ودبلوماسي ، وكان قد سبق أن خدم في الهند الصينية ، ومدغشقر (مالاجاش حالياً) ، و الجزائر كقائد لمنطقة (عين الصفراء) ثم لمنطقة وهران — وكان من مبادئه أن يلوح بالقوة لكن لا يستخدمها إلا عند الضرورة . وقد بقى في المغرب حتى عام ١٩٢٥ ولذا إقترب اسمه بأسوأ مظاهر الاستعمار ، وهو الذي رسم سياسة فرنسا الاستعمارية في المغرب ، وواجه ثورات الشعب المغربي ضد المستعمرين الفرنسيين ، ورسم المخطط لإخضاعها ، وإلى دوائه ومكره وحذقته يرجع ما حققته فرنسا في هذا المجال . وقد أوسى بأن يدرس في المغرب بعد وفاته ، وهو البلد الذي خدم وطله فيه زهرة سعي حياته . وملا بعد وفاته في عام ١٩٣٤ م حل إلى المغرب ودفن في الرباط — لكن حين استقل المغرب (١٩٥٦ م) لم تر حكومة المغرب ما يدر وجود قبره في البلاد لأنه بعيد الازدهان ذكرى هذه الفترة الأليمة من تاريخه فطلت من الحكومة الفرنسية نقل رفاته فنقل إليها عام ١٩٦١ م

— للدراسة التفصيلية لتاريخ حياة ليوتي انظر :

Hardi, Cr. : Portrait de Lautey (Paris 1934)

(٢) ابن حلون ، عبد المجيد : هذه مراكش (القاهرة ١٩٤٩) ص ١٧٢ .

(٣) Catroux, G. : Lautey. Le Marocain (Paris 1952,)

حمل التياشين والرتب التي منحتها لهم فرنسا — ففي ١٧ أبريل (١٩١٢ م) ثار الجنود المغاربة في (فاس) وقتلوا قائدهم الفرنسي بالإضافة إلى ثمانية وستين ضابطاً مغرباً — كانوا يحملون أعلى الرتب في الجيش الفرنسي ، وترك الجيش ما يقرب من ٢٠٠٠ جندي مغربي انتشروا في صفوف القبائل الثائرة مزودين بأسلحتهم الجيدة وأصبحوا في كل مجموعة من مجموعات الثوار بمثابة نواة لقوة نظامية مدربة ومسلحة . ونجح الثوار في عزل فاس عن بقية المغرب عزلاً تاماً . ولم تهدأ الثورة إلا بعد أن جاءت نجدة من القوات الفرنسية المربطة على بعد خمسة كيلومترات من مدينة فاس — وقد خاضت هذه القوات معارك حامية مع الثوار وانتهى الأمر باستسلام ثوار مدينة فاس (١) .

ولم يلبث الفرنسيون أن واجهوا ثورة قبائل (الشرارة) المربطة على الأطراف الشرقية لمدينة فاس ، هذا بالإضافة إلى القبائل القاطنة في جنوبي (مكناس) .

وفي الجنوب في سوس — هب البربر وعلى رأسهم الهبيسة ابن الشيخ ماء العينين ، وزحف هو ورجاله صوب (مراكش) واستولوا عليها في ١٨ أغسطس (١٩١٢ م) وبدأوا يستعدون للزحف صوب منطقة الشاوية ، كما تمكن أحد أتباع الهبيسة من إحتلال (أكادير) — وشعر الفرنسيون أن عليهم أن يحاربوا في أكثر من جبهة وهو الأمر الذي حاول ليوتى تجنبه .

وقد تفاقمت حركة الهبيسة خاصة بعد تنازل المولى عبد الحفيظ — حيث إتجهت إليه الأنظار وتكثرت حوله النعوس الوطنية — ولجأ الفرنسيون لسلاح خطير لإضعاف قوة الهبيسة ولفرض القبائل من حوله ، فأشاعوا الشكوك حول نواياه وأهدافه واستغلوا في ذلك بعض الموالين لهم من المغاربة فنشروا بين

(١) بن جلون ، عبد المجيد : مرجع سابق — ص ١٧٢ .

ملاحظة : كان الفرنسيون قد وضعوا مخططاً يقوم على تأليف جيش مغربي يقوده ضباط فرنسيون يستخدمونه في السيطرة على المغرب وهو ما عير عنه قوادهم بـ (إحتلال المغرب بواسطة المغاربة) .

أتباعه إنه يدعو لنفسه بدلاً من السلطان الشرعى ، وأدت هذه البلبلة لإيجاد ثغرة فى صفوف أتباعه ونجح الفرنسيون فى ٧ سبتمبر ١٩١٢ م فى إحراز انتصار حاسم على قوات الهيبة وتابعوا سيرهم حتى دخلوا مراکش وأحتلوها ، ونجح الفرنسيون فى تأمين خطوط مواصلاتهم بين فاس ومكناس والرباط .

لكن كان على الفرنسيين أيضاً أن يواجهوا ثوار قبائل غبائية و مر انضم إليها (تازا) زعامة (عبد الملك الجوارى) حميد الأمير عبد القادر (١) ، وكذا قبائل زيان زعامة (مع وحو) وكان هذا الزعيم قوى المراس استطاع أن يوجه للفرنسيين ضربات قوية وأن يحدد خطوط مواصلاتهم بين مكناس والرباط ، وبين فاس ومراكش ، وكان يتخذ مدينة (خنيفرة) مركزاً لعملياته ، وقد وحده إليه الفرنسيون الحملة قلو الأخرى فكان يهزمها ، وإن كانوا قد نجحوا فى يونيو (١٩١٤ م) فى أن يحتلوا خنيفرة — لكن استطاع الزعيم الزيانى (مع وحو) أن ينسحب إلى الجبال وأن يوقع هزائم بقوات الفرنسيين متنهزاً فرصة سحب فرنسا لجزء كبير من قواتها لحاجتها إليهم فى الميدان الأوروبى بعد إعلان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨ م) .

وقد كانت خطة ليوتى التى رسمها لمواجهة الموقف أثناء الحرب هى المحافظة على المناطق المحتلة ومهادنة الثوار ومجابهة الدعاية الألمانية القوية فى المغرب خاصة بعد أن دخلت تركيا — الدولة الإسلامية — فى صف ألمانيا ، وسعت ألمانيا للإتصال بالثوار وتهريب الأسلحة لهم لإثارة المتاعب للفرنسيين (٢) .

هكذا دافع المغاربة عن كل شبر من أرض بلادهم ، ورغم الفارق الكبير فى نوعية السلاح وإمكانيات كل طرف من الطرفين — فقد كبد الثوار

(١) ولد عبد الملك فى سورية أثناء إقامة جده فى الشرق ، وقد جاء المغرب عام ١٩٠٢ م ويقال إنه كان يعمل فى عام ١٩١٤ م لحساب ألمانيا — وقد هرب بعد ذلك إلى جبل الريف حيث أعلن الحرب ضد الفرنسيين .

Catroux : Op. cit. p. 156

(٢)

المستعمر خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، وإعترف القواد الفرنسيون بذلك
فذكر الجنرال جيروم Jerome الذي لعب دوراً كبيراً في حملات قمع الثورة
المغربية :

« إن أي قبيلة لم تستسلم دون مقاومة ، بل إن بعضها لم يلق سلاحه حتى
استنفذ كل وسائل المقاومة ، ولم تقدم أي قبيلة ولاءها لنا إلا بعد أن هزمتها
بأسلحتنا ، فاستمت كل مراحل تقدمنا بالقتال ، وكلما توقعنا أنشأ المغاربة جبهة
جديدة ، واحتفظوا بها بواسطة سلسلة من التحصينات أرغمت قواتنا سنوات
طويلة على أن تقف موقف اليقظة والحذر ، فقد كانت معرضة للأخطار في
كل وقت، (١) .

ولم تقم مقاومة المغاربة على المناوشات العشوائية دون تخطيط ، فقد عثر
الفرنسيون بعد معاركهم ضد قوات الثوار في (فاس) على خريطة عسكرية
حددت فيها بدقة تامة مواقع الجيش الفرنسي ، ووضعت بها علامات تدل على
أن هناك خططاً عسكرية دقيقة مرسومة للكفاح ضد جيش الإحتلال (٢) .

وفي القسم الأسباني من المغرب (٣) لقي الأسبان مقاومة عنيفة من الوطنيين
المغاربة ، ونشبت عدة معارك ظهرت فيها بطولات وطنية . ومن الشخصيات
التي برزت في مجال الكفاح ضد الأسبان (أحمد بن محمد ريسولي) . وقد ظهر

(١) لاندو ، روم : أزمة المغرب الأقصى — ترجمة اسماعيل علي ، وحسين الحوت (القاهرة
١٩٦١ م) ص ١٠٠ .
(٢) القاسي ، علال : الحركات الإستقلالية في المغرب العربي (القاهرة ١٩٤٨ م)
ص ١١٩ .

(٣) يطلق بعض المؤرخين على هذه الجهات من المغرب اسم (الريف) . والريف كلمة
تعني الحافة أو الجرف أو الأرض المزروعة الخصبة ، فهي تسمى الساحل البحري الشمالي ، وقد
استعملت لأول مرة في القرن العاشر ، ثم شاع إستخدامها منذ القرن الرابع حيث عرف
(عبد الحق الباديسي) قفلا عن (داود القرطبي) الريف بأنه يمتد من المنطقة المحيطة
(بسبته) غرباً حتى حدود الجزائر شرقاً .

ز — انظر — فورنو ، روبرت : مرجع سابق ص ٨ .

في منطقة (جبالا) بشمال المغرب واجتمعت حوله جماعة قوية من أنصاره وأصبح يمثل القوة الحقيقية في هذه المنطقة (١).

وحين أخذ الأسبان ينزلون جيوشهم في (العرائش) عقب إتفاقهم مع الفرنسيين في عام ١٩١٢ م على مناطق نفوذ الدولتين في المغرب — كان طبيعياً أن يصطدموا بقوة ريسولى الذى يصفه قائد حملة الغزو الأسباني — فبرناندو سيلفستر Fernandez Silvestre بزعيم عصاة اللصوص ، وحين تقدمت القوات الأسبانية في فبراير (١٩١٣ م) من سبتة إلى تطوان واحتلتها هب ريسولى ورجاله لمواجهةهم — فأضطرت أسبانيا لإرسال تعزيزات قوية لقواتها من أسبانيا حتى وصلت القوات الموجودة في المنطقة إلى ٤٠.٠٠٠ رجل لكن اضطرت الحكومة الأسبانية إلى مهادنة ريسولى فأرسلت إلى القفوص السامى الأسباني الذى عينته لمنطقة نفوذها في المغرب (المركيوى فالنزابلا) بتمهيلات لمحاولة عقد صلح مع ريسولى . وتم ذلك وأعترفت أسبانيا بحكمه لاقليم جبالا (٢).

وقد شنت أسبانيا في عام ١٩١٩ م - حرباً ضد ريسولى بقصد القضاء على سيطرته ، واستطاعت القوات الأسبانية تطويق منطقة جبالا - لكن

(١) يعطينا والتر هاريس (Harris, W.) الصحفي الإنجليزى ومراسل التايمس في المغرب — وكان قد بدأ نشاطه بالمغرب منذ ١٨٨٧ م — في عام ١٩٢٦ م معلومات تفصيلية عن تاريخ حياة ريسولى قبل أن يصطدم بالأسبان — فيذكر أنه درس في شبابه القانون لكنه انخرط واستسلم لحياة اللغامة والتبذير وكان هو وأتباعه يسرقون الماشية ثم يردونها لأصحابها مقابل دية تدفع لهم ، وقد قبض عليه مراراً وسجن وعذب ، وقام هو وأتباعه في عام ١٩٠٧ باختطاف بعض رجال الأعمال الأجانب في طنجة ولم يفرج عنهم إلا بعد دفع فدية كبيرة — وقد قويت شوكرته ونفوذه بين قبائل (جبالا) حتى أن السلطان عبد الحفيظ عينه باشا على قبائل جبالا .

حين ظهر الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي (١) كقوة خطيرة تهدد وجود الأسبان في البلاد - رأت الحكومة الأسبانية أن من الحكمة أن تتفاوض مع ريسولى لإستئثاره إليها للتعاون معاً على مقاتلة عبد الكريم الخطابي - وفعلاً بدأت المفاوضات بين الطرفين وجلا الأسبان عن منطقة نفوذ ريسولى ، وقبلوا دفع تعويض له عما أُلغته جيوشهم أثناء عملياتها الحربية .

ويستحق محمد عبد الكريم الخطابي اللقب الذى أطلق عليه (بطل الريف) أو (أمير الريف) - فقد تزعم حركة المقاومة المسلحة ضد المستعمرين الأسبان وسيطر لفترة غير قصيرة على الأقاليم الشمالية من المغرب ، بل إن حركته تجاوزت الحدود القبلية والإقليمية فنادى بالجهاد ضد الاستعمار عامة حتى شجرت فرنسا بخطورته على وجودها الإستعماري في المغرب كله .

وينتهي محمد عبد الكريم لأسرة الخطابي من قبائل (بنو ورياغل) . ولد في (أجدير) عام ١٨٨٢ م ، وكان أبوه عبد الكريم القاضي المحلى لها ، ونهل محمد عبد الكريم من مناهل العلم في مدينة تطوان ثم في فاس في جامعة القرويين ، وتخرج في عام ١٩٥٩ م ، كما أتاحت له فرصة التعليم في أسبانيه وأتاح له ذلك فرصة التعرف على اتجاهات الإستعمار الأسباني .

وكانت بلاد المغرب حينئذ تمر بمرحلة حاسمة في تاريخها فقد كانت المؤامرات تحاك حوله ، والدول الإستعمارية تمقد الاتفاقات فيما بينها لضمان عدم اصطدام مصالحها وأطماعها .

وقد اندفع محمد عبد الكريم الخطابي في التيار الوطني واستنكر التعامل مع الأجانب ومنحهم حقوق التنقيب عن المناجم في جبل (ويكش) وكانت هذه المشكلة مشار تنافس بين الدول الإستعمارية في ذلك الوقت . رحين أحست

(١) عبد الكريم هو اسم والد الزعيم ، وكان قاضياً في (أجدير)، وقد أعطى الابن لقب عبد الكريم الذى اشتهر به كهادة أهل الريف في ذلك الوقت في أن يعطى الابن البكر اسم أبيه . أما لقب العائلة فهو (الخطابي) .

السلطات الاسبانية بخطرته حاولت إرهابه بالقوة فأحرق دار الأسرة في أجدير، ثم سعى الاسبان لإغرائه بالمناصب فعين في عام ١٩١٣ م مستشاراً لدى محكمة الجنايات ثم رفع بعد سنتين إلى منصب رئيس العدل^(١).

وأتاح له هذه الظروف والمناصب فرص الإحتكاك مع الرسميين الاسبان من جهة ومع مهندسي المناجم من جهة أخرى، وكان بعضهم من الالمان من مثلى (مانيسان أخوان) المؤسسة الالمانية التي تعاقدت على حفر المناجم في ويكش، كما كان بعض هؤلاء من عملاء المخابرات الالمانية التي فشلت بعد ذلك خاصة في أثناء الحرب العظمى الاولى لخلق المتاعب للفرنسيين في شمال أفريقيا.

وبرز الاب (عبد الكريم الخطابي) في الكفاح ضد الاسبان الذين كانوا يحتلون (مليلة) من زمن طويل، ويحاولون التقدم منها غرباً، بينما كان الجزال (دامسكو بيرنجي) المهوض السامي الاسباني يعمل جاهداً لتثيبت دعائم النفوذ الاسباني وتوسيعه عن طريق التغلغل السلمي — بجذب القبائل القوية إلى جانبهم وبالتخلص من العناصر المعاندة — ويقال إنه في نهاية عام ١٩١٩ م حين كان الاب (عبد الكريم الخطابي) يتجول في الريف ويعقد الاجتماعات منبهاً قومه إلى أهداف الاسبان ومرايمهم — أستضيف من قبل أحد زعماء القبائل (عبد السلام التفرسيقي) الذي قدم له طعاماً مسموماً تنفيذاً لأوامر تلقاها من الاسبان وقضى الرجل نحيبه في سبتمبر ١٩٢٠ م، فخلفه ابنه (محمد عبد الكريم) في زعامة القبيلة، وفي قيادة حركة الكفاح ضد المستعمرين الاسبان. وكان في ذلك الوقت يشغل وظيفة قاضي مدينة مليلة^(٢). وظهرت بطولات محمد

(١) فورولو، روبرت: مرجع سابق ص ٣٩.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٤٤ - ٤٦.

عبد الكريم الخطابي لأول مرة في معركة أنوال في يوليو ١٩٢١^(١). وقصة هذه المعركة الحاسمة تستحق وقفة في من معارك التاريخ الحاسمة .

وكان الجنرال سيلفستر (F. Silvester) قائد حامية (مليلة) متحمساً لغزو الريف والقضاء على كل مقاومة فيه للنفوذ الاسباني ، وكان يزدرى بقوة أهل الريف ، ويرغم أنه سيسحقهم قبل أن يتمكنوا من تعبئة أنفسهم - وكان يلقي تأييداً خفياً من الملك الاسباني الفونس ، بهكس الجنرال (بيرنجر) المفوض السامي الاسباني الذي كانت حركاته تقسم بالبطء والحذر .

وشهد شهر مايو ١٩٢١ م تقدم الجنرال سيلفستر في الدروب الجبلية بـجبال الريف كما شهدت قمم (إبران) و (أغريين) التي تشرف على الوادي صراعاً مريراً بين قوة الريفيين الصغيرة المدعمة بمحاسن المدافعين عن بلادهم وقوة الاسبان الضخمة المدعمة بأسلحتها الحديثة .

وكان إستيلاء الريفيين على قمة إبران أول صدمة ومنى بها الجيش الاسباني ، كما نجح الريفيون في قطع الطريق بين (أغريين) و (أنوال) فأصبحت القوة الاسبانية في (اغريين) الواقعة على بعد خمسة أميال جنوبي أنوال - عاجزة عن الوصول لمجاري المياه في الاخدود .

وفي ٣١ يوليو ١٩٢١ م تقدم الاسبان من (أنوال) بقوات هائلة اختلقت المراجع اختلافاً بينا في تقدير عددها - بهدف سحق قوات الريفيين - وأخذت مدافعهم تلقى بقذائفها على الخنادق التي كان يحتجى فيها الريفيون ، ولم يرد

(١) ملاحظة : تعددت المراجع التي عالجت كفاح عبد الكريم ضد المستعمرين نذكر منها :

١ - روبرت ، فورنو : عبد الكريم أمير الريف (ترجمة فؤاد أيوب دمشق د . ت) .

ب - محمود كامل فريد : انتصار عبد الكريم (مطبعة التقدم - القاهرة ١٩٢٥)
- محمود كامل فريد : حوادث الأمير محمد عبد الكريم الزعيم الربي للقبور بالمغرب الأقصى (مطبعة التقدم - د . ت)

د - عبد أبو النصر : بطل الريف، الأمير محمد بن عبد الكريم (دمشق ١٩٣٤)

الريفيون حتى أصبح الأسبان على مقربة وعندئذ أطلقوا خلال دقائق قليلة كل الدخيرة التي كانت معهم ، وانجلى القتال عن معركة (أم درمان مقلوبه) على حد تعبير شقيق عيد الكريم^(١) .

وحاول الأسبان اتراجع نحو أنوال بعد أن ألقوا ببنادقهم وذخيرتهم فألقض عليهم الريفيون بما غنموه من ذخيرة ، أما الجنرال سيلفستر فقد وجدت جثته عند الجسر القريب من ميدان المعركة . وتزعم المراجع الأسبانية أنه انتحز - وتولى الجنرال (نافارو) الأمر وأخذ على عاتقه مهمة الانسحاب وأعمل رجال قبيلة (بنى سعيد) القتل في الهاربين واستولوا على الحصون التي كان الأسبان قد أقاموها أثناء تقدمهم بعد أن قضوا على رجالها - وحين استسلم الجنرال نافارو (Pedro Navarro) في ٢ أغسطس ١٩٢١ لم يكن قد بقي على قيد الحياة من القوة الأسبانية سوى ٤٠٠ رجل ، بينما تقدر خسائرهم بحوالى ١٨٠٠٠ رجل ، واستولى الريفيون على كميات ضخمة من الأسلحة المختلفة^(٢) .

وفي تقييم السير تشارلز بنزى لتتائج كارثة أنوال بالنسبة لاسبانيا ذكر :
(إن هذه الكارثة قبض لها أن تؤثر في تاريخ أسبانيا الحديث تأثيراً بالغ العمق فلو أن هذه الكارثة لم تقع لما قامت الدكتاتورية في أسبانيا ، ولو أن الدكتاتورية لم تقم لما قامت الجمهورية الثانية ، وبالتالي ما وقعت بها الحرب الأهلية)^(٣) .

(١) فورنو ، روبرت : مرجع سابق ص ٦٤ .

(٢) Julien, Ch. André : Histoire de L'Afrique du Nord (٢)
p p. 514—515

(٣) انظر فورنو ص ٦٧

ملاحظة : هزت أخبار هذه المزامم الشعب الأسباني وفضح دور الملك و هذه للأساء وعينت لجنة تحقيق برئاسة (بيكاسو) لمعرفة أسباب الكارثة — ومرت أسبانيا بأزمة جديدة بعد نشر تقرير اللجنة ، ووقع انقلاب تولى على إثره الجنرال (بريغودي ريميرا) السلطة في ١٣ سبتمبر ١٩٢٣ — لكن أنهارت دكتاتورية (بريغودي ريفيرا) عام ١٩٢٩ م فهرب إلى باريس حيث قضى نفيه في ١٩٣٠ م ولحق به الملك ألفونسو الثاني — ونشككت حكومة دستورية في أسبانيا واستمرت حتى ١٩٣٩ م حين قلبها (فرانكو) بعد أربع سنوات من الحرب الأهلية ، وكان جيشه يتألف إلى درجة كبيرة من القوات المغربية التي كان في عدادها كثيرون من أهل الريف — وظل فرانكو يحكم أسبانيا حتى وفاته في نهاية عام ١٩٧٥ فمادت الملكية إلى أسبانيا بحكم الملك (أخوان كارلوس) ملك أسبانيا الحالي .

وقد كتبت الصحف الأسبانية وغيرها من الصحف الأوروبية عن معركة أنوال مشبهة إياها بمعركة عدوه سنة ١٨٩٦ بين الإحباش والإيطاليين .

لقد أصبح الطريق في اتجاه (مليلة) مفتوحاً أمام الريفيين ، وأصبحت حامية المدينة التي كان الأسبان قد استولوا عليها من زمن بعيد تنتظر بقلق مصيرها المحتوم ، بينما ركب آلاف من سكانها المراكب التي كانت بمرقاً للمدينة في انتظار الفرار - وحاصر الريفيون فعلاً المدينة من جهة البر ، وكانت تقارير المسؤولين الأسبان في (نطوان) و (مليلة) كلها تشير إلى أن المدينة على وشك السقوط .

وأنعقد مجلس خارج مليلة لتقرير الخطوة التالية حضره عبد الكريم بعد أن انتهى من تدبير موقف الأسرى وجمع الذخائر بعد الإقتصار الذي أحرزه أتباعه ، وكان قرار عبد الكريم الذي أعلنه لانهصاره يقضى بعدم الإقدام على إقتحام المدينة المحاصرة .

واقد اختلفت التبريرات التي ذكرت فيما بعد لهذا القرار العجيب الذي اعترف عبد الكريم نفسه في السنوات التالية بأنه ربما كان هذا القرار هو السبب في خسارته الحرب كلها^(١) .

وبما قيل في تبرير هذا التقصير عن إحتلال هذا الميناء الهام مباشرة بعد النصر الساحق الذي حققه الريفيون :

١ - إن عبد الكريم كان يدرك أن رجاله كانوا في ذلك الوقت مفتقرين إلى الانضباط ، تقاب عليهم صفاتهم القبلية من حيث الثأر والإنتقام وأنهم سوف يقضون لا محالة على المدنيين الأسبان في مليلة ، وأن العالم كله سوف يصدم بهذه الاعمال في وقت كانوا هم فيه يحتاجون - لكسب إستقلالهم - إلى تأييد إنجلترا ، والولايات المتحدة وغيرها من دول العالم المتحضر .

(١) دورنو ، روبرت : مرجع سابق - ص ٧١ .

٢ — كان عبد الكريم يتوقع بعد انتصاره الساحق في أنوال أن يقبل الأسباب بلا تردد شروط الصالح التي سيعرضها ، وكان يفضل أن يعترفوا باستقلال الريف في مقابل ضمان امتيازات اقتصادية لهم دون إراقة مزيد من الدماء ، وسنرى أن محاولاته في هذا الشأن باءت بالفشل .

٣ — كان يرى أنه في حاجة لتنظيم جيشه وإقامة أسس جديدة لإدارته قبل أن يقدم على خطوة أخرى .

على كل مهما تكن الأسباب التي أدت لعدم استقلال الريفيين لهذا النصر فإن الأحداث التالية قد تعطى فرصة أفضل لتقييم الموقف كله .

بعد عودته إلى (أجدير) اجتمع عبد الكريم مع ممثلي القبائل الريفية ، وقرروا في سبتمبر ١٩٢١ م تأليف حكومة وطنية تدير شؤون البلاد و (جمعية وطنية) لوضع ميثاق قومي وتنظيم الكفاح المسلح . وأعلنت الجمعية الوطنية الميثاق وهو يقضى بما يلي^(١) :

١ — الإعتراؤ بالاستقلال التام للدولة الريفية الممتدة من خط الحدود مع مراکش حتى البحر المتوسط .

٢ — إعلان قيام حكومة جمهورية في الريف .

٣ — إنشاء علاقات ودية مع جميع الدول بلا تمييز ، والإستعداد لعقد معاهدات تجارية معها .

٤ — دعوة جميع الدول إلى إقامة خدمات قنصلية ودبلوماسية لها في مركز حكومة الريف الحالي في (أجدير) .

(١) ثابت ، كريم خليل . عبد الكريم والرب الريفية (القادرة ١٩٢٥) ص ٣٠ وانظر البيان الذي أصدره عبد الكريم باسم (حكومة جمهورية الريف) إلى جميع الأمم .

واتخذ عبد الكريم علماً أحمر قان طرزت عليه نجمة بيضاء وهلال أخضر
رمزاً للدولة الريفية .

ولقب عبد الكريم نفسه (بأمير الريف) ورفض لقب (سلطان) .

وقد احتفظ عبد الكريم ببساطته فرفض أن يفتىء (بلاطاً) ، وظل يقطن
في منازل ريفية — لكنه أحاط نفسه بأقربائه وأصدقائه لأنهم هم الذين كانوا
موضع ثقته .

فقد جعل أخاه قائداً للجيش النظامي فوضع نظاماً لتوفير جيش دائم
مدرب مجهز بأسلحة مما أستولى عليه الريفيون من الأسبان . وتلك الأسلحة التي
استطاعوا شراءها من الفرنسيين قبل دخولهم في الحرب معهم .

وعهد عبد الكريم للقربين اليه — وموضع ثقته — بالشؤون الخارجية ،
والداخلية ، والمالية .

ووضع نظاماً لجباية الضرائب ، كما وضع قوانين جديدة متعلقة بملكية
الأرض ، وتوزيع المياه وغير ذلك .

ولعل القانون الجديد — الذي حل محل العرف والذي وضع السلطة في يد
الدولة وأبطل عادات كانت سائدة كالنأر يعتبر من أعجاذ إنجازاته (١) .

وبعد تردد قبلت الحكومة الأسبانية إفتداء الباقين على قيد الحياة من الأسبان
بمبلغ كبير ، وقد أثار هذا العمل الضوضاء في أسبانيا . لأن الجيش الأسباني
زعم أن الحكومة بهذا التصرف تكون قد مولت عبد الكريم ليتمكن من
مواصلة المقاومة (٢) .

(١) فورنو : مرجع سابق ص ٦٩ — ٨٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٤ .

واستخدم عبد الكريم هذه الإعتمادات بالعملة الأجنبية فعلا في شراء أسلحة وأجهزة حديثة للاتصال .

ولم تقع خلال الفترة من ١٩٢٢ إلى ١٩٢٤ م حروب حاسمة بين الطرفين فقد كانت القوات الأسبانية حبيسة في (تطوان) و (مليلة) ، ولم اتخذ الأسبان خطة الدفاع .

وجرت اتصالات في هذه الاثناء بين الطرفين المتنازعين . فقد اقترح الأسبان نوعاً مني (الحكم الذاتي) في الريف - لكن رفض عبد الكريم ذلك رفضاً باتاً معلناً أن عرب الريف الذين اختاروه أميراً عليهم لن يرضوا باستقلال بلادهم بديلاً .

وحين علم عبد الكريم بنية الأسبان أن يفسحبوا من داخل منطقتهم في سبتمبر ١٩٢٤ م وأن يتجمعوا حول تطوان ومليلة - أسرع بإعداد جيشه ووضع تخطيطه ليحول هذا الانسحاب إلى هزيمة ساحقة . ولما كان يقدر أن الصدام بينه وبين الأسبان سيكون في جبهتين - جبهة مليلة ، وجبهة شفشياو تطوان - فقد نظم قواته على هذا الأساس وعين قائداً عن يمينه لكل جبهة . وقد أتت الخطة المحكمة ثمارها فتمحلت عملية الانسحاب الأسبانية إلى هزيمة لا تقبل عن هزيمة أنوال .

هذا وقد ترك الأسبان بإنسحابهم من جبالا حليفهم (ريسولي) تحت رحمة الريميين ، وكانوا قد عرضوا عليه أن ينسحب إلى مواقع أكثر أماناً - لكنه أصر على البقاء في (تازروت) في قلب جبالا - ظاناً أنه في موضع حصين يصعب على الريميين إقتحامه - ورفض (ريسولي) ما عرضه عليه الريميون من الانضمام إلى عبد الكريم - وأتت نهاية الأمر تقصف الريميين للقلعة التي كان يتحصن بها فاستسلم وكان في ذلك الوقت يبلغ من العمر تقريباً سبعين عاماً ، وكان لا يستطيع الحركة بيسر - فحمل أسيراً إلى الريف حتى قضى نحبه بعد بضعة أشهر من أسره .

وهكذا أصبح عبد الكريم الحاكم غير المنازع للريف من أبواب (مليله) حتى حدود (تطوان) .

لكن هذه الانتصارات المتتالية ونجاحه في خلق دولة ريفية مستقلة على حدود مناطق الحماية الفرنسية في المغرب - أقلق الفرنسيين أيما قلق - وقد عبر عن ذلك المارشال ليوتي (Lautey) المقيم العام الفرنسي في المغرب في رسالة بعث بها من الرباط لحكومته في باريس يقول فيها :

« لا يمكن أن يكون هناك شيء أسوأ بالنسبة إلى نظامنا من إقامة دولة إسلامية مستقلة على هذا القرب من فاس - دولة تجعل من كريم مركز جذب ليس بالنسبة إلى المنشقين فحسب - بل بالنسبة إلى جميع تلك العناصر المغربية، أو على الأخص الشباب منهم الذين أخذت تهزم الأحداث الجديدة في الشرق، والدين نشأت في أذهانهم مطامح قائمة على بغض الأجنبي،^(١) » .

وكان هذا بمثابة حفز لهمم الفرنسيين وتوجيه الحكومة الفرنسية للتدخل لمساندة الأسبان المنهزمين في صراعمهم ضد حركة المقاومة في شمال المغرب .

على أن الأمر الذي يدعو إلى التساؤل هو لماذا تورط عبد الكريم في الحرب مع الفرنسيين ، وقد كان يدرك أنه من الصعب عليه أن يحارب في ميدانين ، وكان دائماً يعلن إنه لا يضم عداماً للفرنسيين ؟

يرجع تورطه في هذه الحرب مع فرنسا إلى تمسكه بالتقاليد الريفية ، وبما عليه عليه الشرف من احترام هذه التقاليد . فقد استجذبت قبيلة بني وروال الذين يقطنون إحدى المقاطعات الواقعة جنوب الريف عند الضفة الشمالية لنهر (ورعا) به ضد الفرنسيين الذين اجتازوا النهر وصاروا يننون القلاع على سفوح التلال الواقعة على الحدود، وكانت هذه القبلة في تحالف مع عبد الكريم

(١) لادوروم : تاريخ المغرب في القرن العشرين (ترجمة نيقولا زيادة - بيروت

وسبق أن قدمت له العون ، وإذا فقد وجد عبد الكريم إنه لازم بمساندة هذه القبيلة رغم تقديره لعواقب هذا الأمر . ويقال إنه حين طلب منه مندوبو القبيلة هذا الأمر التفت إلى مستشاريه وقال لهم : لسوف أرتكب حماقة لكن لا بد لي من إرتكابها ، (١) .

لقد أعطى عبد الكريم بإقدامه على مساندة هذه القبيلة للمتهورين من القادة الفرنسيين - الفرصة لمهاجمته مدعين إنه بدأ ينفذ مخططه ضد الفرنسيين بعد أن فرغ من حربه ضد الأسبان - والحقيقة مهما كان الدافع لعبد الكريم فإن المرء لا يستطيع أن يدرك كيف سمح لنفسه بالوقوع في هذا الشرك الذي لم يحف عليه إنه يعرض كل انتصاراته السابقة للخطر .

لقد كان الفرنسيون في نهاية عام ١٩٢٤ م يستعدون على الحدود بإقامة التحصينات ودفع المزيد من قواتهم إلى هذه الجهات - لكن كان عبد الكريم يعلم أن هناك ما يمنع فرنسا من التقدم لبط سلطانها على المنطقة الشمالية المحددة في اتفاقاتها السابقة مع إنجلترا ومع أسبانيا بأنها منطقة نفوذ أسباني - فكانت الحيلة تقتضى ألا يعطى العسكريين الفرنسيين المتهورين الفرصة للإيقاع به .

ويبدو أن أهداف عبد الكريم من إقدامه على محاربة الفرنسيين كانت محدودة ، إذ أن غرضه الوحيد كان مساعدة القبائل المحلية المستجدة به على طرد الفرنسيين إلى ما وراء نهر ورغلا حيث مكانهم المشروع في اعتقاده . لكن فيما بعد وحين أحرز بعض الانتصارات الأولية بدا له إنه في الإمكان تحقيق أغراض أكثر اتساعاً .

(١) فوربو - مرجع سابق ص ١٤٣ .

ملاحظة : ترجم أهمية هذا المرجع إلى أن المؤلف حصل على معلوماته - بالإضافة إلى المراجع المنشورة - من أحيى الأمير عبد الكريم وأبنائه وأقربائه الآخرين ، ومن الباقين أحياء من حرب الاستقلال الريفية . وقد ترجم له (سعيد الخطابي) - الذى كان دليلاً لرياراته لمسرح الأحداث بشمال أفريقيا - كتاب والدم غير المنشور (قصة حربنا) .
(م ٢٢ - المغرب)

فحين تمكنت قوات عبد الكريم في شهرى مايو و يونيو عام ١٩٢٠ من مهاجمة المراكز الفرنسية المتناثرة على مدى قوس عريض بين الشرق الى الغرب على طول الحدود الريفية - وحين نجح في أن يستولى على الأقل على خمسين مركزاً من هذه المراكز - بدل خطته وأمر بهجوم عام - لكن الخطا الثانى الجسيم الذى ارتكبه عبد الكريم هو عدم انتهازه فرصة الإضطراب الذى ساد خطوط الفرنسيين وقبل أن تصلهم التعزيزات التى ينتظرونها - فيحاول الإستيلاء على فاس و تازة وبذا كان يقطع الطريق الموصلة الى الجزائر والتى تصل بها النجيدات الى الفرنسيين .

وقد أشار إدريس بن عبد الكريم الى ذلك فى حديثه مع فورنو فقال له إن والده كان يؤمن انه لو أمر قواته فى شهر مايو بالهجوم على فاس وتازة فقد كان فى مقدوره احتلالها ومن بعد المغرب بأسره وهو يعتقد أن قصيره عن اتخاذ مثل هذا الأمر هو احدى كبريات أخطائه (١).

على أن هذا لايعنى أن عبد الكريم كان يطمع فى أن يحكم المغرب كله أو أن ذلك كان فى استطاعته - لكن تحقيقه هذا النصر كان يعنى أنه سيكون فى مركز قوى فى مجال المساومة للوصول الى استقلال الريف وطرده الاسبان من شمال المغرب وهو هدفه الاول والاخير . ولو كانت لعبد الكريم حسنة سياسية أكثر لأدراك أن الفرنسيين لايد - بعد أن يعودوا الى رشدهم من الصدمة الاولى التى أصابهم - أن يعملوا على غسل العار الذى أصابهم بطرده على الأقل من الاماكن التى كانت تحتلها قواتهم - ان لم يكن تصفية الخطر الذى أصبح وجوده يمثل نهائياً .

وإدراكه لهذه الحقيقة كان كفيلاً بأن يجعله يتردد أكثر من مرة فى الإقدام على محاربة الفرنسيين مهما كان الدافع .

(١) فورنو : المرجع السابق ص ١٧٥ .

وفي يونيو ١٩٢٥ م أعلنت هدنة مؤقتة بين الطرفين وقابل مبعوث فرنسي هو غابرييلي (Gabrielli) ^(١) عبد الكريم للتفاوض في شروط الوصول الى اتفاق مع فرنسا. لكن في هذه الاثناء كان الدبلوماسيون الفرنسيون والاسبانيون يجتمعون في مدريد لوضع أساس تعاون الدولتين للوقوف في وجه قوات عبد الكريم . وقد رفض عبد الكريم طوال عام ١٩٢٥ م والشهور الاولى من عام ١٩٢٦ م جميع الشروط التي عرضتها عليه الحكومتان الفرنسية والاسبانية لانها كانت لا تتفق وهدفه في ضمان استقلال الريف . ولانه كان يعتقد — كما يبدو — أنه مازال قادراً على ربح الحرب ضد الاسبانيين والفرنسيين — الأمر الذي سيتمكنه من إكمال شروطه الخاصة .

لكن إخفاق اليربيين في خط الوسط ، وزوال الخطر الموجه إلى فاس وتازا — وإرسال الحكومة الفرنسية الجبرال (بيتان) ليتولى القيادة في المغرب وإمداده بقوات وصلت إلى ضعف ما كان يطالب به سلفه — ليوتى دون طائل . هذا بالإضافة إلى العامل الرئيسي وهو التعاون الفرنسي الاسباني بشكل حاسم ضد قوات الريف — كل هذه حسمت الموقف .

وكانت أسبانيا قد وضعت خطه لانزال جنودها في خليج الحسيمة والرحف صوب (أجدير) عاصمة عبد الكريم — ولم تكن هذه الخطوة خافية عن عبد الكريم ، ولم تخط أسبانيا هذه الخطوة إلا بعد موافقة الأركان العامة الفرنسية على الخطوة .

وكان عبد الكريم يحتفظ بجزء كبير من قواته في الشرق لمنع الاسبان من الإندفاع من مليلة ، كما كان لابد من الاحتفاظ بجيش آخر في المغرب لمحاصرة (تطوان) ، وكانت القلعة الاسبانية في الجويرة مثل خنجرأ موجهاً لقلب الريف .

(١) انظر كتابه الهام عن أحداث حرب الريف :

Gabrielli, L. : Abd el-Krim, et Les événements du Rif
(Casablanca 1953).

قد علل عبد الكريم فيما بعد — سر عدم استيلائه على هذه القلعة لعوامل انية تتعاق بوجود أعداد غفيرة من النساء والأطفال الأسبان فيها^(١) .

وقد ظهر الأسطول الأسباني عند خليج الحسيمة في السابع من سبتمبر ١٩٢٥ م وكان من ١١١ مركباً — وقد أخفق عبد الكريم في تعيين الموقع الحقيقي للإنزال والذي سيبدأ منه العدو عملية الغزو الجديدة . ولم يكن يملك ما يكفي من القوات لحماية ساحل الخليج الطويل كله — كما أنه أخطأ حين أتاح فرصة للأسبان للإستيلاء على المرتفعات التي تشرف على الأقاليم الداخلية .

ونجحت القوات الأسبانية بمعاونة البحرية الفرنسية والقوة الجوية التي لم تكلف عن لقاء قتال الغاز السام — في أن تستولى على الجبال التي تشرف على (أجدير) ، واضطر الريفيون إلى الجلاء عن المدينة وتقهقروا نحو الجنوب — واستولت القوات الأسبانية على (أجدير) وانتشرت أنباء سقوط عاصمة الجمهورية الريفية في أرجاء الريف ، وأصدر الأسبان بياناً باللغة العربية وزع على نطاق واسع بواسطة الطيران يمنح الريفيين ثلاثة أيام للإستسلام ويعدون العفو عن جميع الذين يلقون السلاح .

وقد جرت عدة إتصالات بهدف عقد الصلح عن طريق المفاوضات . وفي ابريل ١٩٢٦ م أعلنت هدنة والتقى مندوبو الطرفين في (وجده) للتباحث في شروط الصلح ، ورفض عبد الكريم طلب الجانب الأسباني الفرنسي القاضى بإطلاق سراح الأسرى قبل المفاوضة في الصلح لرغبته في الإحتفاظ بسلاح قوى للمساومة — وقد انتهى المؤتمر إلى دروب مسدودة بشأن الإختلاف في معنى عبارة (الحكم الذاتي) ومضمونها — التي وعد بها الريفيون . ويعتقد عبد الكريم أن أعداءه قد دعوا إلى هذا المؤتمر لمجرد كسب الوقت إنتظاراً لنهاية فصل

(١) ملاحظة : وصف Water B.Hartre مراسل جريدة التيمس Times

البريطانية والذي قضى في المغرب في هذه الأثناء فترة طويلة من حياته — الأمير عبد الكريم بالقسوة والفظاظة . ولعل هذا الموقف من عبد التكريم بالإضافة إلى مواقف أخرى سجلها مراسلون آخرون ينبئ عنه هذه التهمة

الامطار. ولذلك فقد فضل الريفيون أن يقاتلوا بالأحرى من أن يفقدوا أرضهم وشرفهم على حد سواء . وأن الاسبانيين إذا ما نزعوا سلاح القبائل كما كانوا يطالبون في شروطهم - سيحتشون بكلمتهم . . ولذا فيفضل أن يسقط هو والريفيون والسلاح في أيديهم - قد يخسرون الحرب . . لكنهم سيحتفظون بشرفهم^(١) .

وهكذا إنمرط (مؤتمر وجده) في ٦ مايو واستؤنفت الحرب - وكان الأمير قد اتخذ (ثارجيست) مقرأ لقيادته بعد سقوط « أجدير » .

وضيقت القوات الأسبانية والفرنسية الخناق على الأمير والقلة المخلصة الباقية معه من رجاله - فبينما انطلق الأسبانيون جنوباً من الحسيمة - اندفع الفرنسيون شمالاً . وفي ٢٣ مايو (١٩٢٦ م) احتلت الطلائع الفرنسية المضارب المجاورة للحصن - وانطلق عبد الكريم على صهوة جواده يرافقه اثنا وعشرون فارساً هم الباقون أحياء من جماعته ، إلى قرية (سنادا) حيث طلبوا الحماية من شريفها (سيدى حميدو) الذى نصحهم بالإستسلام للفرنسيين .

وفي يوم ٢٧ مايو ١٩٢٦ م استسلم الأمير عبد الكريم وأخوه للقائد الفرنسى (كوراب)^(٢) وباستسلام عبد الكريم إنهارت المقاومة فى الريف - فكما يقول ولتر هاريس^(٣) « إن القبائل تشتت بعد إختفاء زعيمها » .

وفي مؤتمر عقد فى باريس فى ١٤ يونيو ١٩٢٦ م- تقرر نفى عبد الكريم وأخيه وأمهما وخالهما عبد السلام مع عائلاتهم (يبلغون خمساً وعشرين نسمة) إلى جزيرة ريونيون فى المحيط الهندى - ونقلوا أولاً إلى مارسيليا ثم إلى المنفى . وقد قضت والدته نحبها فى عام ١٩٢٦ م ، وفى عام ١٩٤٧ م سمع لعبد الكريم

(١) فورنو - مرجع سابق ص ٢٢٦ (نقلا عن مذكرات عبد الكريم)

(٢) اشتهر فيما بعد فى الحرب العظمى الثانية فقد كان قائداً للجيش الفرنسى التاسع الذى هزمه الألمان فى عام (١٩٤٠ م) فى موقعة سيدان الشهيرة .

(٣) المصطفى الريطاى السابق الإشارة إليه الذى كان شاهداً لهذه الأحداث .

وأُسرتَه بالإقامة في فرنسا ، وفي ٣١ مايو ١٩٤٧ م كانت الباخرة التي تقل الريفيين (كان عددهم قد وصل الى اثنين وأربعين) ترسو في ميناء بورسعيد وهبط منها الأمير وأتباعه ولم يعودا ، فقد طلبوا اللجوء السياسي في مصر ، وقد رحبت بهم مصر وجعلت للأمير ولأخيه مرتباً لمعيشتهما - وظل الأمير بمصر حتى وفاته في ٦ فبراير ١٩٦٣ م وهو في الواحدة والثمانين من العمر .

على أن المغاربة لم يلبثوا أن هبوا للكفاح في سبيل إستقلال بلادهم — وشهدت هذه الفترة ألواناً جديدة من الكفاح ، فبدأت تظهر الأحزاب التي تطالب بالإصلاحات الإجتماعية ، والأحزاب السياسية التي تنزع حركة مقاومة الإستعمار . وهذه الصفحة الرائعة من تاريخ المغرب المعاصر تحتاج لدراسة منفصلة ، ولكننا نشير هنا لبعض المعالم الهامة فيها .

فقد تألفت في عام ١٩٢٦ كتلة العمل الوطني ، وأصدرت بعض الصحف والنشرات للمطالبة بالإصلاح ولتوجيه الرأي العام المغربي في طريق الكفاح الجديد .

ولما نشبت الحرب الأهلية في أسبانيا — وعد (الجنرال فرانكو) المغاربة بالنظر بعين العطف لمطالبهم إذا تعاونت قواتهم مع قواته في القتال ضد قوات حكومة الجمهورية في برشلونه — لكن الوطنيين المغاربة كانوا يريدون تصريحاً واضحاً وصريحاً بالإستقلال (١) .

وقد حاول الفرنسيون ممارسة السياسة الإستعمارية المعروفة (فرق تسد) فأصدروا في ١٦ مايو ١٩٣٠ ما عرف (بالظهير البربري) بهدف إجماع التفرقة بين سكان جبال الأطلس وسكان السهول في الإدارة والتشريع وغير ذلك بدعوى أن الأولين بربر والآخرين عرب ، ولما ضيقوا الخناق على كتلة العمل الوطني ، اتجه الوطنيون إلى تكوين (الحزب الوطني) الذي أصبح يمثل شوكة حقيقية في جنب الإستعمار — خاصة بعد أن تعددت فروعه في أقاليم المغرب

(١) العقاد صلاح : المغرب العربي (القاهرة ١٩٦٦) ص ٣٩١ .

المختلفة وأصبح يهاجم الإستعمار علناً - حتى أن فرنسا اضطرت سنة ١٩٣٧م إلى القبض على رئيس الحزب الأستاذ علال الفاسي وأبعدته إلى الجابون ، بينما قبض على البارزين من أعضائه وأودعوا السجون والمعتقلات .

وأثناء الحرب العظمى الثانية (١٩٣٦ - ١٩٤٥ م) اضطرت فرنسا لإطلاق سراح المعتقلين ، وكانت وعود الدول المتحاربة أثناء الحرب والخاصة بحقوق أبناء المستعمرات في تقرير مصيرهم بأنفسهم - وذلك بهدف جذبهم للعمل في صفوف القوات المتحاربة - مشجعة للمطالبة بالإستقلال .

وبعد الحرب لجأت أسبانيا لمهادنة العناصر الوطنية في الريف للتقرب من الدول العربية . ويبدو أن أسبانيا وجدت نفسها بعد هذه الحرب في عزلة سياسية بسبب موقفها أثناء الحرب ، ونظامها في الحكم المطلق، فأرادت أن تثبت للدول الغربية وللولايات المتحدة الأمريكية أنها تستطيع أن تخدم مصالحهم في البلاد العربية بنفوذها وثقة العرب فيها .

وانتمز الوطنيون المغاربة الفرصة فأعلنوا عن تأليف (حزب الإستقلال) وتقدموا بعريضة بمطالب الأمة لجلالة الملك محمد الخامس^(١) . وكانت هذه المطالب تتلخص في إستقلال المغرب ووحدة ترابه وذلك في ظل ملكية دستورية .

ولعب الملك محمد الخامس دوراً سياسياً هاماً في صف الحركة الوطنية - فأعلن مساندته وتأييده للمطالب العادلة التي يطالب بها الشعب .

وقد هال الفرنسيين ما مسوه من إجماع الشعب والملك على المطالبة بالإستقلال الكامل- فألقوا التبعة على الأمير العام لحزب الإستقلال والبارزين منه واتهموهم بإتصالهم بدول المحور ، وزادت أعمال القمع هذه من اشتعال نار

(١) بومع في ٢٣ جمادى الأولى ١٣٤٦هـ / ١٨ نوفمبر ١٩٢٧ (بعد وفاة الملك يوسف بن الحسن).

الثورة ، وظهر تحيط فرنسا في كثرة تغيير وتبدل تمثلها في المغرب (المقيم الفرنسي) .

وزاد غضب فرنسا إثر زيادة الملك محمد الخامس لطنجة في عام (١٩٤٧ م) ، والخطاب الذي ألقاه بها مؤكداً التمسك بوحدة المغرب الجغرافية وبحقه في الحرية والاستقلال ، ومشيداً بجامعة الدول العربية ، وإعلانه أن بلاده جزء من الوطن العربي الكبير - فسحبت المقيم الفرنسي بالمغرب وعينت الجنرال جوان Jovan لينفذ السياسة الصارمة التي اختطتها لمواجهة هذا الموقف .

وسافر الملك محمد الخامس إلى باريس وعرض القضية المغربية على حكومة فرنسا موضعاً حقوق بلاده العادلة لكن لم يجد استعداداً لدى الفرنسيين لتقبل وجهة النظر المغربية فعاد لبلاده ليستمر في مساندته للحركة الوطنية .

وعبثاً حاول المقيم الفرنسي (الجنرال جوان) حمل الملك على التخلي عن مساندته (لحزب الاستقلال) والوطنيين المطالبين بالاستقلال ، وإعلان أنهم مثيرون شغب ، ومرة أخرى عزلت فرنسا مقيميها بالمغرب الجنرال (جوان) بعد أن فشلت سياسته في قمع الحركة الوطنية .

ولما أقدمت فرنسا في ٢٠ أغسطس ١٩٥٢ م على خلع الملك محمد الخامس من عرشه وأحلت (محمد بن عرفة) مكانه - ثارت ثائرة المغاربة ، واتجهت المقاومة اتجاهاً جديداً - فقد بدأت تظهر حركة المقاومة المسلحة بواسطة (جيش التحرير المغربي) وأدركت فرنسا أنها ستنتورط في حرب يخشى أن تدلح نارها في كل شبال أفريقيا الخاضع لسلطانها - فأسرعت في عام ١٩٥٦ م بإعادة الملك محمد الخامس إلى بلده لكنه اشترط أن تعترف فرنسا بحق المغرب في الاستقلال وأن يشكل حكومة تدخل مع فرنسا في مفاوضات لتحقيق هذا الهدف ولتحديد العلاقات الجديدة بين فرنسا والمغرب . وفعلًا تشكلت حكومة مغربية جديدة في ١٢ فبراير ١٩٥٦ وسافر وفد مغربي إلى باريس للتفاوض مع الفرنسيين . وسافر الملك بنفسه إلى باريس ليفتح هذه المفاوضات التي انتهت بالتصريح

المشترك الذى أعلن فى ٣ مارس ١٩٥٦ متضمناً الاعتراف الكامل باستقلال المغرب وحرية ووحدة ترابه وحقه فى التمتع بسيادته الكاملة ، وأن عقد الحماية المبرم فى ٣٠ مارس ١٩١٢ لم يعد بتلأم ومقتضيات الحياة العصرية ، وأنة لا يمكن من الآن فصاعداً للعلاقات الفرنسية المغربية أن تبقى خاضعة لمقتضيات بنوده^(١) .

وأعلن الملك للشعب المغربى وضع هذا الإتفاق موضع التنفيذ بتحرير السلطة التشريعية بما كانت مقيدة به ، وتكوين جيش مغربى وطنى ، وتخليص التمثيل الدبلوماسى المغربى من سيطرة المستعمر الأجنبى .

وبعد التسليم الفرنسى للمغرب أصبح مركز أسبانيا حرجاً — فقد كان وضعها فى المغرب مرتبطاً بمفاوضات ولإتفاقات مع فرنسا فأضطرت للخضوع للأمر الواقع . فاستدعت الملك المغربى للسفر لمدريد لنفس الغاية . وفى ٤ أبريل ١٩٥٦ سافر الملك محمد الخامس على رأس وفد لمدريد ، وفى ٧ أبريل صدر تصريح مغربى أسبانى مشترك متضمناً نفس المبادئ التى تضمنها التصريح المغربى الفرنسى . وعاد الملك إلى (تطوان) ليعلن من قاعدة المملكة فى الشمال — كما سبق أن أعلن من (الرباط) — وحدة التراب المغربى ، وأن العلاقات بين المغرب وأسبانيا تقوم على أساس المساواة الكاملة واحتماظ كل من الدولتين بسيادتهما على أن يقوم التعاون بينهما فى نطاق المصالح المشتركة مع ضمان حقوق الأسبان المقيمين بالمغرب .

وأعلن الملك محمد الخامس فى ١٧ أبريل ١٩٥٦ م عن تأسيس وزارة للخارجية المغربية ، كما أعلن عن تأسيس جيش مغربى وطنى لحماية الوطن وصيانة حدوده وشهد المواطنون فى ١٥ مايو من نفس العام أول إستعراض لهذا الجيش الوطنى .

(١) انظر التصريح بإملاء الكتاب .

وفي ٢٩ أكتوبر عام ١٩٥٦ م أعلنت الدول التي كانت تتولى إدارة منطقة طنجة — وهي (بلجيكا ، وإسبانيا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وهولنده ، والبرتغال ، والمملكة المتحدة) إلغاء نظامها الدولي ووضعها تحت سيادة المغرب على أن يمارس هذه السيادة ابتداء من أول يناير ١٩٥٧ م^(١).

وانضم المغرب بعد استقلاله مباشرة لمضوية هيئة الأمم المتحدة .
وهكذا طويت هذه الصفحة من الإستعمار الفرنسي الأسباني للمغرب العربي .

(٢) عودة ، عبد الملك : السيادة والحكم في أفريقيا (القاهرة ١٩٥٩) ص ٣٧٥ .

الباب الرابع

ليبيا والأطماع الاستعمارية

أنواع التعليم الحديث شيئاً ، وكانت خالية من أسباب الثروة إلا قليلاً من الزراعة على المطر ، وبعض الحيوانات ، وشجر النخل ، والزيتون مع خصب أرضها واستعدادها للإنبات وتربية الحيوانات ، وكانت خالية من الجنود وآلات الحرب وجميع وسائل الدفاع^(١) .

ويشارك د . خدورى فى إعطاء صورة دقيقة عن الأوضاع فى ليبيا قبيلى الاستعمار الإيطالى لها فى ذكره إن الحكم العثمانى فى ليبيا لم يكن محبوباً ، وما أكثر ما تحدث الناس عن ظلمات سوء الإدارة العثمانية . . وبسبب تأثير الليبيين بالدعوة الإسلامية الإصلاحية التى دعا إليها جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده من جهة ، والدعوة القومية التى حمل لواءها مصطفى كامل زعيم الحزب الوطنى فى مصر ، والصحافة المصرية من جهة ثانية - ظل الليبيون على ولائهم للوحدة العثمانية - لكنهم مثل غيرهم من رعايا الإمبراطورية المخلصين - كانوا يشعرون شعوراً عميقاً بالحاجة الماسة إلى إصلاح الإدارة الحكومية وتحسينها - ولذا فإنهم رضوا بالانقلاب العثمانى الذى قامت به تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ ، وأقاموا حكماً برلمانياً مثلك فى منطقتهما طرابلس ، وبرقة اللتان قاومتا أولئك الذين دعوا إلى الانفصال عن الوحدة العثمانية ، وترتب على هذا أن الحركة القومية فى ليبيا وغيرها من أقطار شمال أفريقيا لم تسكن رد فعل ضد السيادة العثمانية على نحو ماتم فى العالم العربى إلى الشرق من مصر - بل كانت متسقة تماماً مع السلطة العثمانية ومتعاونة معها^(٢) .

وبعد أن أصبحت الجزائر وتونس ومصر تسيطر عليها دول أوروبية مسيحية - فإن دعاة الجماعة الإسلامية والقوميين على السواء لم يروا فى الباب العالى خصماً - بل بالعكس رأوا فيه نصيراً للحركات القومية فى شمال أفريقيا - وهكذا كان الدين من أقوى الدعائم فى ظهور القومية وتطورها فى هذه المنطقة من العالم العربى . وكثيراً ما كان دعاة القومية فى شمال أفريقيا يستنجدون بسلطة السلطان الخليفة المقدسة لدعم القومية ومقاومة المناهضين والمعتدين عليها .

(١) الراوى ، الظاهر أحمد - مرجع سابق ص ٢٩ - ٣٠

(٢) عبيد ، خدورى : ليبيا الحديثة (ترجمة نيقولا زبادى ، مراحمه ناصر الدين الأسد -

أما من الناحية العسكرية فقد كانت القوة الدفاعية في ليبيا قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف - وإذا كانت الدولة العثمانية قد سارعت بعد إحتلال الفرنسيين لتونس بإرسال ١٠.٠٠٠ جندي إلى ليبيا لحمايتها مما أصاب تونس - بما أضطر الإيطاليين فعلاً لأن يؤجلوا إتخاذ الخطوة الحاسمة التي كانوا يرمعون لها - فإن الدولة العثمانية عادت فسحبت معظم قواتها من ليبيا للقضاء على ثورة اليمن - حدث هذا قبيل الغزو الإيطالي لليبيا بفترة قصيرة .

وبذكر الأمير شكيب أن الباب العالي حين فكر في سحب قواته من ليبيا لإرسالها إلى اليمن سأل حقي باشا الذي كان في ذلك الوقت سفيراً للدولة العثمانية في روما - هل هناك خوف من إيطاليا على طرابلس ؟ - فأجاب بالنفي ، وأنه يمكن للدولة أن تأخذ ما تشاء من حامية طرابلس لنجدة اليمن دون أن تخاف من الطليان أى ضرر .

وكان في ذلك الوقت في طرابلس ٤.٠٠٠ (بندقية) من نوع قديم فاسترجعتها الحكومة العثمانية على وعد بأن ترسل بدلا منها من النوع الحديث (موزر) لكنها لم ترسل شيئاً ، كما أخلت القلاع من المدافع والحرس فلم يبق في كل قلعة سوى ثلاثة من الجنود من غير ضباط بعد أن كان في كل قلعة ١٥ جندياً وضابطاً - ولم يبق في القطر الليبي كله إلا ألفاً جندي بعد أن كان فيه نحو عشرين ألفاً^(١) .

هكذا تخلى الاتراك العثمانيون عن واجبهم الأول في أن يسكملوا الثورة والقدرة على المقاومة في هذه الولاية التابعة لهم خاصة أن الخطر الذي تتعرض له لم يكن خافياً على أحد . فرجل الشارع في طرابلس كان يدرك أن التيارات الإستعمارية التي هبت على منطقة الشمال الأفريقي فأقتلعت أسباب الإطمئنان والحرية في الجزائر وتونس في طريقها إلى ليبيا أيضاً .

وكان على السنوسية - الحركة الدينية الفتية التي كانت - كما شرحنا في فصل سابق - قد أخذت تنتشر في رقعة وغيرها من أمحاء ليبيا بل وخارج حدودها - أن تواجه هذا الخطر الأوروبي الاستعماري - باعتبار أن مواجهة هذا الخطر والتصدى له في هذه الظروف كان دوراً من أدوار الجهاد المفروضة على المسلم .

إيطاليا تتمد لإستعمارها في ليبيا :

أما من جهة إيطاليا فقد كانت على العكس -- تتمد منذ زمن لتثبيت أقدامها في ليبيا -

وعلاقة إيطاليا بشمال أفريقيا لم تكن جديدة ؛ فهي ترجع إلى العصور القديمة حين مد الرومان نفوذهم إلى أفريقيا الشمالية حتى أن البحر المتوسط كان ينظر إليه على أنه بحيرة رومانية .

لكن منذ ظهور العرب كقوة في القرن السابع الميلادي -- نجحوا في مد نفوذهم إلى الشمال الأفريقي ، ورأينا في الفصول السابقة أن الأمر لم يقتصر على النفوذ السيامي فحسب بل حدث تغيير جذري ترتب عليه صبغ الشمال الأفريقي كله بالصيغة العربية .

ولم تنقطع صلة إيطاليا بشمال أفريقيا خلال تلك الفترة - فقد قامت خلال العصور الوسطى ، وأوائل العصور الحديثة - علاقات قوية بين بيزا ، وجنوة ، والبندقية ، وغيرها من الولايات الإيطالية التي نشطت في تلك العصور في ميدان الملاحة التجارية - وبين المدن الساحلية بالشمال الأفريقي ، وكان لجور البحر المتوسط القريبة لصقلية وسردينيا أيضاً خلال تلك العصور والعصور التالية نشاط واضح مع البلدان المطلة على البحر المتوسط .

وكان طبيعياً بحكم موقع إيطاليا وباعتبارها دولة من دول البحر المتوسط أن تتأثر بالتيارات المختلفة التي اجتاحت هذا البحر عبر العصور ، وأن تكون للأحداث الهامة التي تعرضت لها دول الشمال الأفريقي في تاريخها الحديث والتي تعرضنا لها في دراساتنا السابقة في هذا الكتاب - صداها في إيطاليا - ومشاركتها الفعلية في هذه الأحداث .

وحين اتجهت أنظار الدول الإستعمارية للشمال الأفريقى منذ بداية العصور الحديثة كانت إيطاليا بالطبع تتطلع لأن تلعب هى الأخرى دوراً فى هذا الميدان بحكم موقعها الجغرافى وبحكم صلتها القديمة التى أشرنا إليها بالمنطقة .

لكن ظروف إيطاليا تركت المجال لغيرها من الدول المنافسة لها فى شمال أفريقيا لتسبقها فى تحقيق أطماعها - فقد شغلت إيطاليا بتحقيق وحدتها^(١) .

وكان لإحتلال الفرنسيين لتونس فى عام ١٨٨١ م عميق الأثر فى إيطاليا - فقد أعتبر ضربة قوية لمصالح الإيطاليين فى البحر المتوسط ، وأدى لشعور بخيبة الأمل فى إيطاليا^(٢) .

ولعل هذا الشعور كان من أقوى العوامل التى دفعت الإيطاليين للعمل على بسط نفوذهم فى منطقة البحر المتوسط وشرق أفريقيا، مما ترتب عليه قيام مستعمرة (لارتريا) و (الصومال الإيطالى) واتجاه الأطماع الإيطالية إلى إثيوبيا ، ولم يوقفها عند حدها إلا هزيمتها العنيفة فى موقعة عدوه فى مارس ١٨٩٦^(٣) .

ولعل السؤال الذى يفرض نفسه علينا هو - لماذا لم تتخذ إيطاليا خطوة حاسمة فى ذلك الوقت لإحتلال ليبيا بعد إحتلال الفرنسيين لتونس مباشرة واتجه الإيطاليون لشرق أفريقيا لممارسة نشاطهم الإستعمارى وأجلوا - إلى حين - إتخاذ الخطوة النهائية فى ليبيا .

لعل عدة أسباب هى التى دعت إيطاليا لأن تتجه هذا الإتجاه. منها ما ذكرناه

(١) نودى بالملك فيكتور عمانوئيل (Victor Emmanuel) ملكاً على إيطاليا الموحدة فى فبراير عام ١٨٦١ م ، ولم تصم البندقية وروما إلى هذه الملكة إلا فيما بعد - فلم تكتمل الوحدة الإيطالية إلا عام ١٨٧١ م .

(٢) Safwat, M. : Tunis and the Great powers (1943)
P. 124.

(٣) لمن يريد التوسع فى دراسة دور إيطاليا فى شرق أفريقيا وإثيوبيا يرجع إلى :
شوقى الجبل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها (القاهرة ١٩٧٠) - ص ٥٠ :
٢٤٣ - ٣٦٨ .

(م ٢٤ - المغرب)

سابقاً من أن الدولة العثمانية بادرت بعد اعتداء فرنسا على تونس بإرسال تعزيزات إلى ليبيا - فرأت إيطاليا أن تتمهل إلى أن يحين الوقت المناسب حتى لا تصطدم مع الدولة العثمانية - خاصة أن هذا كان رأى حليفتها إنجلترا في ذلك الوقت .

والدليل على صحة هذا الرأى أن كريسي Francesco Crispi رئيس وزراء إيطاليا أرسل بعد إحتلال فرنسا لتونس - عدة رسائل إلى دول أوروبا - ومنها رسالة إلى اللورد سالسبورى Salisbury في إنجلترا . ويقال إن اللورد سالسبورى - رد عليه مقرأ بأن طرابلس الغرب ستكون بلا شك من نصيب إيطاليا ، لكن يجب أن يتمثل بذلك الصياد الماهر الذى يتحين المرمى ليتمكن من إصابة فريسته ولا تفلت منه ولو كانت مجروحة (١) .

ومن الأسباب الأخرى أن ظروف مصر وأملاكها في السودان وعلى سواحل البحر الأحمر ، وتطور العلاقات بين الدول الإستعمارية التى كانت لها أطماع في هذه المناطق في أفريقيا وفي مقدمتها إنجلترا وفرنسا وإيطاليا - شجعت إيطاليا على الاتجاه لشرق أفريقيا ، فقد كان نشاطها هناك يلقى تأييداً من إنجلترا التى رأت مصلحتها في أن تساند إيطاليا وتؤيد نشاطها في هذه الجهات وبذلك يمكن أن تتخذها حليفاً لها في المسألة المصرية . فقد كان الفرنسيون يضغطون على إنجلترا منذ احتلالها لمصر عام ١٨٨٢ م ويحرجونها للجلاء أو لتحدد تاريخاً معيناً لذلك - وظل الأمر كذلك حتى عقد الاتفاق الودى بين الدولتين (Entente Cordiale) عام (١٩٠٤ م) . وقد أشرنا إليه فيما مضى ، كما أوردنا نصوصه في ملحق هذا الكتاب . هذا بالإضافة إلى أن وجود إيطاليا في هذه المناطق بشرق القارة يمكن أن يكون درعاً لمقاومة توسع حكومة الدراويش بالسودان ، بالإضافة إلى تحقيق هدف آخر هو وقوف إيطاليا في وجه الأطماع الفرنسية في شرق أفريقيا (٢) .

على أن اتجاه إيطاليا هذا كان مجرد تأجيل للخطوة المترتبة في ليبيا . إذ أن إيطاليا

(١) الراوى : مرجع سابق ص ٢٧ .

(٢) Hollis, Christopher : Italy in Africa (London 1941)

كانت ترى في شمال أفريقيا - وايس في شرقها - المجال المناسب لتوسعها، ورات في التقارب بين ساستي إنجلترا وفرنسا واتفاقهما على تنازلي كل منهما عن الاخرى فيما يتعلق بمصر والمغرب الافصى - ما يضمن عدم معارضة أى من الدولتين لنشاط إيطاليا في ليبيا - ووصات إيطاليا إلى اتفاق مع روسيا (١٩٠٩م) تعهدت فيه إيطاليا بمساعدة طالب روسيا الاعتراف بحق سفنها في المرور من البوسفور والدردنيل دون أى قيد في مقابل مساعدة روسيا للأطباع الإيطالية في طرابلس - أما ألمانيا فلم تكن لها أطماع في ليبيا وكانت ترحب بتحقيق إيطاليا لأهدافها هناك . وهكذا كانت إيطاليا قد مهدت المناخ الدولي لقيامها بعمل حاسم في ليبيا .

أما في ليبيا ذاتها فقد كان الإيطاليون يعملون بنشاط للتمهيد لبسط نفوذهم شغلهم في الحياة الاقتصادية والعمرانية فيها .

ففى عام ١٩٠٥ م أسس في طرابلس فرع لـ (بنك روما) وقد حاول رجب باشا والى طرابلس (تولى الولاية ١٩٠٤م وبقي في منصبه نحو ست سنوات) معارضة تأسيسه لأنه أدرك أن مثل هذه المشروعات الاقتصادية ماهى إلا وسيلة لتحقيق أهداف سياسية أخرى - لكن حكومة الاستيانة أوعزت إليه بعدم التشدد خوفاً من القلاقل السياسية فأشنى البنك رغم أنفه وبدون إستصدار مرسوم من حكومة الاستيانة أو موافقة الحكومة المحلية - وانخذ الإيطاليون منه مركزاً للدعاية ، وأسندوا إدارته إلى (براشيانى) أحد دهاة السياسة . وكان رئيس البنك كثير التجول في ليبيا لبيت الدعاية المغرضة والإطلاع على أحوال البلاد ، وكان يبذل المال عن سعة ، وفي كل مناسبة . ويتصل بالاعيان يتخذ منهم أصدقاء وسهاراً .

كذلك أذنت الحكومة العثمانية للطلليان في إنشاء مكاتب للبريد الإيطالي وكانت هذه المكاتب منتديات يجتمع فيها سياسيو بنك روما لتدبير الخيل للتعجيل باحتلال طرابلس .

وفى عام ١٩٠٦ سمحت الحكومة العثمانية لإيطاليا بإرسال بعثة عسكرية من عدة ضباط تحت شعار إنها بعثة علمية للبحث عن الآثار ، وكانت المهمة

الحقيقية لهذه البعثة أن تضع الخرائط الحربية لجميع المناطق الهامة التي تمر بها .

هذا وقد وجد عدد كبير من أصحاب النعوذ في طرابلس - وظائف في بنك روما وأصبحوا يأخذون مرتبات منه حسبما يقدمونه من خدمات ضد وطنهم - وهكذا أصبحت لاطاليا شبكة من الانصار في جميع مصالح الحكومة الحيوية كالتمراف والتليفون والبريد ، وكان إذا استغنت حكومة طرابلس عن بعض الموظفين خطأ حسيم ارتكبوه في حق بلدهم أو لتصرف يتناق مع الأمانة في العمل وما يجب أن يلتزم به الموظف من الدقة والحرص على عدم إفشاء أى أسرار تتعلق بعمله تمس سلامة وطنه - يسرع بنك روما بتوظيفهم حتى أصبح كثير من الموظفين اللبيين يتصفون بعدم المبالاة إنكالا على حماية القنصلية الايطالية (١) .

وأفشا البنك مطبعة وجريدتين يتحدثان باسمه (ايكودى تريبل) و(استيلا) (Echo de Tripoli) و (Stela) .

وأنشات الحكومة الإيطالية المدارس في طرابلس ، وكانت تقبل التلاميذ بالجماع ، وكانت المدارس التركية تطرد بعض التلاميذ ، إما لقلة الامكنة أو لعجزهم عن دفع المصاريف فكانت المدارس الايطالية تلقاهم بالترحيب - ولم يكن هذا بالطبع غيرا على أبناء ليبيا بل مخططا محكماً لتحقيق أطماع إيطاليا التي أصبحت نفوذها واغتيا يتغلغان في ليبيا بشكل ملفت الأنظار (٢) .

وكان نشاط إيطاليا كبيراً في المشروعات الاقتصادية المعدنية وغيرها ، فقد أنهت شركة إيطاليا لاستغلال الفوسفات والتنقيب عن المعادن في ليبيا ، ونهبت الجرائد المحلية التركية والعربية مراراً مثل (تعميم جريت) التركية ،

(١) الراوى : مرجع سابق ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) عارض الوالى احمد راسم باشا معارضه شديدة لإنشاء المدارس الايطالية ، ومع ذلك فقد تخرج عدد كبير من هذه المدارس منهم اليهود وغيرهم ، وصار عدد منهم تجاراً يربطون معاملاتهم التجارية مع ايطاليا ، ومنهم الموظفون - وأصبح تعلم اللغة الإيطالية يفتح المجال للعمل والاثراء ، وقد ورد عدد المتكلمين بالإيطالية في طرابلس قبل الاحتلال الايطالى بـ ٣٠ ٪ من سكانها بينما لم يرد عدد المتكلمين بالتركية عن ٥ ٪ .

و د الترقى ، و د المرصاد ، و د أبوقشه ، العربية - إلى الأخطار المترتبة على ترك النفوذ الإيطالي يتغلغل وينتشر في البلاد بهذا الشكل - دون جدوى .

ووصل الأمر إلى أن الحكومة الإيطالية كانت تتدخل لمول الولاة الذين حاولوا الوقوف في وجه الاطماع الإيطالية .

حين أظهر إبراهيم أدهم باشا الذي تولى أمر الولاية في عام ١٩٠٩ م ، - اتجهاً إلى اصلاح الأحوال وطالب تركيا بإرسال كميات من السلاح ليدعم قوة ليبيا الدفاعية ، ووقف في وجه نفوذ بنك روما في طرابلس وتشعب نشاطه - طلبت إيطاليا عزله فعزل في سبتمبر ١٩١١ م .

وأرسلت إيطاليا في هذا العام بالذات ١٩١١ م ، بعثة عسكرية - من بين أعضائها ضباط من هيئة أركان حرب الجيش الإيطالي كانوا يرتدون الملابس المدنية وذلك لعمل الخرائط والصور اللازمة - وقد قيل إن البعثة مجرد بعثة جغرافية ، وعال تجوالها في مختلف أنحاء البلاد بهذا الستار العلبي - وظلت هذه البعثة تتجول في ليبيا حتى قامت الحرب ، وكان من بين أعضائها الكونت د سفورزا Count Sforza الذي اشترك فيما بعد في عام ١٩١٣ م في المفاوضات مع الزعماء الطرابلسيين - وقد قبض على بعض أعضاء هذه البعثة في أوائل الحرب في مارس ١٩١٤ م .

هكذا مهدت إيطاليا دولياً باتفاقها مع الدول التي بهما الأمر وداخلياً بدراسة الأوضاع في ليبيا ، والانتشار في مختلف الميادين والإرتباط بالعديد من الشخصيات الليبية الهامة ، فلم يكن أمام إيطاليا إلا أن تختار الوقت لتضرب ضربتها .

الحرب الليبية الإيطالية

والمقاومة الوطنية

تسلم حتى باشا رئيس الوزارة في سبتمبر ١٩١١ م من سفير إيطاليا دى مارينو ، عدة مطالب تقدمت بها إيطاليا منها ما يلي :

١ - خروج العساكر العثمانية من طرابلس ، وبنى غازى ، ودرنه .

- ٢ — تشكيل و جندرمه ، في هذه البلاد تحت قيادة ضباط من الطليان .
- ٣ — أن تكون إدارة الجمارك بأيدي موظفين من الطليان .
- ٤ — لا يمتنع وال لطرابلس إلا رضا إيطاليا وموافقتها .

وبعد ذلك تقدم السفير الإيطالي في ٢٧ سبتمبر ١٩١١ م بإصدار موقع عليه من (سان جوليانو) وزير الخارجية الإيطالية موجه إلى رئيس الوزارة العثمانية يعلن فيه أن إيطاليا قررت إحتلال طرابلس وبنى غازي لإحتلالا عسكرياً ، وأنه ينتظر ألا تصادف إيطاليا في إحتلالها هذا أية معارضة من الحكومة العثمانية - وبنى هذا الإجراء على أن الحكومة العثمانية أهملت إتخاذ الإجراءات لوضع حد لسوء النظام في طرابلس ، مما أضر بمصالح إيطاليا الواقعة على مسافة قصيرة من الشواطئ الليبية ، ولأن إيطاليا طالبت مراراً بمنحها إمتيازات اقتصادية فلم تستجب الحكومة العثمانية بل بالعكس وردت أخبار إلى الحكومة الإيطالية من قنصليتها في طرابلس وبنى غازي تفيد بسوء وضع الرعايا الإيطاليين وسائر الأجانب ، حتى أن عدداً كبيراً منهم هجر ليبيا . أضف إلى ذلك الوضع الذي ترتب على عمل تركيا على إرسال تعزيزات عسكرية إلى ليبيا - رغم أن الحكومة الإيطالية - نهت الحكومة العثمانية إلى النتائج السيئة لذلك .

وطالب وزير الخارجية الإيطالية رداً على الإنذار في أربع وعشرين ساعة^(١) .

والنظرة العريضة الإنذار الإيطالي تثير الدهشة ولا يكاد الإنسان يجد سبباً واحداً معقولاً مما ذكر في الإنذار يدعو لهذا العمل العدائي من قبل إيطاليا - وحتى الأسباب الشكلية التي قد تبدو لأول وهلة مبرراً لعمل عسكري من هذا القبيل لم يجهد إيطاليا نفسها لتضمنها إنذارها .

فهي تعتمد على أسانيد غريبه . فمن الذي يستسيغ أن من حق إيطاليا أن

(١) أنطونى الإنذار في ملحق الكتاب .

تحتل عسكرياً المدن الليبية لأن الدولة المسئولة عنها لم تعمل للنهوض بهذه البلاد ،
أو لأنها لم تمنح إيطاليا إمتيازات إقتصادية أو غيرها ، أو لأن الحكومة
المسئولة عن حماية البلاد وحفظ النظام بها أرسلت تعزيزات عسكرية لهذا
الهدف . والعجيب أن الإعتراض على إرسال تعزيزات عسكرية عثمانية يتعارض
مع الإدعاء الإيطالي الوحيد المتصل بحماية رعاياها وحفظ النظام . وعلى كل
فلسنا في حاجة لأن نحمد أنفسنا في تحليل هذا الإنذار ومدى جديته ، فهو
ولا شك من قبيل الأعمال التحسسية التي تقوم بها القوى الإستعمارية دون مراعاة
لأية قوانين دولية أو عرف أو ما شابه ذلك . فهي شريعة الغاب يفرض فيها
القوى نفوذها وسيطرته على الضعيف .

ولم نجد استغناء تركيا بالدول الكبرى للتوسط بينها وبين إيطاليا لتوافق
على قبول حل وسط يسون كرامة تركيا وتمنح إيطاليا بموجبة إمتيازات
هامة في الولاية التركية ، فأخذت إيطاليا توجه ضرباتها للأراضي اديبية منذ ٢٩
سبتمبر ١٩١١ م بينما بدأ الأسطول الإيطالي في ٣ أكتوبر ١٩١١ م - يطلق
مدافعة على ميناء (طرابلس إيداعاً) ببدء الحرب الليبية الإيطالية .

ويمكن إجمالاً تقسيم الحرب إلى دورين رئيسيين :

الأول - من عام ١٩١١ م الى عام ١٩١٧ م .

الثاني - من عام ١٩٢٣ م الى ١٩٣٢ م .

أما الفترة بينهما (١٩١٧ - ١٩٢٣ م) فقد كانت فترة هدنة واتفاقات
ومعاهدات - فرضتها الظروف الدولية .

أولاً - الفترة من ١٩١١ الى عام ١٩١٧ م

كانت الحملة الإيطالية على ليبيا تتألف من ٣٤.٠٠٠ جندي من المشاة ،
٦٣.٠٠ من الفرسان ، ٤٨ مدفع ميدان ، ٢٤ مدفع جبلي ، ولم يكن يتجاوز

عدد القوات الليبية ٥٠٠ ره رجل في طرابلس ، ٢٠٠ في برقة^(١) .

ومن هذا يتضح أن عبء الدفاع عن البلاد قد وقع منذ البداية على كاهل السكان الذين حولوا الحرب من حرب مع دولة استعمارية تريد التوسع على حساب امبراطورية هرمة - الى حرب عصابات لقي فيها الجيش الغازي مقاومة عنيفة لم يكن يتوقعها^(٢) .

وقد استطاعت القوات الإيطالية إحتلال طرابلس ، وطبرق ، ودرنه ، وبنى غازى ، والمحس ، ولم يكن هذا الإحتلال سهلاً فقد كلف الإيطاليين الكثير من التضحيات .

ويبدو أن الإيطاليين كانوا يعتقدون أن السنوسيين ليسوا على وفاق مع الدولة العثمانية ، ولذا فسوف يكونون يبعدين عن المعارك — لكنهم دهشوا حين وجدوهم يندفعون لقتالهم غير مباليين بالموت في سبيل الدفاع عن البلاد .

وقد انتظم أمر الدفاع عن برقة في أربعة معسكرات ، فتولى قيادة المعسكر الغربى د عزيز بك المصرى ، ومعسكر طبرق د أدهم باشا الحلبي ، ومعسكر درنة مصطفى كمال د أتاتورك ، ومعسكر الجبل د عبد القادر الغنای .

وقد خاص المجاهدون معارك طاحنة ضد الإيطاليين نذكر منها على سبيل المثال د معركة الضبط ، قرب درنة ، و د معركة الكوييفية ، قرب بنى غازى و د معركة الفويحات ، قرب بنى غازى أيضاً .

وفي طرابلس اضطر الايطاليون لأن يخوضوا معارك حامية عند بيرطراس ، و د قرقارش ، وغيرها من المواقع^(٣) .

(١) pritchard, Evans : The Sanusi of Cyrenaica (Oxford 1949) p. 108

— ملاحظة : يذكر نقولا زيادة أن القوة الثمانية لم تنعد ٢١٠ ٣ جندياً .

— انظر نقولا زيادة : مرحم سابق ص ٨١ .

وهذا الاختلاف في العدد لا يغير من الحقيقة وهي أن عبء الدفاع وطم على الأهالى ، وكما سرى أن العثمانيين انسحبوا نهائياً من الموقف

(٢) الشنيطى ، محمود : قضية ايديا (القاهرة ١٩٥١) ص ٤٨

(٣) شكرى ، دؤاد : السنوسية وميلاد دولة ص ١٢٥ — ١٢٦ .

لكن اضطرت تركيا للإنسحاب من الميدان لإشتعال الحرب البلقانية ، فأضطرت في أكتوبر ١٩١٢ م لعقد معاهدة أوشى «لوزان» مع إيطاليا وبناء عليها^(١) :

١ - تقرر أو توقف تركيا وإيطاليا القتال ، وتسحب الجنود والضباط الأتراك من ميدان القتال في طرابلس وبرقة .

٢ - صرح جلالة السلطان العثماني « محمد الخامس » بتنازله عن حقوقه في طرابلس وبرقة لأهلها ، ومنحهم استقلالاً داخلياً مطلقاً تاماً ، على أن يعين مثلاً له « بلقب نائب السلطان » يقوم بحماية المصالح العثمانية .

٣ - أصدر ملك إيطاليا بدوره منشوراً إلى أهالي ليبيا يذكر فيه أن بلادهم أصبحت خاضعة خضوعاً تاماً للسيادة الملكية الإيطالية - ويعفو فيه عن الليبيين الذين يخلدون للهدوء ، ويعدم بالحفاظ على الشعائر الدينية الإسلامية ، ويسمح لهم بذكر اسم السلطان في الصلوات العامة بصعته خليفة المسلمين .

وهكذا خرجت تركيا من ميدان القتال وصارت الزعامة السنوسية هي كل شيء في مقاومة المستعمرين الإيطاليين - والحقيقة إنه بهذه المعاهدة ينتهي الشطر الأول من الحرب الليبية الإيطالية - وقد تمكن فيه الإيطاليون كما ذكرنا من احتلال المدن الساحلية وبقوا محصورين فيها^(٢) .

وترتبت على هذه المعاهدة عدة نتائج :

١ - كان للصلح تأثير سيئ على الليبيين ، فقد كانت القوة المعنوية للحرب تعتمد على وجود الترك والعرب متساندين - وكانت الآمال مازالت معقودة على دولة الخلافة .

(١) ألحق بالمعاهدة ثلاث ملاحق ، واتفاق سري - انظر ملحق الكتاب .

(٢) ملاحظة : أحاط الإيطاليون طرابلس بسور وبقوا داخل هذا السور .

٢ — عقب هذا الصلح أسرع عدة دول أوروبية بالإعتراف بتبعية طرابلس وبرقة للطلبان^(١).

٣ — لم تحترم الدول إعتراف السلطان - بعد تنازله عن حقوقه الشرعية في البلاد - بحق الطرابلسيين في بلادهم ، وتسابقت كلها كما قلنا في الإعتراف بحق إيطاليا في طرابلس .

٤ — كان لتعدد تركيا في المعاهدة بسحب كل قواتها المسلحة من ليبيا في نظير أن يسلم الإيطاليون إلى تركيا جزر الدود يكانيز (Dodacanese) التي احتلتها إيطاليا أثناء الحرب - أثر الصاعقة على الليبيين لأنهم أدركوا أن الدولة العثمانية قد تخلت عنهم دون أن تعطيهم فرصة للإستعداد ، فكان عليهم أن يواجهوا المختص لبلادهم بأنفسهم وبقوتهم الذاتية .

٥ — لم يعترف الوطنيون بما تعنيه المعاهدة من إنتقال السيادة في البلاد من أيدي العثمانيين إلى أيدي الإيطاليين . فالولاء للسلطان العثماني كان قائماً على روابط دينية أكثر من أى شيء آخر .

وعلى العكس إعتبر السنوسيون أن هذا التنازل من السلطان عن سلطانه يعطيهم الحق في الإستقلال ، ولذا اعتبروا توقيع هذه المعاهدة بمثابة إعلان الإستقلال للإمارة السنوسية^(٢) . وترتب على هذه المعاهدة أن أصبحت ليبيا قيادتان : الأولى - في برقة وفزان - يتولاها السنوسيون ، والثانية في طرابلس يتولاها سليمان الباروني .

وقد استؤنفت الحرب في برقة بين السنوسيين والقوات الإيطالية - ونجحت هذه القوات في احتلال عدة مواضع (بنينة ، بومريم ، الأييار ، طوكره ، جردس العبيد ، البرج ، ومرسى سوسة) لكنها تكبدت خسائر كبيرة نتيجة حرب العصابات التي لجأ إليها السنوسيون .

(١) اعترفت بها إنجلترا في ١٩ أكتوبر ١٩١٢ ، وفرنسا في ٢١ منه ، ورومانيا في ٢٣

منه وتلتها عدة دول .

(٢) الدليل على ذلك إنه ما كان يصدر عن الجفويوب بعد هذه المعاهدة — كان يحتم

« بحاتم الحكومة السنوسية »

وشن الإيطاليون في أوائل عام ١٩١٤ م هجوماً شاملاً على السنوسيين في الجبل الأخضر واحتلوا عدة أماكن أخرى (العرقوب، أم شخب، الزويتية، إجدابية) .

وتعرضت برقة لموجة من الجفاف والقحط . وهاجم الجراد المزارع فانتشر الجوع والأوبئة بين السكان مما أدى لارتفاع نسبة الوفيات بشكل رهيب^(١) .

أما في فزان - فقد احتل الإيطاليون (مرزق) العاصمة لكنهم اضطروا لإحتلالها تحت ضغط هجمات المحامدين ، واندجبت قيادة فزان بعد ذلك مع قيادة برقة تحت سلطان السنوسيين^(٢) .

أما في طرابلس فقد أعلن الوطنيون استقلالها وقيام حكومة وطنية فيها بزعامة (سليمان الباروني) ، لكن لم يتطع الباروني أن يصمد كثيراً أمام الإيطاليين فغادر البلاد إلى الأسيتانه في نهاية عام ١٩١٣ م^(٣) .

وحين نشبت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨ م) اشتركت فيها إيطاليا إلى جانب الحلفاء - واشتركت تركيا بجانب المحور^(٤) .

وأضطرت بريطانيا مراعاة لحليفها إيطاليا حصار السواحل الليبية ومنع وصول أية إمدادات للمجاهدين الليبيين من مصر . وهكذا وجد الأتراك أنفسهم مرة أخرى في حرب رسمية ضد إيطاليا . وأصبح الأتراك لا يحشون إمداد أحمد الشريف بالذخائر الحربية التي كان بحاجة ماسة إليها هو وأتباعه ، كما كانت الغواصات الألمانية تمسّون أحمد الشريف وأتباعه بمحاجتهم من المؤن والذخيرة .

(١) تذكر بعض المصادر أرقاماً كبيرة لعدد الوفيات تصل إلى ثلثي سكان برقة - لكن لا نستطيع أن نتحقق من صحة ذلك .

انظر - Pritchard : Dp. Glt. P. 120

(٢) نقولا زيادة : مرجع سابق ص ٨٤ - ٨٦

(٣) الزاوي : مرجع سابق ص ١٧٩ .

(٤) انضمت إيطاليا إلى الحلفاء في نوفمبر ١٩١٥ ، وانضمت تركيا إلى ألمانيا في ديسمبر من نفس العام .

وأهم المعارك الحربية الليبية التي وقعت في هذه الفترة :

أولاً — واقعة القرضابية .

ثانياً — الحملة السنوسية على مصر .

واقعة القرضابية (١) :

أراد القائد الإيطالي السكولونيل (إمياني) أن يثار من هزائم الإيطاليين في فزان وأن يؤمن المراكز الساحلية التي كانت تتعرض لهجمات الثوار - فأعد جيشاً قتل إنه وصل إلى أربعة عشر ألف مقاتل - وكان مع الجيش الإيطالي بعض العرب الذين انضموا للإيطاليين منهم ، (رمضان السويحلي) زعيم مصراته . وجرت معاولات بين الوطنيين الذين تجمعت جموعهم قرب (سرت) وبين الإيطاليين الذين كانوا يريدون أن ينسحب الوطنيون إلى الداخل تاركين المدن الساحلية للإيطاليين ليأمنوا على وجودهم بها - ورفض الوطنيون شروط الصلح ، ووقعت الموقعة في ١٥ جمادى الآخرة ١٣٣٣ هـ ١٩١٥ م أبريل سنة ١٩١٥ م ، وقد تقرر مصير المعركة حين انقلب « رمضان السويحلي » ورجاله على الإيطاليين ، وكان يدبر لهذا الأمر ، وانجلي الموقف عن هزيمة مروعة للجيش الإيطالي فلم ينج منه إلا ٥٠٠ جندي . وجرح « السكولونيل إمياني » نفسه وفر إلى « سرت » تاركاً كميات كبيرة من الذخيرة والعتاد — وانتقم إمياني من زعماء العرب في سرت بأن أصدر أمره بقتلهم ، فأعمل جنوده فيهم قتلاً وأرسل الباقون أسرى إلى روما (٢) .

وكانت لهذه المعركة آثار عميقة دفعت في المقاومة الوطنية في ليبيا روحاً جديدة وأمدتها بشحنة ترمب عليها أن استمرت المقاومة ضد الوجود الإيطالي بعد ذلك لسنوات — وبعد هذه المعركة أضطر الإيطاليون إلى الجلاء عن

(١) القرضابية — بئر تقيم شرقي قصر سرت - اطر التفاصيل الدقيقة للموقعة — في :

الراوي : مرجع سابق ص ٢٠٧ وما بعدها

(٢) الأمير شكيب : حاضر العالم الإسلامي ٢٨ ص ١٥٠ .

« مصراته » ، في ٥ أغسطس ١٩١٥ م بعد أن ضيق رمضان السويحلي الخناق عليهم بها — وألف السويحلي إدارة خاصة لحكم مصراته .

الحملة السنوسية على مصر :

يرجع السبب في هذه الحملة الى أن تركيا وألمانيا أرادتا استغلال نموذ السيد أحمد الشريف في برقة وحركة الجهاد القائمة فيها في إحداث ثورة على حدود مصر الغربية ضد الانجليز لشغل أكبر عدد ممكن من الجيوش الانجليزية وذلك بهدف إنجاح حملة تريد الدولتان القيام بها على قناة السويس — فأرسلت تركيا وألمانيا في سنة ١٩١٥ بعض رجالاتها للإتصال بالسيد أحمد الشريف والمجاهدين في برقة . وكان ضمن من أرسل لهذا الغرض « نوري بك ، أخو أنور باشا ، وسليمان الباروني وعبد الرحمن عوام .

وقد أرسل السلطان حسين كامل في سبتمبر ١٩١٥ م الى السيد / أحمد الشريف وقدأ على رأسه السيد محمد الشريف الادريسي ينصحه بعدم الانزلاق في الإنضمام للاتراك والألمان ، وكذلك حمل هذا الوفد معه كتابا من السيد « هنري مكماهون ، نائب ملك إنجلترا في مصر ، ومن قائد جيش الاحتلال الانجليزي بها يعدهانه — اذا التزم الحياد — بالتدخل للتوفيق بين الليبيين والاطالين والمساعدة على أن تنال ليبيا استقلالها^(١) .

ويبدو أن السيد أحمد الشريف تورط في هذه الحرب التي استنفذت طاوات المجاهدين الليبيين دون طائل .

وفي ١١ ديسمبر ١٩١٥ م استولى المهاجمون من السنوسيين وغيرهم على السلوم ثم مرسى مطروح .

لكن ظهر عجز السنوسيين عن الحصول على ما يحتاجونه من طعام ومؤن ، وبدأ الإنجليز يضيقون عليهم الخناق . فلم يلبث أن استرد الإنجليز مرسى

مطروح ، وفي ٢٩ فبراير ١٩١٦ م حدثت معركة فاصلة انجلت عن هزيمة السنوسيين ، واحتل الإنجليز سيدى برانى ، ثم استردوا السلوم في ١٤ مارس ١٩١٦ م — وأنتقل السيد أحمد الشريف مع بعض رفاقه الى سيوه . وفي ٨ فبراير سنة ١٩١٧ م ضيق عليه الانجليز الخناق فأضطر للهرب مع رجاله الى الجغبوب .

وقد أدى تورط السيد أحمد الشريف في هذه الحملة الفاشلة الى وقوع خلاف بينه وبين ابن عمه ، إدريس السنوسى ، الذى كان يميل الى مصادقة الانجليز - وتنازل له أحمد الشريف عن القيادة السياسية والعسكرية للسنوسية مكثفياً بالزعامة الدينية .

وأضطر أحمد الشريف - تحت ضغط الإنجليز الذين هددوا بمهاجمة الجغبوب إن بقي بها - الى أن يغادرها الى طرابلس الغرب ، ومنها نقلته غواصة ألمانية الى الاسيطة . ومنها سافر الى الججاز حيث وافته المنية بها في عام ١٩٣٣ م .

ثانياً — فترة المفاوضات بين السنوسيين والايطاليين والبريطانيين

« ١٩١٧ — ١٩٢٣ »

اتفاقية الزويتينه ، ومعاهدة عكرمة :

كانت ايطاليا في هذه الفترة قد انهكتها الحرب ، كما كانت تعاني من الإضطرابات الداخلية ، ولذلك فقد كان يهمها أن تصل الى اتفاق مع السنوسيين يكفل لها الهدوء في ليبيا ، بينما كانت انجلترا حريصة على أن تصفى المشاكل على حدود مصر الغربية ليمكنها نقل قواتها من هذه الحدود الى أماكن أخرى .

أما إدريس السنوسى فقد كان يرجو فتح ميناء السلوم الذى كانت تأتي عن طريقه المؤن للسنوسيين وسكان برقة عامة ، وان كانت الغواصات الألمانية تنجح بين حين وآخر في إمداده ببعض ما كان بحاجة إليه بهدف تشجيعه على الإستمرار في مقاومته الإيطاليين .

وجرت مكاتبات بين السيد ادريس السنوسى والإنجليز واليطاليان وبناء عليها تمياً الجو للمفاوضات .

جرت المفاوضات فى الزويتينية بين السيد ادريس والوفد الإيطالى ، بينما كان الوفد الإنجليزى ومعه أحمد حسنين بك يقوم بمهمة التوفيق بين الطرفين . واستمرت المفاوضات حتى أواخر سنة ١٩١٦ م .

وأستؤنفت المفاوضات فى أوائل سنة ١٩١٧ م فى عكرمه وبالقرب من طبرق وانتهت بمعاهدة « عكرمة » التى وقعت فى ١٤ أبريل سنة ١٩١٧ م^(١) :

وبموجب هذه المعاهدة :

١ — اتفق السيد ادريس مع الوفد الإيطالى على إنهاء حالة الحرب بين الطرفين .

٢ — اعترف الإيطاليون بالإمارة السنوسية للسيد ادريس على أن تشمل « جالو ، وأوجلة ، والكفرة ، والجنيوب » .

٣ — يحتفظ الإيطاليون بما بأيديهم من مدن برقة وقراها ، ومن الأراضى الساحلية .

٤ — لا يعتدى طرف على حدود الطرف الآخر ، ولا يفتش أحد من الطرفين مراكز حرية جديدة .

٥ — تعاد الزوايا السنوسية وتملكاتها إلى أصحابها ، وبدفع الإيطاليون مرتبات شيوخ الزوايا الموجودة فى منطقتهم .

٦ — تجرد القبائل من السلاح فى فترة اقصاها العام ، وتحل المعسكرات الساوسية فى تاريخ يحدد فيما بعد .

(١) وقم على المعاهدة كل من الاميرالاي دويتا ، والسكومانديتور لويجى بنتور ، وعمد ادريس المهدي السنوسى - انظر .

— الراوى شرح سابق ص ٢٦٨ - ٢٧٢ .

Pritchard : Op. cit p. 131

وكذلك .

ولم يكن من الصعب الوصول لإتفاق بين السنوسيين والإنجليز بعد ذلك فقد قبل السيد إدريس إعادة الأسرى جميعهم إليهم ، وتقرر استئناف العلاقات التجارية بطريق الساحل المصرى ، ولم يسمح بإقامة زوايا سنوسية في مصر ، لكن الزكاة كانت تجمع من أتباع السنوسيين المقيمين في مصر — وعهد إلى السيد إدريس بإدارة واحة الجغبوب ، مع أنها كانت واحة مصرية .

اتفاقية الرجة (٢٥ أكتوبر ١٩٢٠ م) :

خرجت إيطاليا من الحرب العالمية الأولى — منهكة القوى في الداخل وعاجزة عن إرسال قوات إضافية لتأكيد سيطرتها الفعلية على ليبيا — ولذا فكرت في أن تعدل سياستها في ليبيا بحيث تتماشى مع السياسة الجديدة مع ما أعلنه ولسن من حق الشعوب في اختيار الحكم الذي ترضيه ، ولإرضاء الليبيين المطالبين بالحكم الذاتي وبهذا يمكن — كما اعتقدت إيطاليا — أن تحكم ليبيا دون اللجوء إلى القوة .

وقد عبر عن ذلك وزير خارجية إيطاليا — كارلو شانزر Carlo Schenzer بقوله : بدا لحكومتنا أن الوقت قد حان لتجربة التعاون المباشر مع أبناء البلاد يعطون حقوقاً سياسية ومدنية كانت من قبل محدودة برأى الحكومتين المركزية والمحلية (١) .

وتنفيزاً لهذه السياسة أعد في ٣١ أكتوبر ١٩١٩ م قانونان أساسيان مختلفان أحدهما لبرقة ، والآخر لمنطقة طرابلس .

فكان لكل ولاية منهما برلمانها الخاص ، ومجلس حكومتها ، وبجانبها المحلية . وفيما يتعلق ببرقة كان برلمانها من ستين عضواً أكثرهم من زعماء القبائل الذين انتخبهم أتباعهم ، بالإضافة إلى ثلاثة أعضاء يمثلون الجالية الإيطالية . وكان هذا البرلمان ينظر في الضرائب المباشرة ، ويبحث في المنافع العامة ، ويناقش

الإدارة الإيطالية في المسائل الإدارية ، وكانت تعرض عليه اللوائح التي تتعلق بتطبيق القانون الأساسي - لكن في الفترة من أبريل ١٩٢١م حتى مارس ١٩٢٣م . حين حل هذا البرلمان بعد قطع إيطاليا علاقاتها مع السيد ادريس ، لم يعقد هذا البرلمان سوى خمس جلسات (١) .

وبناء على هذه العلاقات الجديدة بين الإيطاليين والسنوسيين عقدت إتفاقية جديدة لتحديد بدقة العلاقات السياسية والحربية بين الطرفين . وهذه الإتفاقية هي - إتفاقية الرجة التي عقدت في ٢٥ أكتوبر ١٩٢٠ م . وبموجب هذه الإتفاقية (٢) :

١ - منح السيد ادريس لقب (أمير) بحيث يكون وراثياً في أسرته ، وأعترف به رئيساً لحكومة ذات استقلال ذاتي تدير الأجزاء الداخلية من برقة التي تشمل (واحات الجغبوب ، وأوجله ، وجالو ، والكفرة) على أن يتخذ (اجداية) مقراً لحكومته .

٢ - خصصت للسيد ادريس علاوة شهرية شخصية وعلاوة لأسرته . وأصبح له حق أن يكون له علم خاص به وحق استعمال باخرة رسمية ، ووعد بمساعدات مالية تغطي نفقاته وأخرى لشيوخ القبائل .

٣ - تدفع إيطاليا مرتبات جميع الموظفين الوطنيين والقضاة وغيرهم من الذين يقومون بأعمال مختلفة .

٤ - يسمح للسنوسيين بالإحتفاظ بسلاحهم ، وأن ينتخبوا من يمثلهم في البرلمان المحلي ، وأعفيت أراضيهم من الضرائب .

٥ - يقتصر الجيش السنوسي على ألف من الرجال على أن يصمى السيد ادريس في خلال ثمانية شهور - الأدوار السنوسية ، وجميع المنظمات العسكرية والسياسية المتعلقة بها في المناطق الواقعة خارج حكومته .

٦ - صرح للسيد السنوسي بجمع الزكاة من أتباعه .

(١) ضروري مرجع سابق ص ٢٩ .

(٢) الزاوي : مرجع سابق ص ٢٧٢ - ٢٧٨ .

ويلاحظ أن هذه الاتفاقية مع أنها اعترفت بالسيد السنوسي كحاكم مدني بالاضافة الى زعامته الدينية — فإن إيطاليا لم تقصد بالطبع وضع السلطة بيده أو الاعتراف به سياسياً — بل إن كثيرين يرون في الاتفاقية محاولة من إيطاليا لشراء الهدوء وصمت السنوسيين بما تقدمه من أموال بالاضافة الى أن المعاهدة تعنى اعتراف الأمر السنوسي بفصل برقة عن طرابلس ، ولذا كان قبوله لها موضع نقد الكثيرين .

وبدأت المشكلات بين الطرفين حين لم ينفذ السنوسيون ما تعهدوا به من حل (الأدوار) في غضون المدة المحددة . وتذرع السيد إدريس بأن المحافظة على النظام في منطقته الإبقاء على الأدوار .. وقد حاول الحاكم الإيطالي دى مارتينو حل الإشكال فعمد لاتفاقية أخرى (اتفاقية بومريم) في ١١ نوفمبر ١٩٢١م مع السنوسيين اتفق بموجبها أن تدار الأدوار بالمشاركة إلى أن يتم تصفية هذه المعسكرات (أى وجود جيش مشترك) في هذه الجهات .

وقد ظل الوضع بين السنوسيين والإيطاليين هكذا حتى نولى (موسوليني) السلطة فوضع حداً لسياسة التقرب مع السنوسيين ومحاولة إسترضائهم وأعلن إقرار السلام عن طريق الفتح العسكرى . وبناء على ذلك حل الإيطاليون (في ٦ مارس ١٩٢٣) الجيش المشترك وأسروا الجنود السنوسيين فيه ، وعين موسوليني حاكماً جديداً في ليبيا هولوبجى بنجيوفانى وأعلن أن جميع الاتفاقيات التى قامت بين إيطاليا والسيد إدريس أصبحت ملغاة .

وبهذا فتحت صفحة جديدة من الكفاح بين الليبيين والإيطاليين .

قيام الجمهورية الطرابلسية :

وفىما يتعلق بطرابلس — كان سليمان البارونى قد عاد فى عام ١٩١٥ بوصفه حاكماً جديداً لبلاده وأستأنف الجهاد ضد إيطاليا وظل كذلك إلى نهاية الحرب .

وفي نوفمبر ١٩١٨ م عقد في (مسلاته) اجتماع وطني أعلن على أثره عن قيام الجمهورية الطرابلسية ، واختير أربعة أعضاء لتولي الأمر (الباروني ، السويحلي ، بلخير ، عبد الرحمن عوام) إذ لم يتفق المجتمعون على رئيس واحد للدولة .

وقد وافقت إيطاليا — اتباعاً لسياسة المسالمة في ذلك الوقت — على الاعتراف بنظام الحكم الجديد في طرابلس ، وأن تحكم البلاد بالتعاون مع السلطات الوطنية فيها في ظل القانون الأساسي لطرابلس الذي أصبح لها بموجبه برلمان خاص كبرلمان برقة .^(١)

مؤتمر غريان :

كان الطرابلسيون يرون أن لاتفاق السيد إدريس مع الإيطاليين الذي بموجبه أصبح أميراً على برقة . . بل على أجزاء بسيطة منها - يعني توجيه ضربة قاصمة لوحدة القطر الليبي - ولذا عقدوا مؤتمراً في (غريان) اتخذوا فيه قرراً هاماً وهو : إن الحالة التي آلت إليها البلاد لا يمكن تحسينها إلا بإقامة حكومة قادرة ، ومؤسسة على ما يحقق الشرع الاسلامي ، يزعمه رجل مسلم ينتخب من الأمة ، ولا يعزل إلا بحجة شرعية وإقرار مجلس النواب - وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية بأكملها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها ، وأن يشمل حكمه جميع البلاد بمحدودها المعروفة - من حدود مصر شرقاً إلى حدود تونس غرباً . ،^(٢)

واعتزم الطرابلسيون أن يحققوا هذه الوحدة وأن يجعلوا الطليان أمام الأمر الواقع ، فاتفقوا على إمارة السيد إدريس ، وأرسلوا إليه وفداً يدعوه إلى طرابلس ليبايعوه الإمارة - فأظهر الأمير تردداً لما كان بينه وبين الطليان من علاقات حسنة - فإكان منهم الا أن كتبوا وثيقة البيعة بالإمارة بتاريخ ٢٨

(١) ضروري : مرجع سابق ص ٣٢ - ٣٤ .

(٢) الزاوي مرجع سابق ص ٢٨٤ ، ص ٢٢٢ وما بعدها .

يوليو ١٩٢٢ م ، وأرسلوها الى السيد إدريس في (اجدابه) مع ممثل هيئة الاصلاح المركزية وهي التي كانت تدير شؤون المجاهدين - فقبلها و وعد بتنفيذ ما جاء فيها من شروط الوحدة ، والشورى ، ومواجهة العدو صفوا واحداً في طرابلس و برقة (١) .

ولم يلبث السيد إدريس بعد ذلك أن غادر البلاد في ديسمبر ١٩٢٢ م متعللاً بسوء حالته الصحية رفقة قافلة إلى القاهرة عن طريق الجغبوب وتبعه عدد من زعماء القبائل البارزين ، وقد بقي بعضهم معه في المنفى حتى تحررت البلاد .

ثالثاً - الفترة من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٢ م :

منذ أن تقلد موسوليني زمام الامور في ايطاليا - في نهاية أكتوبر ١٩٢٢ م - اتجه - كما ذكرنا - الى اخضاع ليبيا بقوة السلاح . ولتحقيق هذا استولى الايطاليون في ٦ مارس ١٩٢٣ م على المعسكرات المختلطة .

وفي أول مايو ١٩٢٣ م - أعلن الحاكم الإيطالي الجديد بونجوفاني Bongiovanni بطلان كل معاهدات الصلح والاتفاقيات المعقودة مع السنوسيين - وكان هذا بمثابة إعلان لبداية حرب جديدة بين الطرفين .

كانت ايطاليا في ذلك الوقت قد ثبتت أقدامها في المدن الهامة ، كما أنها كانت في سلام مع العالم ، وكان في مقدورها أن تبعث الى ليبيا بقوات كبيرة مزودة بأسلحة حديثة - لكن المجاهدين الليبيين وجدوا زعيماً قديراً - بعد رحيل السيد إدريس الى مصر - استطاع أن يقودهم في حرب عصابات أنهكت الإيطاليين بحق وكبدتهم خسائر فادحة - هو ، عمر المختار ، (٢) .

(١) الشنيطي ، محمود : مرجع سابق ص ٩٤ ، ٩٥ ، ضروري ص ٣٤ .

ومن خطاب البشة ورد الأمير عليه موجود في :

الراوي : ص ٤٧٥ - ٤٦١ .

(٢) ولد عمر المختار و رفقة عام ١٨٠٢ م من أسرة (مرحان) التي تنتمي إلى قبيلة المنعة ، وتلم في الزوايا الدينية ، وعمل تحت إمرة السيد أحمد الشريف واشترك في ١٩١١ م في قتال الإيطاليين ، وكان عمره حين تولى القيادة العامة للحركة سبعمائة قرناً .

انظر - حدودي : مرجع سابق ص ٢٦٠ .

وكان قد تبع السيد لإدريس الى القاهرة - لكنه لم يلبث أن عاد - ويدعو أن ذلك كان بالاتفاق مع السيد لتولى قيادة حركة المقاومة ضد الغزو الإيطالي .

وترتب على حرب العصابات ، وحرص المجاهدين على عدم الدخول مع الإيطاليين في معركة حاسمة أن شعر الإيطاليون أنهم يحاربون شعباً بأسره وليس جيشاً - وقد عبر القائد الإيطالي تيروزى Terruzzi عن ذلك بقوله :

« إننا نحارب عدواً ليس له شكل متماسك ، مما جعلنا على أهبة الدفاع باستمرار ، وكان الثوار مثل النار يمكن أن يظهروا اليوم في مكان وغداً على بعد خمسين كم منه ، واليوم الذي يليه على بعد مائة متراً وهكذا .. ولذلك فإن خمسة أو عشرة آلاف من جنودنا غير كافين ضد مائتين أو خمسمائة من الثوار ، (١) .

وكان هجوم الثوار عادة بالليل حيث كانوا يفاجئون عدوهم في أرض وعرة يعرفون مسالكها كل المعرفة - حتى أن بعض الكتاب ذكروا أنه كانت في هذه الفترة في ليبيا سلطتان هما سلطة الإيطاليين في النهار ، وسلطة السنوسيين ليلاً .

رقد نظم عمر المختار المجاهدين معه على حسب قبائلهم ، فجعل لكل قبيلة فرقة باسمها يساعدوها عدد من الإخوان وعلى رأس كل فرقة قائد ، وقائد قام للشئون المدينة ، رفاض للشئون الدينية والقانونية ولها علم سنوسي (٢) .

وإذا كان الإيطاليون قد ميزوا بين سكان السواحل الذين تظاهروا بالخضوع لهم وبين الثوار الذين ناصبهم العداء - فإن الواقع - كما قال جرازيانى نفسه Graziani « إن جميع الأهالي في ليبيا اشتركوا بطريق مباشر أو غير مباشر في الثورة - بل لقد كان لعمر المختار عملاء في كل مركز إيطالي (٣) .

ملاحظة . عين تيروزى حاكماً لبرقه في عام ١٩٢٧ .

(٢) الشنيدى محمود : مرجع سابق ص ١٥٤ .

ولذا فكثيراً ما تعرضت البيوت والمتاجر ومضارب القبائل وغيرها للتمشيش حتى في المناطق الهادئة ، وكان الإيطاليون ينزلون العقاب الحديد بكل من يشبث أن له صلة بالثوار .

وكان السيد عمر المختار على اتصال دائم مع السيد محمد إدريس في مصر ، وكان يتلقى منه الذخائر والسلاح والمؤن والمعونات بقدر ما تسمح به ، الأحوال فقد كان بوسع إيطاليا أن تبث عيونها ورجالها لتحول دون وصول أية إمدادات للثوار .

ولجأت إيطاليا في هذه المرحلة من الحرب إلى أعمال الإبادة والقتل ، وحرقت المضارب ، وإتلاف الغلال ، وقتل المواشي أو مصادرتها بدون تمييز . واستخدمت في ذلك الطائرات لضرب الأهالي من الجو . ونجح الإيطاليون في احتلال العديد من المدن الصغيرة والمتفرقة سواء في الجبل الأخضر أو طرق أو غيرهما ولكن في الواقع ظلت سلطتهم لا تعدى المراكز التي يقيم فيها الجند .

وفي فبراير عام ١٩٢٦ م نجحت إيطاليا في احتلال (الجغبوب) رامية من وراء ذلك إلى كسر معنويات المجاهدين — لكن ذلك لم يزدحم الا تصميماً على القتال (١) .

وحين عين بادوليو Badoglio في عام ١٩٢٨ حاكماً عاماً لليبيا أعلن لأهل ليبيا ، إنه يجيزهم بين الإستسلام التام دون قيد أو شرط وبين أن يبادوا عن بكرة أبيهم ، وعقدت هدنة بين عمر المختار والإيطاليين رغبة في الوصول إلى صلح دون جدوى . ووجد عمر المختار ألا مفر من مواصلة الحرب إلى النهاية . ولذا وجه نداءه المشهور — يحث فيه المجاهدين على مضاعفة الجهد . (٢)

(١) نقولا ، زيادة : مرجع سابق ص ١٠٧ .

(٢) نشرته بعض الصحف المصرية في ٢ يناير ١٩٢٩ .

وحين وصل جرازياى Graziani إلى بركة في مارس ١٩٣٠م بدأت صفحة جديدة من الحرب الليبية الإيطالية . فقد كان مصمما على وضع حد للمقاومة الوطنية . ولتحقيق هدفه عمد إلى أن يحول دون وصول أية إمدادات للمجاهدين من بقية السكار أو من الخارج . ولذا وزع على الجند المرقاوى العامل مع الإيطاليين نوعاً مغايراً ويميزاً من البنادق، وكان يلقي القبض على كل من يعرف أنه ساعد أحد المجاهدين ، وأوجد ما أطلق عليه اسم (المحكمة الطائرة) وهي محكمة عسكرية ينتقل أعضاؤها بالطائرة لمحاكمة من يلقي عليه القبض بتهمة التعاون مع الثوار .

وأغلق جرازياى الزوايا السنوسية وصادر أملاكها ، وملا معسكرات الإعتقال بمن يشك في انتمائهم أو عطفهم على الثوار، وأقام حاجزاً من الأسلاك الشائكة المكهربة بين مصر وليبيا بطول ثلاثمائة كيلو متراً يبدأ من البحر شمالاً إلى الجغبوب جنوباً لمنع تسرب أية أسلحة من مصر للمجاهدين .

وفي يناير ١٩٣١م سقطت (الكفرة) في يده ورفع العلم الإيطالى على القبة حيث يوجد نعش السيد المهدي السنوسى فكان في ذلك إذلالاً — من وجهة نظره للسنوسيين — مابعد إذلال — وفر عدد كبير من سكان الكفرة إلى واحة سيوه والسودان المصرى والحوينات وغيرها .

ورغم أن الإمدادات أخذت تقل وينضب معينها ويندر ورودها للسنوسيين - فقد استمر عمر المختار في جهاده حتى وقع أسيراً في يد الجنود الإيطاليين على مقربة من سيدى رافع ، (الزاوية البيضاء) في ١١ سبتمبر ١٩٣١م . فأودع السجن ، وحين بلغ الثبا جرازياى وهو في إيطاليا — أسرع بالعودة ، وأمر المحكمة الطائرة بالانعقاد في ١٥ سبتمبر ١٩٣١ وعقدت المحكمة جلسة استمرت ساعة وربع ساعة ، وأصدرت بعدها حكماً على عمر المختار بالإعدام - فأعدم

رغم شيخوخته ، ورغم أنه كان جريحاً في الساعة التاسعة من صباح يوم ١٦ سبتمبر ١٩٣٩ م . وكا ، ذلك إبداناً بإنهاء المقاومة إلى حين . (١)

انهارت المقاومة الوطنية بعد قتل عمر المختار وخضعت البلاد كلها للإيطاليين لكن هاجر عدد كبير من الليبيين إلى تونس ومصر وسورية ولبنان . وقد تأسست في سوريا برئاسة بشير السعداوى (جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوى بالشام) — وقد وضعت هذه الجمعية ما أطلق عليه اسم (الميثاق الوطنى) .

كما أن نشاط الليبيين في مصر تركز حول السيد محمد إدريس - وإن اقتصر الجهد في البداية على الكتابة في الصحف حول القضية الليبية .

لكن لما أعلنت الحرب العالمية الثانية ، ودخلت إيطاليا الحرب ضد الحلفاء بدأ العمل الجدى . وقد دعا الأمير محمد إدريس إلى اجتماع عقد في أغسطس ١٩٤٠ م بالقاهرة وأصدر المجتمعون الذين أطلقوا على أنفسهم اسم (الجمعية الوطنية الليبية) بياناً أعلنوا فيه وضع ثقتهم في بريطانيا العظمى ، وخوض الحرب ضد إيطاليا بجانب جيوشها — وإعلان الثقة بالأمير محمد إدريس المهدي المبايع له بالإمارة على برقة وطرابلس ، وتعيين هيئة تنفيذ ، وحكومة سنوسية مؤقتة ، على أن يتصل الأمير بالحكومة البريطانية لطلب المخصصات اللازمة للتعجيل ولإدارة الحكومة (٢) .

وأقيم معسكر للتدريب في (إمبابة) بمصر تدرب فيه الكثيرون وساهموا مع جيوش الحلفاء .

وفي فبراير ١٩٤٢ م — أخرج الحلفاء الإيطاليين نهائياً من ليبيا .

(١) نقولا رياده مرجع سابق ص : ١١١ .

أورد جزارباني في كتابه (برقة التي نجت من تهديتها) الحوار الذي دار بينه وبين عمر المختار بعد أن انتهى بعد أن انتهى به بعد انقبضة عليه .

— انظر مشكري : السنوسية دين ودولة ص ٣١٤ — ٣١٦ .

وكذلك رواية الدكتور العنبري عن محاكمة المختار ص ٣١٨ - ٣١٩ .

(٢) انظر نص القرار في :

نقولا رياده : مرجع سابق ، ١١١ ، ١٢٠ .

وأعقب ذلك إقامة ثلاث إدارات فيها هي : إدارة برقة ، وإدارة طرابلس وإدارة الفوان - وتولت بريطانيا إدارة الأقليمين الأولين ، بينما عهد لفرنسا بإدارة الإقليم الثالث .

وبعد إجتلال الحلفاء للبلاد نشطت الحركة السياسية - وأخذت الأحزاب السياسية تظهر مطالبة بالاستقلال ووحدة البلاد .

وتسجل هذه الفترة - صفحة جديدة من كفاح الليبيين في سبيل الاستقلال لها مميزاتا ومعالها الخاصة . وقد أسفرت هذه المرحلة عن قرارين صادرين من الجمعية العمومية للأمم المتحدة بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٩٤٩ م ، ١٧ نوفمبر ١٩٥٠ م نص فيهما على أن ليبيا المؤلفة من برقه ، وطرابلس . وفزان ستصير دولة مستقلة ذات سيادة بمجرد أن تم الإجراءات المبينة بالقرارين المذكورين لكى يصير إستقلال ليبيا نافذاً .

وفعلا صدر أمر ملكى بريطانى أنهى السلطة البريطانية فى طرابلس وبرقة وصدر فى فزان أمر ألقى جميع سلطات فرنسا . وفى ٢٤ ديسمبر ١٩٥١ م أعلن الملك السيد محمد ادريس السنوسى أن ليبيا أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة .

على أن هذه الصفحة الجديدة من كفاح ليبيا فى سبيل الاستقلال - بعد تخلصها من الإيطاليين - تحتاج لدراسة مستقلة ونرجو أن تتناول بالتحليل هذه المرحلة من الكفاح الوطنى فى ليبيا فى الدراسة التى سنخصصها بإذن الله للتاريخ المعاصر للمغرب العربى .

الخلاصة

خاتمة

في هذه الدراسة حاولنا إلقاء الأضواء على تاريخ الشمال الأفريقي في العصر الحديث .

وقد رأينا أنه منذ أوائل القرن الخامس عشر تعرضت هذه البلاد لحملات إستعمارية متتالية . فتاريخها الحديث في مجملته يتمثل في المحاولات من جانب الدول الإستعمارية لبسط نفوذها على هذه البلاد ، تقابلها حركات المقاومة البطولية من الوطنيين في سبيل الدفاع عن حقهم في بلادهم وحريتهم .

وقد امتلأت صفحات هذا التاريخ ببطولات رائعة وبأمثلة لقيادات ناجحة استطاعت أن تتقدم الصفوف وأن تفقد شعوبها في طريق الكفاح والجهاد والصمود .

وقد حاولت الدول الاستعمارية أن تستفيد من عوامل الضعف والتفتيت والتفرقة ومن نفوقها العسكري لتجد لنفسها ثغرة تنفذ منها وتثبت أقدامها في البلاد .

وهذه الفترة من تاريخ المغرب العربي مليئة بالدروس والعبر ، فالوسائل التي استخدمها المستعمر لإخضاع البلاد لحكمه ، والاتفاقات والمعاهدات بين الدول الكبرى لتقسيم هذه المناطق فيما بينها لضمان عدم نشوب الخلافات ، وعدم وضع العراقيل من إحداها في طريق الأخرى — وتبادل هذه الدول لمناطق النفوذ هنا — كما كانت تتبادل السلع التجارية — دون أي اعتبار لأصحاب البلاد الأصليين — والأساليب التي أتبعها المستعمر ليرسخ أقدامه باستخدام القوة حيناً والملاينة ومحاولات الإتفاق مع القوى الوطنية أحياناً أخرى إلى أن تتاح له الفرصة لتحقيق أهدافه — كل هذه وغيرها مما حفل به تاريخ المنطقة في هذه الحقبة تمثل دروساً حية قوية .

وإذا كانت بلاد المغرب قد حصنت أخيراً على استقلالها — فقد كلفها هذا ثمناً باهظاً من أرواح شهدائها ، ومن جهود أبنائها .

كما أن سنوات الإستعمار الطويلة هذه خلفت وراءها العديد من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ومشكلات الحدود بينها .

ويحتاج علاج هذه المشكلات للجهود لا تقل عما بذل في سبيل الاستقلال ذاته - فقد تعمقت جذور المشكلات بحيث أصبح إقتلاعها يحتاج الكثير من الصبر والروية والأناة والحكمة .

وإذا كان الكفاح السياسى ومقاومة المستعمر هدفاً محدداً واضحاً أمام شعوب المنطقة ، والهدف فيه مائل فى الغالب أمام الانظار - فإن الكفاح اليوم فى سبيل البناء الاقتصادى والاجتماعى والثقافى، وفى سبيل حل المشكلات المتوارثة المترسبة من عصر الاستعمار بين دول المنطقة - يختلف بأن الرؤية فيه قد لا تكون بنفس الوضوح والتحديد.

لذلك يتطلب الامر - كما قلنا - حكمة وروية ودراسة - ويتطلب قبل كل شىء ، أن نعى دروس الماضى وتعلم منها - ولعل ذلك يضىء لنا الطريق فى الحاضر ويحدد الهدف للمستقبل .

والأمل كبير فى أن يحرز المغرب المستقل اليوم فى ظل حكوماته الوطنية من التقدم والنهضة فى مختلف الميادين ما يكفل له ولأبنائه مستقبلاً زاهراً يتناسب مع موقع هذه البلاد وتاريخها وحضارتها العريقة .

هذا بالإضافة إلى ما تكشففت عنه أراضيها من ثروات طبيعية يمكن أن تسهم فى بناء المستقبل .
والله المعين .

تم بحمد الله

الملاحق

ملاحق الكتاب

تُشتمل على :

- (أ) نصوص الإتفاقات والمعاهدات الهامة .
- (ب) جداول تاريخية للأسر الحاكمة .
- (ج) خرائط للمراحل التاريخية التي مرت بها المنطقة .
- (د) المراجع مرتبة حسب أبواب الكتاب .
- (هـ) فهرس أبجدية للأعلام الواردة بالكتاب .

١- نصوص المعاهدات والإتفاقات الهامة

أولا - الجزائر

— ١ —

المعاهدة الموقعة بين قائد المسكر الفرنسي الجنرال بورمون

وبين حسين باشا — داي الجزائر

(في الثالث عشر من محرم سنة ١٢٤٦ هـ — ٥ يولية ١٨٣٠)

أولا — كافة القلاع الخاصة بمدينة الجزائر ، وأبواب المدينة تسلّم للمساكر
الفرنساوية في صباح السادس من يولية الساعة العاشرة .

ثانيا — يتعهد القائد العمومي الفرنسي أن يترك للبasha أمواله المختصة به .

ثالثا — يكون لحضرة البasha الحرية بأن يتوجه مع عائلته وأمواله إلى المحل
الذي يريه ، وفي مدة إقامته في مدينة الجزائر يكون هو وعائلته
تحت حماية القائد العمومي الفرنسي ، ويكون البasha وعائلته تحت
حرس مخصوص .

رابعا — يمنح القائد العمومي هذه الحماية المطلقة لحضرة البasha — لكافة
قواد المساكر الجزائرية .

خامسا — تعطى الحرية للديانة الحمديّة ، وللمكاتب الأهلية ولديانتهم
ولأملاكهم ولتجارهم ولصنائعهم ، وأن لا يعارضوا في ذلك ،
وتكون نساءهم محفوظات معتبرات .

سادسا — تكون مبادلة هذه المعاهدة — في الساعة العاشرة من صباح الغد
(السادس من يولية ، والثالث عشر من المحرم من سنة ١٢٤٦ هـ)
وعقب ذلك يدخل المساكر قلعة القصبة وقيّمون في قلاع المدينة
والشواطئ البحرية .

الاتفاق المعقود

بين الجنرال دى ميشيل — والأمير عبد القادر

(فى ٢٨ فبراير سنة ١٨٣٤)

إن قائد الجيش الفرنساوى المقيم فى وهران الجنرال دى ميشيل ،
والأمير عبد القادر بن محي الدين — اعتمدا واتفقا على ما يأتى ذكره
من الأمور :

منذ يوم تحريره يصير ترك الحروب والخصومات بين الفرنساويين
والعرب ، وكل من الجنرال دى ميشيل ، والأمير عبد القادر يجتهد فى إبقاء
الآلفة بين شعبين اقتضت الإرادة الإلهية أن لا يكونا تحت سلطة واحدة .
أولا — ولأجل ذلك يضمن وكلاء من الأمير عبد القادر فى وهران ،
ومستغانم ، وارزيو كى لا تقع الخصومة بين الفرنساوية والعرب ،
كما أنه يقام وكيلا عن فرنسا ضابطا فرنساوى فى ممسكو الثانى .

ثانياً — يصير احترام ديانة الإسلام وعوائدهم .

ثالثاً — يلزم رد الأسرى من الفريقين .

رابعاً — يصير إعطاء الحرية الكاملة للتجارة .

خامساً — يلتزم العرب بإرجاع كل من يفر إليهم من الممسكو الفرنساوى ،
ويلتزم الفرنساويون بتسليم كل من يفر إليهم من أهل الجرائم
الممارين من القصاص إلى وكلاء الأمير فى المدن الثلاث .

سادساً — من أراد من الأوربيين أن يسافر إلى داخلية البلاد يجب أن

يكون مصحوبا بتذكرة تكون عليها علامة وكلاء الأمير ويصححها
الجنرال ، وبذلك يحصل على الحماية في جميع الأقليم .
حرر في وهران في السابم عشر من شوال سنة ١٢٤٩ هـ
٢٨ فبراير سنة ١٨٣٤ م

إمضاء

الأمير	جنرال
عبد القادر بن محي الدين	دى ميشيل
الجزائرى	

ثانيا - تونس

نص منشور (عهد الأمان)

الذى أعلن في ٢٠ محرم فاتح ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧ م)

الحمد لله الذى أوضح سبيلا ، وجعل نظام العالم كفيلا ، نزل الأحكام على قدر المصالح ، ووعد العادل وتوعد الجائر ، ومن أحسن من الله قيلا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى مدحه فى كتابه بالرووف الرحيم وفضله تفضيلا وبعثه بالحنفية السمحاء تبينا وفصلها تفصيلا ، ورتبها كما أمره ربه بإباحة ونديا . ونحرينا وتحليلا ، فلن نجد لسنته تبديلا ولن نجد لسنة الله تحويلا ، وعلى آله وأصحابه الذين أقاموا على معالم الهدى علما لمن اقتدى ودليلا ، ونهضوا الشريعة نصا وتأويلا ، وأبقوا سيرتهم الفاضلة وأحكامهم العادلة أمانا جليلا ، ونستوهم منك اللهم توفيقا يوصل إل الاسعاد برضاك توصيلا ، وعونا على أمور الإمارة التى من حملها فقد حل عبئا ثقيلا ، فقد توكلنا عليك والتجأنا إليك وكفى بالله وكيفا . أما بعد فإن هذا الأمر الذى قلدنا الله منه ماقلده ، وأسند إلينا من أمور خلقه بهذا القطر ماأسنده ، ألزمننا فيه حقوقا واجبة ، وفروضا لازمة راتبة ، لاستطاع إلا بإعانتة التى عليها الاعتماد ، ولولاها فن يقوم بحق الله وحق العباد ، فحصدنا النصيحة لله فى عباده وأرضه وبلاده والأمل أن لا نبقى فيهم ظلما ولا هضميا ، ولا نحرّم لهم فى إقامة حقوقهم نظاما ونقضى بقصرىف عن هذا القصد بعمله ونيتته ، من يعلم أن الله لا يظلم مثقال ذرة ولا يحب الظالم فى بريته فقد قال لنبيه المعصوم الأواب : « يادود إن جملناك خليفة فى الأرض فاحكم

بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب .

والله يرى أنى آثرت فى قبول هذا الأمر ، على خطره ، مصلحة الوطن على ذاتى ، وعمرت بخدمته الفكرية والبدنية غالب أوقاتى ، وقدمت من التخفيفات فى الجباية ما علم خبره ، وظهر بعون الله أثره ، فانتشرت الآمال ، وتشوقت النفوس إلى ثمرات الأعمال ، وانقضت عن التعمدى أيدى العمال ، واستقصاء المصالح يقتضى تقديم أجمال ، ومن رامها جملة فقد عرضها ، بسبب التعمد للإجمال

ورأينا غالب أهل القطر لم تحصل لهم الأمنية ، بإجراء ما عقدنا عليه النية وجرت عادة الله أن العمران لا يقع من نوع الإنسان ، إلا إذا علم أن راءته هى الأمن له والأمان وتحقق أن العدل يدفع عنه خوف العدوان ، وأن لا وصول لهتك ستر من حرمانه إلا بقوة الدليل ووضوح البرهان ، ولا يكفى لتحقيقه الواحد والإثنان فإذا رأى الجانى تعدد الأنظار غلط ، إن كان منصفاً ، حدسه وقال : « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » .

وقد رأينا سلطة الإسلام ، والدول العظام ، الذين سياستهم الدنيوية لإعمال الإعلام فى النقض والإبرام ، يؤكدون الأمان من أنفسهم للرعية ، ويرونه من الحقوق المرعية ، وهو أمر يستحسنه العقل والطبع ، وإذا اعتبرت مصلحته فهو مما يشهد باعتباره الشرع لأن الشريعة جاءت لإخراج المكلف عن داعية الهوى ، ومن ألزم العدل وأقسم عليه فهو للتموى ، وبالأمن تطمئن القلوب وتقوى .

وقبل هذا كاتبنا علماء الملة الأركان ، وبعض الأعيان بعزمنا على ترتيب

مجالس ذات أركان للنظر في أحوال الجنايات من نوع الإنسان والمتاجر التي بها ثروة البلدان ، وشرعنا في فصوله السياسية ، بما لا يصادم إن شاء الله القواعد الشرعية .

هذا وأحكام الشريعة أعزها الله جارية مطاعة والله يديم العمل بها إلى قيام الساعة .

وهذا القانون السياسى يستدعى زمنا لتحرير ترتيبه وتدوينه وتهذيبه ، وأرجو الذى ينظر إلى قلوبنا أن تستقيم به أحوال الرئاسة ، ولا يخالفه مما ورد عن السلف الصالح من اعتبار السياسة . وإن العبد الفقير أعجل لمرضاة ربه بما تطمئن إليه النفوس ، وتكون منزلة في منزلة المشاهد المحسوس وتأسيسه على قواعد :

الأولى : تأكيد الأمان لسائر رعيقتنا وسكان إياتنا على اختلاف الأديان والألسنة والألوان- في أبدانهم المكرومة . وأموالهم المحرمة ، وأعراضهم المحترمة الإبحق يوجبه نظر المجلس بالمشورة ويرفعه إلينا ، ولنا النظر في في الإمضاء أو التخفيف ما أمكن ، أو الإذن باعادة النظر .

الثانية : تساوى الناس في أصل قانون الأداء المرتب أو ما يترتب ولولإن اختلف باختلاف الكمية ، بحيث لا يسقط القانون عن العظيم لعظمته ويحط على الحقير لحقارته ما يأتى بيانه موضحاً .

الثالثة : التسوية بين المسلم وغيره من سكان الإيالة في استحقاق الإنصاف لأن استحقاقه الملك بوصف الإنسانية لا بغيره من الأوصاف . والعدل في الارض هو الميزان المستوى يؤخذ به للحق من البطل وللضعيف من القوى .

الرابعة : إن الذى من رعيقتنا لا يجبر على تبديل دينه ولا يمنع من إجراء ما يلزم ديانته ، ولا تمنع مجامعهم ، ويكون لها الأمان من الإذابة والامتهان لان ذمتهم تقتضى أن لهم مالنا وعليهم ما علينا .

الخامسة : لما كان العسكر من أسباب حفظ النوع ، ومصلحته نعم المجموع ولا بد للإنسان من زمن لتدبير عيشه والقيام على أهله - فلا تأخذ العسكر إلا بترتيب وقرعة ، ولا يبقى العسكرى فى الخدمة أكثر من مدة معلومة كما نحرره فى قانون العسكر .

السادسة : إن مجلس النظر فى الجنايات إذا كان الحكم فيه عقوبة على أحد من أهل الذمة - يلزم أن يحضره من تعيينه من كبارهم تأنيسا لنفوسهم ودفعاً لهم يتوقعونه من الخيف والشرية توصى بهم خيراً .

السابعة : أن نجعل مجلساً للتجارة برئيس وكاتب وأعضاء من المسلمين وغيرهم من رعايا أحبائنا الدول للنظر فى نوازل التجارات ، وبعد الاتفاق مع أحبائنا الدول العظام فى كيفية دخول رعاياهم تحت حكم المجلس كما يأتى إيضاح تفصيله قطعاً لتشعب الخصام .

والثامنة : أن سائر رعيقتنا من المسلمين وغيرهم لهم المساواة فى الأمور العرقية والقوانين الحكيمية - لأفضل لأحدم على الآخر فى ذلك .

التاسعة : تسريح المتجر من إختصاص أحد به ، بل يكون مباحاً لكل أحد ، ولا تتاجر الدولة بتجارة ولا تمنع غيرها منها ، وتسكون العناية بإعانة عموم المتجر ومنع أسباب تعطيله .

العاشرة: إن الوافدين على إيلتنا لهم أن يحترفوا سائر الصنائع والخدم ، بشرط أن يتبعوا القوانين للرتبة والتي يمكن أن تترتب مثل سائر أهل البلاد لافضل لاحدم على الآخر ، بعد اتفاقنا مع دولهم في كيفية دحوهم تحت ذلك ، كما يأتي بيانه .

الحادية عشرة: إن الوافدين على إيلتنا من سائر أتباع الدول لهم أن يشتروا سائر ما يملك من الدور والاجنة والارضين مثل سائر أهل البلاد ، بشرط أن يتبعوا القوانين للرتبة والتي تترتب من غير امتناع ولا فرق في أدنى شيء من قوانين البلاد . ونبين بعد هذا كيفية السكنى بحيث أن المالك يكون عالماً بذلك ، داخلاً على اعتباره بعد الإنفاق مع أحبائنا الدول .

فعلى عهد الله وميثاقه أن تجرى هذه الأصول التي سطرناها على نحو ما بيناها ووراءها البيان لمعناها واشهد الله وهذا الجمع العظيم المرموق بعين التعظيم في حق نفسى ومن يكون من بعدى أن لا يتم له أمر إلا باليمين على هذا الأمان الذى بدلت فيه جهدى ، وجعلت فيه سائر الحاضرين من ثواب الدول العظام وأعيان رعيقتنا شهداء على عهدى . والله يعلم أن هذا القصد الذى أظهرته وجعلت له هؤلاء الأعيان واشهرته - وهو ما أودعه الله فى نيتى ، وإجراء أصوله وفروعه فوراً - اعظم أمنيتى والمرء مطلوب بمجده ، ومن عاهد الله لزمه الوفاء بمجده ، والحق هو العروة الوثقى والآخرة خير وأبقى .

نص معاهده باردو المنعقدة

فى ١٢ مايو ١٨٨١

إن دولة الجمهورية الفرنسية ودولة سمو باى تونس ، لما كان من غرضهما أن يمنعا إلى الأبد حدوث قلاقل كالتى حصلت أخيراً على حدود الدولتين وبسواحل المملكة التونسية ، وأن يحكما علاقات ودهما القديم وروابط حسن الجوار — قد اتفقتا على عقد معاهدة من شأنها تحقيق مصالح كلا الجانبين الساميين المتعاقدين . وبناء على ذلك فإن فخامة رئيس الجمهورية الفرنسية قد عين جناب الجفرال باربار نائباً مفوضاً من طرفه ، فاتفق جنابه مع سمو الباي المعظم على البنود الآتية :

البند الأول

إن معاهدة الصالح وللودة والتجارة وجميع المعاهدات الأخرى الموجودة الآن بين الجمهورية الفرنسية وسمو باى تونس قد وقع تأكيدها وتجديدها .

البند الثانى

لأجل تسهيل القيام بالإجراءات التى يتحتم على دولة الجمهورية الفرنسية اتخاذها للوصول للغرض الذى يقصده الجانبان العالمان المتعاقدان ، فقد رضى سمو باى تونس أن تحتل القوات الفرنسية العسكرية المراكز التى تراها صالحة لإستتباب النظام والأمن بالحدود والسواحل . ويحول هذا الإحتلال عندما تتفق السلطان الفرنسية والتونسية وقرران معاً بأن الإدارة المحلية قد أصبحت قادرة على المحافظة على إستتباب الأمن العام والنظام .

البند الثالث

تعهد دولة الجمهورية الفرنسية ببذل مساعدتها المستمرة لسمو الباي وحمايته من كل خطر يمكن أن يهدد ذاته وعائلته أو يعيث بأمن مملكته .

البند الرابع

تضمن الدولة الفرنسية تنفيذ جميع المعاهدات المعقودة بين الدولة التونسية ومختلف الدول الأوربية .

البند الخامس

يمثل الدولة الفرنسية لدى سمو الباي وزير مقيم عام تكون وظيفته السهر على تنفيذ أحكام هذه المعاهدة ويكون هو الواسطة بين فرنسا والسلطات التونسية في جميع القضايا التي تهم الجائين .

البند السادس

يكلف المثلون الدبلوماسيون والقنصليون لفرنسا في البلاد الأجنبية بحماية رعايا المملكة التونسية ومصالحها وفي مقابل ذلك يلتزم سمو الباي ألا يعقد أى عقد ذو صفة دولية دون إعلام الدولة الفرنسية بذلك والحصول على موافقتها مقدماً .

البند السابع

تحتفظ دولة الجمهورية الفرنسية ودولة سمو الباي لنفسهما بحق الإنفاق على وضع نظام للمملكة التونسية من شأنه الوفاء بواجبات الدين العام وضمان حقوق دائني المملكة .

البند الثامن

تفرض عرامة حربية على القبائل العاصية بالحدود والسواحل ويحدد

قيعة هذه الفرامة وطرق جبايتها اتفاق يعقد فيما بعد ، وتكون حكومة الباي
هى المسئولة عن تنفيذ هذا الإتفاق .

البند التاسع

لأجل صيانة ممتلكات الجمهورية الفرنسية بالقطر الجزائرى من تهريب
الأسلحة والذخائر فإن دولة سمو الباي يتعهد بأن يمنع قطعاً إدخال السلاح
والذخائر الحربية لجزيرة جربة ومرسى قابس والمراسى الأخرى بالملسكة
التونسية .

البند العاشر

سيمتق عرض هذه المعاهدة على دولة الجمهورية الفرنسية للمصادقة عليها
وتسلم الوثيقة المصدق عليها بعد ذلك لسمو باى تونس فى أقرب وقت ممكن.
وكتب بباردو فى ١٢ مايو سنة ١٨٨١ .

الإمضاء

جنرال ربار

محمد الصادق باى

^١ انظر - تونس والحماية الفرنسية ، ومنظمة الأمم (نشر مكتب استعلامات اللجنة
التنفيذية للحزب الحر الدستورى - القاهرة ١٣٦٨ هـ - ١٩٥٢) ص ٦٧ - ٧٥

نص اتفاقية المرسى

المنعقدة في ٨ يونيو ١٨٨٣

(بين تونس وفرنسا)

لما كانت عناية سمو الباي المعظم متجهة إلى تحسين الأحوال الداخلية بالملكة التونسية وفقاً لأحكام المعاهدة المبرمة في الثاني عشر من شهر مايو سنة ألف وثمانمائة وواحد وثمانين ، وكانت حكومة الجمهورية الفرنسية راعية في تحقيق أغراض سموه لمرى المودة بين القطرين العامين — اتفق الطرفان على عقد اتفاق لتحقيق هذا الغرض ، واعتمد رئيس الجمهورية الفرنسية في ذلك مسيو بابر بولس كامبول وزيره المقيم بقونس الحامل لنيشان اللجيون دونور صنف أو قيسية ونيشان الإفتخار العهد من الصنف الأكبر . . . الخ فقدم وزيره المشار إليه أوراق اعتماده لعقد الاتفاقية المحددة في البنود الآتية :

البند الأول

لما كان غرض سمو الباي المعظم أن يسهل للحكومة الفرنسية إتمام حمايتها فقد تكمل بإدخال الإصلاحات الإدارية والعلمية التي ترى الحكومة المشار إليها فائدة في إدخالها .

السند الثاني

تضمن الحكومة الفرنسية قرضاً يعقده سمو الباي لتحويله أو لدفع الدين السائر الذي لا يمكن أن يتجاوز سبعة عشر مليوناً وخمسمائة وخمسين ألفاً — ولكنها هي التي تختار الزمن والشروط الموافقة لذلك ، وقد تعهد سمو

البای المعظم بأن لا يعقد قرضاً في المستقبل لحساب المملكة التونسية دون إذن سابق من الحكومة الفرنسية .

البند الثالث

يخصص لسمو البای المعظم من مداخيل المملكة :

أولاً : المبالغ اللازمة للقيام بواجبات القرض الذي ضمنته فرنسا .

ثانياً : مخصصات سمو البای وقدرها مليونان من الريالات أي مليون ومائتي ألف فرنك ، وما بقي بعد ذلك يعين لمصاريف المملكة ودفع مصاريف الحماية .

البند الرابع

هذه الإتفاقية مؤكدة ومكتملة للمعاهدة المعقودة في ١٢ مايو سنة ١٨٨١ في ما يحتاج منها إلى التأكيد والتكميل ، ولا تغیر بها الأنظمة التي سبق وضعها فيما يتعلق بتقرير الغرامة الحربية .

البند الخامس

تعرض هذه الإتفاقية على الحكومة الفرنسية للمصادقة عليها وتسلم وثيقة التصديق إلى سمو البای المعظم في أقرب فرصة ممكنة . وإيداناً بصحة ما تقدم حررت هذه الإتفاقية وختمها الموقعان بخاتميهما . وكتب بالمرسى في ٨ يونيو سنة ١٨٨٣ .

الإمضاء

على باي — بولس كامبول

نص البروتوكول التونسي الفرنسي

الخاص بإعلان استقلال تونس

(في ٢٠ مارس ١٩٢٦)

في ٣ يونيو ١٩٥٥ ونتيجة لمفاوضات حرة جرت بين وفدى البلدين اتفقت الحكومتان الفرنسية والتونسية على الإعتراف لتونس بأن تمارس السيادة الداخلية كامل للممارسة . وبذلك عبرت الحكومتان عن إرادتهما للتجهة إلى تمكين الشعب التونسي من إدراك ازدهاره الشامل والإضطلاع على مراحل - بالإشراف على مصيره .

وتعترف الحكومتان بأن تنمية العلاقات الفرنسية التونسية في كنف الإنسجام والسلم تستجيب لقروض العالم العصري ، وتلاحظان بإرتياح أن هذا التطور يسمح بالإرتقاء إلى السيادة الكاملة بدون أن تلحق الشعب آلام وتنصاب الدولة بانتكاسات ، وتؤكد أن اعتقادهما بأن فرنسا وتونس إذ تقيمان علاقاتهما على أساس الإحترام المتبادل الكامل لسيادة كل منهما في نطاق إستقلال الدولتين وتساويهما فإنهما تعززان التضامن الذي يربط بينهما لفائدة البلدين العظمى .

ونتيجة لبيان رئيس الحكومة الفرنسية الذي ألقاه عند مطالبته البرلمان بالتزكية ولرد سمو الباي المؤكد كلاهما من جديد لإرادتهما المشتركة الرامية إلى تطوير علاقاتهما بنفس المسألة والمودة- فإن الحكومتين فتحتا مفاوضات يباريس في ٢٧ فبراير .

وبناء على ذلك : تعترف فرنسا على رؤوس الملاء باستقلال تونس .

وينتج عن ذلك :

(١) أن المعاهدة المبرمة بين فرنسا وتونس في ١٢ مايو ١٨٨١ لم يعد في إمكانها ضبط العلاقات الفرنسية التونسية .

(ب) أن ما كان من التدابير التي إقتضتها اتفاقيات ٣ يونيو ١٩٥٥ متنافيا مع نظام تونس الجديد باعتبارها دولة مستقلة ذات سيادة يقع تنفيذه أو إلغاؤه .

(ج) أن تونس تمارس سلطاتها في ميدان الشؤون الخارجية والأمن والدفاع وأنها تشكل جيشا وطنيا تونسيا .

وانفقت تونس وفرنسا - في نطاق احترام سيادة كل منهما - على ضبط أو إكمال تدابير التعاون بين البلدين - وذلك بتنظيم تعاونهما في الميادين التي تشترك فيها مصالحهما وخاصة فيما يتعلق بالدفاع والشؤون الخارجية .

والاتفاقيات التي ستبرم بين فرنسا وتونس سوف تثبت تفاصيل إسناد الإعانة التي تقدمها فرنسا إلى تونس لبناء هيكل الجيش الوطني التونسي .

وتستأنف المفاوضات في ١٦ أبريل ١٩٥٦ بغية إبرام العمود الضرورية لتنفيذ المبادئ التي إقتضاها هذا البروتوكول ، وذلك في أقصر الآجال الممكنة وعملا بتلك المبادئ نفسها .

ثانيا - المغرب الأقصى

الإتفاقية الفرنسية البريطانية (٨ إبريل سنة ١٩٠٤)

المادة الأولى — تصرّح حكومة صاحب الجلالة البريطانية بأنه ليس لديها أية نية لتغيير الوضع السياسى الحالى فى مصر .

كما تصرّح حكومة الجمهورية الفرنسية من جانبها بأنها لن تعوق عمل بريطانيا فى مصر ، فلا تطالها بتعديد فترة معينة لإنهاء الإحتلال البريطانى لأراضيها ، كما لا تطالبها بأى إجراء آخر فى هذا الشأن .

وأنها توافق على مسودة الرسوم الخديوى الملحق بهذه الإتفاقية والذى يحتوى على الضمانات الضرورية لحماية مصالح حملة الأسهم المصريين ، وبشرط عدم إدخال تعديلات على الرسوم بعد إصداره مهما تكن دون موافقة الدول الموقعة على إتفاقية لندن سنة ١٨٨٥ .

وكذلك تم الإتفاق على أن يحتفظ لخبير فرنسى بمنصب المدير العام لمصلحة الآمار المصرية كما كان الحال فى الماضى .

كذلك تستمر المدارس الفرنسية فى مصر تتمتع بما كان لها من حرية العمل فى الماضى .

المادة الثانية — تصرّح حكومة الجمهورية الفرنسية بأنه ليس لديها أية نية لتغيير الوضع السياسى فى (المغرب) .

كما تصرّح حكومة صاحب الجلالة البريطانية من جانبها بأنها تعترف بحق فرنسا — بصفتها دولة تمتد ممتلكاتها إلى مسافة طويلة ملاصقة لحدود

للمغرب — فى المحافظة على النظام بهذا البلد وتقديم المعونة اللازمة فيما يحتاج اليه من اصلاحات إدارية واقتصادية ومالية وعسكرية .

وتعلن حكومة صاحب الجلالة البريطانية أنها لن تعوق عمل فرنسا فى هذا السبيل بشرط ألا يمس هذا العمل الحقوق التى تتمتع بها بريطانيا فى المغرب طبقاً لنصوص المعاهدات والإتفاقيات ، وما جرى عليه العرف ، وهذه الحقوق تشمل التجارة الساحلية بين —وأنى المغرب ، التى تمارسها السفن البريطانية منذ عام ١٩٠١ .

المادة الثالثة — تعلن حكومة صاحب الجلالة البريطانية من جانبها إحترامها للحقوق التى تتمتع بها فرنسا فى مصر طبقاً لنصوص المعاهدات والإتفاقيات والعرف ، وهذه الحقوق تشمل التجارة الساحلية بين الموانئ المصرية التى منحت السفن الفرنسية حق ممارستها .

المادة الرابعة — لما كانت الحكومتان مرتبطتين بمبدأ حرية التجارة سواء فى مصر أو فى المغرب ، فهما تعلنان أنهما لن تشجعا عدم المساواة فى هذين البلدين فى فرض الرسوم الجمركية أو فى أى نوع آخر من الضرائب ، أو فى أجور النقل بالسكك الحديدية .

وتطبق على المعاملات التجارية بين بريطانيا وفرنسا من جهة ، والمغرب ومصر من جهة أخرى نفس المعاملة الخاصة بتجارة الترانسيت عند مرورها بالممتلكات الفرنسية والبريطانية فى أفريقيا .

وتتخذ بين حكومتى بريطانيا وفرنسا إتفاقية تحدد نظام الترانسيت والمراكز التى تمر منها هذه التجارة .

ومع ذلك فحكومة الجمهورية الفرنسية تحتفظ لنفسها في المغرب بحقها في الإمتناع عن منح إمتيازات لإنشاء الطرق والسكك الحديدية والموانئ وغيرها إلا بشرط احتفاظ الدولة بسلطانها على هذه المشروعات الكبرى ذات المنفعة العامة .

كما تحتفظ حكومة صاحب الجلالة البريطانية لنفسها بمثل هذا الحق في مصر .

المادة الخامسة - تصرح الحكومة البريطانية بأنها سوف تستخدم نفوذها في مصر بحيث لا يوضع الموظفون الفرنسيون الذين يعملون حالياً في خدمة الحكومة المصرية ، تحت ظروف أقل ملاءمة لمصالحهم من تلك التي يعمل في ظلها الموظفون البريطانيون في هذه الحكومة .

كما أن حكومة الجمهورية الفرنسية من ناحيتها لن تعترض على تطبيق شروط مشابهة لهذه على الموظفين البريطانيين الذين يعملون حالياً في خدمة الحكومة المغربية .

المادة السادسة - لضمان حرية المرور في قناة السويس تصرح حكومة الجلالة البريطانية بأنها ملتزمة بنصوص اتفاقية القسطنطينية في ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨ ، كما تعلن موافقتها على وضع هذه النصوص موضع التنفيذ . ولما كان هذا كافياً لضمان حرية المرور في قناة السويس - فإن تنفيذ النص الأخير من الفقرتين الأولى والثانية من المادة الثامنة من هذه الإتفاقية يظل معلقاً .

المادة السابعة - لضمان حرية المرور في مضيق جبل طارق توافق الحكومتان على عدم السماح بإقامة أية تحصينات أو منشآت استراتيجية على ذلك الجزء من ساحل المغرب المحصور بين مليلية والمرتفعات المشرفة على الشاطئ الشرقي لنهر سبو - دون أن تشمل هذين المراكزين .

ومن ذلك فإن هذا الشرط لا ينطبق على المراكز التي تحتلها أسبانيا حالياً على الساحل المغربى من البحر المتوسط .

المادة الثامنة — لما كانت الحكومتان تكفان لأسبانيا شعور الود الخالص فإنها تدخلان فى اعتبارهما المصالح التى تستمدّها هذه الدولة من موقعها الجغرافى ومن سيادتها الإقليمية على بعض الأماكن الواقعة على الساحل المغربى للبحر المتوسط .

وستعمل الحكومة الفرنسية على التفاهم مع الحكومة الأسبانية بشأن هذه المصالح على أن تبلغ حكومة صاحب الجلالة البريطانية بكل اتفاق يتم بين الحكومتين الفرنسية والإسبانية بشأن هذا الموضوع .

المادة التاسعة — توافق الحكومتان على أن تقدم كل منهما للآخرى تأييدها الدبلوماسى حتى يقضى تنفيذ البنود الخاصة بمصر والمغرب فى هذه الاتفاقية .

المواد السرية الملحقه بالاتفاق الفرنسي البريطانى

(أبريل سنة ١٩٠٤)

المادة الأولى — إذا وجدت إحدى الحكومتين أنها مضطرة بحكم الظروف القاهرة إلى تعديل سياستها الخاصة بمصر أو مراكش ، فإن الإلتزامات التى ارتبطت بها كل منهما نحو الأخرى بموجب المادة الرابعة والسادسة والسابعة من الإتفاقية التى وقعت اليوم تظل قائمة .

المادة الثانية — ليس لدى حكومة صاحب الجلالة البريطانية فى الوقت الحاضر النية فى أن تقترح على الدول الأخرى إدخال تعديلات على نظام الإمتيازات أو على النظام القضائى فى مصر .

وفى حالة ما إذا رأت الحكومة البريطانية أنه من المرعوب فيه إدخال إصلاحات على النظام التشريعى فى مصر تطابق النظم القائمة فى البلاد المتقدمة فإن حكومة الجمهورية الفرنسية لا ترفض قبول مثل هذه الإقتراحات ، على أن يكون مفهوماً أن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تقبل ما قد تقترحه عليها الجمهورية الفرنسية خاصا بإدخال إصلاحات مماثلة فى المغرب .

المادة الثالثة — اتفقت الحكومتان على أن منطقة معينة من أراضى المغرب المجاورة (مليلية) و (وسبتة) وغيرهما من المدن الأسبانية يجب أن تدخل ضمن دائرة النفوذ الأسبانى — وذلك إذا توقف السلطان عن ممارسة سلطته على هذه الأراضى ، على أن يوكل إلى أسبانيا حكم المنطقة الساحلية من مليلية إلى المرتفعات الواقعة على الشاطئ الأيمن لنهر سبو ، دون أن تدخل فيها هذه المرتفعات .

ومع ذلك فلا بد أن تبدى أسبانيا مقدماً موافقتها الرسمية على نصوص
المادتين الرابعة والسابعة من الإتفاقية التي تم توقيعها اليوم وتتعهد بتنفيذ
هذه النصوص .

وعلى أسبانيا أيضاً أن تتعهد بعدم التنازل عن بعض أو كل الأراضي
التي توضع تحت سلطتها أو التي تقع في دائرة نفوذها .

المادة الرابعة — إذا رأت أسبانيا أن من الأصلح لها رفض الدعوى
الموجهة إليها للموافقة على نصوص المادة السابقة ، فإن الإتفاقية الفرنسية
البريطانية التي تتضمنها التصريحات الموقع عليها اليوم تظل سارية المفعول .

المادة الخامسة — إذا لم يمكن الحصول على موافقة الدول الأخرى على
مسودة المرسوم الذي ورد ذكره في المادة الأولى من الإتفاقية الموقعة اليوم — فليس
الحكومة الجمهورية الفرنسية الحق في الاعتراض على تسديد الدين المضمون
والدين الممتاز والدين الموحد بسعر التعادل بعد ١٥ يوليو سنة ١٩١٠ .
(تم التوقيع عليها من صورتين في لندن بتاريخ ٨ أبريل سنة ١٩٠٤) .

الاتفاق الفرنسي الأسباني

(في ٣ أكتوبر ١٩٠٤)

ترجمة التصريح الذي نشر :

بما أنه قد تم الإتفاق بين حكومة الجمهورية الفرنسية وحكومة صاحب
الجلالة ملك أسبانيا على مدى الحقوق ومدى ضمان المصالح الناشئة لفرنسا من
ملكيتها للجزائر ، وكذلك على مدى الحقوق والمصالح الأسبانية الناشئة من
ملكيتها للساحل المغربي .

ولما كان صاحب الجلالة ملك أسبانيا قد أعلن نتيجة لذلك إنضمامه إلى
الاتفاقية الفرنسية البريطانية الصادرة في ٨ أبريل ١٩٠٤ وهي الخاصة بالمغرب
ومصر والتي أبلغتها إلى جلالاته حكومة الجمهورية الفرنسية .

فإن الحكومتين تملنان في هذا الإتفاق تمسكهما الكامل بمبدأ سلامة
أراضي الإمبراطورية المغربية تحت سيادة السلطان .

إمضاء

ليون راى كاستيلو

(عن أسبانيا)

دلكاسيه

(عن فرنسا)

الاتفاق الفرنسي الأسباني

(في ٣ أكتوبر سنة ١٩٠٤)

(البنود السرية)

تتضمن هذه البنود السرية إحدى عشرة نقطة أساسية تتلخص فيما يلي :

تنقسم منطقة النفوذ الأسباني إلى قسمين أحدهما شمالي يمتد من منفذ مليوية على البحر المتوسط إلى خط يمتد بين حوض نهري افاون، وسبو، وبين كرت، ورغة - ثم يتجه نحو الشمال إلى لو كوس عن طريق جبل مولاي بوشته، ومن هناك يتجه إلى ساحل المحيط الأطلسي قرب السرجة (المادة الثانية) .

أما القسم الجنوبي فبالإضافة إلى الممتلكات الأسبانية في (ريودي أورو) التي تم تحديددها في اتفاق ٢٧ يونيو سنة ١٩٠٠ فالمنطقة الأسبانية يحددها خط يسير معاذياً إلى درعه وسوس — حتى يصل البحر عند مصب ماسه (المادتان ٤ ، ٥) .

وتعهدت أسبانيا بالآلا تفعل أو تتغلى عن حق الإشراف على هذه المناطق لاجزئيا ولا لأى دولة أخرى . (المادة السابعة) .

وفي المنطقة الشمالية تعهدت أسبانيا بالآلا تقوم بعمل منفرد دون إستشارة فرنسا أولاً ، وهذا الشرط يظل نافذاً لمدة أقصاها خمس عشرة سنة ولا ينفقض هذا التعهد إلا في الظروف الآتية :

١ - إذا إنهار النظام السياسى للمغرب وإنهارت معه السلطة الشريفة .

٢ - إذا أصبحت المحافظة على الحالة الراهنة أمراً مستحيلاً بسبب عجز الحكومة الشريفة عن صيانة الأمن والنظام .

٣ - إذا ثبتت استحالة المحافظة على الحالة الراهنة لأى سبب آخر من طبيعته أن يكون موضوعاً للاتفاق بين فرنسا وأسبانيا (المادة الثالثة) .

أما النظام الدولى لطنجة فيظل قائماً (للمادة التاسعة) .

وبجانب هذه المواد توجد مواد تتعلق بالنظام الاجتماعى والإقتصادى ، فالمادتان ١٠ ، ١١ أجازتا التعاون الفرنسى الأسبانى فى بعض المشروعات التجارية وحرية تداول النقد الأسبانى وإنشاء المدارس الأسبانية .

ملاحظة : ظلت هذه البنود غير معروفة تماماً حتى نشرتها صحيفة (Le Matin) فى عددها الصادر بتاريخ ٨ نوفمبر ١٩١١ بعد أن حصلت عليها من مصدر لم تذكره .

النقط الأساسية في اتفاق الجزيرة

(٧ أبريل سنة ١٩٠٦)

(١٣٢ بنداً)

الفصل الأول : يقنول قوة البوليس ويتضمن مايلي :

١ — يجب وضع قوة البوليس تحت إشراف السلطان على أن يختار أفرادها من السكان الوطنيين وأن توزع على الموانئ التجارية الثمانية .

٢ — يقوم ضباط الصف الفرنسيون والأسبان بمساعدة السلطان في تنظيم هذه القوة على أن يكون استخدامهم لمدة خمس سنوات فقط ، أما الإجراءات التفصيلية فيعرض على الهيئة الدبلوماسية في طنجة للموافقة عليها .

٣ — لاتزيد قوات البوليس على خمسة آلاف ولا تقل عن ألفين .

٤ — يقوم بنك الدولة بتقديم الإعتمادات المالية اللازمة لنفقات هذه القوة .

٥ — يكون المفتش العام للبوليس من جنسية سويسرية .

٦ — ترسل نسخ من تقرير المفتش العام إلى طنجه ، كما أن لطنجه الحق في مطالبة المفتش العام بتقديم تقارير إذا دعت الحاجة .

٧ — مرتب المفتش العام يبحث فيما بعد .

٨ — عند التعاقد معه يبلغ ذلك إلى طنجه .

٩ — يعين في تطوان والعريش مفتشون أسبان ، وفي الرباط فرنسيون ،

وفي طنجة والدار البيضاء مفتشون من جنسيات مختلفة . كذلك يمين مفتشون فرنسيون في الموانئ المغربية الثلاثة الباقية .

ويتعلق الفصل الثانی والثالث : ببنك الدولة ويسمى « بنك المغرب » وله حق إصدار أوراق النقد - وبجانب ذلك يقوم بما يلي :

١ — له وحده الحق في عقد القروض القصيرة الأجل .

٢ — له أن يقدم قروضا للحكومة المغربية مقيدة بشروط .

٣ — يقول أعمال دار صك النقود .

٤ — يفتح حساباً منفصلاً لضريبة قدرها ٢٥ ٪ من القيمة الواردة الأجنبية .

ويخضع البنك للقوانين الفرنسية على أن تعقد إتفاقية ملحقة تحدد بالدقة العلاقات بين البنك وحكومة المغرب . ويكون مجلس إدارة البنك في طنجة . وهذا الفصل يضم في مجلته ٢٧ بنداً .

أما الفصل الرابع : فيتناول الإيرادات والضرائب (ومجموع مواد ١٨) وتنص إحدى المواد على أن يدفع الأجانب ضريبة « الترتيب » ، كما تنص مادة أخرى على حقهم في شراء الأراضي الزراعية وإقامة المباني . أما المواد الأقل أهمية فتتناول الإقتراحات المالية وغيرها .

والمادة ٦٦ ذات أهمية كبرى فهي تنحول الحكومة المغربية الحق في فرض ضريبة مؤقتة قدرها ٢٥ ٪ كرسوم جمركي على قيمة البضائع المستوردة ، على أن يخصص إيراد هذه الضريبة للأشغال العامة (وتكون عقودها تحت إشراف الهيئة الدبلوماسية) .

والفصل الخامس : يشمل المواد من ٧٧ إلى ١٠٥ ويختص بالمشارك .

والفصل السادس : يتناول الاشغال العامة والخدمات ويقرر ما يلي :

- ١ — لا يصح القنازل عن احد هذه الاشغال العامة أو الخدمات .
- ٢ — تحتفظ الدول الموقعة على العقد لنفسها بحق الإشراف على الإمتيازات الممنوحة لرءوس الأموال الأجنبية بحيث لا يكون من طبيعة هذه الإمتيازات أن تضعف سيطرة الحكومة المغربية على الخدمات العامة الرئيسية .

٣ — يجب على الحكومة المغربية أن تعرض جميع العقود على الهيئة الدبلوماسية .

٤ — للهيئة الدبلوماسية حق الإشراف على امتيازات التعدين والمهاجر والغابات وجميع المسائل المتعلقة بنزع الملكية .

أما الفصل السابع : والأخير فيتناول التنظيمات العامة الخاصة بالتصديق على الاتفاق .

معاهدة الحماية بين فرنسا والمغرب

(تم التوقيع عليها في فاس بتاريخ ٣٠ مارس سنة ١٩١٢)

لما كانت حكومة الجمهورية الفرنسية وحكومة صاحب الجلالة الشريفة
ترغبان في إقرار وضع سياسى لحكم المغرب ، يقوم على أساس من النظام
الداخلى والأمن العام ، ويهيىء الظروف لإدخال الإصلاحات وضمان التنمية
الاقتصادية للبلاد - فقد اتفقتا على ما يلى :

المادة الأولى — وافقت حكومة الجمهورية الفرنسية وصاحب الجلالة
السلطان على وضع نظام جديد لحكم المغرب يشمل الإصلاحات الإدارية
والقضائية والتعليمية والاقتصادية والمالية والعسكرية التى تراها الحكومة
الفرنسية ملائمة للعمل بها فى أراضى المغرب .

على أن يتضمن النظام الجديد المحافظة على الأوضاع الدينية واحترام
ما للسلطان من مقام سام تقليدى ، وممارسة الشعائر الإسلامية ، والمحافظة
على جميع النظم الإسلامية وخصوصا نظام الحبوس (الأوقاف) ، كما يتضمن
أيضاً تنظيم الخزن الشريف على أسس من الإصلاح .

سيتم التفاهم بين حكومة الجمهورية الفرنسية والحكومة الأسبانية بشأن
المصالح التى تستمدّها الحكومة الأسبانية من وضعها الجغرافى ومن ملكيتها
لأراضى على الساحل الغربى .

وبنفس الطريقة تحتفظ مدينة (طنجة) بوضعها الدولى الخاص المعترف
به والذى يحدد نظام الحكم المحلى القائم بها .

المادة الثانية — يوافق جلالة السلطان على أنه من الآن فصاعداً تشرع الحكومة الفرنسية — بعد إخطار المخزن مقدماً — في الإحتلال العسكرى لأراضى المغرب بالطريقة التى تراها ضرورية للمحافظة على النظام وتأمين المبادلات التجارية وأن تمارس جميع المهام ذات الصفة البولىسية فوق أراضى المغرب وفى مياهاه الإقليمية .

المادة الثالثة — تعهد حكومة الجمهورية الفرنسية بأن تقدم معونتها بصفة دائماً إلى صاحب الجلالة الشريفة ضد جميع الأخطار التى قد تهدد شخصه أو عرشه أو تعرض أمن بلاده للخطر ، كما تقدم نفس المعونة إلى وارث العرش وخلفائه .

المادة الرابعة — الإجراءات التى يقتضيها النظام الجديد للحماية يتم إعدادها بمرسوم يصدره صاحب الجلالة الشريفة أو الساطات التى يخولها حق النيابة عنه على أن يكون حق اقتراحها للحكومة الفرنسية . ويراعى اتباع نفس هذا النظام فيما يتعلق بوضع قوانين جديدة أو تعديل القوانين الحالية .

المادة الخامسة — يمثل الحكومة الفرنسية لدى صاحب الجلالة الشريفة مندوب (مقيم عام) وهذا المقيم العام يمثل جميع إحتصاصات حكومة الجمهورية فى المغرب ويسهر على تنفيذ الإنفاقية الحالية .

والمقيم العام هو طريق الإنصال الوحيد بين السلطان وممثلى الدول الأجنبية فى جميع العلاقات التى يرتبط بها هؤلاء الممثلون الأجانب مع الحكومة المغربية .

ويناط بالمقيم العام ، بوجه خاص ، جميع المسائل المتعلقة بالأجانب فى الإمبراطورية الشريفة وله حق التصديق على المراسيم التى يصدرها صاحب الجلالة الشريفة واصدارها بالنيابة عن الحكومة الفرنسية .

المادة السادسة — يقوم ممثلو فرنسا الدبلوماسيون والقنصليون بتمثيل المصالح المغربية والرعايا المغاربة في الخارج وحماية مصالحهم .

ويتعهد صاحب الجلالة الشريفة ألا يعقد إتفاقاً ذا طبيعة دولية دون الحصول مقدماً على موافقة الحكومة الفرنسية .

المادة السابعة — تحتفظ حكومة الجمهورية الفرنسية وحكومة صاحب الجلالة الشريفة لنفسهما بحق وضع أسس لنظام مالي جديد وذلك بإتفاق متبادل بينهما ، على ألا يخل ذلك بالحقوق الممنوحة لحاملي سندات القروض العامة المغربية ، وأن يكون من شأن هذا النظام أن يجعل من الممكن ضمان ما على الخزانة الشريفة من التزامات ، وأن يتولى جمع إيرادات الإمبراطورية الشريفة بانتظام .

المادة الثامنة — يصرح صاحب الجلالة الشريفة بأنه في المستقبل سيمتنع عن عقد قروض عامة أو خاصة بطريقة مباشرة ، كما يمتنع عن منح أى إمتياز مهما كانت طبيعته دون ترخيص بذلك من الحكومة الفرنسية .

المادة التاسعة — تعرض المعاهدة الحالية على حكومة الجمهورية الفرنسية للتصديق عليها على أن تسلم الوثيقة المصدق عليها إلى جلالة السلطان دون إبطاء .

واقراً بما تم الاتفاقات عليه حرر الموقعون أدناه هذا العقد ووضعوا إختامهم عليه .

فارس في ٣٠ مارس ١٩١٢ (١١ ربيع سنة ١٣٣٠) .

إمضاء

رينو

عبد الحفيظ

الاتفاقية الفرنسية المغربية

(في ٢ مارس سنة ١٩٥٦)

إن صاحب الجلالة سيدي محمد الخامس ملك المغرب وحكومة الجمهورية الفرنسية يعلنان عزمهما على تطبيق كل ما يتضمنه تصريح (لاسل سان كلو) المؤرخ بسادس نوفمبر سنة ١٩٥٥ تطبيقاً كاملاً ، وقد تحقق لديهما — لما اجتازه المغرب من التطور في ميدان الرقي — أن عقد الحماية المبرم في فاس والمؤرخ ٣٠ مارس سنة ١٩١٢ قد أصبح لا يتلاءم ومقتضيات الحياة المعاصرة ، وأنه لا يمكن من الآن فصاعداً للعلائق الفرنسية المغربية أن تبقى خاضعة لمقتضيات بنوده — وبناء على ذلك فإن حكومة الجمهورية الفرنسية تؤكد علانية إعترافها باستقلال المغرب الذي يقتضى بالأخص دبلوماسية وجيشاً ، كما تؤكد عزمها على أن تحترم وحدة تراب المغرب المضمونة بحكم المعاهدات الدولية وتعمل على احترامها .

وإن حكومة الجمهورية وصاحب الجلالة سيدي محمد الخامس ملك المغرب يصرحان أن المفاوضات التي أستهلّت في باريس بين المغرب وفرنسا وهما دولتان متساويتان وذاتا سيادة تهدف إلى إبرام أوافق جديدة تحدد الترابط بين البلدين في الميادين المشتركة فيها مصالحهما ، وتنظم على أساس الحرية والتساوى تعاونهما خصوصاً في شئون الدفاع والعلاقات الخارجية والاقتصاد والثقافة . وتضمن حقوق الفرنسيين المقيمين في المغرب وحرّياتهم وكذلك حقوق المغاربة المقيمين في فرنسا وحرّياتهم . وهذا في دائرة احترام سيادة البلدين . وقد اتفق كل من حكومة الجمهورية الفرنسية وصاحب الجلالة

سيدي محمد الخامس ملك المغرب على أن العلائق الجديدة بين فرنسا والمغرب ستقوم على مقتضيات البروتوكول الملحق بهذا التصريح المشترك ريثما يجرى العمل بالأوافق المشار إليها .

وقع عليه بوزارة الخارجية

الرئيس البكاي — والرئيس بينو

وتم التوقيع في نفس الوقت على البروتوكول الخاص بمدة الانتقال ويقضى :

أولا — يمارس جلالة السلطان السلطة التشريعية بكامل السيادة وبطلع ممثل فرنسا على الظواهر والقرارات ويبدى ملاحظاته عندما تمس هذه الظواهر بمصالح فرنسا ومصالح الفرنسيين والأجانب في الفترة الإنتقالية .

ثانيا — يتصرف جلالة سلطان المغرب في جيش وطني ، وفرنسا على استعداد لمساعدة هذا الجيش ، ووضعية الجيش الفرنسي الحالية ستبقى على ما هي عليه في المدة الإنتقالية .

ثالثا — ميادين التسيير التي حافظت عليها السلطات الفرنسية سيقع تسليمها بعد اتفاق يقع بين الطرفين .

والحكومة المغربية ممثلة في لجنة منطقة الفرنك التي هي الهيئة الإدارية المركزية للسياسة المالية لمجموع منطقة الفرنك كعضو له صوت في المداولات .

ومن جهة أخرى فان الضمانات التي يتمتع بها الموظفون المستخدمون الفرنسيون في المغرب سيحافظ عليها .

رابعا — يحمل ممثل الجمهورية الفرنسية بالمغرب لقب مندوب فرنسا
السامي .

وحرر في باريس في ٢ مارس ١٩٠٦ .

التوقيع	التوقيع
البسكاي مبارك	كريسقيان بينو

رابعاً - ليبيا

— ١٤ —

نص الإنذار الإيطالى

المقدم إلى رئيس الوزارة العثمانية (حقى باشا)

بشأن ليبيا

يا صاحب الدولة : ما انفكت الحكومة الإيطالية منذ سنين تذكر الباب العالى بضرورة ، وضع حد لسوء النظام ، وإهمال الحكومة العثمانية فى طرابلس ، وبنى غازى ، وإزالة هذه البلاد ما تتمتع به جميع أقسام أفريقية الشمالية . وهذا التغيير الذى يقتضيه التمدن يجعل المصالح الحيوية بحسب ما تستلزمه مصلحة إيطاليا فى أول درجة بالنظر لقصر المسافة بين تلك البلاد والشواطىء الإيطالية . وبالرغم من حسن مسلك الحكومة الإيطالية ، التى كانت دائماً موالية ومساندة لتركيا فى كثير من المسائل السياسية فى العهد الأخير ، وبالرغم من أعتدالها وصبرها حتى الآن كانت الحكومة العثمانية تجهل رغائبها فى طرابلس ، وفوق ذلك كانت جميع مشروعات الطليان فى تلك الأصقاع تلاقى دائماً مقاومة مطردة لا تحتمل .

فالحكومة العثمانية هى التى كانت تبدى عداً دائماً نحو الحركة الإيطالية الشرعية فى طرابلس وبنى غازى ، وما زالت كذلك حتى الآن . واقترحت الحكومة الملكية الإيطالية أن تتفاهم معها ، وأعلنت أنها ميالة إلى أن تمنح أى امتياز اقتصادى يتفق مع المعاهدات النافذة وشرف تركيا ومصالحها .

ولكن الحكومة الملكية الإيطالية لا تشعر الآن أنها فى أحوال موافقة

للدخول في المفاوضات بهذا الموضوع — المفاوضات التي برهن الاختبار على عدم نفعها ، وهي لا تشتمل على ضمانة للمستقبل ، ولن تكون إلا سبباً للاحتكاك والنزاع .

ومن جهة أخرى فقد وردت الأخبار إلى الحكومة الإيطالية من قنصليها في طرابلس ، وبني غازي تفيد أن الحالة هناك خطيرة جداً بسبب التحريض العام على الرعايا الإيطاليين ، ذلك التحريض الذي قواه الضباط وسائر موظفي الحكومة حتى أصبح خطراً شديداً لا على الإيطاليين فحسب بل على سائر الأجانب أيضاً على إختلاف جنسياتهم . ولما أصبحوا يمتحنون على حياتهم شرعوا يهجرون البلاد بسرعة .

ثم إن وصول النقالات العسكرية العثمانية إلى طرابلس زاد الحالة خطراً وحرّجهم أن الحكومة الملكية الإيطالية نبهت الحكومة العثمانية إلى نتائج السيئة من قبل . ولذا فالحكومة الملكية مضطرة إلى إتخاذ الإحتياطات اللازمة دفعا للخطر الناجم عنه .

ولما رأت الحكومة الإيطالية نفسها مضطرة إلى الحرص على شرفها ومصالحها — قررت أن تحتل طرابلس وبني غازي احتلالا عسكريا . هذا هو الحل الوحيد الذي تعول عليه إيطاليا .

والحكومة الملكية تنتظر أن تصدر الحكومة العثمانية أوامرها حتى لا تصادف إيطاليا في الإحتلال معارضة من رجال الحكومة العثمانية ولا تجد صعوبة في إنفاذ ما تريد إنفاذه ، وبعد ذلك تتفق الحكومتان على تقرير الحالة اللازمة .

وقد صدرت الأوامر للسفير الإيطالي في الآستانة بأن يلتمس جوابا جازما في هذه المسألة من الحكومة العثمانية في مدة أربع وعشرين ساعة

من تسليمه هذا البلاغ ، فإذا لم تجاوب عليه كانت الحكومة الإيطالية مضطرة إلى تنفيذ المشروعات المدبرة لضمان الإحتلال ، وترجو أن يبلغ جواب الباب العالي المنتظر في أربع وعشرين ساعة لنا على يد السفير العثماني في رومة .

في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١١ .

وزير الخارجية
سان چوليانو

معاهدة أوشى (لوزان)

بين الدولة العثمانية وإيطاليا

(٩ سبتمبر ١٩١٢)

لما كان جلالة ملك إيطاليا ، و جلالة سلطان العثمانيين يرغبان كل منهما كالأخر في إيقاف الحرب الدائرة بين الدولتين — فقد عينا مندوبيهما : فعين جلالة ملك إيطاليا المسيو بيترو برتوليني الحامل نشان تاج إيطاليا من الدرجة الأولى ، ونشان القديسين « موريس ولازار » من الدرجة الثانية والعضو في مجلس النواب ، والمسيو جويدو فوزيناتو الحامل نشان تاج إيطاليا من الدرجة الأولى ، ونشان القديسين « موريس ولازار » من الدرجة الثانية والعضو بمجلس النواب وفي مجلس الدولة ، والمسيو جيسب فولني الحامل نشان القديسين (موريس ولازار) من الدرجة الثالثة ونشان إيطاليا من الدرجة الثالثة .

وعين جلالة سلطان العثمانيين عطوفه محمد نابي بك الحامل النشان العثماني من الدرجة الأولى والمندوب فوق العادة والمعتمد المفوض ، وسعادة روم أو غلو فخر الدين بك الحامل النشان الحميدى من الدرجة الثانية ، والنشان العثماني من الدرجة الثالثة والمندوب فوق العادة والمندوب المفوض .

وقد تبادل أولئك المفوضون فحص أوراق اعتمادهم فوجدوها صحيحة قانونية ، واتفقوا على المواد الآتية :

المادة الأولى : تتكفل الدولتان أن تتخذتا — طالما تمضى المعاهدة — الإجراءات الضرورية لوقف رحى الحرب حالا، وسيرسل معتمدون خصيصيون إلى ساحل الحرب لتنفيذ ذلك .

المادة الثانية : تتكفل الحكومة العثمانية ، وحكومة ايطاليا بأن تصدرتا الأوامر حالا بعد إمضاء هذه المعاهدة باستقدام ضباطهما وجيوشهما وموظفيهما الملكيين — الأولى من طرابلس الغرب وبرقة ، والثانية من الجزر التي احتلتها في بحر ايجه .

ويجلبو الضباط والجيوش والموظفون الملكيون الايطاليون فعلا من الجزر المذكورة بعد جلاء الضباط والجيوش والموظفين العثمانيين عن طرابلس وبرقة .

المادة الثالثة : تتبادل الحكومتان الأمرى والرهائن بأسرع ما يمكن .

المادة الرابعة : تتكفل الحكومتان باصدار عفو عام تام — فتمنعو حكومة ايطاليا عن سكان طرابلس وبرقة ، والحكومة العثمانية عن سكان جزر بحر ايجه التابعين للسلطنة العثمانية الذين اشتركوا في الحرب أو الذين أسندت إليهم بعض أنهم بسببها ماعدا الجرائم المختصة بالحق العام بحيث لا يمكن محاكمة أى شخص من أى طبقة أو من أى فئة كانت ولا من شخصه أو أملاكه أو حقوقه بسبب أعماله السياسية أو العسكرية أو بسبب الآراء التي أبداه في مدة الحرب . ويطلق في الحال سراح الأشخاص الذين سجنوا أو نفوا بسبب ذلك .

المادة الخامسة : يعمل حالا بجميع المعاهدات والإنفاقات والعقود التي

عقدت أو كانت نافذة بين الفريقين المتعاقدين قبل إعلان الحرب مهما يكن جنسها أو نوعها والغاية منها .

وتعود حالة الحكومتين وراعاياهما إزاء بعضهما إلى مثل ما كانت عليه قبل وقوع الحرب .

المادة السادسة : تتكفل إيطاليا بأن تعقد مع الدولة العثمانية حينما تجدد معاهدتها التجارية مع الدول الأخرى — معاهدة تجارية على قاعدة الحق العام الأوروبي ، بمعنى أن تترك للدولة العثمانية كل استقلالها الاقتصادي ، وحق السير في أمورها التجارية والحركية على خطط الدول الأوروبية من دون أن تغل يدها الإمتيازات القنصلية والمعاهدات الأخرى المعمول بها الآن . ولا يعمل بهذه المعاهدة التجارية إلا حينما يعمل بالمعاهدات التجارية التي تعقدها الدولة العثمانية على هذه القاعدة مع الدول الأخرى . ثم إن إيطاليا تقبل من جهة أخرى رفع رسوم الجمر كعن البضائع في السلطنة العثمانية من ١١ إلى ١٥ ٪ في المائة باحتكار الأصناف الخمسة الآتية أو بزيادة الرسوم على ماتسلك منها وهي : البترول ، وورق السيجارة ، ثياب الكبريت ، والكحول ، وورق اللعب على شرط أن تشمل هذه المعاملة جميع واردات البلاد الأخرى في آن واحد ، وبلا تمييز ولا تفرق ، وتكون إدارة هذه الاحتكارات ملزمة بأخذ قسم من هذه الأصناف من الواردات الإيطالية بحيث يعين مقدار هذا القسم على قاعدة الوارد السنوى منها . ويكون ثمنها مطابقا لحالة السوق حين شرائها مع مراعاة جنس البضائع ومتوسط ثمنها في السنوات الثلاث السابقة لسنة إعلان الحرب .

فاذا رأت الدولة العثمانية أن تستعيض عن احتكار هذه الأصناف بفرض

ضريبة إضافية على ما يستهلك فقط ، وجب لفرض هذه الضريبة على الأصناف المذكورة الإيطالية أن تفرض أيضاً على حاصلات الدولة العثمانية والأمم الأخرى من هذه الأصناف .

المادة السابعة : تتكفل الحكومة الإيطالية بالغاء مكاتب البريد الإيطالية في السلطنة العثمانية حالما تلتقى الدول التي لها مثل هذه المكاتب في بلاد الدولة العثمانية — مكاتبها .

المادة الثامنة : لما كانت الدولة العلية تنوى مفاوضة الدول في مؤتمرات وبطريقة أخرى في إبطال الإمتيازات القنصلية من السلطنة العثمانية واستبدالها بنظام الحق الدولي — فإيطاليا تعلن من الآن رغبتها في تعويضها في ذلك تعويضاً صادقاً ، وتعترف بأحقية مقاصدها في هذا القبول .

المادة التاسعة : تعلن الدولة العثمانية أنها مستعدة أن تعيد الرعايا الإيطاليين للوظفين في مصالحها والذين اضطرت أن تفصلهم عنها حين إعلان الحرب إلى وظائفهم لإظهاراً لرضاها عن خدماتهم الصادقة لها ، وأن تدفع لهم رواتب الإستيداع عن الأشهر التي قضوها خارج وظائفهم ، ولا يضر هذا الاقتطاع عن الخدمة أقل ضرر بالمستخدمين الذين يستحقون معاشاً .

ثم تتكفل الحكومة العثمانية أيضاً أن تتوسط لدى المصالح التي لها علاقة بها مثل صندوق الديون العمومية ، وشركات السكك الحديدية والبنوك وغير ذلك حتى تعامل الرعايا الإيطاليين الذين كانوا في خدمتها نفس هذه العاملة .

المادة العاشرة : تتكفل حكومة إيطاليا أن تدفع سنوياً الى صندوق

الديون العمومية العثمانية لحساب حكومة جلالة السلطان مبلغاً معاولاً للبالغ الذي خص في السنوات الثلاث السابقة لإعلان الحرب من إيرادات ولائقي طرابلس وورقة لصندوق الديون العمومية العثمانية وبعين مقدار هذا المال السنوي معتمدان تعين إحداها حكومة إيطاليا ، والاخر الحكومة العثمانية ، فاذا وقع خلاف بين المعتمدين يرفع الأمر إلى مجلس تحكيم يرأسه مرجع بعين باتفاق الفريقين فإذا لم يتم الاتفاق على ذلك عين كل فريق من الفريقين دولة وعينت الدولتان مرجعاً ، ويحق لكل من حكومة إيطاليا وصندوق الديون العمومية بواسطة الحكومة السلطانية أن يطلب استبدال هذا المال السنوي بمبلغ تكون فائدته موازية للمال السنوي المذكور بمعدل ٤ ٪ .

وتعترف حكومة إيطاليا من الآن أن هذا المال السنوي لا يكون في حال من الأحوال أقل من مليوني فرنك إيطالي ، وهي مستعدة أن تدفع إلى صندوق الديون العمومية العثمانية رأس المال كله دفعة واحدة حالما يطلب منها ذلك .

المادة الحادية عشرة : يعمل بهذه المعاهدة من تاريخ إمضاءها .

ولهذه المعاهدة ملاحق ثلاثة :

الملحق رقم ١ :

منشور جلالة السلطان إلى سكان طرابلس وورقة :

لما كانت حكومتنا السنية في حالة يستحيل معها أن تسديكم للمساعدات التي تحتاجون إليها للدفاع عن وطنكم ، ولما كانت من الناحية الأخرى مهمته بضمان راحتكم وهنائكم حاضراً ومستقبلاً ، فرغبة منا في إثناء

مواصلة حرب مدمرة لـكم ولعائلاتكم ، وذات خطر على امبراطوريتنا ، وفي إدخال الهناء والسلام إلى وطنكم — قد منحكم إستقلالاً داخلياً مطلقاً وتاماً على من حقوق السيادة عليكم ، وستدار بلادكم بموجب قوانين جديدة وأنظمة خاصة يشترك رجالكم في إعدادها لكي تأتى مطابقة لحاجاتكم وعاداتكم ولقد عينت شمس الدين بك المعروف بصدق الخدمة ممثلاً لدى عندكم ومنحته لقب نائب السلطان ، وعهدت إليه المصالح العثمانية في بلادكم ، وذلك لمدة خمس سنوات مع احتفاظي بحق تجديدها أو تعيين غيره .

ولما كانت أمنيّتنا المحافظة على بقاء الأحكام الشرعية القائمة بينكم ، فقد احتفظنا بحق تعيين القاضى الذى يتولى تعيين نواب عنه من العلماء أبناء البلاد فيقضون بينكم طبقاً لما تقضى به الشريعة .

وستدفع رواتب القاضى من جانبنا ، ومثل ذلك راتب نائب السلطان . أما الموظفون الشرعيون الآخرون فتدفع رواتبهم من داخل البلاد .

الملحق رقم : ٢

منشور ملك إيطاليا إلى سكان طرابلس وبرقة :

عملاً بالقانون رقم ٣٨ الصادر يوم ٢٥ فبراير ١٩١٢ والذى يجعل طرابلس الغرب ، وبرقه خاضعين خضوعاً تاماً مطلقاً للسيادة الملكية الإيطالية ورغبة في التمهيد باعادة السلم إلى هاتين المقاطعتين ، وبناء على اقتراح مجلس الوزراء — أصدرنا للرسوم الآتى :

المادة الأولى : منح العفو التام للطرابلسيين والبرقاويين الذين اشتركوا في الحرب أو الذين أسندت إليهم بعض التهم بسببها ، ماعدا الجرائم المختصة بالحق

العام ، بحيث لا يمكن محاكمة أى شخص من أى طبقة أو أى فئة كانت ولا يمس شخصه أو أملاكه وحقوقه بسبب أعماله السياسية أو العسكرية ، أو بسبب الآراء التى أبدائها مدة الحرب ، ويطلق فى الحال سراح الأشخاص الذين سجنوا أو نفوا بسبب ذلك .

المادة الثانية : يظل أهالى طرابلس وبرقة معتمعين بتمام الحرية فى إقامة شعائر الدين الإسلامى كما كانوا فى الماضى ، ويواظبون على ذكر إسم جلالة السلطان الأعظم بصفته خليفة المسلمين فى الصلوات العامة ، ويعترف بالنيابة عنه للشخص الذى يعينه جلالته لذلك ، ويدفع راتب هذا النائب من الإيرادات المحلية ، وتحترم حقوق المصالح الدينية (الأوقاف) كما كانت فى الماضى ، ولا يوضع أقل عائق فى سبيل علائق المسلمين بقاضى القضاة رئيسهم الأمين يعينه شيخ الإسلام ، والنواب الذين يعينهم هو الذين تدفع رواتبهم من الإيرادات المحلية .

المادة الثالثة : ويعترف أيضاً لنائب السلطان المذكور بحماية مصالح السلطنة العثمانية والرعايا العثمانيين ، حسب ما صارت اليه فى الولاياتين المذكورتين بعد إصدار قانون ٢٥ فبراير ١٩١٢ .

المادة الرابعة : تعين بمرسوم ملكى لجنة يكون من أعضائها بعض أعضاء البلاد تقترح وضع الأنظمة المدنية والإدارية للولايتين ، على أن يستمددا من المبادئ الحرة ويقوما على احترام أخلاق البلاد وعوائدها .

الملحق رقم ٣

خاص بما يجب مع سكان جزائر بجاية .

الإتفاق السرى

وضع اتفاق سرى لهذه المعاهدة — هذا نصه :

للمادة الأولى : تتعهد حكومة الإمبراطورية العثمانية بأن تصدر فى خلال أيام من توقيع هذا الإتفاق على الأكثر فرماناً موجهاً الى الشعب الطرابلسى والبرقاوى بطابق الملحق رقم ١ .

المادة الثانية : يجب أن توافق الحكومة الملكية الإيطالية مقدماً على تعيين نائب السلطان والرؤساء الدينيين ، وأن تحدد رواتب هؤلاء الرؤساء ، ونائب السلطان باتفاق خاص بمقد بين الحكومتين وتدفع رواتبهم من الدخل المحلى ماعدا راتب القاضى ، فإن الحكومة العثمانية هى التى تدفعه ويجب الأيزيد عدد هؤلاء الرؤساء على ما كان عليه قبل إعلان الحرب .

المادة الثالثة : تتعهد الحكومة الإيطالية الملكية بأن تصدر فى خلال مدة ثلاثة أيام على الأكثر من نشر الفرمان الملكى المنصوص عليه فى المادة الأولى مرسوما ملكياً مطابقاً لنص الملحق رقم ٢ .

المادة الرابعة : تتعهد الحكومة العثمانية بأن تصدر فى خلال مدة ثلاثة أيام على الأكثر من نشر الفرمان الملكى المنصوص عليه فى المادة الأولى لإرادة ملكية طبقاً لنص الملحق رقم ٣ .

المادة الخامسة : عقب نشر المراسيم الثلاثة ذات الطرف الواحد المنصوص عليها فى ماتقدم - بوقع الفريقان المتعاقدان معاهدة عامة طبقاً لنص الملحق رقم ٤ .

المادة السادسة : ومن المتفق عليه طبعاً والمفهوم من هذا الإتفاق أن حكومة الامبراطورية العثمانية تتعهد أن لا ترسل ولا تسمح بارسال سلاح من تركيا إلى طرابلس الغرب وبرقة أو ذخائر أو أسلحة أو ضباط أو جنود .

المادة السابعة : لاتطالب حكومة من الحكومتين الأخرى بما انفقته ، و نفقات على إطعام أسرى الحرب وإيوائهم .

المادة الثامنة : يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان ببقاء هذا الإتفاق سرياً على أن يكون لكل حكومة حق الخيار في إعلانه عند تقديم المعاهدة للنصوص عليها في الملحق الرابع إلى برلمانها .

يوضع هذا الإتفاق موضع التنفيذ يوم توقيعه .

المادة التاسعة : ومن المتفق عليه أن الملاحق للنصوص عليها في هذا الإتفاق تعتبر جزءاً متكاملاً له .

كتب في لوزان بنسختين في ١٥ أكتوبر ١٩٢١ .

جيسب فولبي	جويدو فوزينانو	بيetro بير توليني
محمد نابي	روم أوغلو فخر الدين .	

وتنفيذاً لما جاء في الإتفاق السرى المذكور — فقد وضعت نصوص المعاهدة ، ووقع عليها مندوبو الحكومتين في الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر يوم ١٨ من أكتوبر سنة ١٩١٢ .

ب - جداول بالأسر الحاكمة

(١) أمراء دولة الأغالبة

الأمير	تاريخ التولية
إبراهيم بن الأغلب	٨١٨٤ — ٨٠٠ م .
أبو العباس عبد الله الأول	٨١٩٧ — ٨١٢ م .
زيادة الله الأول	٨٤٠ — ٨١٧ م .
أبو عقال الأغلب	٨٢٢٣ — ٨٣٨ م .
أبو العباس محمد الأول	٨٢٢٦ — ٨٤١ م .
أبو إبراهيم أحمد	٨٢٤٢ — ٨٥٦ م .
زيادة الله (الثاني)	٨٢٤٩ — ٨٦٣ م .
أبو الغرانيق محمد (الثاني)	٨٢٥٠ — ٨٦٤ م .
إبراهيم الأصغر (الثاني)	٨٢٦١ — ٨٧٥ م .
أبو العباس عبد الله (الثاني)	٨٢٨٩ — ٩٠٢ م .
زيادة الله (الثالث)	٨٢٩٠ — ٩٠١ م .

(٢) أئمة دولة الأدارسة وخلفاؤها

الإمام أو الخليفة	تاريخ التولية
إدريس الأول بن عبد الله الكامل	٨١٧٢ — ٧٨٩ م .
إدريس الثاني بن إدريس الأول	٨١٧٧ — ٧٩٣ م .
محمد بن إدريس الثاني	٨٢١٣ — ٨٢٨ م .
علي الأول بن محمد	٨٢٢١ — ٨٣٦ م .
يحيى الأول بن محمد	٨٢٣٤ — ٨٤٩ م .

الإمام أو الخليفة	تاريخ التولية
يحيى الثانى بن يحيى الأول	٨٢٣٤ — ٨٤٩ م .
على الثانى بن عمر	» »
يحيى الثالث بن القاسم	» »
يحيى الرابع بن إدريس	٨٢٩٢ — ٩٠٤ م .
الحسن بن محمد بن القاسم الحجام	٨٣١٠ — ٩٢٢ م .
موسى بن أبى العافية — معتصب	٨٣١٣ — ٩٢٦ م .
القاسم كنون بن إبراهيم بن محمد	— —
أبو العيش أحمد بن كنو	٨٣٣٧ — ٩٤٨ م .
الحسن بن كنون	٨٣٤٣ — ٩٥٤ م .

(٣) الخلفاء العبيديون

الخليفة	تاريخ التولية
عبد الله المهدى	٨٢٩٧ — ٩٠٩ م .
أبو القاسم محمد (القائم بأمر الله)	٨٣٢٢ — ٩٣٣ م .
الطاهر إسماعيل (المنصور)	٨٣٣٤ — ٩٤٥ م .
أبو التميم معد (المعز لدين الله)	٨٣٤١ — ٩٥٢ م .

(٤) أمراء الدولة الزيرية الصنهاجية

بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى	٨٣٦١ — ٩٧١ م .
أبو الفتح المنصور بن بلكين	٨٣٧٣ — ٩٨٤ م .
أبو سناد باديس بن المنصور	٨٣٨٦ — ٩٩٦ م .
المعز بن باديس	٨٤٠٦ — ١٠١٦ م .

(٥) ملوك الدولة الحمادية

الملك	تاريخ توليته
حماد بن بلكين بن زيري	٨٣٩٨ — ١٠٠٧ م.
القائد بن حماد	٨٤١٩ — ١٠٢٨ م.
محسن بن القائد	٨٤٤٦ — ١٠٥٤ م.
بلكين بن محمد بن حماد	٨٤٤٧ — ١٠٥٥ م.
الناصر بن دلتاس	٨٤٥٤ — ١٠٦٢ م.
المنصور بن الناصر	٨٤٨١ — ١٠٨٩ م.
باديس بن المنصور	٨٩٨ — ١١٠٤ م.
العزيز بالله بن المنصور	٨٤٩٨ — ١١٠٥ م.
يحيى بن العزيز بالله	٨٥١٥ — ١١٢١ م.

(٦) سلاطين الرابطين

(٤٤٨ — ١٠٥٦ / ٨٥٤١ — ١١٤٧ م)

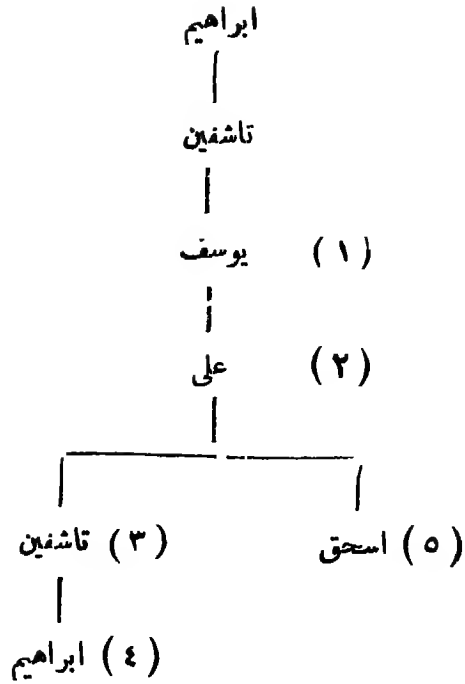
السلطان	تاريخ توليته
(١) يوسف بن تاشفين	٨٤٦٥ — ١٠٧٣ م.
(اعترف باشتراك ابن بكر بن عمر معه في الحكم حتى سنة ٨٠ هـ)	
انفرد بالحكم	٨٤٨٠ — ١٠٨٧ م.
(٢) علي بن يوسف	٨٥٠٠ — ١١٠٦ م.
(٣) تاشفين بن علي	٨٥٣٧ — ١١٤٣ م.

٨٥٤١ — ١١٤٦ م.

(٤) ابراهيم بن تاشفين

٨٥٤٧ — ١١٤٧ م.

(٥) اسحق بن علي بن يوسف



(٧) الخلفاء الموحدون

تاريخ التولية

الخليفة

- محمد المهدي بن عبد الله تومرت (صاحب الدعوة) ٥١٥ هـ - ١٢٢١ م .
(١) عبد المؤمن بن علي ٥٢٤ هـ - ١١٣٠ م .
(٢) أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ٥٥٨ هـ - ١١٦٣ م .
(٣) أبو يوسف يعقوب (المنصور) ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م .
(٤) محمد الناصر بن يعقوب ٥٩٥ هـ - ١١٩٩ م .
(٥) أبو يعقوب يوسف (المستنصر) ٦١١ هـ - ١٢٢٠ م .
(٦) عبد الواحد بن يعقوب ٦٢٠ هـ - ١٢٢٣ م .
(٧) عبد الله العادل بن يعقوب المنصور ٦٢١ هـ - ١٢٢٤ م .
(٨) يحيى بن الناصر (المعتمد) ٦٢٤ هـ - ١٢٢٧ م .
(٩) إدريس المأمون بن المنصور ٦٣٠ هـ - ١٢٣٢ م .
(١٠) عبد الواحد الرشيد بن إدريس
(١١) أبو الحسن علي السعيد
(١٢) أبو صفر - عمر المرتضى
(١٣) أبو العلا الدائن

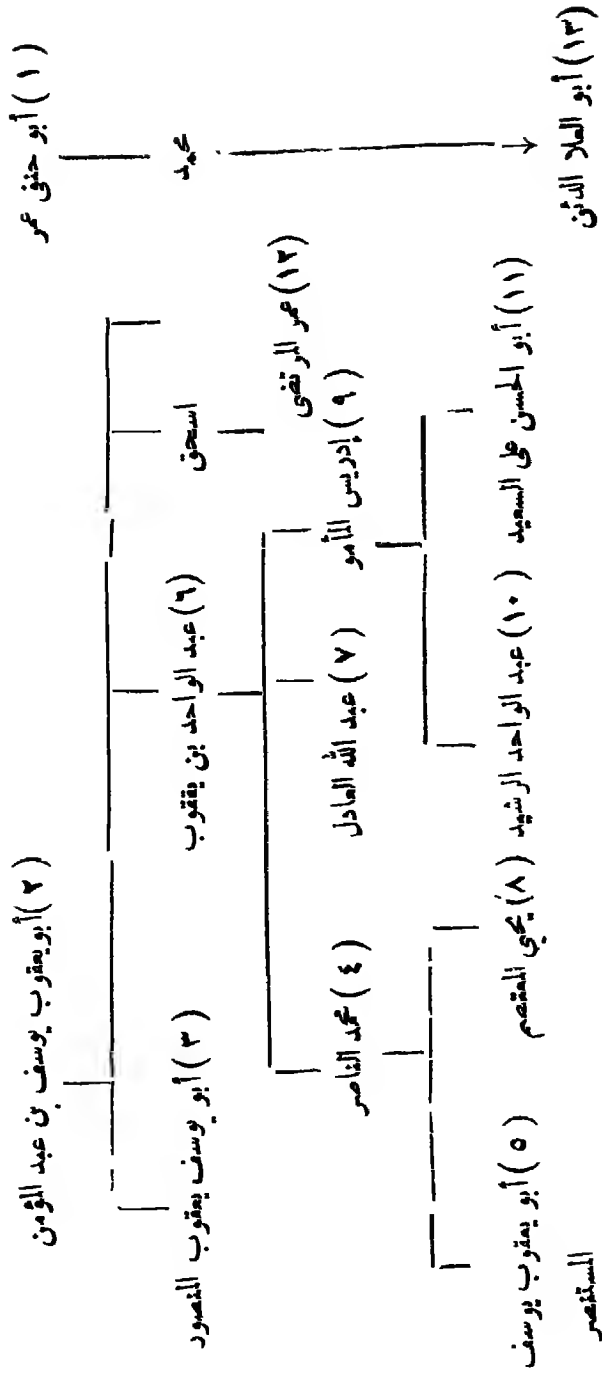
الدولة المو

أولاً : محمد المهدي محمد عبد الله تومرت

ثانياً : الأسرة المؤمنية

الدولة الموحدية (الأسرة المؤمنية)

(١) عبد المؤمن بن علي



(٨) ملوك الدولة الحفصية

تاريخ التولية	الملك
٥٦٢٧ - ١٢٢٩ م.	أبو زكريا يحيى الأول
٥٦٤٧ - ١٢٤٩ م.	أبو عبد الله محمد الأول (المنتصر)
٥٦٧٥ - ١٢٧٧ م.	أبو زكريا يحيى الثاني (الوائق)
٥٦٧٨ - ١٢٧٩ م.	أبو إسحق إبراهيم - الأول
٥٦٨١ - ١٢٨٢ م.	أحمد ابن مرزوق بن أبي عطوة (الدعى)
٥٦٨٣ - ١٢٨٤ م.	أبو حفص عمر - الأول (المستنصر)
٥٦٨٣ - ١٢٨٤ م.	أبو زكريا يحيى المنتخب لإحياء دين الله
٥٦٩٤ - ١٢٩٥ م.	أبو عبد الله محمد - الثاني (المنتصر)
٥٧٩ - ١٣٠٩ م.	أبو بكر - الأول (الشهيد)
٥٧٠٩ - ١٣٠٩ م.	أبو البقاء خالد - الأول (الناصر)
٥٧١٧ - ١٣١٧ م.	أبو يحيى زكرياء اللحياني
٥٧١٧ - ١٣١٧ م.	أبو ضربة محمد - الثالث (المستنصر)
٥٧١٨ - ١٣١٨ م.	أبو يحيى أبو بكر - الثاني (المتوكل)
٥٧٤٧ - ١٣٤٦ م.	أبو حفص عمر الثاني
٥٧٤٩ - ١٣٤٨ م.	أبو العباس أحمد الأول
٥٧٥١ - ١٣٥٠ م.	أبو إسحق إبراهيم الثاني (المستنصر)
٥٧٧٠ - ١٣٦٨ م.	أبو البقاء خالد - الثاني

تاريخ القولية

الملوك

- | | |
|-----------------|--|
| ٨٧٧٢ — ١٣٧٠ م . | أبو العباس أحمد الثاني (المستنصر) |
| ٨٧٩٦ — ١٣٩٣ م . | أبو فارس عبد العزيز (المتوكل) |
| ٨٨٣٨ — ١٤٣٤ م . | أبو عبد الله محمد - الرابع (المنتصر) |
| ٨٨٣٩ — ١٢٣٥ م . | أبو عمرو عثمان |
| ٨٨٩٣ — ١٤٨٨ م . | أبو زكرياء يحيى - الثالث . |
| ٨٨٩٩ — ١٤٩٣ م . | أبو عبد الله محمد - الخامس (المتوكل) |
| ٨٩٣٢ — ١٥٢٥ م . | أبو عبد الله محمد الحسن بن محمد الخامس |
| ٨٩٤٨ — ١٥٤١ م . | أبو العباس أحمد - الثالث - ابن الحسن |
-

(٩) الدولة الزيانية

(في تلمسان)

تاريخ التولية

الدور الأول

٥٦٣٣ - ١٢٣٦ م

أبو يحيى (يغمر لاسن بن زيان)

٥٦٨١ - ١٢٨٣ م

أبو سعيد عثمان بن يغمر لاسن

٥٧٠٣ - ١٣٠٤ م

أبو زيان محمد - الأول - بن عثمان

٥٧٠٧ - ١٣٠٨ م

أبو حو موسى الأول - بن عثمان

٥٧١٨ - ١٣١٨ م

أبو تاشفين عبد الرحمن الأول بن موسى

الدور الثاني

٧٤٩ - ١٣٤٨ م

أبو سعيد عثمان (الثاني) بن عبد الرحمن

٥٧٤٩ - ١٣٤٨ م

أبو ثابت الزعيم بن عبد الرحمن

٥٧٦٠ - ١٣٥٩ م

أبو حو موسى الثاني بن يوسف

٥٧٦٠ - ١٣٥٩ م

أبو زيان محمد الثاني بن عثمان

٥٧٩١ - ١٣٨٩ م

أبو تاشفين عبد الرحمن الثاني

٥٧٩٥ - ١٣٩٣ م

أبو ثابت يوسف بن عبد الرحمن

٥٧٩٦ - ١٣٩٤ م

أبو الحجاج يوسف بن موسى

٥٧٩٦ - ١٣٩٤ م

أبو زيان محمد الثاني بن موسى

٥٨٠١ - ١٣٩٨ م

أبو محمد عبد الله الأول بن موسى

٥٨٠٤ - ١٤٠١ م

أبو عبد الله محمد الثالث الوائلي بن موسى

٥٨١٣ - ١٤١١ م

عبد الرحمن الثالث بن خوله

٥٨١٤ - ١٤١١ م

السعيد بن أبي حو موسى

٨٨١٤ — ١٤١٢ م	أبو مالك عبد الواحد بن موسى
٨٨٢٧ — ١٤٢٤ م	أبو عبد الله محمد الرابع بن الحمرة
٨٨٣١ — ١٤٢٨ م	أبو مالك عبد الواحد (ثانياً)
٨٨٣٤ — ١٤٣١ م	أبو العباس أحمد العتصم العاقل بن موسى
٨٨٦٦ — ١٤٦٢ م	أبو ثابت محمد الخامس
٨٨٩٠ — ١٤٨٥ م	تاشفين بن أبي ثابت
٨٨٩٠ — ١٤٨٥ م	أبو ثابت محمد السادس
٨٩٠٢ — ١٤٩٦ م	أبو عبد الله محمد السابع
٨٩٠٩ — ١٥٠٣ م	أبو حمر موسى الثالث أبو قلمون

(١٠) الدولة المرينية

تاريخ التولية

٨٦٦٧ — ١٢٦٨ م	يعقوب بن عبد الحق (المنصور)
٨٦٨٥ — ١٢٨٦ م	يوسف بن يعقوب (الناصر لدين الله)
٨٧٠٦ — ١٣٠٦ م	عامر بن عبد الله (أبو ثابت)
٨٧٠٨ — ١٣٠٨ م	سليمان بن عبد الله
٨٧١٠ — ١٣١٠ م	أبو سعيد عثمان بن يعقوب
٨٧٣١ — ١٣٣٠ م	أبو الحسن علي بن أبي سعيد (المنصور بالله)
٨٧٥١ — ١٣٥٠ م	أبو عنان فارس بن أبي الحسن (في حياة والده)
	أبو زيان محمد بن أبي عنان (« « « «) خلع وخنق
	أبو بكر بن أبي عنان « « « « مات غريقاً بعد سنتين ، ٥٠ يوماً
٨٧٦٠ — ١٣٥٦ م	أبراهيم بن علي

١٣٦١ — ٨٧٦٢ م	تاشفين بن علي
١٣٦١ — ٨٧٦٢ م	محمد بن يعقوب
١٣٦٥ — ٨٧٦٧ م	عبد العزيز بن الحسن
١٣٧٢ — ٨٧٧٤ م	محمد بن عبد العزيز
١٣٧٣ — ٨٧٧٥ م	أبو العباس بن إبراهيم (أحمد ابن إبراهيم) وخلق
١٣٨٤ — ٨٧٨٦ م	موسى بن أبي عنان
١٣٨٦ — ٨٧٨٨ م	محمد بن أبي العباس (خلق بعد ٤٢ يوما)
١٣٨٦ — ٨٧٨٨ م	أبو زيان محمد بن أبي الفضل (خلق بعد ١٠ أيام)
١٣٨٧ — ٨٧٨٩ م	أبو العباس السابق (أحمد بن إبراهيم) ثانية
١٣٩٦ — ٨٧٩٩ م	عبد العزيز بن أبي العباس
١٣٩٧ — ٨٨٠٠ م	عبد الله بن أبي العباس
١٣٩٨ — ٨٨٠١ م	أبو سعيد بن أبي العباس
١٤٢٨ — ٨٨٣١ م	عبد الحق بن أبي سعيد

(١١) الدولة الوطاسية

(عاصمتها فاس)

تاريخ التوليد

١٤٧٢ — ٨٨٧٦ م	محمد الشيخ بن أبي ذكرياء
١٥٠٤ — ٨٩١٠ م	محمد بن محمد الشيخ (البرتغالي)
١٥٢٤ — ٨٩٣١ م	أبو حسونه علي بن محمد الشيخ (خلق ثم عاد للملك)
١٥٢٤ — ٨٩٣١ م	أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ
١٥٥٣ — ٨٩٦١ م	أبو حسونه

(١٢) الدولة السعدية

تاريخ التولية

٨٩١٥ — ١٥٠٩ م	أبو عبد الله القائم بأمر الله
٨٩٢٣ — ١٥١٢ م	أبو العباس أحمد - الأعرج - (بويح في حياة أبيه)
٨٩٤٦ — ١٥٣٩ م	أبو عبد الله الشيخ - المهدي
٨٩٤٦ — ١٥٣٩ م	أبو محمد عبد الله الغالب بالله
٨٩٦٥ — ١٥٥٦ م	أبو عبد الله المتوكل على الله (السلوخ)
٨٩٨١ — ١٥٧٣ م	أبو مروان - عبد الملك
٨٩٨٦ — ١٥٧٨ م	أبو العباس أحمد المنصور - الذهبي
٨١٠١٢ — ١٦٠٣ م	زيدان بن أحمد
٨١٠٣٧ — ١٦٢٧ م	عبد الملك بن زيدان - أبو مروان
٨١٠٤٠ — ١٦٣٠ م	الوليد بن زيدان
٨١٠٤٥ — ١٦٣٥ م	محمد بن زيدان
٨١٠٦٣ — ١٦٥٢ م	أبو العباس أحمد

الدولة المسميانية

١ - أبو عبد الله التميمي

٩٢٣ هـ - ٩١٥ هـ

٣ - أبو عبد الله الشيخ - المهدى

٩٤٦ هـ - ٩٦٥ هـ

٢ - أبو العباس أحمد الأعرج

٩٢٣ هـ - ٩٤٦ هـ

٤ - عبد الله النائب بالله

٩٦٥ هـ - ٩٨١ هـ

٦ - أبو مروان عبد الملك

٩٨٣ هـ - ٩٨٦ هـ

٧ - أبو العباس أحمد المنصور

٩٨٦ هـ - ١٠١٢ هـ

عبد المؤمن

٥ - أبو عبد الله التوكل على الله

٩٨١ هـ - ٩٨٣ هـ

الأمون

أبو فارس

٨ - زيدان

١٠١٣ هـ - ١٠٣٦ هـ

١٢ - أحمد

١٠٦٣ هـ - ١٠٦٥ هـ

١١ - محمد

١٠٤٥ هـ - ١٠٦٣ هـ

١٠ - الوليد

١٠٤٥ هـ - ١٠٤٥ هـ

٩ - عبد الملك

١٠٣٧ هـ - ١٠٤٥ هـ

١٥ — الدولة العلوية

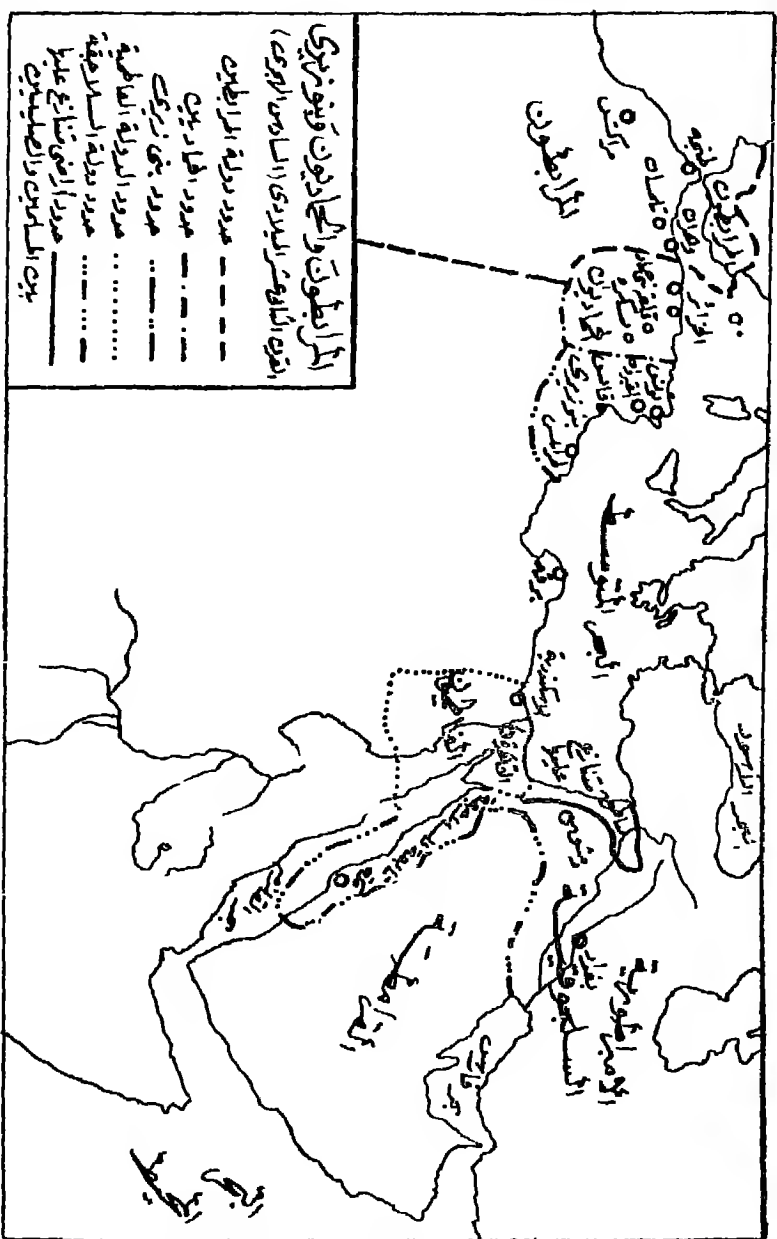
تاريخ التولية

- المولى الرشيد بن الشريف العلوى الحسنى
أبو الفداء اسماعيل بن الشريف الحسنى
١٠٥٠ هـ — ١٦٤٠ م
- (المولى اسماعيل)
١٠٨٢ هـ — ١٦٧١ م
- أبو العباس أحمد الذهبي بن اسماعيل (خلع ثم أعيد)
١١٣٩ هـ — ١٧٢٦ م
- عبد الملك بن اسماعيل
١١٤٠ هـ — ١٧٢٧ م
- المولى عبد الله اسماعيل
(خلع ثم أعيد نحو خمس مرات)
١١٤١ هـ — ١٨٢٨ م
- أبو الحسن علي بن اسماعيل (خلع)
١١٤٧ هـ — ١٧٣٤ م
- أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (خلع)
١١٥١ هـ — ١٧٣٨ م
- المستضىء بن اسماعيل (خلع)
زين العابدين بن اسماعيل
- (خلع بعد خمسة شهور)
١١٥٣ هـ — ١٧٤٧ م
- المولى محمد بن عبد الله
١١٧١ هـ — ١٧٥٧ م
- المولى يزيد بن محمد بن عبد الله
١٢٠٤ هـ — ١٧٨٩ م
- أبو الربيع المولى سليمان بن عبد الله
١٢٠٦ هـ — ١٧٩١ م
- المولى عبد الرحمن بن هشام
١٢٣٨ هـ — ١٨٢٢ م
- المولى محمد بن عبد الرحمن
١٢٧٦ هـ — ١٨٥٩ م
- المولى الحسن بن محمد
١٢٩٠ هـ — ١٨٧٣ م

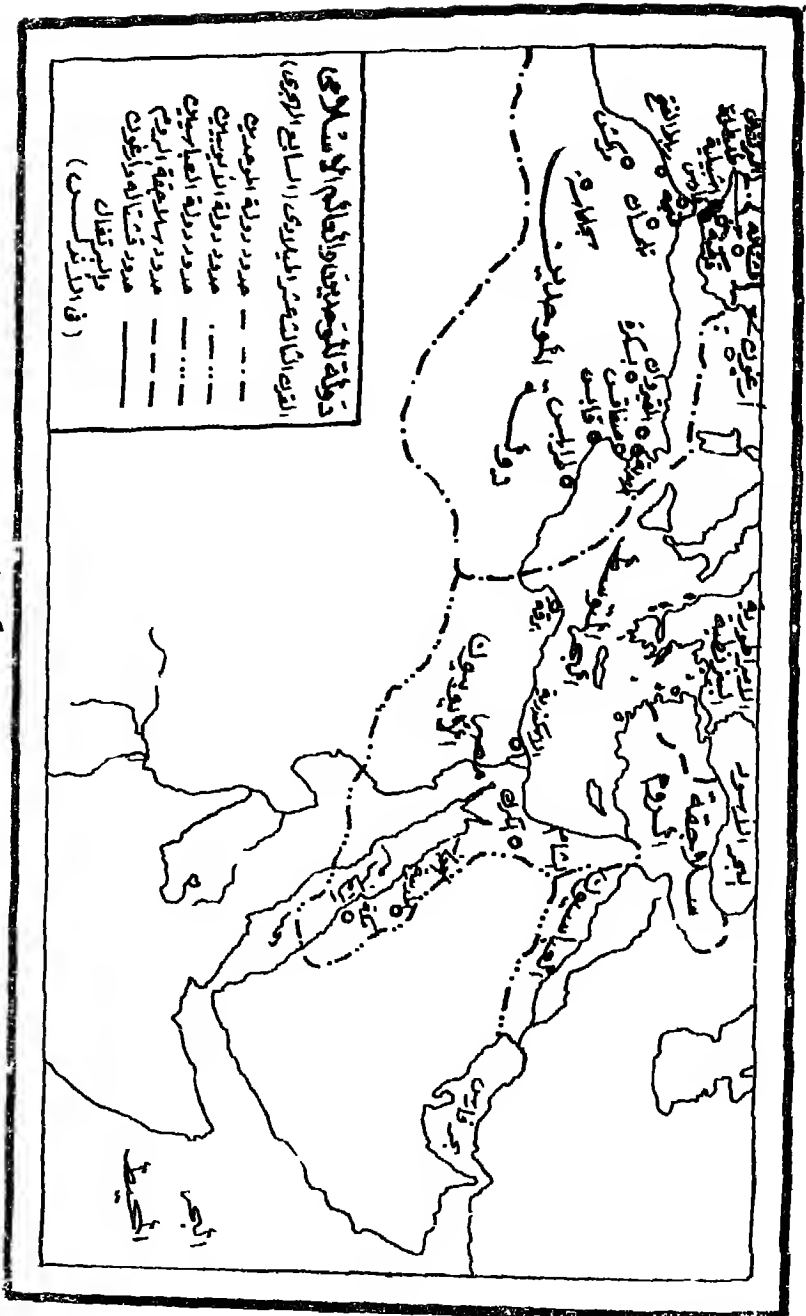
تاريخ التولية

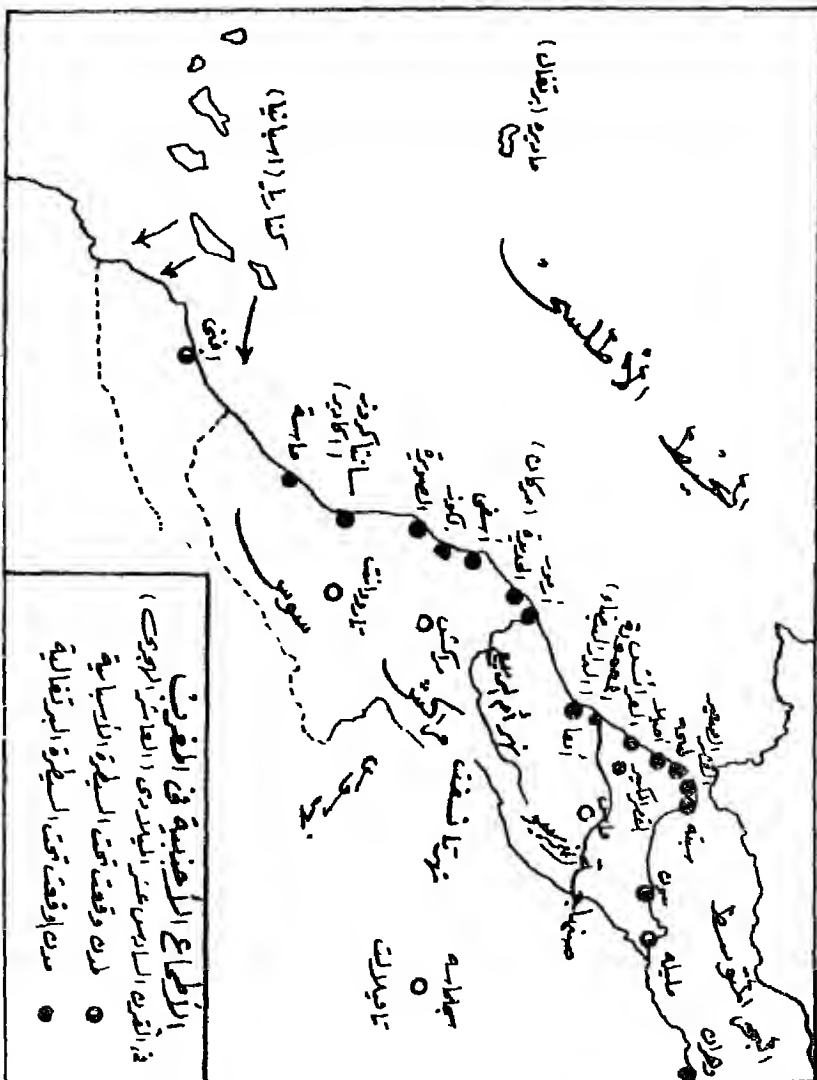
المولى عبد العزيز بن الحسن	١٣١١ هـ — ١٨٩٣ م
المولى عبد الحفيظ بن الحسن	١٣٢٥ هـ — ١٩٠٧ م
المولى يوسف بن الحسن	١٣٣٠ هـ — ١٩١١ م
السلطان عبد الله محمد بن يوسف	١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م
الملك الحسن الثانى	١٣٨١ هـ — ١٩٦١ م

ج خرائط المراحل التاريخية التي مرت بها المنطقة



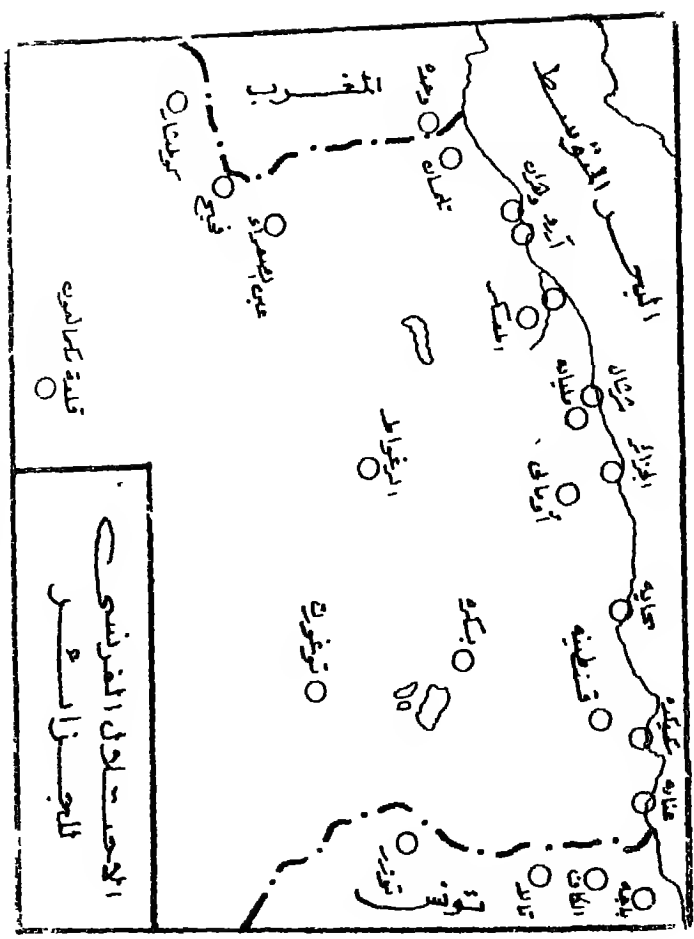
الملوك والشعوب والديون والنفوس
 انقوت الملوكة والديون (السادة والديون)
 ----- حدود دولة المملوكين
 ----- حدود المملوكين
 ----- حدود بني زكريا
 حدود الدولة العثمانية
 حدود دولة السلطنة
 ----- حدود ارضي شام وبلاد
 بلاد المسلمين والصليبيين





المطامع الضمنية في المغرب
في القرن السادس عشر الميلادي (العاشرون الهجري)

١٧ لم ترفعنا تحت السجرة المباركة



(شكل ١١)



(شكل ١٢)

د - المراجع

أولا - مراجع التمهيد

(المغرب قبل العصر الحديث)

١ - ابن أبي شنن (ناشر) : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية
(المؤلف مجهول) - الجزائر ١٩٢٠ .

٢ - ابن الخطيب : أعمال الإعلام - القسم الثالث (تحقيق العبادي ،
ابراهيم الكتاني) .

٣ - ابن خلدون ، عبد الرحمن (٨٠٨ هـ) : كتاب العبر (القسم المتعلق
بالدول الإسلامية بالمغرب) (الجزائر ١٨٤٧) .

٤ - ابن عبد الحكم (٢٦٧ هـ) : فتوح مصر وأخبارها (ليدن ١٩٢٠ م)

٥ - ابن عذارى المراكش ، أبو العباس أحمد بن محمد (٧١٢ هـ) : البيان
المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١ ، ٢ (نشر دوزي)

(نشر دوزي الجزء الأول من الكتاب المتعلق بتاريخ المغرب إلى قيام
دولة المرابطين ، ونشر الجزء الثاني الخاص بالأندلس حتى وفاة ابن أبي عامر
بليدن فيما بين ١٨٤٨ ، ١٨٤٩ م - ونشرت بيروت عام ١٩٥٠ م طبعة تجارية
سقيمة ، وقد نشر ليلي بروفنسال وكولان ١ ، ٢ مصححين من مخطوط
مغربى عثرا عليه ، كما نشر بروفنسال قطعة أخرى من الجزء الثانى من مخطوط
بقاس ، وهى خاصة بتاريخ الأندلس حتى ٤٧٨ هـ ، وبين عامى ١٩٦٠ ، ١٩٧٣ -
نشرت كلية الآداب بالرباط الجزء الثالث وهو يتعلق بتاريخ الأندلس
والمغرب العربى) .

- ٦ — ابن مرزوق ، عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب (٧٨٢ هـ) : المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن (الأصل بخزانة الاسكوريال) ، ومنه صورة بالخزانة العامة بالرباط برقم (١١١ ق) ، وقد نشر طرف منه بمجلة معهد الدراسات العليا المغربية بالرباط — المجلد الخامس عام ١٩٢٥ م .
- ٧ — ابن مرزوق : البيان الحسن في دولة علي أبي الحسن المريني (مخطوط بدار الوثائق بالرباط)
- ٨ — البكري ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن أبي مصعب البكري (٤٨٧ هـ) : المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك) (باريس ١٩١١) .
- ٩ — ارنولد ، توماس : الدعوة إلى الإسلام (ترجمة حسن ابراهيم حسن ، وعبد الحميد عابدين - القاهرة ١٩٤٧ م)
- ١٠ — اسماعيل بن الأحمر (٨٠٧ هـ) : روضة النسر في دولة بني مرين (المطبعة المملوكية بالرباط - ١٩٦٢ م) .
- ١١ — البلاذري (٢٦٠ هـ) : فتوح البلدان .
- ١٢ — التهامي الوزاى : المغرب الجاهلي (تطوان ١٣٦٦ هـ)
- ١٣ — الجيلالي ، عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام (١٩٥٤)
- ١٤ — الرقيق القيرواني : تاريخ أفريقية والمغرب (قطعة منه تحقيق المنجي السلمي - تونس ١٩٦٨ م)

- ١٥ — السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير > ٢ (القاهرة ١٩٦٦ م).
- ١٦ — الناصري ، أبو العباس أحمد بن خالد : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدار البيضاء ١٩٥٥) الأجزاء الأربعة الأولى .
- ١٧ — حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي > ٣ ، > ٤ (القاهرة ١٩٦٥)
- ١٨ — حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية .
- ١٩ — عبد الواحد المراكشي : المعجب في تاريخ المغرب (١٩٤٩)
- (عاصر المؤلف دولة الموحدين ، وقد تناول الكتاب تاريخ المغرب الكبير إلى أواخر الربع الأول من القرن السابع الهجري - ولد المؤلف في مراکش سنة ٥٨١ هـ في بدء حكم أبي يوسف المنصور الموحدي ، وغادر مراکش إلى فاس ، ثم سافر إلى الأندلس ، وفي عام ٦١٣ هـ سافر إلى مصر والحجاز والشام ، ثم بغداد ، والتقى بوزير من خاصة أمير المؤمنين الناصر لدين الله العباسي فأملى عليه كتابه هذا الذي فرغ منه يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة ٦٢١ هـ - لاستجابة لرغبة الوزير العباسي) .
- ٢٠ — علي بن أبي زرع الفاسي : الدخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية (دار المنصور بالرباط ١٩٧٢ م)
- ٢١ — علي بن أبي زرع الفاسي : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ، وتاريخ مدينة فاس (دار المنصور بالرباط ١٩٧٣ م) .
- (هناك خلاف حول المؤلف ، ولكن المرجح أنه علي ابن أبي زرع - كما يذهب بعض معاصريه أو القريبين من زمانه مثل الجزناني في (أخبار

زهرة الآس) ، والخطيب السلمي في (الإحالة) ، وابن خلدون في (العبر
وديان المبتدأ والخبر) — وقد تناول تاريخ العرب عموماً وقاس خصوصاً منذ
بداية الدولة الإدريسية إلى سنة ٧٣٦ هـ من عهد السلطان المريني عثمان بن
يعقوب عبد الحق — المشهور بأبي سعيد) .

٢٢ — الفلقشندى : صبح الأعش في صنعة الإنشاء ٨ .

٢٣ — محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس
(حزبان ، القاهرة ١٩٦٤)

٢٤ — محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتعصرين
(القاهرة ١٩٦٦)

دوريات :

مجلة هسبريس (Hesperis) المجلد الثامن عشر سنة (١٩٣٤)

ثانياً - الأَطْمَاع البرتغالية والأسبانية

في المغرب العربي

وثائق ومخطوطات :

١ — باللغة العربية :

١ — الحوات ، الربيع سليمان بن محمد العلمي الشفشاوني :

البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية اللاتية (مخطوط

بالخزانة العامة - بالرباط - برقم ٢٦١ د)

٢ — الزياتي ، عبد العزيز الحسن المهدي (١٦٤٦) :

الجواهر المختارة فيما وقعت عليه من النوازل بـجبال غمارة (مخطوط
بـالخزانة العامة بـالرباط ٦٦ >)

٣ — الصومعى ، عبد الرحمن (من رجال القرن العاشر الهجرى) :

التشوف الصغير (مخطوط بـالخزانة العامة بـالرباط برقم ١١٠٣ د)

٤ — الفاسى ، عبد الرحمن بن عبد القادر (١٦٨٥ م) :

تحفة الأكابر بمنـاقب الشيخ عبد القادر الفاسى (مخطوط بـالخزانة العامة
بـالرباط برقم ٢٣٣٠ ك)

٥ — الفاسى ، محمد المهدي (١٦٩٨ م) :

تحفة أهل الصديقية بأسانيد الطائفة الجزولية الزروقية (مخطوط
بـالخزانة العامة بـالرباط برقم ٧٦ >)

٦ — القادري ، محمد بن الطيب (١٧٧٣ م) :

نشر المثانى الكبير - جزآن (مخطوط با :

١٢٣٤ ك)

٧ — اليوسى ، أبو على الحسن بن مسعود (٦٩٠

الفهرت) مخطوط بـالخزانة العامة بـالرباط .

٨ — إملاق ، عبد القاهر بن محمد بن أحمد بن ا-

الخير عن ظهور الفقيه العياشى بهذه البلاد ،

الجهاد (مخطوط بـالخزانة العامة بـالرباط برقم

ب — باللغات الأحنفية :

- 1—Antonio Baiao : Documentos de Corpo Chronologico relativos a Marracos (L'Acadime des Sciences de Lisbonne-1925)
- 2—Archives Notionales de La Torre do Tombo a Lisbonne (Archives Et Bibliothèques de Portugal)-Documents Arabes.
- 3—Archive General de Simancas-Estado-Logajo 478 et 479 (Archives Et Bibliothèques D'Espagne)
- 4—De Castries, Le comte ; Les Sources inédites de L'histoire du Maroc (Paris 1905 et suite)
Portugal : Tome 1 (Juillet 1516 - Avril 1516)
Tome 11 (Mai 1516-Dec. 1526).
Tome 11 - Seconde Partie (Janvier 1527 - Dec 1534)
Tome 111 (Janvier 1535 - Dec 1541)
Tome VI (Janvier 1542 - Dec 1551)
Tome V (1552 - 1580)

Espagne : Tome 1 (Melilea au XVI Siecle)
Tome 11 (1552 - 1560)
- 5—Documents inédits sur L'histoire de l'occupation Espagnole en Afrique 1506-1570 (Alger 1875)
- 6—Joao De Sousa : Documentos Arabicos (Lisbonne 1790).

مراجع باللغة العربية أو معربة :

- ١ — ابن الزيات ، يوسف التادلي (١٦٢٧ هـ) : التشوف إلى رجال التصوف (نشره ادواف فور - الرباط ١٩٥٨) .
- ٢ — ابن القاضي ، أبو العباس أحمد بن محمد السكناسي (١٦١٦ م) : جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس (المطبعة الحجرية بفاس د . ت) .
- ٣ — ابن عسكر ، محمد بن هلي السربني الشفشاوني (١٩٨٦ هـ) : دوحة الناصر لمن كان بالغرب من مشايخ القرون العاشر (المطبعة الحجرية بفاس د . ت)
- ٤ — الحجوي ، يحيى المهدي : حياة الوزان الفاسي وآثاره (الرباط ١٩٣٥) .
- ٥ — السكانوني ، أبو عبد الله محمد بن أحمد : أسفى وما إليه قديماً وحديثاً (١٣٥٣ هـ) .
- ٦ — الحجي ، أبو عبد الله محمد (١٧٠٠ م) : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر (مصر ١٢٨٤ هـ) .
- ٧ — الشرفى ، عبد القادر : بهجة الناظر في أخبار الداحلين تحت ولاية الأسبان كبنى عامر (الجزائر ١٩٢٤) .
- ٨ — المقرئ ، أحمد بن محمد التلمسانى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب — أربعة أجزاء (المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٠٢ هـ) .

- ٩ — اليوسى ، أبو على الحسن بن مسعود (١٦٩٠ م) : المحاضرات (المطبعة
الحجرية بقاس ١٣١٧ هـ) .
- ١٠ — اليفرنى ، محمد الصغير المراكشى (١٧٢٨) : نزهة الحادى بأخبار
ملوك القرن الحادى - جزآن (مطبعة أنجى ١٨٨٨) .
- ١١ — اليفرنى : صفوة من انقشر من علماء القرن الحادى عشر (المطبعة
الحجرية بقاس) .

مراجع أجنبية :

- 1—Coindrean, Roger : Les Corsaires de Salé (Paris 1946)
- De Carvalho, Vasco : La Domination Portugaise au Maroc-
1415-1769. (Lisbonne 1936).
- 3—De Marmol, Luiz : L'Afrique de Marmol (3 vols. Paris
1667).
- 4—De Sousa, Luiz : Les Portugais et l'Afrique du Nord: de
1521 à 1557 (Lisbonne 1940).
- 5—Ford, J.D.H : Letters of John III, King of Portugal 1521-
1557 (Cambridge 1931).
- 6—Friganier, M.: Historia de Santa Cruz. (D.N.)
- 7—Gois, Damiao de : Le Portugais au Maroc de 1495 à 1521
(Rabat 1937).
- 8—Golevin, J. : La Place de Mazagan sous la domination
Portugais (Larose 1917).
- 9—Johnston, H.B. : A History of the colonisation of Africa by
Alien Races (Cambridge 1913).

- 10—Julien, Charles, André : Histoire de l'Afrique du Nord de la conquête Arabe à 1830 (Paris 1952).
- 11—Recard, Robert : Etude Sur L'histoire des Portugais au Maroc (Paris 1955)
- 12—Ibid : Un document Portugais sur la place de Mazagan au début du XVII siècle (Paris 1932)

دوريات :

١ — باللغة العربية :

١ — شوقي الجمل : أضواء على حياة الحسن بن محمد الوران وإنتاجه الفكري والمؤثرات التي تأثر بها . (مجلة المناهل المغربية - العدد الثامن - مارس ١٩٧٥) .

٢ — شوقي الجمل : صفحات من تاريخ البرتغال الاستعماري في المغرب العربي - في ضوء وثائق الأرشيف البرتغالي (مجلة الدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة ١٩٧٥) .

٣ — عبد العزيز عبد الله : البحرية المغربية والقرصنة (مجلة تطوان ١٩٥٨ ، ١٩٥٩) .

ب — باللغات الأجنبية :

- 1—Recard, Robert : La cote Atlantique Du Maroc au debut du XVI siècle Dapres des Instructions Nautiques Portugaises (Hesperis Tome VII - 1927).

2—Recard, Robert : Le Maroc septentrional au XV siècle d'après les chroniques Portugaises (Hesperis XXIII-1936 pp. 89-143).

3—Recard, Robert: Les Portugais et l'Afrique du Nord sous le regne de Jean III (1521-1557) ; d'après la chronique de Francisco d'Andrede (Hesperis XXIV-1937) pp. 259-345.

ثالثاً - للعرب العربي في العصر الحديث.

(بوجه عام)

وثائق .

1—Documents diplomatiques Français relatifs aux origines de la guerre de 1914 (1871-1914).

2—British Documents of the Origin of the War II (London 1927-1928).

مراجع باللغة العربية :

١ — جلال يحيى : العرب الكبير (الجزء الثالث - العصور الحديثة) ١٩٦٦.

٢ — صلاح المقاد : المغرب العربي (د . ت) .

٣ — كلود ، هنرى - بريتان اندريه - لا كست ايف : الاستعمار الفرنسى

في المغرب العربي ترجمة محمد عناني (د . ت) .

المراجع الأجنبية :

1—Barbour, N. : A Survey of North West Africa (London 1958)

2—Charles-Roux : France et Afrique du Nord avant 1830.

- 3—Cook, George : Conquest and Colonization of North Africa (London 1860)
- 4—Hanotaux, G.: Histoire des Colonies Francaises (vols. 2 et 3—Paris 1930)
- 5—Julien, Ch. André : Histoire de l'Afrique du Nord (Tunisie-Algerie-Maroc - Paris 1931)
- 6—Julien, Ch. André : L'Afrique du Nord en Marche (Paris 1952).
- 7—Piquet, V. : Les civilisations de l'Afrique du Nord (Paris 1917).
- 8—Roberts, St. John : History of the French Colonial Policy 1871-1925 (2 Vols.-London 1929).
- 6—Torneau, Roger : Evolution politique de l'Afrique du Nord Musulmane 1920-1961 (Paris 1962).
- 10—Yver, G.: L'Afrique du Nord Francaise dans l'Histoire (Paris 1937)

رابعاً — الجزائر

وثائق ومخطوطات :

١ — عربية :

- ١ — ابن إسماعيل ، أحمد بن إسماعيل بن صالح باي : ذكر طرف بسير يتعلق بأيام صالح باي الأزميزلي (نقله صالح باي وظيفة باي ١١٨٥ هـ - ١٧٧١ م - مخطوط بدار الوثائق بالرباط) .
- (٣٢٢ - الغرب)

٢ — ابن العطار ، أحمد بن المبارك بن العطار القسنطيني : تاريخ بلاد قسنطينة (مخطوط بدار الوثائق بالرباط ١٢٨٩ هـ - ١٨٧٠ م) .

٣ — ابن العنترى محمد الصالح بن العنترى : الأخبار الميمنة لإستيلاء الترك على قسنطينة (دار الوثائق بالرباط - ١٢٦٢ هـ ١٨٤٦ م) .
ملاحظة : المخطوطات الثلاثة في دار الوثائق الرباط في مجلد واحد (مجموعة) .

٤ — ابن وشاح الكاتب : ورتبة المعسكر المجيدى الثالث (نسخة خطية من نظام جيش عبد القادر الجزائري — وثائق الرباط رقم ١٥٤٢ / د) .

ب — أجنبية :

- 1—Bourgin, G. : Les documents de L'Algérie conservés aux archives Nationales Paris (Revue-Africaine 1906).
- 2—Bugeaud, Le marechal : Le traite de la Tafna Discours prononce a la Chambre des deputés (1838).
- 3—Clauzel, Le maréchal : Correspondance du maréchal Clauzel (Publié par G. Esquer) 2 vols. (1949-1950).
- Documents Relatifs au traite de la Tafna 1٨37, par Georges Yver (Alger-1924) .
- 5—Livres Jaunes-Affaires d'Alger.
- 6—Orleans, Ferdinand Philippe duc d' : Campagnes de l'armée d'Afrique (1835-1839), Publiées par ses fils (Levy 1870)
- 7—Plantet, E. : Correspondance des Deys d'Alger avec la cour de France 1577-1830 (2 vols. (-Paris 1889)

8—Valeé, marechal : Correspondance du marechal Valee Publiee par G. Yver(5 vols. 1837-1841).

9—Vver, G. : Documents relatifs au traité de la Tafna 1837 (Alger 1924).

مراجع باللغة العربية أو معربة :

- ١ — ابن عبد الحكم : فتوح أفريقيا (الجزائر ١٩٤٢) .
- ٢ — ابن عـنـنـارى : البيان للغرب (ليدن ١٨٨١ م) .
- ٣ — أبو القاسم الحفناوى : تعريف الخلف برجال السلف (الجزائر ١٩٠٩) .
- ٤ — أبو القاسم الحفناوى : قرطاحة فى أربعة عصور (تونس ١٩٢٠) .
- ٥ — إحسان حقى : الجزائر العربية (١٩٦١) .
- ٦ — أحمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر (الجزائر ١٣٥٠ هـ) .
- ٧ — أحمد توفيق المدنى : محمد عثمان باشا (الجزائر ١٣٥٦ هـ) .
- ٨ — أحمد عزت عبد الكريم : المسألة الجزائرية فى السياسة الدولية فى سنة ١٨٣٠ (القاهرة ١٩٦٠) .
- ٩ — الجيلالى ، عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام ١٠ (الجزائر ١٩٥٣) .
- ١٠ — الجيلالى ، عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام ٢ (الجزائر ١٩٥٥) .

- ١١ — الإدريس ، الشريف : زهرة المشتاق في اختراق الآفاق (ليدن ١٨٦٤).
- ١٢ — صلاح العقاد : الجزائر المعاصرة (١٩٦٤) .
- ١٣ — عبد القادر نور الدين (ناشر) : غزوات عروج (القاهرة ١٩٣٤) .
- ١٤ — عبد القادر نور الدين : صفحات من تاريخ مدن الجزائر (قسنطينة ١٩٦٥)
- ١٥ — عثمان الكعاك : موجز التاريخ العام للجزائر (تونس ١٩٤٤) .
- ١٦ — محمد ابن الأمير عبد القادر : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر (جزاءن — الاسكندرية ١٩٠٣)
- ١٧ — محمد الزركشي : تاريخ الدولتين (تونس ١٩٢٨٦) .
- ١٨ — محمد بيرم الخامس : صفوة الاعتبار (مھر ١٣٠٢ هـ) .
- ١٩ — محمد مبارك الببلي : تاريخ الجزائر (قسنطينة ١٣٥٠ هـ) .
- ٢٠ — يحيى جلال : السياسة الفرنسية في الجزائر (١٩٥٩) .

مراجع أجنبية :

- 1—Bernard, Auguste : L'Algerie (Paris 1936).
- 2—Blunt, Wilfred : Desert Hawk, Abd-El Kader and the French conquest of Algeria (London 1947).
- 3—Bugeaud, Le marechal : Memoire sur notre etablissement dans la province d'Oran par suite de la paix (1838).
- 4—Cat, E. : Histoire de l'Algerie (Paris 1929).
- 5—Clark : Algeria in Turmoil; A history of the rebellion (1959).
- 6—De Grammort, H. : Histoire d'Alger sous la domination Turque (1516-1938) (Paris 1887).
- 7—Demontes, V. : La colonisation militaire sous Bugeaud (Paris 191).
- 8 —Dehniee, Le baron : Precis historique et administratif de la campagne d'Afrique (1831).

- 9—Douin, Georges : Mohamed Ali et l'expédition d'Alger 1829-1830 (Caire 1930).
- 10—Emerit, Marcel : L'Algerie a l'epoque d'Abd El Kader (Larose 1951) .
- 11—Esquer, Gabriel : Les commencements d'un Empire. La Prise d'Alger (1830).
- 12—Esquer, Gabriel : Histoire d'Algerie (Paris 1950).
- 13—Fernel, commandant : Compagne d'Afrique en 1830 (1831).
- 14—France, Julien : L'Histoire de la colonisation de l'Algerie (Alger 1928).
- 15—Gatherot, Gustave : La conquête d'Alger (1830) d'apres les papiers inedits du marcechal de Bourmont (Paris 1929).
- 16—Gillespre, Joane : Algeria, Rebellion and revolution (London 1960)
- 17—Gsell, S. et Marcais, G. : Histoire d'Algerie (Paris 1929).
- 1—Hanotaux, G. : Histoire des colonies Francaises (vols. 2 et 3 Paris 1930) .
- 19—Julien , Ch. Andre : Histoire de l'Algerie Contemporaine, 1827-1871 (Paris 1964).
- 20—Lucas, Sir Charles : The partition and Colonisation of Africa (Oxford 1922).
- 21—Marchand, E.P. : L'Europe et la conquete d'Alger (Paris 1913).
- 22—Naguères, Henri : L'expédition d'Alger 1830 (Paris (1962)).

- 23—Nettement, Alfred : Histoire de la conquête d'Alger (écrite sur des documents inédits et authentiques, suivie du Tableau de la conquête de l'Algérie) (Paris 1856).
- 24—Passedat, Jean Louis : Le gouvernement du Marechal de Mac-Mahon en Algérie de 1864 à 1870 (Alger 1953)
- 25—Pichon, Baron : Alger sous la domination Française; son état présent et son avenir (1833)
- 26—Playfair, Sir R. Lambert : A Bibliography of Algeria from the expedition of Charles V in 1541 to 1887 (From Supplementary Papers of the Royal Geographical Society (Vol II Part 11) (1922)
- 27—Ricard, Mgr. Antonie : Le cardinal Lavignerie, primat d'Afrique, archevêque de Cothage et Alger 1825-1892 (1893)
- 28—Rimbault, P. : Alger 1830-1830 (Larose 1929)
- 29—Renin, I. : Le Royaume d'Alger sous le dernier dey (Alger 1900).
- 30—Rousset, Camille : La conquête d'Alger (1879)
- 31—Sarian, Paul Emile : La crise Algérienne (Paris 1919).
- 32—Swain, James Edgar : The struggle for the control of the Mediterranean prior to 1848 (A study in Anglo-French Relations) (Boston 1933).
- 33—Vaysettes, E. : Histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517 à 1837. (1869).
- 34—Walsin Esterhazy, M. : La Domination Turque dans l'ancienne Régence d'Alger (Paris (1840).
- 35—Yver, G : Abd El Kader et le Maroc en 1838 (1929).

دوريات :

أ - اللغة العربية :

شوقي الجمل : أضواء جديدة على تاريخ مدينة قسنطينة في ضوء ثلاث مخطوطات بدار الوثائق بالرباط (مجلة معهد البحوث والدراسات الأفريقية جامعة القاهرة - ١٩٧٤) .

ب - باللغات الأجنبية :

- 1—Ghaillé, Jacques : Au Lendemain de la bataille d'Isly (Hesperis 1948) pp. 381-402.
- 2 - Julien, Ch. Andre : L'avenir d'Alger et L'opposition des liberaux des economistes (Bull. Soc. Geog. Oran 1922).

خامساً - تونس

وثائق ومخطوطات :

أ - باللغة العربية :

- ١ - تونس والحماية الفرنسية ومنظمة الأمم (نشر مكتب الاستعلامات - اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري - القاهرة ١٩٥٢) .
- ٢ - وثائق تونسية - ثورة علي بن غدام ١٨٠١، ٢٠٢١ (تونس ١٩٦٧) .
- ٣ - وثائق تونسية - نشر مكتبة الدولة للأخبار والإرشاد (تونس ١٩٦٥) .

٤ - وثائق ودوريات - الحزب الاشتراكي الدستوري التونسي (تونس)
(١٩٧١) .

٥ - عبد الجليل التميمي : محوث ووثائق في التاريخ العربي (١٨١٦ - ١٨٧١)
(تونس ١٩٧٢) .

ب - باللغات الأجنبية :

- 1—Documents Diplomatiques Francaises (1871-1914).
Ministre des Affaires Etrangères (Paris 1928).
- 2—Livres Jaunes-Affaires de Tunisie (Paris 1881)
- 3—Correspondence Respecting the affairs of Tunis (Lonon 1881).
- 4—Histoire des Relations Tuniso-Francaises ; Ministre des
Affaires, Culturelles et d'information (Tunis 1972)

مراجع باللغة العربية :

- ١ - ابن أبي دينار ، أبو عبد الله محمد الرعيى : المؤنس فى أخبار أفريقيا
وتونس (تونس ١٣٥٠ هـ) .
- ٢ - أبو القاسم محمد كرو : حير الدين التوسى (تونس ١٩٧٣) .
- ٣ - أحمد ابن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد
الأمان (تونس ١٩٦٣ - ١٩٦٤ م) ٨ أجزاء .
- ٤ - أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث (القاهرة ١٩٤٨) .
- ٥ - أحمد بن عامر : تونس عبر التاريخ (تونس ١٩٦٠) .

- ٦ - إحسان حقي : تونس العربية (د . ت) .
- ٧ - التجاني ، أبو محمد عبد الله : رحله التجاني (تونس ١٩٥٨) .
- ٨ - الحبيب تامر : هذه تونس (القاهرة ١٩٤٨) .
- ٩ - الفاضل بن عاشور : الحركة الأوروبية والفكرية في تونس (١٩٥٦) .
- ١٠ - المنحى الشملي : خير الدين باشا (تونس ١٩٧٢) .
- ١١ - ب سلامة : ثورة على بن غدام ١٨٦٤ (تونس ١٩٦٧) .
- ١٢ - جانياج ، جان : ثورة ١٨٦٤ - ثورة على بن غدام .
(أصول الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية - الفصل الخامس)
(تونس ١٩٦٥) .
- ١٣ - جلال يحيى : المغرب الكبير > ٢ (القاهرة ١٩٦٦) .
- ١٤ - خير الدين التونسي : أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك (١٨٨٢) .
- ١٥ - شفيق غربال : تونس الخضراء (القاهرة ١٩٤٣) .
- ١٦ - صفوت ، محمد مصطفى : مؤتمر برلين ١٨٧٨ ، وأثره على البلاد العربية (القاهرة ١٩٥٧) .
- ١٧ - علاء الفاسي : الحركات الاستقلالية في المغرب العربي (القاهرة ١٩٥٤) .
- ١٨ - محمد بيرم التونسي : صفوة الاعتبار لمستودع الأبصار والأقطار
(القاهرة ١٨٩٠) .

١٩- محمد الصالح مزالي : الوراثة على العرش الحسيني ، ومدى إحترام نظامها
(تونس ١٩٦١)

٢٠- محمد المرزوقي : صراع مع الحماية (تونس ١٩٧٣) .

٢١- محمد محمود السروجي : العلاقات التونسية بين الحماية والإستقلال
(الاسكندرية ١٩٦٨) .

٢٢ - نيقولا زياده : تونس في عهد الحماية (القاهرة ١٩٦٣) .

٢٣ - يونس درمونة : تونس بين الحماية والإحتلال (د . ت) .

مراجع أجنبية :

- 1—Aguesses, L. : Souverainete et nationalité en Tunississie (1930)
- 2—Arnoulet, Francois : Considerations sur la politique internationale des beys de Tunis entre 1830 et 1880 (Paris 1955).
- 3—Broadley, A M.: The last punie War. Tunis past and present, with a narrative of the French conquest of the Regency(2 vols -London 1882).
- 4—Cambon, Henri, : Histoire de La Regence de Tunis (Paris 1948).
- 5—De Lanessan : La Tunisie (1917).
- 6—Depois, J. : La Tunisie 1930).

- 7—D'Estounnelles de contant : La Politique Francaise en Tunisie (1854-1891) (1891).
- 8—F-Laux, d. : La regence de Tunis au XIX siecle (Paris 1865).
- 9—Jara, Felix : Bourguiba et la naissance d'une nation (Paris 1956).
- 10 -Ling, Dwight : Tunisia from protectorate to Republic (1967).
- 11—Safawat, M.M. : Tunis and the Great Powers (Alex. 1943).
- 2—Ziadeh, Nicola : Origins of Tunisian Nationalism (Beirut 1969)

دوريات ومنشورات :

- ١ — الحبيب الجنباني : الحركة الإصلاحية في تونس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (حوليات الجامعة التونسية — العدد السادس ١٩٦٩).
- ٢ — تونس ، ٦٧ عاماً تحت الاحتلال (منشورات لجنة المغرب العربي) .
- ٣ — مأساة عرش : (منشورات الحزب الدستوري التونسي — القديم) .
- ٤ — شوقي الجبل : أضواء على رحلة التجاني .
(مجلة المناهل المغربية — العدد الخامس مارس ١٩٧٦) .

سادساً — المغرب الأقصى

وثائق ومخطوطات :

١ — عربية :

- ١ — ابن القاضي ، أبو العباس أحمد بن محمد المسكناسي :
درة الجهال في غرة أسماء الرجال (نسخة خطية - الخزانة البدر اوية بفاس) .
- ٢ — الحسن بن محمد الحسيبي المنوني : الزرع اللطيف في التلميح بمفاخر
مولاي إسماعيل بن الشريف (مخطوط رقم ٥٩٥ / ح . وثائق الرباط) .
- ٣ — الزياتي ، عبد العزيز بن الحسن المهدي : الجواهر المختارة فيما وقفت
عليه من النوازل بجمبال غمارة (مخطوط . وثائق بالرباط ٦٦ / ح) .
- ٤ — الزياتي ، أبو القاسم : البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف
(مخطوط . وثائق الرباط ١٥٧٧ / د) .
- ٥ — الشفشاوني ، الحوات أبو الربيع سليمان بن محمد العلمي :
البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية (مخطوط
. وثائق الرباط ٢٦١ / د) .
- ٦ — القادري ، عبد السلام بن عبد الله الخياط : التحفة القادرية في مناقب
عبد الله الشريف الوزاني ورجال الشاذلية عمرماً (جزآن — مخطوط
. وثائق الرباط ٢٣٢١ / ك) .

٧ - القادري ، محمد بن الطيب : نشر المثنى لأهل القرن الحادى عشر والثانى
(مخطوط بوثائق الرباط برقم ٢٢٥٣ / ك) .

٨ - إملاق ، عبد القادر محمد بن أحمد بن الحسن : الخبر عن ظهور الفقيه
العايش بهذه البلاد ، وذكر سبب قيامه بوطيفة الجهاد (مخطوط
بوثائق الرباط برقم ٩١ / د) .

ب - أجنبية :

- 1-De Castries : Les sources inedites de l'histoire du Maroc
1530-184-5(19 volumes Paris 1905-1924)
- 2-Documents Diplomatiques Francaises. Question de la
protection diplomatique et consulaire au Maroc,
- 3-Livres Jaunes-Affaires du Maroc(1901-1912)
- 4- British Museum-Public Record Office-State Papers: Foreign
Towns (Barbary States-Vols. 1, 2)

المراجع العربية والمعرّبة :

- ١ - ابن عسكر ، محمد بن على السريفي الشفشاونى : دوحة الناشر لحاسن
من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر . (المطبعة الحجرية يقاس - د.ت) .
- ٢ - ابن جلون ، عبد المجيد : هذه مراكش (القاهرة ١٩٤٩) .

- ٣ - ابن عبود ، محمد عبد السلام : مركز الأجانب في مراکش (د . ت)
- ٤ - أبو فارس ، عبد العزيز الفشتالى : منازل الصفا في مآثر موالينا الشرفا (تحقيق د . عبد الكريم كريم - مطبوعات وزارة الأوقاف بالرباط ١٩٧٤)
- ٥ - إحسان حتى : المغرب العربى (بيروت د . ت) .
- ٦ - العقاد ، صلاح : المغرب في بداية العصور الحديثة (القاهرة ١٩٦٣) .
- ٧ - العقاد ، صلاح : المغرب العربى (القاهرة ١٩٦٦) .
- ٨ - المحيى ، أبو عبد الله محمد : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر (مصر ١٢٨٤ هـ) .
- ٩ - المقرئ ، أحمد بن محمد القلمسانى : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب - ٤ أجزاء (المطبعة الأهرية ١٣٠٢ هـ) .
- ١٠ - الناصرى ، أحمد بن خالد السلاوى : الإستهقضاء لأخبار المغرب الأقصى ٩ أجزاء - (الدار البيضاء ١٩٥٤ - ١٩٥٦) .
- ١١ - البفرانى ، أبو عبد الله محمد الصغير : نزهة الحادى فى أخبار ملوك القرن الحادى - جزآن (طبعة أنجى ١٨٨٨)
- ١٢ - البفرانى : روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف (المطبعة الملكية بالرباط ١٩٦٢) .
- ١٣ - اليوسى ، أبو على الحسن بن مسعود : المحاضرات (المطبعة الحجرية بفاس ١٣١٧ هـ)

١٤ - ثابت ، كريم خليل : عبد الكريم والحرب الريفية (القاهرة ١٩٢٥)

١٥ - جورج ، كولان (ناشر) : تاريخ الدولة السعدية الدرعية التا كادرتية
(مؤلف مجهول - الرباط ١٩٣٤) .

١٦ - حجي ، محمد : الزاوية الدلائية ودورها الدينى والعلمى والسياسى
(الرباط ١٩٦٤) .

١٧ - روم ، لاندو : أزمة المغرب الأقصى (جزاءن) ترجمة إسماعيل على ،
وحسين الحوت - مراجعة د عبد العزيز الأهوانى (القاهرة ١٩٦١) .

١٨ - صبحى ، حسن : التنافس الاستعمارى الأوروبى فى المغرب (القاهرة
١٩٦٥) .

١٩ - صفوت ، محمد مصطفى : الاحتلال الإنجليزى لمصر ، وموقف الدول
الكبرى إزاءه (١٩٥٢) .

٢٠ - عبد الله كنون : ذكريات مشاهير رجال المغرب - ١ (ترجم فيه
لمبد العزيز الفشتالى) .

٢١ - عمر أبو النصر : بطل الريف - ١
(١٩٣٤) .

٢٢ - عودة ، عبد الملك : السياسة والحزب

٢٣ - علال القاسى : الحركات الاستقلالية

٢٤ - محمد خير فارس : المسألة المغربية بين

٢٥ - محمد شفيق غربال : تاريخ للتفاوضا

- ٢٦ - محمود كامل فريد : انتصار عبد الكريم الربيعي (القاهرة ١٩٢٥) .
- ٢٧ - محمود كامل فريد : حوادث الأمير عبد الكريم - الزعيم الربيعي المشهور بالغرب الأقصى (د . ت) .

مراجع أجنبية :

- 1—Anderson. F. : The First Moroccan Crisis (1904-1906) (Chicago 1903).
- 2—Autohny Sherely : Travels and adventures of Sir Anthony, Sir Robert and Sir Thomas Sherely (Hakluyt-Principal Navigations T. II and III).
- 3—Ashford, G. : Political change in Morocco (New Jersey 1961)
- 4—Ayach. A. Le Maroc (Paris 1956).
- 5—Barrat, Robert : Justice pour le Maroc (Paris 1953).
- 6—Barthou, L. : Lyautey et le Maroc.
- 7—Barnad, Augustin : Le Maroc (Paris 1921).
- 8—Bovill. E. W. : The golden trade of the Moors (Oxford 1961)
- 9—Cambon, Henri. : Histoire du Maroc (Paris 1952)
- 10—Catroux, General. : Lyautey Le Marocain (Paris 1952)
- 11—Cour, August : L'establissement des dynasties des Cherifs au Maroc et leur rivalite avec les Turques de la regence d'Alger (1509-1830) (Paris 1904).
- 12—Defontin, M. : Le grand Ismail, empereur du Maroc (1929).
- 13—El Hagoui, Omar : L'histoire diplomatique du Maroc (Paris 1937).

- 14—Gabrielle · Abd El Krim et les evènements du Rif (Casa-
blanca 1953).
- 15—Hardi, G. : Portrait de Lyautéy (Paris 1934).
- 16—Hardi, G. : Histoire des colonies Francaises et de l'expansion
de la France dans le monde (1941)
- 17—Harris, Walter Burton : Morocco that was (London 1921)
- 18—Harris, Walter Butron : France, Spain and the Rif (London
1927).
- 19—Landau Rom : The sultan of Marocco (London 1951)
- 20—Landau, Rom : The Moroccan drama (London 1956).
- 21—Laue, C.: La Victoire Franco-Espagnole dans Le Rif (1927)
- 22—Latreill, Capt: Albert : La campagne de 1844 en Maroc.
La Bataille d'Isly (1912).
- 23—Lazrak , Rachid : Le contentieux Territorial entre le Maroc
et l'Espagne (CasaBlanca 1974).
- 24—Levi-Provencal : Les historiens des Chorfa (Paris 1922)
- 25—Maurois, A. : Lyautéy (Paris 1935).
- 26—Miege, Jean Louis : Le Maroc et L'Europe 1830-1894 (Paris
1961)
- 27—Pere Dan : Histoire de Barbarie et se crossaires (1644)
- 28—Scot. S. : Memoire de S. Scot sur la commerce Marocaine
(1638)
- 29—Stanley, Lane Pool : The international city of Tangier
(California 1955).
- 30—Stuart, Graham Heury : The international city of Tangier
(California 1955)
- 31—Terrasse, H. : Histoire du Maroc (2 vols. Casablanca 1949)
- 32—Weil : Oeuvres militaires du Marechal Bugeaud dnc d'Isly
(1883) .

- 33—Wilkins, George ; Three miseries of Barbary, Plague
Femine, Civil wars (1604).
- 34—(Unknown) ; A true historicall discourse of Muley Hamets
rising to the three kingdomes of Morucos, Fes, and Sus
(Londres 1609).
-

سابعاً — ليبيا

مخطوطات ووثائق :

١ - الحشائشي ، محمد بن عثمان : جلاء الكرب عن طرابلس الغرب أو النفحات
المسكية في أخبار المملكة الطرابلسية .

(مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٥٧ تاريخ .)

٢ - السنوسي ، محمد بن علي : السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين
(مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٥٦٧ تاريخ)

٣ - السنوسي ، محمد بن علي : المنهل الرايق في أصول الطرائق (مخطوط بدار
الكتب المصرية — برقم ١٢٥ مصطلح حديث تاريخ)

مراجع عربية :

١ - أحمد الأنصاري : الأهل المذب في تاريخ طرابلس الغرب (نشر مكتبة
الفخراي : د . ت) .

٢ - أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث (القاهرة ١٩٤٨) .

- ٣ - أرسلان ، شكيب : حاضر العالم الإسلامى > (١٩٢٦) .
- ٤ - البارونى ، أبو القاسم : حياة سليمان باشا البارونى (القاهرة ١٩٤٨) .
- ٥ - الحداد ، محمد على : حاضر طرابلس الغرب (بغداد ١٩٣٧) .
- ٦ - الزاوى ، الظاهر أحمد : جهاد الأبطال فى طرابلس الغرب (القاهرة ١٩٥٠) .
- ٧ - السنوسى ، محمد بن على : إيقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن (الجزء ١٣٣٨ هـ) .
- ٨ - السنوسى : المسائل العشر - المسمى بمنية المقاصد ، وخلاصة المراسد (القاهرة ١٩٢٦) .
- ٩ - السنوسى : الدرر السنية فى أخبار السلسلة الإدريسية (القاهرة ١٩٤٣) .
- ١٠ - السنوسى : المسلسلات العشرة فى الأحاديث النبوية (القاهرة ١٣٥٧ هـ) .
- ١١ - السنوسى : مقدمة موطأ الإمام مالك (القاهرة ١٣٨٥ هـ) .
- ١٢ - الشريف ، أحمد : الدرر الفردية فى بيان مبنى الطريقة السنوسية المحمدية ومنشأ مشايخها وأسانيدها العلمية المتصلة بمنبع الخير والجلود ، محمد صلم (المطبعة الحجازية - د . ت) .
- ١٣ - الشنيطى ، محمود : قضية ليبيا (القاهرة ١٩٥١) .

- ١٤ - العيساوى ، محمد الأخضر : رفع الستار عما جاء فى كتاب عمر المختار (القاهرة ١٩٣٦) .
- ١٥ - الأشهب ، محمد الطيب بن إدريس : برقة العربية — أمس واليوم (القاهرة ١٩٤٧) .
- ١٦ - الأشهب ، محمد الطيب بن إدريس : السنوسى الكبير (١٩٥٦) .
- ١٧ - يعمر ، مصطفى : المجل فى تاريخ ليبيا (الإسكندرية ١٩٤٧) .
- ١٨ - حكيم ، سامى : حقيقة ليبيا (القاهرة ١٩٦٨) .
- ١٩ - خدورى ، مجيد : ليبيا الحديثة (ترجمة نيقولا زياده — بيروت ١٩٦٦)
- ٢٠ - رشدى ، راسم : طرابلس الغرب فى الماضى والحاضر (طرابلس ١٩٥٣)
- ٢١ - زياده ، نيقولا : برقة الدولة العربية الثامنة (بيروت ١٩٥٠) .
- ٢٢ - زياده ، نيقولا : ليبيا من الاستعمار الايطالى إلى الاستقلال (القاهرة ١٩٥٨) .
- ٢٣ - ستوارد ، لوثر : حاضر العالم الإسلامى (ترجمة عجاج نويهض — القاهرة ١٣٥٢ هـ)
- ٢٤ - شكرى ، محمد فؤاد : السنوسية دين ودولة (القاهرة ١٩٤٨) .
- ٢٥ - شكرى ، محمد فؤاد : ميلاد دولة ليبيا الحديثة — وثائق تحريره — واستقلالها (القاهرة د . ت) .
- ٢٦ - شلبى ، محمود : عمر المختار ضحية الاستعمار الوحشى (القاهرة ١٩٥٨)

٢٧ - كاكيا ، أنتوني جوزيف : ليبيا في العهد العثماني
(تعريب حسن العسلى — طرابلس ١٩٦٠)

٢٨ - محمود ، حسن سليمان : ليبيا بين الماضى والحاضر (القاهرة ١٩٦٢) .
وأخبار الجزائر جزءان (الاسكندرية ١٩٠٣) .

المراجع الأجنبية :

- 1—Abott G.F. : The Holy war in Tripoli (London 1912).
- 2—Adams. C.C. : The Sanusiya order (N.D.)
- 3—Askew, W.C. : Europe and Italy's acquisition of Libya 1911-1912 (Durham 1942)
- 4—Barclay, Thomas : The furco Italian war and its problems (London 1912).
- 5—Bennet, Ernest : With the Turks in Tripoli (London 1912).
- 6—Cum Eing, D.C. : The modern History of Cyrenaica (N.D.)
- 7—Duveyrier, H. : Le Confrerie Musulmane de Sedi Mohammed ben Ali es Senousi et Son Domaine Geographique (Paris 18٥6).
- 8—Fabes, Rosita : The Secret of the Sahara Kufara (London 1921).
- 9—Hollis, Christopher : Italy in Affrica (London 1941).

- 10—Holt, P.M. : The Mahdist State in the Sudan 1881-1898 (Oxford 1958)
 - 11—Macartney Maxwell and Cremona Paul : Italy in North Africa (London 1913).
—Massey, W.T. : The desert campaigns (London 1918).
 - 13—Murabet, Mohamed : Brief History of Tripolitania (Tripoli 1935)
 - 14—Pritchard, Evans : The Sanusi of Cyrenaica (Oxford 1941)
 - 15—Rinn, Louis : Marabouts et Kouan (Alger 1884).
 - 16—Safwat, M. : Tunis and The Great Powers (1943)
 - 17—Schanzer, Carlo : Italian Colonial Policy in North Africa (1924).
 - 18—Sfarza, Carle Contemporary Italy (Translated by Drake and Denise de Kay) London 1946).
 - 19—Villard, Henry Srrano : Libya, the New Arab Kingdom of North Africa (U.S.A. 1956).
 - 20—Vischer, Hans : Across the Sahara from Tripoli to Bornu (London 1910).
-

(كشاف)
فهارس أبجدية للأعلام الواردة في الكتاب

أبو زكريا يحيى الوطاسي : ٤٧٠ ، ٤٥
 أبو عبد الله القائم بأمر الله : ٦١ ، ٢٢
 ١٦٨
 أبو عبد الله المتوكل (حاكم مغربي) : ١٧٤
 أبو عبد الله المحتسب الصفاني الشيعي :
 ١٥ ، ١٦
 أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا : ٢٨
 أبو عبد الله محمد الشيخ (البرتغالي) :
 ١٧١ ، ١٧٠ ، ١٦٩ ، ٦٨ ، ٦٣ ، ٣٢
 ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٩١
 أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي (فقيه) :
 ١٧١
 أبو عبد الله محمد بركة (قائد مغربي) : ١٨٥
 أبو عبد الله محمد الحاج الآلاني : ٢١٢ ، ٢١٠
 أبو عبد الله محمد بن سعيد السلاوي (عامل
 سلا) : ٢٤٣
 أبو عبد الله محمد عبد الكريم : ٢٤٣
 أبو عتات : ٣١
 أبو سعيد عثمان المريني : ٣٤ ، ٤٤ ، ٤٥
 أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص : ٢٧
 أبو مروان عبد الملك (حاكم في المغرب) :
 ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠
 ١٨٤ ، ٢٠٣
 أبو مسلم الخراساني : ١٦
 أحمد باشا (الباي) : ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩
 ٣٠٠ ،

أبراهيم بن الأغلط : ١٢
 ابن أبي الضياف (الوزير الشيخ) : ٢٩٠
 أبو أحمد بن موسى (الحاجب) : ٣١٥
 ابن تومرت (محمد بن تومرت) : ٢٦
 أبو الحسن السعيد (المعتصم) : ٣٣
 أبو الحسن علي بن عثمان المنصور بالله .
 ٣٠ ، ٣١
 أبو ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف : ٣٠
 أبو حمص عمر بن يحيى الهنتاني : ٢٦
 أبو زكريا يحيى الحفصي : ٢٦ ، ٢٧
 أبو العباس الأعرج السعدي : ٦٨ ، ١٦٩
 أبو العباس أحمد بن الخداد العمري
 (قائد مغربي) : ١٨٥
 أبو العباس أحمد عبد الله السجلناسي
 المشهور بأبي محلي (صاحب حركة
 صوفية في المغرب) : ١٩٩
 أبو العباس الثاني الحفصي : ١٠٧ ، ١٨٧
 أبو العباس أحمد بن محرز : ٢١٤ ، ٢١٩
 أبو العباس أحمد بن حدود (مغربي) :
 ٢١٨ ، ٢١٩
 أبو الحسن علي بن عبد الله الريني (قائد
 مغربي) : ٢١٨
 أبو بكر الشباني (حاكم مراکش) : ٢١٢
 أبو حسن علي بن محمد الشيخ : ٨٢
 أبو حسون الوطاسي : ٧٠ ، ٩٩
 أبو حمو الثاني (السلطان الزياني) : ٣٣ ، ٣٤

أحمد الشريف (زعيم ليبي) : ١٥٠ ، ١٥١ ،
 ١٦١ ، ١٦٣ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ،
 أحمد بن عبد الله الدلائلي : ٢١٥ ،
 أحمد القره مانلي (حاكم ليبي) : ١٣٣ ،
 ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،
 أحمد المنصور الذهبي (سلطان مغربي من
 الأسرة السعدية) : ١٠١ ، ١٧٧ ،
 ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ،
 ١٩٥ ، ٢١٧ ،
 أحمد راسم (والي طرابلس) : ٣٧٢ ،
 الشيخ أحمد علي : ٣١٥ ،
 الشيخ أحمد بن القاضي عبد الله بن أمي
 مجلي : ٨١ ،
 أحمد ناصر : ٦٥ ،
 إدريس عبد الكريم الخطابي : ٣٥٤ ،
 أدهم باشا الحلبي : ٣٧٦ ،
 أجدير : ٣٤٩ ، ٣٥٦ ،
 ألرجه (إتفاقية) : ٣٨٤ ،
 أرجونه (دولة) : ٧٧ ،
 اردنيل (قائد اسباني) : ٢٤٢ ،
 أسقي (ثغر بالمغرب) : ٨ ، ٥١ ، ٥٢ ،
 ٥٣ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ،
 ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ١٦٨ ، ٢٢٢ ،
 ٣٢٤ ،
 أسلي (معركة) : ٢٤١ ، ٢٤٢ ،
 أشيلية : ٢٢ ، ٢٤ ،

أصيللا (ثغر بالمغرب الأقصى) : ٦٥ ، ٦٩ ،
 ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ١٦٩ ، ٢١٩ ،
 الأباضية : ١١ ،
 الإدارة : ١٣ ،
 الأسبان : ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٧٠ ،
 ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ،
 ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
 ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،
 ١٢٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٣٢٤ ، ٣٤٤ ،
 ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ،
 الاستيطارية (فرسان) : ٨٩ ،
 الأغالية (دولة) : ١٢ ،
 الباروني : ٣٨٧ ،
 البوهاما (جزر سان سلفادور) : ٧٧ ،
 الاندلس : ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٤ ، ٤١ ،
 ٧٩ ، ٩٠ ، ٩٦ ،
 الحرب الوطني المغربي : ٣٥٨ ،
 الحسن بن أبي عبد الله الحفصي : ٨٦ ،
 الحفص محمد بن الحسن : ٩٦ ،
 الجغبوب (واحة) : ٣٨٢ ،
 الرباط (عاصمة المغرب الأقصى) : ١٨ ،
 ٢٤ ، ٣١ ، ٧٩ ، ١٥٠ ، ٢٤٤ ، ٣٢٤ ،
 ٣٢٧ ، ٣٤١ ،
 المستنصر (الخليفة الفاطمي) : ١٨ ، ٢٨ ،
 الرشيد بن الشريف : ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ،
 أزموور (ثغر بالمغرب) : ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٩ ،
 ٧٣ ، ٧٥ ، ١٦٩ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ — ٢٠٢ ،

إسمان (صلح) : ١٤٠
 إميافي (كولونيل) : ٣٨٠
 إيزابلا (ملكة) : ٧٨ ، ٧٧
 إيطاليا : ١٢ ، ٤٤
 إيكودي تريبولي (ستلا) جريدتان : ٣٧٢
 (ب)
 باريس : ٢٤٤ ، ٢٣٨
 بادوليو (حاكم إيطالي) : ٣٩٠
 باديس (نجر) : ١٨ ، ٧٨ ، ٨١
 بابن غانية (المراتبي) : ٢٢ ، ٢٧
 البربر : ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ٢٦ ، ٥٠ ، ٧٢
 ، ٧٣ ، ١٢٧ ، ١٢١ ، ٢١٠ ، ٢١١
 ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٣٤٠
 برقة (مدينة) : ١٢٩
 براشيانى (مديرك روما فى طرابلس) :
 ٣٧١
 البرتغال : ٢٢ ، ٣٢ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦
 ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥
 ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٩
 ، ٨٥ ، ٩٥ ، ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٩٨
 بشارك : ٣٠٤
 بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى : ١٧
 بنزوت : ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٧
 بنزى (تشارلس) : ٣٤٧
 بغداد : ١٦
 بكرى : ٢٥٥

إستانبول : ١٠٢
 إسكندر السادس (البابا) : ٤٨ ، ٧٧
 السويحلى : ٢٨٠ ، ٣٨٧
 الشريف أبو العباس الاعرج : ٦٥
 الغالب بالله (حاكم فى المغرب) : ١٧٤
 أفوال (معركة) : ٣٤٦ ، ٣٤٨
 الناصر محمد بن قلاوون : ٣٠
 ألفونس الثالث : ٢٢ ، ٢٣
 ألفونس الخامس (ملك البرتغال) : ٤٧
 ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٧٠ ، ٧٣
 ألفونس السادس (ملك قشتالة) : ٢٠
 ألفونس (ملك اسبانيا) : ٣٤٦
 القرة مالبية (أسره حاكم فى ليبيا) : ١٣٠
 ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٢
 الكوديت : ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠٠
 أكادير (سانتا كروز) : ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦
 ، ٦٤ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ١٦٩ ، ٢٢٤ ، ٢٢٤
 ، ٣٢٨ ، ٣٤٠
 المعز لدين الله الفاطمى (الخليفة) : ١٦ ، ١٧
 امريجو فسبوتشى (مستكشف) : ٦٤
 الإنكشارية : ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥
 ، ١٣١ ، ٢٦١
 إكس لا شابل (مؤتمر) : ٢٥٥
 الكسندر دى فال (نائب القنصل الفرنسى) :
 ٢٥٦ ،
 امبرتو (ملك إيطاليا) : ٣٠٥

وت

تاجوراه (مدينة بالمغرب) : ١٢٩ ، ١٣٠

١٣٣ ،

تاذا (مدينة بالمغرب الأقصى) : ٣٠

تشريش (مدينة) : ١٩

تافيلالت (مدينة بالمغرب الأقصى) : ١٩

تلسان (مدينة بالمغرب الأوسط) : ٨

١٩ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤

٧٩ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٧١

١٨٣ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٣٦ ، ٢٦٥

٢٦٧ ،

تطوان (مدينة بالمغرب) : ٢٤١ ، ٢٤٣

٢٢٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٢

تموده (مدينة قرب بسكرة) : ٨

تونس : ٢٢ ، ٢٦ — ٢٨ ، ٣٠ ، ٨٠

٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٨ ، ١٠٠

١٠٧ — ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢١ — ١٢٤

١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٣ ، ١٣٦ ، ١٤٨

١٧١ ، ١٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠

٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩

٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣١٢

٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣١

تينس (مدينة) : ١٩

تيروزي (قائد إيطالي) : ٢٨٩

بنجيو فاني (حاكم إيطالي في ليبيا) :

٣٨٦ ، ٣٨٨

بنو الاحمر (حكام الاندلس) : ٣٤

بنو حفص (الحفصيون) : ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤

٨٨ ، ٩٨ ، ١٠٨

بنو حاد : ٢٢

بنو زيان : ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٩٨

بنو عبد الواد : ٣٣ ، ٣٤

بنو مرين (المرينيون) : ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٤٤

بنو وطاس (الوطاسيون) : ٣١ ، ٥٢

٦١ ، ٨٢

بنو سيد (قبيلة) : ٣٤٧

بنو أمية : ٢٠ ، ٤١

بنو سليم (قبيلة) : ١٨

بنو هلال (قبيلة) : ١٨

بنو رزوال (قبيلة) : ٣٥٢

بوليناك (رئيس وزراء فرنسا) : ٢٥٧

٢٥٩ ،

بورمنت (قائد فرنسي) : ٢٦٠ ، ٢٦١

بوشناخ : ٢٥٥

بو مريم (اتفاقية) : ٢٨٦

بو موزاق (شقيق المقراني) : ٢٨٥

بيتان (الجنرال) : ٣٥٥

بيدرونا فارو (الجنرال) : ٣٤٧

مير نجر (جنرال) : ٣٤٦

جبال (مدينة) : ١٩
 جيان الثالث (الملك البرتغالي) : ٦٢ —
 ١٦٨٠٧٤٠٧٢ — ٦٧٠٦٥
 الجيلالي بن إدريس الزرهوني (وحارته) :
 ٣١٦
 جيرون (جنرال) : ٣٤٢
 (ح)
 حزب الإستقلال : ٣٥٩
 حسان بن العمان العسائي : ١٠٠٩
 حسن باشا : ٩٩ ، ١٠٠
 حسين بن علي (حسين باي الأكبر) :
 ١١١ ، ١١٠
 حسن بن قاسم (المولى) : ٢٠٩
 حسين بن محمد (المولى) : ٢٤٤ ، ٢٤٩
 حتمي باشا (رئيس الوزراء التركي) : ٣٧٣
 حماد بن بلسكين بن زيري الصنهاجي : ١٨ ، ١٧
 حموده باشا : ١١٢
 الحفصية : ٢٦
 حلق الوادي : ١٠٧ ، ١٠٨
 (خ)
 الخليفة (مندوب سلطان المغرب) : ٣٦
 ٢٣٨ ،
 خليل باشا (وال علي ليبيا) : ١٣٢ ، ١٣٣
 الخوارج : ١٠ ، ١١
 خير الدين بروسا : ٢٨ ، ٨٦ ، ٩٥ ، ٧٠
 — ٩٩ ، ١٧٣

ج
 جامع الاخضر : ٢١٥
 جامع القرويين : ١٣ ، ١٩
 جامع القيروان : ١٠ ، ١٣
 جامع الزيتونة : ١٠ ، ١٢ ، ٨٦ ، ٨٨
 ١١١ ، ٢٨٨
 جامع القصبة (في تونس) : ٢٧
 جبل طارق : ٤١ ، ٦٩
 جعفر باشا (وال علي ليبيا) : ١٣١ ، ١٣٢ ،
 جراز ياني (قائد إيطالي) : ٣٨٩ ، ٣٩١
 جراسيوزا (حصن) : ٥١
 الجزائر : ١٣ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٧ ، ٧٣ ، ٨٠
 ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٥
 ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٦
 ١٠٨ ، ١٢١ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٦٢
 ١٧١ ، ١٨٥ ، ٢١١ ، ٢١٩ ، ٢٣٥
 ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٧
 ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ — ٢٨٥ ، ٣١٣
 — ٣١٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣
 — ٢٥٦ ، ٣٣١
 الجزيرة (اتفاقية) : ٣٢٣ ، ٣٢٥
 الجزوليون (طريقة) : ٤٦
 جماعة المسيح : ٤٣
 جمال الدين الافغاني : ٢٠١
 جوان (الجنرال) : ٣٦
 جوهر الصقلي (جوهر الكاتب) : ١٦

زناته (قبائل) : ١٣ ، ٢٤٨

زيادة الله الثالث : ١٣

الويانية « دولة » : ٢٦ ، ٣٣

زويلة (إحدى المهديتين) : ١٦

زهير بن قيس البلوى : ٨

(س)

سالمجورى : ٣٧٠

سبته (نغر مغربي) : ٤٥ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٦٧

٧١ ، ٧٦ ، ١٧٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٣

٢٢٦ ، ٢٤٢ ، ٣٢٠ ، ٣٢٦ ، ٣٣٧

سجلجاسة : ٢٩ ، ٨١ ، ٢٠٩ — ٢١١

سبستيان « ملك البرتغال » : ٧٦ ، ١٦٨

١٧٨ ، ٢٠٥

سردانية « حدائق » : ١٧

سطيف (أكبر مراکز كتابه) : ١٧

السعدية « دولة » : ٢٢ ، ٦١ — ٦٣ ، ٦٥

٦٩ ، ٧٢ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٦٧ ، ١٦٦

١٨١ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٠

٢٠٢ ، ٢٠٧

سفاقس : ٨٧ ، ٣١٠ ، ٣١١

سفورزا « السكونت » : ٣٧٣

سليم الاول « السلطان العثماني » : ٩٨

١٠٧ ، ١٧٥

سلا : ٢٢ ، ٢٤ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٧٦ ، ٢٠١

٢٠٢ ، ٢١٠ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤

سليمان طاي (وال علي ليبيا) : ١٣١ ، ١٣٣

(د)

الدايات : ٩٧ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩

الدار البيضاء : ٢٤٤

دهيانيت ثابت (انظر الكاهنة)

دون انطونيو « مطالب بعرش البرتغال » :

١٨٣

ديجو دي جوتو : ٧٢

دوبريه « أميرال » : ٢٦٠

دي بوفار « قنصل فرنسا » : ٢٩٥

ديل كاسيه : ٣١٨

ديفال « قنصل فرنسا » : ٢٥٣

دي مارتينو « سفير إيطاليا » : ٣٧٣

(ر)

الروم : ٩

روما : ٢٨

روستان (سفير فرنسا) : ٣٠٥ ، ٣٠٧

٣٠٨

ريتشارد وود (الفصل الإنجليزي) : ١٢٠

١٢٢ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٣٠١

رينو (رئيس الوزراء) : ٣٣٩ ، ٣٣٢

ربودي أوروبا : ٢٤٥

ريسولي (أحمد بن محمد) : ٢٤١ ، ٢٤٣

٢٤٥ ، ٢٥١

(ز)

الزاب : ٨

الوعاطشه (قبائل غرب بسكرة) : ٢٨٣

صومعة حسان : ٢٤
 صومعة جيران : ٢٤
 (ض)
 الضبط د معركة : ٢٧٦
 (ط)
 طارق بن زياد : ١٠
 طرابلس الغرب : ٨ ، ٩ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٩
 ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٩ — ١٣١ ، ١٣٥
 ١٢٧ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦
 ٢٥٤ ، ٢٦٠
 طرغوت : ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١
 طليطلة : ٢٢
 طنجة د ميناء : ٨ ، ١٩
 ٥١ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٦٠
 ٢٠٤ ، ٢٢٠ ، ٢٣٢

العباسية (مدينة) : ١٢ ، ١٣
 عبد الحق أبو سعيد المريني : ٤٨
 عبد الحفيظ (السلطان) : ٢٣٦ ، ٢٣٠
 ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨
 عبد القادر الجزائري : ٢٣٦ — ٢٣٨
 ٢٦٤ ،

سليمان كاهية : ١١٢
 سليمان القانوني : ٢٨ ، ١٣٠ ، ١٧٢
 سنان باشا ، ٨٨ ، ١٠٨
 السنوسية : ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٥ — ١٥٧
 ١٦١ ، ١٦٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٥
 السوس د بلاد : ١٠ ، ١٩ ، ٢١ ، ٥٥
 ٦٨ ، ١٦٧ ، ١٦٩ — ١٧١ ، ١٩٠
 ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٢٨
 سوسة : ٨٧ : ٣١١
 سيرين أبي بكر اللمتوني (القائد) : ٢٠
 سيدى حميدو د شريف مغربي : ٣٥٧
 سيدى عقبه (واحة جنوب قسنطينة) : ٨
 سيدنى سميت (أميرال) : ٢٥٤ ، ٢٥٥
 سيدى وارياش : ٢٤٨
 سيلفستر د جنرال : ٣٤٣ ، ٣٤٦
 (ش)

شارل دانجو : ٢٨
 شعبان بك (حاكم على برقة وبنى غازي) :

١٣٤
 شارل العاشر : ٢٥٧ ، ٢٦٢
 الشرارة (قبائل) : ٣٤٠
 (ص)
 الصفرية : ١١
 صقلية : ١٢ ، ٤٤ ، ١٠٨ ، ٣٠٥
 صلاح الدين الإيوبي : ٢٣
 الصنهاجيون : ١٧

عزير المصرى : ٢٧٦
العلوية (دولة فى الغرب الأقصى) :

١٦٦ ، ٢٠٩

عما نوئيل الاول (ملك البرتغال) : ٥١

٥٢ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤

عما نوئيل (فكتور) : ٣٦٩

على بن ابى طالب : ١٥

على باشا برغل الجزيرى : ١٣٦

على الشريف : ٢٠٩ ، ٢١٠

على بن غدام : ٢٩٢ ، ٢٩٤

عمر المختار : ٣٩٠ — ٣٩١

غ

غابريلى (مبعوث فرنسى) : ٣٥٥

غدامس (مدينة فى ليبيا) : ١٤٧

غرناطة : ٢٦ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ١٠٠

غريان (مؤتمر) : ٢٨٧

غليوم (الإمبراطور) : ٣٢٢

(ف)

فاس ، مدينة بالمغرب الأقصى : ١٣ ، ١٤

١٦ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ١٦

٤٩ ، ٦٠ — ٦٢ ، ٨٢ ، ٩٩ ، ٧١

١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٨٢ ، ١٩٢ ، ١٠

٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٣

٢٣٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٧٤ ، ٢١

٣٢٧ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ — ٣٣٦ ، ٤٠

— ٣٤٤

عبد القادر العنانى : ٣٧٦

عبد القادر بن الشريف (شيخ الطريقة

القادرية) : ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠

٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١

٣١٣ ، ٣٤١

عبد الحميد بن يحيى (المرينى) : ٢٨

عبد القادر الجيلانى : ٤٦

عبد الحميد (السلطان العثمانى) : ٢٢٦ ، ٢٩٩

عبد العزيز (المولى) : ٢٤٩ ، ٣٢٦

عبد الجليل بن غيث بن سيف النصر

(قائد) : ٢٣٨

عبد الكريم الخطابى : ٣٤٤ — ٣٥٤

عبد الله بن سعد بن أبى السرح : ٧

عبد الله بن مسعود الوهايبى : ٢٣١

عبد الله بن ياسين : ١٨ ، ١٩

عبد الملك بن مروان (الأموى) : ٨

عبد الملك الجزائرى : ٣٤١

عبد المؤمن بن على : ٢١ ، ٢٢

عبد الله المهدي الشيعى : ١٣ ، ١٠٠٠

عثمان بن عفان ، الخليفة ، : ٢٧ ، ١١

العقاب (موقعة) : ٢٥

عقبه بن نافع الفهرى (صحابى وقائد

عربى) : ٧ ، ٨

عكا : ٢٣

عكرمة (معاهدة) : ٣٨٢

عروج (جيجل) : ٩٥ — ٩٧

القصر الكبير : ١٧٨
 قلعة بني حماد : ١٧
 القلقشندى : ٣١
 القيروان : ٧ — ١٠ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٧
 ٨٩ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ٣١٠ ، ٢١١
 ك
 كاترين دو براكانسى (شقيقة ملك البرتغال) :
 ٢١٨
 كاترين (الملكة) : ٧٦
 كافور الاخشيدى : ١٦
 كارلو شازر (وزير خارجية إيطاليا) :
 ٣٨٤
 كاليست الثالث (البابا) : ٤٨
 الكاهنة (داهية ثبت ثابت) : ٩
 كتامة (قبيلة) : ١٧
 كتلة العمل الوطنى المغربية : ٤٥٨
 كرومر (لورد) : ٣١٨
 كسيلا (زعيم البربر) : ٨
 كمال اقا تورك : ٣٧٦
 كمينون (مدير مدرسة باردو الحربية) :
 ٣١٨ ، ٢٩٤
 كناريا (جزر) : ٥٥ : ٧٨ ، ٢٤٥
 كوليتنه (كابتن) : ٢٥٨
 اكلوينيه (معركة) : ٣٧٦
 ل
 اللانجره (قبائل) : ٢٤٢
 لشبونة : ٧٢ ، ٧٤

ماسكوداجاما (المستكشف) : ٦٤ ، ٩١
 القاطميون (العبيدون) : ١٣ : ١٧
 فرانسكو دى كاسترو (حاكم برتغالى) : ٦٤
 فرانسيسكو كريسبي : ٣١٧ ، ٣٧٠
 فرنسكو (جنرال) : ٣٥٨
 فردنياند (الملك) : ٧٧ ، ٨٠٠ ، ٨٤
 فرناندو (شقيق ملك البرتغال) : ٤٥
 فونتي (حصن) : ٥٦
 الفويجات (معركة) : ٣٧٦
 فيليب الثاني : ١٠٧ ، ٢٥٥
 فيليب (الامير صاحب الفلاندرز) : ٧٨
 ٨٦ — ٨٩ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، ١٧٧
 ق
 القادرية (طريقة) : ٤٦
 قابس : ٣١٠
 قادمس : ٧٠ ، ١٧٨
 القاهرة ، ١٦
 قرصاوية (معركة) : ٣٨٠
 قرطاج : ٩ ، ٢٨ ، ٣٠٥
 قرطبة (بلدة بالاندلس) : ١٦ ، ٢٢ ، ٨٢
 القسطنطينية : ١٨ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ١٧٥
 قسنطينة : ١٤ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢٢ ، ١٠٣
 ١٠٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩ ، ٢٨٣
 قشتاله : ٣٤ ، ٥٠ ، ٧٧
 القصر الصغير (مدينة بالمغرب الأقصى) :
 ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤

محمد عبد الكريم الخطابي (الأمير) : ٣٤٤
 ٣٥٢ ، ٣٤٧ ، ٣٤٥ ،
 محمد باشا عرف التركي (وال علي ليا) :
 ١٣١
 محمد بن الأحر : ٢٩
 محمد بن تومرت : ٢١
 محمد بن سليمان الجولي : ٤٨ ، ٤٦
 محمد بن عبد الله المسلوخ ، من ملوك
 المغرب : ١٨
 محمد بن عبد الله (بو معزة) : ٢٨١
 محمد بن عبد الله (المول) : ٢٢٢
 محمد بن علي السنوسي (زعيم لبي) : ١٥٠
 — ١٥١ ، ٢١٠
 محمد بن عبد الرحمن (المول) : ٢٤٠ ، ٢٣٩
 ٢٤٤ ، ٢٤١
 محمد علي (باشا مصر) : ٢٥٩
 محمد باي الثاني : ٣٠٠
 محمد الشريف : ٢١٠
 محمود باي : ١١٣
 محمود نديم باشا (وزير في ليبيا) : ١٤٥
 مدريد (مؤتمر) : ١٨٨ ، ٢٤٥
 مراکش : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٥٢
 ١٧١ ، ١٧٠ ، ٦٣ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٥٨ ،
 ١٩٥ ، ١٩٢ ، ١٨٧ ، ١٧٥ ، ١٧٣ ،
 ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢١٢ ، ٢١٤
 ٣٤٠ ، ٣٢٦ ، ٣٢٥ ، ١٤١ ، ٢٢٢ ،
 ٣٤١ ،

اتونة (قبائل) : ١٨
 لويس (مقامر برتغال) : ٥٥
 لويس التاسع : ٢٨
 لويس فيليب : ٢٦٢
 ليون العاشر (البابا) : ٥٩
 ليوني (جنرال) : ٣٣٠ ، ٣٣٩ ، ٣٥٢
 ٣٥٥ ،
 ماسة (تغر مغربي) : ٥٦ — ٥٨
 ماديرا (جزر) : ٦٨
 مالي (دولة) : ٣١
 مالطة : ١٢ ، ٨٩ ، ١٠٠ ، ١٤٣
 مح وحو (الزعيم الزباني) : ٣٤١
 محمد الخامس : ٣٥٩ — ٣٦١
 ماتشيرو (سفير إيطاليا) : ٣٠٥
 مترینخ (زعيم التمس) : ٢٥٣
 محمد الشيخ السعدي : ٦٨
 محمد الشيخ بن أبي زكريا الوطاني : ٤٩
 محمد المهدي (زعيم لبي) : ١٥٠ ، ١٥١
 ١٥٨ ، ١٦٠
 محمد الصادق باي : ١١٨ ، ٢١١ ، ٢٩١
 ٣٠٨ ،
 محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف : ٢٧٠
 محمد المقراني : ٢٨٥
 محمد الناصر : ٢٥
 محمد باشا القرى مانلي (ابن أحمد باشا القره
 مانلي) : ١٣٥ ، ١٣٦

المنصور السعدى (أنظر أحد المنصور)
 المنصورة (مدينة) : ٣٠
 ملك بن داود (عميل برتغالي) : ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٥
 مواينى (جنرال) : ٣٢٨
 الموحدون : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٩
 ٣٣ ، ٤٦
 موسوليني : ٢٨٨
 موسى بن نصير : ١٠
 مولاي الحسن : ٣١٥
 مولاي زيان (الوطاسى) : ٥٨ ، ٥٩
 ، ميلة (مدينة قريبة من قسنطينة) : ١٧

ن

نابليون الثالث : ١١٨ : ٢٤٣
 نابليون بونابرت : ٢٧٨
 نوشان (مبشر) : ٣٢٥

هـ

هاريس (والتر) : ٣٤٣ ، ٣٥٦
 هرون الرشيد : ١٢
 همتانه (قبيلة) : ٢٦ ، ٥٠ ، ١٦٩
 هشام بن عبد الملك : ١٠
 الهند : ٧٣
 هنرى الملاح : ٤٢ — ٤٤
 هنرى (الكاردنيال) : ٧٦
 هواره (قبيلة) : ٢٧
 الهيثة (ابن الشيخ ماء العينين) : ٣٤٠

المرابطون (الملتصقون) : ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٤٦
 المرسى الكبير (ميناء) : ٨٠ ، ٨١ ، ٢٦٢
 المرينيون : ٢٦
 مرید بن وزناجى بن ماحدح : ٢٩
 مردخاى بن دران (الامير) : ٢٦٦
 معاوية بن أبى سفيان : ٧
 المعتصم بن الرشيد العباسى : ٢٢١
 مصطفى باشا : ١٣١
 مصطفى باى (قائد مغربي) : ١٨٩ ، ٢٨٧
 مضيق مسينا : ١٢
 مكناس : ١٢٢ ، ١٩٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٠
 ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢٣٣
 مليلة : ٧٩ ، ٨١ ، ٢١٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٨
 ٣٢٠ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤١
 ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٢
 المغرب : ١٩ ، ٣٣ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦
 ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٩٦
 ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢
 ١٨٠ ، ١٨٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٠
 ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧
 ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٩ — ٣٢١ ، ٣٢٨
 ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣
 مليانة (مدينة) : ١٧ ، ٧٩ ، ٩٦ ، ٢٧٦
 مفسى بن موسى : ٣١
 المنصور بن بلكين : ١٧

يحيى بن تعففت (عميل برتغالي) : ٥٢

٦٥ ، ٥٦ ، ٥٥ ،

يحيى بن عند العزيز : ٢٢

يزيد به معاوية (أموى) : ١٨

يزيد بن محمد (المولى) : ٢٢٨

يعقوب المنصور الموحدى : ٢٢

١٢٩ ،

يغمر لاسن بن زيان : ٢٩ ، ٣٣ ،

يوحنا (القديس) وفرسانه : ٨٥ ،

١٢٩ ، ١٣٠ ،

يوسف بن تاشفين : ١٨ — ٢٠

يوسف المنتصر : ٢٥

يوسف بن يعقوب : ٢٩

يوسف صاحب الطابع : ١١٢

يوسف القرية مانلى : ١٢٦٠ — ١٤١

يوسف (المولى) : ٣٢٢٠

يوليان (حاكم روما على طنجة) :

و

وادی المخازن (معركة ومدينة) : ١٠١

١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٧٨ ، ١٧٥ ، ٩٧٤ ،

وحدة (مؤتمر) : ٣٥٧٠

وليلي (بلدة من أعمال طنجة) : ١٣ ، ١٩٨

الوطاسيون (حكام في المغرب) : ١٦٩

١٧٠ ،

ورغلا (نهر) : ٢٥٢

وهران (مدينة) : ١٩ ، ٨٠ — ٨٣ ، ٨٨

٢٦٣ ، ٢٣٦ ، ١٠١ ، ٩٩ ، ٩٨ ، ٨٩ ،

٢٨٥ ، ٢٨٣ ، ٢٧٧ ، ٢٦٤ ،

ى

اليازورى (وزير المستنصر) : ١٨

يحيى باشا (وال على ليبيا) : ٩٧١ ، ١٣١

يحيى الرابع بن إدريس : ١٤

